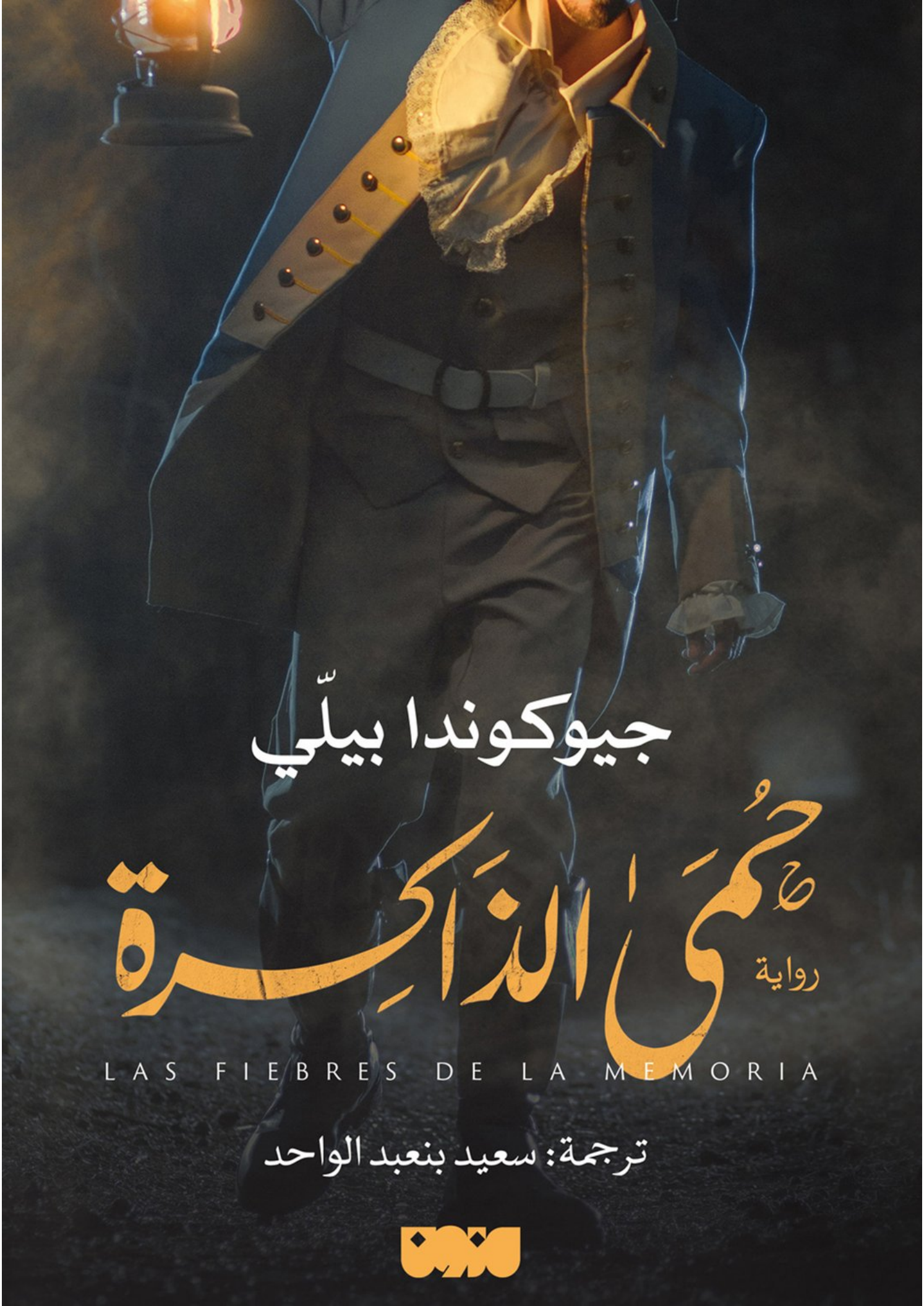

جيوكوندا بيلّي

حُمَّى الذَّاكِرَة

رواية

LAS FIEBRES DE LA MEMORIA

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

حُمّى الذاكرة

جيوكوندا بيلّي

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

الكتاب: حُمّى الذاكرة

المؤلف: جيوكوندا بيلّي

ترجمة: سعيد بنعبد الواحد

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: مارس (آذار) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 729 - 2

© Gioconda Belli
c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria
www.schavelzongraham.com

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من **مدارك**.

ترجمات مزون

Madarek Publishing House
دار مدارك للنشر

8470 طريق عثمان بن عفان، حي التعاون، الرياض، المملكة العربية السعودية
8470 Othman Bin Affan St, Al Taawun Dist, Riyadh, Saudi Arabia
Zip Code: 3844 - 12478 Riyadh, Saudi Arabia Tel: +966 114541148

mdrek.com | read@mdrek.com | DarMadarek

"مزون" ... خطوة إنتاج مواد مترجمة تقدمها مدارك بجهود الزملاء، ومظلة الناشر، الذي اختار أن يكون الدعم والجهد هدية لأمه، مزنة رحمها الله، حيث كانت تهطل كالسحابة، وتغيث كالمطر، وترتب العالم بشغف.

تركي الدخيل

٢٥/٩/٢٠١٨

إلى شارْل كاستالْدي، رفيقي، صديقي، وزوجي،

الذي يُثْري حياتي كل يوم بفضوله، بحبه للحياة،

بموهبته وحسّ دعابته.

إلى والدي، هومْبيرْطو وجدّتي غْراثْييلا.

تقديم

أي تعابير علتْ وجه أبي عندما أخبروه بالحقيقة؟ في سن الثامنة عشرة كان شاباً رياضياً ـ يلعب في صفوف فريق «الغرفين» لكرة السلة ـ بعينيه الضيقتيْن، وشاربه الدقيق وابتسامته العريضة الماكرة. أتخيلُه جالساً رفقة السيدة كارْلوطا ـ التي كان يظن أنها أمه الطبيعية ـ على الكرسي الهزاز المصنوع من نبات السّوْحر في الممر حيث اعتادت هذه أن تتخذ لنفسها مكاناً لتنسج. كانت كارْلوطا امرأة سمراء، ذات وجه مستطيل، عينين واسعتين، شعر أشهب تشده على الدوام في عقيصة قصيرة، ويدين طويلتيْن خاليتيْن من أي حلي سوى خاتم زواجها من أنْطونْيو بيلّي، ذلك الإيطالي الذي تركها أرملة منذ شبابها. أي كلمات قد تختارها كارْلوطا لتكشف لحفيدها أنها ليست سوى جدته وأن امرأة أخرى تدعى غْراثْييلا هي أمه الحقيقية؟ كيف لها أن تشرح له أن أحد أبنائها، بيدْرو، الذي كان يحسبُه شقيقهُ، هو والدُه في الحقيقة؟ ربما كانت تفضل أن يظل السرّ محفوظاً في ذلك البيت بمراته الواسعة هناك في شارع «تريونْفو دي ماناغْوا»، حيث كانت تعيش مع ابنتها إلينا، وغونْثالو، زوج ابنتها، الذي يمتهن المحاماة، وأبنائهما. لكن، حين بلغن سن الشيخوخة، فقدت الجارات المتواطئات تكتُّمهن وتحدثت إحداهن بما تعرفه مع ابن العم الشاب، صديق أبي. أما الباقي فيمكن التكهن به: بعد عودته من بعض تمارين كرة السلة في حديقة سان سيباستيان، التي لم يعد لها وجود كما لم يعد وجود لأي واحد من تلك المنازل الخاصة بالأشراف بعد أن تهدّمتْ دفعة واحدة أثناء الزلزال الذي ضرب ماناغْوا سنة ١٩٧٢، وعلم أبي عن طريق صديقه أن حقيقة أصله لم تكن كما يبدو.

ونظراً لشدة عزمها وقوة شخصيتها، لم تجد السيدة كارْلوطا بداً من أن تعترف له بالحقيقة. حدثته عن العلاقة الغرامية العابرة بين بيدْرو وغْراثْييلا، فتاة من «عائلة محترمة» من ماتاغالْبا. ولتجنب فضيحة الحمْل، قامت بعض العمات بإخفاء الطفل الذي وُلد. بعد ذلك، استدعين الأب الشاب وقررن أن يتحملن المسؤولية بتهريب الفتاة، كما جرت العادة في تلك الفترة. وسُجّل الطفل كأنه ابن جدّيه: أنْطونْيو وكارْلوطا. وكُتب على الجدة أن تقوم بدور الأم.

عندما اطّلعتُ على هذه القصة كاملة، أُعجبتُ بوالدي، الذي كان ابناً صالحاً جداً لوالده، رغم ما يكون قد شعر به من استغراب وهو يتقبل الأمر متأخراً كما هو في درجات سلم عواطفه. لكن، وقتئذ، كانت العائلات عبارة عن ممالك من دون ثورات. كانت قرارات الكبار قانوناً، والقانون يُنفذ بحذافيره.

وقد تسببت ظروف ميلاد والدي في حدوث خلط بين الجدات أثناء طفولتي. فبينما كان من الطبيعي أن يكون هناك جدّان من جهة الأب وجدّان من جهة الأم، كان لي ثلاث جدات من جهة الأب: كارْلوطا، الوحيدة التي كان والدي يناديها «ماما»؛ ميرْثيديثْ ألْفارو، الزوجة الشرعية لبيدْرو بيلّي، والجدة الغامضة غْراثْييلا من ماتاغالْبا.

كنا نزور هذه الأخيرة من حين لآخر. كان الذهاب إلى ماتاغالْبا، وهي مدينة صغيرة ضائعة وسط الضباب بين الجبال شمال البلاد، يعني القيام برحلة طويلة، لكنها رحلة تغمرنا بالفرح والحماس أنا وإخوتي. وبخلاف عائلة ماناغْوا، المتصنعة في وقارها والشحيحة في عواطفها، كانت غْراثْييلا ثابّاطا شْوازولْ دو بْرالان امرأة لطيفة وودودة. جميلةً، فارعة وحيوية، كانت تستقبلنا بوجبات غداء لذيذة من المأكولات الشهية المميزة لنيكاراغْوا اعتدنا تناولها في بيوتنا. وفي المدينة كانت شخصية معروفة؛ تحظى بالحب والاحترام. كانت قد تزوجت من عسكري سابق وكان كلاهما يملكان ويديران أكبر وأفخم فندق في تلك المدينة الصغيرة. كانت ماتاغالْبا تعج بحكايات عائلات ألمانية، ودنماركية، وإيطالية، وإنجليزية، وفرنسية جاءت في القرن التاسع عشر واستقرت بالمنطقة، بفضل ما كانت تمنحهم الحكومة من أراضٍ لاستغلالها. وفي تلك المنطقة ازدهرت زراعة البُنّ. جمع الناس ثروات كبيرة، وتزوج الأجانب بفتيات من عائلات مرموقة، وهناك برزت أساطير تتحدث عن ماضي أولئك المهاجرين الشُّقر، ذوي العيون الزرقاء، الفارعين، البيض، أصحاب الخصائص المتميزة، الذي جاؤوا من أوروبا وأعادوا ابتكار

أنفسهم في بلاد نيكاراغْوا الصاعدة.

كان جورْج شْوازولْ دو بْرالانْ هو جدُّ جدّتي غْراثْييلا. وقد بنيتُ هذه الراوية على أساس حكايته، وذكراه، وحكايات العائلة ووثائق تعود إلى تلك الفترة.

جْيوكونْدا بيلّي.

الفصل الأول

ما ذا يظنُّ حفّارو القبور؟ ماذا كان يظنُّون من حملوا نعْشي في تلك الليلة الرطبة والقائظة من ليالي شهر آب في مدينة باريس؟ قد يمشون بخطى متثاقلة حتى لا يتعثروا ولا ينزلقوا فوق الطحالب الرطبة التي تنمو فوق بعض بلاطات القبور. قد تعتقدُ أكتافُهم أنها تحمل ثقْل دوق شارْل لورْ هوغْ تيوبالْد شْوازولْ دو بْرالانْ، الذي تناول السُّم بعد أن قتل زوجتهُ. أظن أنهم قد يجدون متعة دفينة وهو يأخذون نبيلاً من النبلاء إلى ركن قصي من المقبرة، ويتركونه هناك دون اعتبار داخل رمْس حفروه للتو، ثم يدفنونه دفناً لا يليق سوى بمجرم، ليس لديه من أسرة تبكيه، ولا من أبناء يتساءلون إن كان ذلك الشر يسكن سلالتهم من قبل. وقد يشتغلُ حفّارو القبور بسرعة، وهم يتلهفون إلى الطّبيخ الذي ينتظرهم في البيت، يراكمون رفوشا من التراب فوق النعش، يسمعونها تسقط مثل صفعات على الخشب. وقد يثبّتُ واحد منهم بعد ذلك الخشب العمودي مع رقم ٥٧٠١ الذي نُقش عليه بخشونة. وقد يعتقدون أنه من العدل ألا أحظى أنا حتى بصليب بسيط من تلك الصلبان الخاصة بالمتسولين.

بعد ثلاث سنوات، سيكتشف جاكْ، حفّار القبور في فولوفيكونْت، الخدعة، والحجارة التي كانت داخل تابوتي. فهل سيفرح؟ كان يعرفني منذ الطفولة. كان في شبابه بستانيا، يعتني بشجيرات الورد التي كانت أمي تجلب منها الورود لتضعها في الأواني الصينية في قصرنا بمايْنس ما إن يبدأ فصل الربيع.

آه فولوفيكونْت! بعد موت والدي أصبحتُ أنا الوريث. أنفقتُ مالاً، ثروة كبيرة في ترميم ذلك القصر الرائع، ثروتي وثروة فاني، زوجتي المرحومة الآن. لم تعارض الأمر. أنجزنا ذلك المشروع معاً، دون شجارات. كانت تحلم وهي ترى نفسها سيدة تلك التحفة المعمارية وصاحبة ذلك البذخ البلاطي، وأنا أرى نفسي سيد أجمل حدائق فرنسا. كانت عائلتي تملك قصر فولوفيكونْت منذ سنة ١٧٦٤. كنا نسميه قصر فو-بْرالانْ. كان القصر في ملكية نيكولا فوكيه، وزير خزانة لويس الرابع عشر، الذي انتهى به الأمر في السجن بتهمة اختلاس الأموال. كان والدي يقول إن فوكيه كان ضحية الحسد، وخاصة ضحية جشع الملك الذي كره أن يملك شخص آخر غيره قصرا أكثر عظمة من قصره. فأمر بسجنه، نهبَ القصر وأرسل مُبْدعيه لوفو، لونوتْر ولوبْران، ليُصمّموا ويُشيّدوا قصر فرساي.

في فو-بْرالانْ، كان أبناؤنا ومربيّتُهم، هانْرييتْ دولوزي ديبورتْ، يستمتعون بجولات طويلة حول التصاميم الهندسية للحديقة، وصفوف أزهارالليْلك، وممرات أشجار الزيزفون، وشجيرات الورود المتسلقة. كان جاك، وقتئذ، هو رئيس البُسْتانيّين، وحين فقد فجأة زوجته، جعلته الوحدةُ والشيخوخة إنسانا متجهما وكالحا، مما أهله لشغل مهمة صيانة مدْفنة المقبرة العائلية.

أعتقدُ أنني لست مخطئاً وأنا أظن أنه هو من كلفه أخي إدْغارد بمهمة استرجاع رفاتي من القبر الداكن والمجهول الذي يليق بشخص منبوذ حيث كان يرقد وينقله إلى جانب فاني. أستطيع أن أتصور ذلك العجوز ذي الوجه الممتقع، ذلك الحفّار الضخم عند باب مكتب الدوق الجديد، لا يجد الكلمات ليكشف له عن لُقْيته الغريبة. وقد يتأمل جاك المخلص أخي خلف طاولة المكتب، يراه يرفع رأسه، يسأله بنظرته الهادئة، ينتظر فقط التأكيد، في النهاية، على أن الجثة تعود إلى العائلة لترقد قرب الزوجة في المدفن العائلي لآل بْرالانْ.

يوم موتي بالضبط، ٢٤ آب من سنة ١٨٤٧، تمت مراسيم جنازة زوجتي فاني، دوقة شْوازولْ بْرالانْ. وضعوا منصّة نعْشها في الصحن الأوسط من كنيسة مرْيم المجْدليّة. وحضر المراسيم ممثلو الملك والملكة، علاوة على وزيريْ الداخلية والعدل وثلة من أرقى طبقة النبلاء. تأسفتْ باريس بكاملها لما حدث، وتجمهر الحشد على الأرصفة، وبكت المدينة النهاية المأساوية للدوقة ثم انتظرت في ترقب أن تشير العدالة إلى الجاني.

عند باب مكتب أخي، قد يرغب حفّار القبور جاكْ في أن يشاطر أخي ما قمتُ به من خديعة، ويستنكر خيانتي. أي شخص آخر مكانه قد يتردد بين الكشف عن الحقيقة أو الاحتفاظ بكذبة اختفائي إلى الأبد، لكني سبق وذكرتُ إخلاص جاكْ للعائلة. قد يكشف عن لُقيته في جملة واحدة. وأمامه، قد يبدو أخي رابط الجأش، لكنه ربما يُلزمُ الخادم بميثاق صمت مقابل أجر كبير. كُنّا هو وأنا معا من نفس الذرية الصارمة، المتحفظة. ورثنا معا عن والدتنا انشغالاً بالشكليات، التي كانت دائماً تعتني بالحفاظ عليها في هوس شديد. أثناء طفولتنا عشنا في بيت تعيس، مجبرين على وضع أقنعة أطفال سعداء يتصرفون وفق قواعد اللياقة والأدب. كنّا عائلة تناهضُ الفضيحة. بالنسبة لإدْغارد، لا بد أن انتحاري الكاذب كان بمثابة ارتياح (قد أفكر بنفس الطريقة لو كنتُ مكانه). قد يوافقُ على أن موتي الكاذب كان هو الحل الأكثر لياقة لمواجهة سوء حظ مصيبتي. هكذا هي الأمور، لم يتبق له سوى أن يحافظ على المظاهر. أمر بنحْت لوحة قبري. وضَعَها قرب فاني. إنْ كانت هناك من حياة بعد الموت أظن أنها هي من ستشعر بأكبر إهانة لأنها ستجد نفسها مجبرة على أن ترقد بجوار نعش فارغ. أجرؤ على التفكير، مع ذلك، بأنه بالرغم من الخدعة قد يحلو لها أن تفكر في الخلود الزائف لحياتنا الزوجية، وفي الأجيال القادمة وهي تتساءل ما الذي قد يدور بين شبحيْنا من حديث.

الفصل الثاني

في اليوم الذي كان من المفترض أن أموت (كان الزّرْنيخ ينهشُ أحشائي بضراوة والألم يجعلني أفقد الوعي برفق، فأصبح الواقع وصور روحي أشياء لا يمكن رؤيتها) أخرجوني من الغرفة حيث أمرَ باسكييه بحجْزي في السجن الخاص بالنبلاء منذ الثورة، في قصر اللكسمبورغ، وقام بذلك رجلان، أخذني كل واحد منهما من ذراعي ورفعاني من السرير دون أن تلمس قدماي الأرض، ثم اقتاداني إلى الفناء حيث كانت عربة في انتظارنا. لا أدري بمَ كنتُ أهذي، لكن حاسة شمّي ظلت مختنقة برائحة دم فاني اللزجة والكثيفة. ولم تستطع لا روائح المناطق المدارية، ولا روائح الأرض المبللة أثناء فصول الشتاء في ماتاغالْبا أن تمحو تلك الرائحة. ظلت تصاحبني مثل عقوبة، كأن نظرة فاني المجنونة قد طبعتها في حواسي حتى لا أنساها أبداً، وأجبرتْني على رؤيتها كلما أغمضتُّ عينيّ؛ رؤية وجهها، جسدها المهشم كأنه منبع خبيث يسكبُ حُمرة آخر مساء من مساءاته على الأرض. لن أشغل بها بالي. أنسى، أنسى. هذا ما أرغب فيه. في فناء القصر، عصبوا عينيّ، شدوّا معصميّ وألقوا بي داخل العربة. فكان علي أن أضيف إلى الخراب الداخلي ما مسّني من رعب وفزع. كنتُ أريد أن أموت، لكن وفق شروطي الخاصة. كانت فكرةُ الموت على سقالة الإعدام تصيبُني بارتخاء في الساقين وتُحدث لي اضطراباً ذهنياً لا يطاق. ورغم ما خلفه الزّرْنيخ من أضرار، تذكرتُ الطبيب وهو يهمس في أذني أنه، بعد ستة أيام من العذاب، فإن السُّم لن يقتلني. هل أُخطرُ الملك بالأمر؟ حاولتُ أن أهدئ من روعي وأنا أركز على طرد الرائحة. استنشقتُ بعمق عرق الخيول ورائحة الأزبال في الشوارع الليلية. أتذكّرُ صوت حوافر الخيل عندما انطلقنا بسرعة كبيرة. كانت كل حركة تخترق أحشائي من الألم. شكوْتُ. انتحبتُ. سألتهم إن كانوا يقتادوني إلى سقالة الإعدام. لم يجيبوني. كنت لوحدي. جلس المُختطفان قرب الحوذي. فكَّرْتُ أن المصطبة والجلاد قد لا يكونان هما مصيري النهائي. فندٌّ من أنْداد من فرنسا لا يموت في المقصلة هكذا بلا رسميات. انسقتُ مع رائحة سجّاد العربة، رائحة أشياء ذابلة، رائحة وحَل وأوراق يابسة. كانت حُرقة في أحشائي تنهش قلبي ورئتيّ. ولم يعد غثيانُ النفس يُخرج غير المِرَّة، لكنه كان يخفف شيئاً من الطعنة التي أصابتني في القَصّ. طعنة. مسكينةٌ فاني. بيْد أن هذا الفصل من حياتي كان قد طُوي. لن أراها مرة أخرى. أبداً. وكان هذا شيئاً مريحاً. أحياناً يمكن أن تكون الحياة هي ثمن الحرية. كان شارع فوجيرار قد أصبح بعيداً عندما فقدتُ الوعي.

استرجعتُه وأنا داخل غرفة ذات جدران بلون أمْغر، فوق فراش وثير أكثر من اللازم لأنني أذكرُ إحساسي وأنا أغرق داخل ذلك السرير دون أن أستطيع أن أتحرك. كان ينحني عليّ رجلٌ ذو بشرة بلون الزيتون، له شاربان حالكان ولحية سوداء، حاجبان كثّان، عينان ضاربتان في السّواد وأنف ذو خطوط دقيقة. وإلى جانبه رأيتُ امرأة تمتد كأنها حرف ألف، لشدة نحافتها، تشد شعرها بعمامة. كانت ملامح وجهها تشبه كثيرا ملامح وجه الرجل فظننتُ أنها شقيقته. كانت تحمل في يديها صينية صفيحية.

ـ أنا إبراهيم ـ قال الرجل. ـ سوف أنقذ حياتك.

ـ لا تزعج نفسك ـ استطعتُ أن أقول له ـ هذا أمر لا يهمني.

ـ من دفع لي أجرا لأقوم بذلك له سلطة أكبر من سلطتك يا سيدي، لذلك عليك أن تتحمل الأمر، موسْيو جورْج.

ـ اسمي ليس هو جورْج. ناديني شارْل.

ـ جورْج. هكذا سيكون اسمك من الآن فصاعدا.

بعد ذلك، استلمني الرجُل وأختُه. لم تكن هناك أي مراعاة لما صدر عني من شكاوى أو احتجاج. جرّداني من ملابسي ولفّاني في ما يشبه كفنا شلَّ حركات ذراعيّ ومنعني من الخبط بيديّ. أخضعاني لحُقن شرَجيّة وأدوية مُقيّئة. فدخلتْ في

جسدي وخرجتْ منه سوائل خفيفة وكثيفة. غمراني في حمام ماء ساخن جدا حتى أنه سلق جلدي؛ وظلاّ يشعلان المجامر صباح مساء ويحرقان زيوتا في غرفتي التي لا تتوفر على نوافذ حتى بدأت الحرارة تجعل العرق يتصبب من جسدي. لم تنطق الأخت ببنت شفة قط. كانت تبتسم دون أن تنشرح وهي تستمع لتوسلاتي بوضع حد لكل أنواع العذاب المائي التي أخضعاني لها دون توقف ليل نهار لمدة ثلاثة أو أربعة أيام. كانت تطبخ فوق المجمر مواد لا لون لها ذات رائحة قوية تمزجها مع الشاي الذي تقدمه لي لأشربه دون توقف. وشيئا فشيئا، خفّ ألم الأمعاء، ولم تعد تفوح مني رائحة الشّرج والثوم، واستطعتُ أن أتناول أنواعا من الحساء والعصير المحضرة من الخضر والفلافل. نمتُ طويلا. وفي أحلامي، كانت تعاودني رائحة الدم. لم يعد بإمكاني سوى أن أطفو في سائل الدم الكثيف الذي يجري في أحلامي كالنهر، يشتبك مع خصلات شعر ورموش وجه فاني غير المتأثر أو الباكي. أستيقظُ وسط اضطراب كبير، لكن وأنا أستعيد قواي، كان مفهوم الحياة، والبقاء على قيدها، يترسخ في وعيي ويجبرني على تصور القادم من الأيام. فمَثُل أمامي الزمنُ الذي ابتغيتُ أن أتخلى عنه عندما حاولتُ الانتحار، بكل ساعاته ودقائقه المتوفرة. وفي الأخير، انتهت علاجات إبراهيم وأخته. وركّزا حرصهما الآن على إطعامي بأطباق من الحساء، والحبوب والمأكولات الخفيفة المحضرة بالرّز، حتى بدأ الجوع يظهرُ. ومع الجوع، جاء القلقُ بدوره. لماذا يقدمان لي الطعام؟ من كان يحميني؟ كنتُ أقرأ الجرائد. الأدلة تتهمني بقتل زوجتي. والفضيحة لا تهدأ. وكان يُقال في باريس إن موتي كان حيلة لتجنيب شخصية من رتبتي ونسبي محنة المحاكمة ومهانة الحُكم. شخصٌ تتوفر فيه كل المواصفات ليجسد كل ما كان يكرهه الشعب في الطبقة الأرستقراطية. وكانوا يتهمون الوكيل باسكييه، وزملائي في غرفة الأنْداد، والملك لويس فيليب. كانت قضيتي، كأنها مغناطيسُ الشر، تستقطب كل الغضب وتجذب كل الخيبات. كان واضحا تماما بالنسبة لي، أن من تدخل بشهامة لينقذني، لم يقم سوى بالحكم علي بموت أفظع. كان علي أن أعاني في حياتي من عواقب موتي الجسدي. لن يكون بإمكاني أبدا أن أقترب من أبنائي: إيزابيلْ، لُويزْ، بيرت، ماري، غاسْتون، ليبونْتين، هوراسْ و رايْناردْ؛ سوف تُسلّمُ ممتلكاتي لآخرين، وسيظل اسمي مختزلا في العار إلى الأبد. لو انكشف لغزُ دفْني، لا شك أنني سأدخل التاريخ بصفتي أكبر محتال عرفته فرنسا.

كان إبراهيم يبتسم في غموض عندما كنتُ يائسا في شكوكي أنهال عليه بوابل من الخطب اللاذعة وأنا أضايقه عندما يأتي ليطعمني، لأنه هو وأخته سجناني في تلك الغرفة المَغْراء من دون نوافذ حيث أنقذاني من الموت. بعد أن برز عقلي من حالة اضطراب وهذيان الأيام الأولى، اكتشفتُ غياب خاتمي المصنوع من الياقوت الأزرق مع شعار الدّوقية، بالإضافة إلى خاتم زواجي. سألتُ، وأردتُ أن أعرف إن كان أحد الأشقياء يشبهني قد عوّضني في الموت. ولم أقرأ إلا بعد عدة سنوات تقارير تشريحات وشهادات غامضة، بل وقصة لفكتور هوغو أيضاً، تثني على حالة جسدي الجيدة. لا أندهشُ لذلك بعد كل ما عشتُه. نملك نحن البشر طرقا غريبة في الرؤية أو عدم الرؤية وفق إرادتنا. وأظن أيضا أن الموت يحمي من النظرات. فعينا الإنسان الحي تنفران من النظر إلى وجه الموت، أيّا كان الميت.

كانت الأيام تمضي. كانت فاطمة تعطيني الأفيون فتصير أحلامي أحيانا أسفارا في الزمن، جولات طويلة، نقاشات مع المهندس المعماري فيسكونْتي حول إعادة بناء قصر فو-بْرالانْ، مسيرات طويلة عبر الصالونات، القُبّة بلوحاتها التي تتشكل حيث شخصيات أسطورية تجري في غابات كثيفة خلف حيوانات أيّل سرعان ما تصير آلهة عارية؛ ثم هانْرييتْ والأطفال، ريْناردْ، الصغير ذو الستة أعوام، يضحك أو يكسر منمنمات جنود يرتدون سترات عسكرية حمراء بدأت تدمي. وفي يوم من تلك الأيام، استيقظتُ على إحساس بأن الغرفة كانت مظلمة وتتأرجحُ. أغمضتُ عينيّ. نمتُ قليلا. استيقظتُ مرة أخرى. لم تظهر الغرفة المَغراء ثانية. وفي النهاية استيقظتُ. كان إبراهيم ينحني عليّ. موسْيو جورْج، موسْيو جورْج، كان يرجّني. انتبهتُ إلى أننا كنا في غرفة ضيقة، في العتمة، التي لم تعد نتيجة الأفيون. ومن الحركة ورائحة الأخشاب الرطبة استنتجتُ أنها عبّارة.

ـ نهر؟ بحر؟ ـ سألتُ.

ـ نهر ـ أجابني إبراهيم.

ـ من أين أقلعنا؟ ـ سألتُه.

كنا نسافرُ عبر نهر السين إلى لوهافر أجابني مرافقي. ومن هناك سنتابع رحلتنا نحو جزيرة وايْت. حاولتُ أن أقف على قدميّ، لكني لم أستطع. تخليتُ عن طرح مزيد من الأسئلة. كان ذهنُ إبراهيم يشتغل بنظام صارم وبطء يثير الحنق. ولم يكن وابل من الأسئلة يحصل سوى على أجوبة غامضة أو مشفّرة تتوزع على النهار كأنها جُمل في غير أوانها. وعلاوة على ذلك، كانت وجهتُنا، جزيرة وايْت، قد بددت شكوكي حول هوية المُنعم الغامض، الذي يقف وراء هروبي من قصر اللوكسمبورغ. لم يعد لديّ أدنى شك. يتعلق الأمر بالملك نفسه: لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ. كانت تربطه علاقة وطيدة بفيكتوريا، ملكة إنجلترا. قبل ثلاث سنوات فقط، قامت الملكة وزوجُها ألبيرت بأول زيارة دولة للتاج الإنجليزي إلى فرنسا منذ سنة ١٥٢٠. في سنة ١٨٤٤، ردّ لهما لويسْ فيليبْ الزيارة وزار الملكة. رافقتُه في تلك الرحلة. بعد أبهة المراسيم في لندن، قامت الملكة فيكتوريا والأمير ألبيرت بدعوة مجموعة من أعضاء وفدنا لقضاء بضعة أيام في جزيرة وايْت. من دون فاني، قضيتُ يومين رائعين في قصر نوريس. كان القصر يتكون من ثلاثة طوابق، ورغم صغره، فقد كان مريحا وجذابا، يتوفر على نوافذ كبيرة يمكن من خلالها الاستمتاع بمنظر مضْيق سولينْت الذي يفصل بريطانيا العظمى عن الجزيرة. جاء الأمير ألبيرت مرفوقا بالمهندس المعماري توماس كوبيت، رجلٌ متواضع رغم ما ناله من شهرة وما حققه من ثروة. رجل رومانسي. يرتدي أقمصة من النوع الذي يغطي الجانبين الأماميين من الجسم ولها أكمام ذات حوشي أمْقُتها شخصيا. عيناه الواسعتان السوداوان تمنحانه هيئة طفل يتيم. انطباع كاذب. كان كوبيت، وقتئذ، على وشك أن يبدأ تشييد قصر أوزبورن هاوس، الذي كانت ترغب فيه الملكةُ أيّما رغبة. لعلي أستطيع أن أرى كيف تتقدم الأشغال لأنني أشك أنها قد انتهت، فالملكة والأمير كانا ينويان تشييد قصر عظيم. كان يقضيان معا أوقاتاً طويلة رفقة كوبيت قبالة النوافذ الكبيرة، يتصوران كيف سيُحدّدان وجهة القصر الجديد ليتأملا الشاطئ والمياه الزرقاء العميقة لمضيق سولينت الذي كان الأمير ألبيرت يقارنه بخليج نابولي. يومئذ، مشيتُ طويلا على الشاطئ المليء بالحجارة البيضاء. فكرتُ في هانْريت، في وضعيتي كطريدة وقعت في فخاخ حب امرأتين تختلفان اختلافا هائلا الواحدة عن الأخرى، وهما، مع ذلك، مستعدتان معا للسيطرة عليّ سيطرة مطلقة. كانتا تشبهان أمي. أليس لهذا السبب حاولتُ كثيرا أن أرضيهما؟ يا لي من رجل أبله! ما كنتُ لأتصور النهاية المشؤومة لكل ذلك، ولا كيف سيدمرنا في نهاية الأمر.

في قصر اللوكسمبورغ، وبينما أنا أتخبّطُ بين الحياة والموت، قام الوكيل باسكييه بإجراء مواجهة بيني وبين هانْرييتْ. أبيتُ حتى أن أنظر إليها. أغمضتُ عينيّ بكل أوتيت من قوة. هي عرفت ما تقول وما تفعل. هكذا. لم تكن تفقد رزانتها أبدا. وفي سجن لاكونْسييرجوري لا بد أنها حافظت على هيئتها كالغزالة، واحتفظت ببريق عينيها الكستنائيتيْن الواسعتين، والعبق الملائكي لجلدها. ستغوي من يصادفونها وستخرج ناجحة. أعرف ذلك من دون أي شك. هناك أشخاص قلائل من طينتها، وأظن أنها تحتل رتبة عالية ضمن هذه الفئة الغريبة. آه، هانْرييتْ! آه أيتها المرأة المشؤومة!

استغرقت الرحلة عبر نهر السين نحو لوهافر عدة أيام. تركتُني أتهدهدُ على صوت الماء تحت بطن العبّارة، والهواء الذي يحرك الأشرعة، وأصوات المنبهات الخشنة، وصيحات طيور النورس. دفع إبراهيم أجراً إلى أفراد الطاقم الأربعة كي يطعمونا دون أي سؤال. في بعض الليالي، ساعدني كي أخرج من مخبئي لأشم الهواء وأتأمل النجوم والقمر. كنتُ أنظر إلى القبة الزرقاء، لكن، أكثر من عظمة السماء، ما كان يجذبني هو أن أراقبه هو. سلوكُه في الحماية كان سلوك شخص لم يعتد على حراسة الأشخاص فحسب بل على مراقبة ظلالهم. كان خفيف الحركة ويستبق الأحداث كما لو أنه يستطيع أن يتوقع تصرفات البحارة. من لكنته تكهنتُ أن أصله من البلاد المغاربية. ربما يكون أمازيغي الأصل، أو سليل أولئك المسلمين الذين انهزموا في

إسبانيا على يد إيسابيلا، ملكة قشتالة، وفرناندو، ملك أراغون. كان الفضول يعود تدريجيا إلى حالتي النفسية التي ظلت إلى حدود الساعة مستغرقة في هم البقاء على قيد الحياة، لكني كنتُ أقاوم الرغبة في تشجيع أي علاقة حميمية مع إبراهيم. كانت تلك الليالي فوق النهر مسترسلة يتخللها من حين لآخر مرور زوارق أخرى وأصوات ذات نبرة خفيضة لمن يرتاحون من سلطتهم وهو يشربون الخمر، وكنت أخشى أن تؤدي إلى تقليص المسافة بين وبين إبراهيم. لم أكن أرغب في أن أكتشف أن لديه هو أيضا أسئلة يطرحها علي. كانت عنايته مستمرة، بيد أنه كان يتعامل معي كما لو كنتُ حيّة سامة عليه أن يتعايش معها في فضاء ضيق داخل المركب. يتحاشى أن يلمسني، أن يحتكّ بي. كان يضع الأطباق أمامي فوق صندوق خشبي كبير نتخذ منه مائدة، لكن ما إن أقتربُ من الطعام حتى يبتعد كما لو أنه يخاف أن أنقضّ عليه بعضّة أو أن أدنسّه بيديّ.

كان شيئا متوقعا. من الآن فصاعدا، أي شخص يتمكن من معرفة من أكون سيخشاني. وفي الطريق نحو لوهافر بدأتُ أعي أن عليّ أن أبتكر لنفسي هوية مختلفة. كان إبراهيم يناديني موسْيو جورْج. ربما يكون من يحميني قد أمره ألاّ يذكر اسمي، ألاّ يشير إلي بالمعاملة المعتادة وألاّ يناديني «السيد الدوق».

بعد ثلاثة وأربعين سنة من حمل لقب النبالة منذ سنة ١٧٦٢ يوم مُنح إلى أول دوق من دوقات آل بْرالانْ من كونْتيّة شْوازولْ، كان تحَمُّلُ اسم مفترض بالنسبة لي أنا، شارْل تييوبالْدْ، ابن شارْل تييوبالْدْ وشارْلوتْ لوليمْبْ دو بْروتويْ، شكلا أسمى من أشكال الانتحار. كنتُ قد تخلصتُ من آلام الزّرْنيخ، أتنفس وقلبي، جهازي الهضمي ونظامي التنفسي يؤدون وظائفهم الروتينية بطواعية، لكن الكائن الذي كنتُه إلى غاية تلك اللحظة كان عليه أن يختفي، أن يموت، حتى يولد أنا آخر. لم أكن أستطيع أن أتخيل ذلك. لا أتصور أن أكون موجودا تحت اسم آخر. ولم أكن أتخيل أيضا إلى أين قد يؤدي بي هذه الهروب العبثي الذي يجبروني على القيام به. إن أغمضتُ عينيّ، يكون ذهني بُحيْرة من الملح، مرجا تغطيه الثلوج. الحياةُ التي تجري في جسدي، رؤيةُ السماء في الظلمة، الخروجُ من الحيز الضيق الذي كنا نتقاسمه إبراهيم وأنا، مكان مثقل بالروائح والعرق، الهواءُ اللطيف، النباتي، فوق النهر، كلُّ هذا كان يجبرني على الاحتفال بالوجود على قيد الحياة. لكن، عندما توقظني رائحة الدم ليلا، كنتُ ألعنُ كرَمَ من لم يسمحوا لي بالموت.

في لوهافر، استقللنا سفينة أخرى. لقّني إبراهيم في جلباب بلون الرّمل. كان الطُّرطور العالي يغطي رأسي. ارتدى هو أيضا نفس الملابس وتفاوض مع قائد السفينة للحصول على تذكرتيْ سفرنا معا إلى جزيرة وايْت. كانت السفينة الشراعية التي ركبناها تحمل مسافرين آخرين وتنقل دواجن، وخنازير وخضرا. لم تكن مقصورتنا واسعة جدا، لكنها كانت أحسن بكثير مقارنة مع تلك التي كنا نشغلها في العبّارة، وبها نوافذ صغيرة تسمح بدخول أشعة الشمس والهواء، ويمكن من خلالها معرفة ما إذا كانت المياه هادئة أو مضطربة. إلى جانبها، كان هناك مخدع به سريران من التبن في حالة جيدة، وفي الجانب الآخر أثاث نضع فوقه أغراضنا ومكتب صغير ملتصق بالجدار. كنا سننطلق في تلك الليلة بالضبط فخرج إبراهيم، تركني لوحدي وذهب إلى القرية ليشتري بعض المؤونة والنبيذ، بالإضافة إلى ورق وريشات كتابة وحبر طلبتها منه، لأنه حينذاك خطر علي أن أبدأ في تحرير هذه الملاحظات، وخلق فضاء أواصل فيه أن أكون من كنتُ من قبل. وكانت تُحفزني أيضا فكرةُ أن أبنائي سوف يتمكنون يوما ما من قراءة ما أكتبُ، فيشفقون لحالي ويعرفون حقا ما حدث لوالدهم. ما أجمل أن يكون لتيوبالْد شيء من الأمل، كنتُ أقول مع نفسي، لأن «موسْيو جورْج» لا أمل له! لأنه يظن أن أبناءه لن يعرفوا شيئا عن والدهم. فبعد ما عانوْهُ وما سوف يُعانونه من «قضية بْرالانْ»، من ذا الذي سيجرؤ على تقديم رواية أخرى للأحداث، رواية تعوزها الأدلة؟ فتيوبالْد الجبان الذي كنتُه كان محكوما عليه بالموت وكان لابد له أن يختفي إلى الأبد. أما أنا، رغم رغبتي في الموت أحيانا، فإنني أتنفس ملء رئتيّ. الهواءُ الذي يتسرّبُ من الرّوازن يقع مني موقع المخدر، يسممني بلذة لم أعهدها من قبل. لكن ربما يكون هذا أيضا أمرا يستحق أن أثبته في ملاحظاتي. منذ طفولتي الأولى، كنتُ دائما كائنا يمتثل لما يجب عليه أن يكون، لألقابي، لوضعي الاجتماعي، لحياتي الخاضعة لقوانين صارمة تتحكم بصرامة في حياتي اليومية كما تتحكم في قراراتي

الكبرى. ورثتُ قصر فو-بْرالانْ، كما ورثت أيضا خيّاط والدي، وإسكافيّهُ، ومُموّنه بنبيذ بْرانْدي، وصانع مربى الفواكه الذي ندهن به خبز وجبة الفطور، ومنوال الحرير الذي صنع منه مبذلي المنزلي، ومقعد في مجلس أنْداد فرنسا. أن يكون المرء نبيلا أمر يستوجب الخضوع للماضي، وللتكرار الذي يشكل ماهية النبالة.

أن أكون تييوبالْد كان أمرا يستوجب مني أن أكرر والدي، وألا أغير شيئا في العادات وأن أحافظ على التقاليد. وتسعةُ أبناء يشهدون على أنني قد أديت واجبي. لكن، حتى طبقة النبلاء العتيقة لم تبق بمنأى عما تغير كثيرا في فرنسا؛ كانت التصدّعات في كل مكان، مخالبٌ تجرد المرء من ميداليات وكتفيّات كاذبة. إن «جورْج»، الذي ربما سكنني مختبئا بين ضلوعي، صفّق لهانْرييتْ دولوزي ديبورْت، بطريقتها الذكية في ادعاء البراءة، وهي تكشف لي أنه يمكن للمرء أن يتحدى المصير وأن يبني حياة بديلة يمارس فيها حقه في أن يكون ما يرغب فيه. هي من أبرزتْ في جانبي الخفي، المحب للمتعة، اللّعوب. لكن ذلك كان عبثا. لذا، فإنه في حياتي بصفتي تييوبالْد، وحدهُ تييوبالْد كان من حقه أن يعيش. لم أقبل تحدّيه. كان يزعجني أن أبتعد عمّا كُنْتُهُ. أدركتُ أنه قد يكون من المستحيل أن أعوض الشخصية التي بُنيت، وحظيت بتعليل الآمال، والحماية بحرص شديد معظم حياتها.

راقبتني فاني ليل نهار بحُبّها المفرط. لم تخطئ في الارتياب مما كانت تراه، لكن رد فعلها كان انهيارا دمّر مدينة حياتنا.

مسكينة فاني. أحببتُها قبل مدة طويلة. أتذكرها بقبعاتها التَّبنية الكبيرة صيفاً، الأناشيط التي تضعها في تنورتها، ابتسامتها الوقحة، ابتسامة طفلة مدللة.

الفصل الثالث

لاحتْ لنا إيسْت كوْسْ في جزيرة وايتْ عند الغروب. كان إبراهيم فوق سطح السفينة وخرجتُ أنا دون أن أكترث بالبحارة. خمّنتُ بحق أنهم قد يكونون منشغلين جدا بما يقومون به من عمليات كي يعيروني اهتماما. هناك حدود للانزواء وإلى غاية تلك اللحظة كنتُ أشعر كأنني حيوان نهاري اضطرّ ليعيش مثل خُفّاش. أخْرجَ ضوءُ الغروب دموعا من مقلتيّ، لكني رأيتُ من قناة المانْش مضيقَ سولينْت والخضرة البعيدة لشاطئ إنجلترا. شواطئ حجرية ممتدة تحيط بالجزيرة. كان طاقم السفينة الشراعية «ليبونور» يُساعدُ بواسطة عصي طويلة في دفع السفينة، التي خمّنتُ أن طولها قد يبلغ حوالي أربعين قدما، ويساعدون في توجيهها نحو نْيوبُّورتْ عند نهاية مصب نهر ميدينا وتحاشي سفن شراعية أخرى تتحرك عبر القناة. وكان قسم آخر من الرجال يُنزلون الأشرعة. ومن مصب إيسْت كوْسْ رأيتُ بعيدا خطوط وصقالات ما كان من دون شك بناية أوزبورن هاوس، ذلك القصر العظيم الذي كانت تشيده الملكة فيكتوريا لنفسها.

طلبتُ من إبراهيم أن يتكلف بمتاعنا وأن يُحضّر لي ذلك اللباس الذي يعتبرُه مناسباً كي ألعب دور التاجر المتوسط الذي كان علي أن أتقمّصه. أثناء الرحلة، رغبتُ في معرفة إيراهيم فأخضعته لأسئلة خفية قاومها إلى أن غلبته الرغبة في أن يحكي لي مغامراته، فاطلعتُ من خلالها على تجربته مهربا لمادة الأفيون والتوابل النادرة. منذ صغره كان صبيا ملاحا على متن السفن المتوجهة من أفريقيا نحو أوروبا. يعرف مدناً في البرتغال، وإيطاليا، وتركيا، وأهم موانئ البحر الأبيض المتوسط. ويرجع الفضلُ في حصوله على عمل في القصر إلى مادامْ أديلاييدْ، شقيقة لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ، التي علمتْ بخبرته في مجال الأعشاب الطبية ومضادات السموم القاتلة. ولوقت طويل، مارس مهمة ذوّاق مأكولات لويسْ فيليبْ والعائلة الملكية.

أثناء تبادل تلك الحكايات، شعر إبراهيم بالارتياح تجاهي، وخلال تلك الأيام من الانزواء عندما كان هو يقرأ القرآن وأنا أطالع روايات فيكتور هوغو وأونوريه دي بلزاك، غالبا ما كانت تشدُّني الرغبةُ في أن أدافع بالحجة عن براءتي، وأن أسرَّ له بطفولتي وأنا ماركيز صغير بين الوصيّين والخادمات، في الليالي التي كان فيها والداي يتشاجران بصخب وأنا أقول مع نفسي إن حياتي ستكون مختلفة يوم أتزوج. كان بودّي أن أحدثه عن حيوانات الأيّل في قصر فو-بْرالانْ، عن طباع أبنائي، عن الصغير رايْناردْ. كنتُ أفكر كيف أجعله يتعاطف معي ولا يخشى التقرب مني. كنتُ أتساءل إن كانت مادامْ أديلاييدْ قد تنازلت لي نهائيا عن إبراهيم. كم من الوقت سيبقى معي ذلك الرجل؟ طالما ظل معي، فقط إن كنتُ عادلا وشهما قد أخفف من شكوكه. كان الليل يحلّ عندما نزلنا من السفينة. في الميناء، وأنا أضع قبعة قناص غارقة في جبهتي بينما إبراهيم يرتدي معطفا قصيرا بصفته خادما، توجهنا إلى النُّزل قرب رصيف الميناء. هناك سنقضي الليلة قبل أن نتوجه إلى بلدة موتيسْتونْ الصغيرة. لم يكن البقاءُ في نْيوبُّورتْ أمرا يُنصح به، لأنها كانت أكبر مدينة في جزيرة وايْت. أما موتيسْتونْ، فكانت قرية في الجهة المقابلة. كانت الجزيرة على شكل ألماسة تضم ساكنة قليلة فوق مساحة تبلغ ٣٨٠ كيلومترا مربعا.

وما إن نزلتُ من السفينة حتى غمرني إحساس بالأسى. العودةُ إلى اليابسة، إلى مساحة صلبة تستوجب طريقة حازمة في المشي، أمرٌ جعلني أنتبه إلى حالتي الصحية التي كانت ما تزال متأثرة بالسّم. وينضاف إلى هذا الإحساس المحير، الناتج عن السفر على متن السفينة، بأنني ما زلتُ مبحرا. لكن أصعب شيء كان هو مواجهة حالتي النفسية.

منذ أن غادرنا باريس، وحتى وصولنا إلى جزيرة وايْت عند منتصف شهر أيلول من سنة ١٨٤٧، كانت فكرة الهروب والعثور على ملجأ آمن هي التي سيطرت على ذهني وجعلتهُ في حالة من الحاضر الحادّ. كنتُ قادرا على تعليق أي فكرة لا تمت بصلة إلى ما هو آني. كان الوصول إلى الوجهة هو الشيء الملحّ الوحيد وبه يرتبط أي فعل مستقبلي آخر. لم يكن ثمة أي إحساس آخر، ولا فراغ، ولا حزن، ولا ندم، أقوى من الاندفاع نحو التشبّث بالأيام التي تفصل بين الانطلاقة والوصول إلى نقطة أخرى دون أن ينكشف أمري. وعلى العكس من ذلك، عندما وصلت إلى النّزل، ورأيتُ وجوها غريبة ترقبني، وعندما

حييتُ صاحب النّزل، ومررت بتجربة التنكر في صفة شخصية مستعارة وتبني هوية جديدة، أنهكني كل ذلك. وأمام صاحب النّزل قدمت نفسي على أنني جورْج ديمولانْ. (كان كاميْ ديمولانْ وزوجته لوسيل من شخصيات الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ التي كنتُ معجبا بها. وقد سقط كلاهما تحت المقصلة خلال فترة الرعب.) برز هذا الاسم خلال حديث مع إبراهيم بدا خلاله مهتما ونشأت بيننا لأول مرة علاقة رجُلين يحتاج كل واحد منهما إلى الآخر.

ـ لن أنصحك بالتنكُّر في صفة شخص بعيد جدا عن طبقتك الاجتماعية وأسلوبك في الحياة، سيدي الدوق. فأحسن تنكر هو التلقائية في التصرف. كما أنصحك، في هذا الشأن، أن تستحضر صديقا، أو شخصية من وسطك. تذكر عاداته، وحركاته وحاول أن تتصرف كما لو أن الأمر يتعلق بذلك الشخص.

ـ في شبابي، كنتُ معجبا بكاميْ ديمولانْ وزوجته. هل تعرف من كانا؟

ـ كاميْ ديمولانْ. نعم أعرف من هو. كان صديق كانتون وروبيسبيير. كان مثقفا. تُنسب إليه أعمال بطولية أثناء الثورة الفرنسية، بالإضافة إلى خُطب وكتابات. لكن ذلك لم يشفع له في شيء. قطعوا رأسه.

ـ كما قطعوا رأس زوجته أيضا. ورؤوس كل الزعماء. لابد أنهم لم يتصورا يوما أن مصيرهم سيكون مثل مصير الملك الذي خلعوه. على أي حال، جورْج ديمولانْ يبدو اسما مستعارا جيدا، وأظن أن شخصية نبيل مثقف قد تناسبني.

ـ لو كنتُ مكانك لتطلعت لأتنكر في صفة بورجوازي غني. فطبقة النبلاء الفرنسيين لها كثير من المنتقدين، كما تعرف يا سيدي. تكلم فقط في حدود ما هو ضروري تماما. فصاحةُ اللسان في وضعك أمر خطير. وفي الأنْزال قد يريد المسافرون التحدث إليك. احرص على أن تتحاشاهم.

قبلتُ بنصائح إبراهيم. إن كان اختيار الاسم المستعار قد بدا أمرا غاية في السهولة، فإن التصرف كشخص مختلف عن ذاتي كان أمرا مفرطا في الصعوبة. لا بد أن هناك حاجة لأكثر من اسم لخلق هوية جديدة. سألني صاحب النّزل عن عنواني، وتاريخ ميلادي. شعرتُ كأنني صفحة بيضاء. نظرتُ إليه. لماذا؟ ـ سألته بعجرفة حتى أمنح نفسي متسعا من الوقت لأفكر في تاريخ ما. قلتُ له ١٣ حزيران، ١٨٠٥. نفس السنة، ويوم مختلف عن تاريخي ميلادي. لم تكن أمي امرأة تقية، لكنها كانت تحتفل بيوم القديس أنطونيوس في موعده، ثم إن هذا التاريخ كان من أيام التقويم القليلة التي ترسخت في ذهني منذ الطفولة. أثناء ذلك الحديث القصير مع صاحب النّزل، اندهشتُ لعدم معرفة ما أقول ولا كيف أتصرف دون اللجوء إلى الشخص الذي كنتُه إلى غاية تلك اللحظة. شعرتُ أنني عاجز عن التخلي عن تصرفات رجل واثق من سلطة طبقته، تحميه علاماتُ هويته ومفهوم أصله. إنْ كان التظاهرُ يخلق لي صراعات، فإن فكرة العيش كشخص ذي مستوى اجتماعي أقل كان لعنة موجهة إلى منظومة قيمي وطريقتي في التفكير. كنتُ أشعر بالدوار لمجرد تصور ذلك الأمر. كان يجعلني أشعر أنني أضحك من ذاتي مثل مهرج. مرهقاً، فكرتُ مرة أخرى أن علي أن أعود إلى فرنسا وأسلم نفسي إلى السلطات، وأُقنع نفسي أنني لن أكون أبدا لاعب ألغاز جيد، لكن صاحب النّزل ابتسم لي وسلّمني مفاتيح الغرفة. مرّت لحظةُ الحرج بخير وجعل الارتياحُ أفكاري السوداء تصبح انشراحا لأنني تجاوزت أول اختبار دون تعثر. فاخترتُ الحياة مرة أخرى. وأنا أصعد السلاليم إلى غرفتي، أدركتُ أنه ينبغي لي أن أراكم تجارب جديدة لأخوض في أتفه المواضيع، لأن آرائي، ومرجعياتي، بل وحتى مفاهيمي الخاصة بالزمن والطقس قد تشي بدرجة ابتعاد حساسيتي عن ذلك الوسط. علمتُ أنه ربما يجب علي أن أتحاشى الزبائن الذين تعج بهم الأنْزال، ممن يعيشون لوحدهم ويبحثون عمن يسليهم برواية الحكايات. كان عليّ أن أتعلم كيف أقول الأكاذيب كما لو كانت حقائق. كنت أتعجب لإبراهيم، الضليع في فن التظاهر والسفر وسط الغرباء، وكيف كان يستطيع بكلمات قليلة أن يبرر صمته ويجعلهم يتركونه وشأنه.

كانت تلك الليلة في النّزل صعبة علي. عندما أغمضُ عينيّ، كان جسدي يخدعني وهو يكرر أحاسيس البحر، عاجزا عن

استيعاب ثبات اليابسة. في الغرفة السوداء لذهني، كان مشهد مأساتي يتكرر كأنه مسرحية أنا الفردُ الوحيد من جمهورها: وجه فاني المرعوب، عُنقها الدامي، فمُها يحاول أن يصيح ويطلب النجدة يسبح في الحلم كأنه الرؤوس حين تسقط تحت المقصلة. لكن الجسد ذا الرأس المقطوعة في في كابوسي كان ما يزال يدور، يبحث عن مخرج من غرفتي، تاركا يديه مطبوعتين على الثوب الذي يغطي الجدران، يغرس أظافره في يدي عندما نزعتُ منه حبل الجرس الذي ينادي به على الخدم. عيْنا فاني، شعرُها الأسود المتناثر والوسخ، اليأس والتوسل اللذان نظرتْ بهما إلي كانا يختلطان بتصرفاتي المتواطئة، الجبانة، وأنا عاجز على إيقاف ذلك المشهد المشؤوم، ورقصة الوحوش الضارية تلك. استيقظتُ من جديد على رائحة الدم في منخاريّ. فما نجحَ البحرُ، والريح وحتى الانزواء في تخفيف وطأته عاد ليذكرني بأنني لن أستطيع أن أختبئ من ذاتي، ومن ذكرياتي. فتحتُ عينيّ فرأيتُ في سقف الغرفة شبح وجه هانْرييتْ وهي تشد القبعة الصفراء تحت ذقنها، وتبتسم لي. فكم من الكوابيس قد أتحمل قبل أن أجنّ؟

الفصل الرابع

وصلنا إلى موتيستونْ بعد يوم شاق من المشي عبرنا خلاله منظرا طبيعيا تتناوب عليه السهوب المنبسطة المغطاة بالأعشاب والتلال التي تكسوها الأشجار. هنا وهنالك كانت تُرى الفطريات المميزة لإنجلترا ومن حين لآخر كوخ مغطى بالتبن المقصوص. كان منظرا طبيعيا هادئا، رتيبا يتجه نحو ما يسمونه خلف الجزيرة. ونحن ندنو من موتيستونْ كانت تبرز من الأرض عروق ضاربة إلى البياض تشي بطبقات قلائيّة من الطباشير، تطفو فوق السطح. كنتُ أعرف أنه في شمال الجزيرة كانت تنتصبُ تشكلات غريبة وضخمة. سمعتُ وصْفَ «الإبَر» أكثر من مرة على لسان السيدات الإنجليزيات اللواتي يترددن على دْييبْ أثناء عطل الصيف مع فاني، والأطفال، وأصهاري، والماريشال سيباسْتياني وأنطوانيت دو كونيي. كانت السيدات الإنجليزيات يتحدث عمّا يسمينه «*The Needles*» كما لو أن الأمر يتعلق بواحدة من عجائب الدنيا. أما أنهم يعتبرون هذه الجزيرة الصغيرة في قناة المانش مثل مخيم استجمام «رائع» وخاص، فإننا نحن الفرنسيون كنا نعتبر ذلك ميزة من تعصب الإنجليز لبلادهم. لكن لا أحد كان يجرؤ على قول أي شيء منذ أن قامت الملكة فيكتوريا والأمير ألبيرت بوضعها على الخريطة كواحد من الأماكن المفضلة لديهما للاصطياف.

كانت موتيسْتون قرية صغيرة تتألف من أكواخ متناثرة على جانبي الطريق بين شورْويلْ وفْريشْواتيرْ. كان هناك شارع رئيسي به مكتب البريد، والمخبز، سوق صغير ومحلات تجارية أخرى. المنزلُ الوحيد الذي له شيء من الأهمية هو منزل بيتْس بْليس. وإليه توجهنا. كان البيت شاغرا. كان صاحبه، سير جونْ ليي أوف نورث شورْويل، قد سلمه قبل صيفين إلى مادامْ أديلاييدْ، شقيقة الملك لويس فيليب. كان إبراهيم قد تلقى تعليمات بإيوائي هناك.

يتم الدخول إلى المنزل عبر باب واسع يقع في الزاوية التي يشكّلها جناحا البناية اللذان لا يتساويان في الحجم. كان الجناح الأصغر هو الأقدم ويقع جهة الجنوب. أما الجناح الأطول والجديد، فيقع جهة الشمال. كانت بناية من كتل ضاربة إلى الحمرة، بها تزيينات قليلة. فوق باب المدخل، على قوس يعلوه إفريز مسطح كتب تاريخ ١٥٦٧. حسب ما قال لنا السيد ويكهام، الذي يدير الإقامة وأراضيها، فإن أول ذكر موثق لهذه البناية يعود إلى سنة ١٠٨٦. كانت في ملك بْرايان دو ليل، الذي ورّثها إلى سلالته بعد موته في القرن الثالث عشر. وكما يحدث عادة مع هذا النوع من ممتلكات النبلاء، كانت البيوت تعرف بعض التعديلات. حسب ويكهام، فإن الجناح الأكثر قدما هو الأقل راحة. نصحنا بأن نتخذ لأنفسنا منزلا هناك في الجناح الشمالي.

ورغم أن اليوم كان حارا على غير عادة أيام شهر أيلول، فإنني لم أستطع كبح قشعريرة سرت في جسدي وأنا ألج إلى البناية. الرطوبة، العتمة، رائحة الشمع المنبعثة من الأثاث، ورائحة التعفن الكريهة، كل ذلك حملني إلى غرفتي في قصر اللكسومبورغ. فلا ذلك القصر، ولا هذا المنزل كانا سجْنيْن بالمعنى الحقيقي للكلمة. صحيح أنني لن أخضع هنا لأي تقييدات تمنعني من الخروج، لكنني، يا إلهي! كنتُ في جزيرة، بعيدا عن كل شيء، رفقة رجل لا أعرف إن كان سجّاني أو متواطئا معي. لم أكن قد وجدت بعد بداخلي الطاقة لطلب تفسيرات وشروح. لم يكن معي مال. وأنا على قيد الحياة كنتُ رجلا غنيا، لكنني بعد موتي قد لا أستطيع الولوج إلى ثروتي دون أن أكشف لأحدهم عن سري. أخي إدْغارْد. ربما؟ هو أيضا لا يستطيع أن يتصرّف في ممتلكاتي دون أن يثير شكوكا. يومها، في موتيسْتون، اكتشفتُ أنني في سني كنتُ أعرف كثيرا من التاريخ، والسياسة، والأدب؛ وأعرف أيضا كيف أدبرُ أموالي، لكنني لا أعرف كيف أكسب قوت حياتي. لقد تربّيتُ على إنفاق ممتلكاتي لا على تطويرها واستثمارها. لم أفكر يوما أنني قد أجدني محتاجا لأموّن ذاتي. ينبغي أن أسأل إبراهيم عما اتخذه الملك من تدابير بهذا الخصوص، أو أن أبعثه إلى باريس بحثا عن بعض الوسائل. وبينما كان ذهني شاردا مع هذه الأفكار، كان وكهام يسير أمامنا وهو يزيل الأغطية عن قطع الأثاث ويفتح النوافذ الواسعة، التي كان بعضها مغلقا بشبابيك خارجية،

ويتوفر معظمها على زجاج بسيط به رسومات تصور حيوانات أليفة. كانت الغرف واسعة، ذات أسقف عالية ومواقد نار كبيرة في الوسط. كانت قطع الأثاث قروية الطبع، من الخشب والجلد، وقد وضعت فوق زرابي من الصوف الذي نسجت عليه شعارات النبالة ورموز أخرى. لاحظتُ وفرة الأواني والزخارف النحاسية، ولوحات تمثل صورا بحرية ومناظر طبيعية من الجزيرة. وفي غرفة الأكل، في مكان رئيسي، كانت هناك بعض اللوحات الزيتية التي تمثل صورا شخصية للملكة فيكتوريا والأمير ألبيرت. لوحات جيدة، فكرتُ. وفي كل الغرف تقريبا، كانت هناك كتب وضعت فوق الطاولات وفي طريقنا مررنا بصالون مكتبة أدهشني ما رأيتُ فيها من رفوف كثيرة تعج بعدد من المجلدات، كما أبهرتني بساطتُها التي تبعث الدفء في النفس. استطعتُ أن أتخيل نفسي وأنا أقضي هناك ساعات طوال. أما الغرف، المتقشفة رغم ما توفره من راحة، فكانت تقع في الطابق الثاني. كنا نحمل متاعا قليلا. كانت أغراضي قد بقيت في رقم ٥٥٥ من شارع فوبورغ سانت هونوري. سيتكلف الماريشال سيباسْتياني، صهري وصاحب المنزل، بالتصرف فيها. مجرّدُ التفكير في هذا المشهد أصابني بإحساس مادي من القلق واللا طمأنينة. أن أكون حياً في الوقت الذي من المفروض أن أكون فيه ميتا كان إحساسا يصيبني بحيرة أكبر يوما عن يوم. فكرتُ في رجال الشرطة وهو يجوبون بيتي، يفتشون أغراضي، ووثائقي، والرسائل التي كانت تكتبها إلي فاني والتي كنتُ في الآونة الأخير، دون أن أقرأها، أضعها في درج من أدراج مكتبي الممتلئ برسائلها. كانت تبعث لي يوميا عدة رسائل عن طريق خادمتها المرافقة، منذ أن هجرتُ فراش الزوجية وانتقلتُ إلى غرفة أخرى ترتبط بغرفتها عبر غرفة الانتظار والحمام.

كانت فاني تجيد الكتابة. رسائلُها تثير انتباهي. لكن من كانت تكتب تلك الرسائل لم تكن هي، وإنما المرأة التي كانت تودّ أن تكون. بل إنني بدوري أتساءل إن كان من يكتب هذه الملاحظات هو أنا، أو نسخة قابلة للقراءة من ذاتي. ثمة سُمو غريب في الكتابة. فما يدركه المرء مثل أمواج ترتطم بلا هوادة على شواطئ الذهن، حين ينزل على الورق لا بد أن يتخذ مسارا على ضفاف اللغة ويكتسب أشكالا مفهومة تخضع لسَنن النحو وتصرفاته. إن فعل الكتابة له وقعٌ مُهذِّب على الوعي. ففاني الغاضبةُ، الساخطة، التي ترقبني، تلك التي فقدت جمال قدّها مع الولادة وظنت أنني سأبحث عن هذا الحُسن عند نساء أخريات، تلك التي بدأت تفتش حياتي بدافع الغيرة، وتفتش ملابسي، وكراساتي، تلك التي ظنت بخيال فياض أن لي علاقات مُذنبة ليس فقط داخل البيت بل في أحياء باريس وصالوناتها الأنيقة، لم تكن هي فاني العاشقة في رسائلها. فصاحبةُ الرسائل تعترف بمضايقتي حتى وهي خجلى، تفهم احتقاري، وترجوني أن أمنحها فرصة أخرى. إنها على وعي بمدى قوتها التدميريّة، لأنها تضع بدقة الإهانات التي تُعرّضُني لها. عند بداية مَدّ رسائلها، انبهرتُ وفكرتُ أنها عادت إلى رشدها. لم أعد إلى غرفتنا الزوجية، لكني زرتُها متأثرا بكلماتها. لكنها ألحّت في إزعاجي، ولم تهدأ في حرصها على إيجاد مبررات لغيرتها. حتى عناقي ما عاد يردعُها. كان يكفي أن أتردّد، أو أستغرق وقتاً أطول من المعتاد عند بداية أو نهاية الجماع، كي يثور سخطها. كانت تتباكى وهي تؤكد أن تصرفاتي دليل واضح على علاقاتي غير الشرعية. كيف لي أن أشرح لها أن قلقها المَرَضي، وطريقتها في التشبث بي، والإعلان عن حبها اللامتناهي، كانت أمورا تضعفني جسديا وعاطفيا بأسوأ ما في الكلمة من معنى، وتخمد جذوة رغبتي؟ صحيح أننا لم ننجب تسعة أبناء فقط لأننا كنا نحب أن نلعب الورق معا. فرغم شكاواها واحتجاجاتها، كنتُ ما أزال أحتفظ بصور أزمنة جميلة أستعين بها. لكن، شكاواها ورسائلها أصبحت تسبب لي إحساسا قويا بالاختناق حتى أن أتفه حديث معها كان يثير سخطي أكثر من اللازم. غريب كيف أن الحب يصبح في النهاية فعلا احتراق يلتهم حتى الرذائل ولا يترك إلا الفراغ، الأثير، لا شيء. في البداية، يشك المرء في الأحاسيس نفسها، فيصعب عليه أن يتقبل بأن الحب قد انتفى من الوجود كأن كارثة طبيعة قد أبادتْهُ. ويتساءل المرء كيف أن الفتور، والغضب، والحقد أحيانا، حلوا مكان الحب. لقد أحببتُ فاني لسنوات طويلة. بل إننا كنا سعيدين في شبابنا. كان عمرها سبعة عشر سنة وأنا في التاسعة عشر يوم تزوجنا. أذكر عطرها عندما كانت تخرج من الحمام. (كانت أنواع الصابون المعطر ضرورية في حياتها). لقد توفيت والدتُها وهي بالكاد أكملت ثلاثة أسابيع وكانت جدتها، مادام دو كونيي الشهيرة، هي من راقبت طفولتها ومراهقتها، دون أن تكف قط عن التأسف عن موت ابنتها وهي تنقل مسؤولية رعاية فاني اليومية إلى الآنسة ميندليسونْ، التي كانت تحظى باحترامها

لأنها كانت عمة فيليكْس وفاني ميندِيليسونْ، الموسيقيان الشهيران. تعرّفتُ على المعلمة الألمانية. أظن أنها لم تتقبلني قط. من طريقة تعاملها مع فاني، كان واضحا أن التصرفات الصبيانية لهذه الأخيرة كانت تتركها مذهولة ويصيبُها تواطئي معها بالخيبة. أظن أنها كانت تفضل أن تحظى فاني بزوج يساعدها على أن تكبر وتنضج، وليس أن تقترن برفيق ألعاب مثلي. عادت الآنسة ميندِيليسون إلى برلين مباشرة بعد زواجنا. لم تشتق إليها فاني. لم تتحدث عنها مرة أخرى. كان ذلك شيئا عاديا في وسطنا. نساءٌ مرافقات، رؤساءُ خدم، خدم، كانوا كلهم يأتون ويذهبون. وكان لا بد للمرء أن يقطع حبل العواطف كمن يقطع نباتا، بضربة واحدة. لم يكن ثمة أي اعتبار لحميمية التعايش، ولا للخدمات التي أُسديت فيما يتجاوز القيام بالواجب. هكذا كان اتفاق العمل، والشروط المرتبطة بالمهنة.

لم تتقبل فاني ووالدها أن تقوم هانْرييتْ دولوزي ديبورْت، بعد تسريحها من العمل، بالكتابة إلى الأطفال يوميا، وأن تتأسف بمرارة على عدم وجودها إلى جانبهم، وأن تجد وسيلة لرؤيتهم خلسة. لم يكن يهم أن تلك المرأة أسدت لأسرتنا خدمة جليلة بصفتها معلمة أبنائي. ربما كانت هانْرييتْ تعول علي لأتدخل وأتوسط لها. لكن فاني ووالدها هدّداني بالشروع في إجراءات الطلاق. شرحتُ الأمر لهانْرييتْ، لكنها ازدرت أعذاري. علي أن أعترف أنه في لحظة ما حتى أنا أصبحتُ أجد كثيرا من المبالغة في بكائها وغضبها، في رسائل شكواها الموجهة إلى أطفال لم يكن عليهم أن يواجهوا ظروفا ليس بوسعهم أن يغيروا فيه شيئا. رفضتُ ضعفها، وعدم قدرتها على التحكم في الذات لكبح مناورات شخصية رومانسية تميل إلى التمثيل. إن الأمر المفارق في مأساة حياتي هذه هو كم كانت هانْرييتْ تشبه كثيرا فاني إلى حد كبير، في نهاية الأمر.

أثناء رحلتنا البحرية إلى الجزيرة، ألحّ علي إبراهيم أن أكتب التفاصيل التي قد تمنح مصداقية لهويتي الجديدة وتبرر أسباب تواجدنا في جزيرة وايْت. يبدو أنه قد استعمل عدة هويات أثناء مغامراته وهو مقتنع بأن النجاح في ذلك يتوقف على وفرة التفاصيل. وعدتُه أن أكتب قصة قابلة للتصديق. حاولتُ القيام بذلك في الأيام الأولى داخل ذلك المنزل. كنتُ آخذُ الريشة بيديّ وأجلسُ قبالة طاولة المكتب، لكني لا أستطيع أن أصوغ حكاية منسجمة. كنتُ أتحاشي أن ألتقي بويكهام حتى لا اضطر للحديث معه. وعلاوة على ذلك، كان إنسانا غريبا، قصير القامة محدودب الظهر، ينظر دائما شزرا وغالبا ما يضحك أو يبتسم دون سبب ظاهر وهو يتحرك في أرجاء البيت. وسرعان ما أدركتُ أنه لا داعي لأشغل نفسي بفضوله لأن الفضول كان شيئا يعوزه. لم يكن يهمه ما يحدث خارج أسوار بيتْس بْليسْ. لكنه كان غريب الأطوار ومهووسا داخل حدود محيطه: يذهنُ مقابض الأبواب ومطارقها، يُشمّع خشب الأرضية، يمسح زجاج النوافذ بعناية، ينفض بحُبّ الغبار عن كتب المكتبة واحدا واحدا. كان يتحرك بتكتّم كبير حتى أن ظهوره المباغت جعلني أقفز أكثر من مرة. ربما كان هو الشبح الذي يحمي ذلك المنزل، ميتٌ حيّ، مثلي.

الفصل الخامس

كان الخريف قد بدأ يستقرُّ. كنا أنا وإبراهيم وويكهام نتعايش مثل رجال يعيشون لوحدهم، هما في خدمتي وأنا سيد البيت. كان إبراهيم مكلفا بإطعامي. كان طباخا ماهرا، لكن المواد والتوابل التي اعتاد أن يستعملها كانت شبه منعدمة في الجزيرة. كان ينفر من المأكولات الإنجليزية التي لا طعم لها، من تلك الأطباق المحضرة بلحم الخروف المغلي، ومن السمك المقلي مع البطاطس. من حين لآخر، كان يسافر إلى نْيوبُّورتْ ليشتري شاياً ونبيذاً عادياً. وكان يكلف بعض البحارة، ممن ينطلقون في رحلاتهم من لوهافر أو كالي، بشراء الزعفران، والشّمرة، وكبش القرنفل، ونبيذ بوردو، والزبدة من النوع الجيد. ومن نْيوبُّورتْ جلب لي أيضا ثيابا أغير بها ملابسي حتى أتوفر على لباس يليق بمقام بورجوازي محترم: قمصان من القطن الهندي، سراويل، معاطف، وصدريات من ثوب إنجليزي جيد، كلها ذات ألوان داكنة، بيضاء أو سوداء. هكذا كانت ملابس المحامين، والتجار والأطباء، والأشخاص الذين قد أختلط بينهم دون إثارة الانتباه. وكانت من الأهمية بمكان نُسخُ الجرائد الفرنسية التي كنتُ أحصل عليها من المدينة. كانت قراءتها تعذبني، لكني لم أكن أستطيع أن أكف عن القيام بذلك. كنتُ أقرؤها صفحة صفحة، كلمة كلمة، بقلب منقبض من الحنين والغمّ، كأنني ملك نفوهُ من مملكته. إذا كان المشهد السياسي في باريس موْشوراً تتداخل فيه وجوه مألوفة، تدور أو تقفز من أعلى نحو السفل، أو العكس، فإن القُرب، الأحكام المسبقة أو العواطف، كانت تحول دون فك شفرات الحركات والخطابات. وعكس ذلك، انطلاقا من الوحدة والمسافة التي تمثلها الجزيرة، كانت السحب تنجلي فتكشف عن حلقات السلسلة التي كانت تطوق شيئا فشيئا عنق الملك لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ. كانت فضيحة منزل شْوازولْ بْرالانْ تمتزج الآن بفضيحة جان باتيست تيسْت. كانت تيسْت متهما بتلقي رشوة قدرها ٩٤٠٠٠ فرنك مقابل الترخيص بتحديد عقد استغلال منجم الملح في غوهينانس. المسكين. أبله. مسارٌ لامع يتعرض للإفساد. كوبْييرسْ، وزير الحرب بالوكالة، هو من أغرقهُ إلى الأبد. وكما قمتُ بذلك شخصيا، حاول تيسْت أن ينتحر بدوره. أطلق النار مرّتين على رأسه ومرّتين على صدره. فشل في المحاولتيْن. يا إلهي! كيف يمكن للمرء أن يفشل هكذا؟ وحده هذا الفشل كاف ليراكم مهزلة تدوم مدى الحياة. مسكين جان باتيست. لم يكن رجلا سيئا، لكن السلطة جعلته يظن أنه أصبح إنسانا لا يقهر. والحقيقة أنه قد ليس من الصعب أن تختلط الأمور على المرء. ربما في حالتي، كانت طلبات فاني المُلحة، رقابة صهري المهموسة، هانريت بعقلانيتها الحانقة، وأبنائي، حالت دون أن أظن أنني معصوم من الأخطار. شيء قليل أحتفي به وسط كل ما ألعنه! «رب ضارّة نافعة»، كما يقال. لكن إذا كان تيسْت قد حكم بتهمة الرشوة فإن الحكم علي قد يكون بتهمة القتل. فقط يوم ٨ تموز القريب جدا، كنتُ حاضرا في مجلس الأنداد لأستمع إلى قضية تيسْت. تذكرتُ العينين الحادتين تحت الحاجبين الكثين للمستشار ووزير العدل، باسكييه، وهما مسمرتان في جان باتيست، بتعبير يمزج بين الازدراء والدهشة الساخرة التي سوف يستجوبونني بها. عضوان من مجلس أنداد فرنسا يلعبان دور البطولة، مثل شخصين وقحين، في هاتين الفضيحتين، في الوقت الذي كان فيه البلد مثل مخزن بارود ولا حاجة سوى لشرارات صغيرة حتى يندلع من جديد الغضب الأعمى لثورة أخرى. فهل نكون نحن من يوفر النار لذلك؟ في حالتي، كان يُقال إن طبقة النبلاء نفسها هي التي زوّدتني بالزّرْنيخ. وإلا، كيف يمكن أن نُفسر ـ كانوا يقولون ـ أن أحصل عليه بل وأن أبتلعه بينما كنتُ تحت حراسة الشرطة على مدار الساعة؟ (كنتُ ما أزال في بيتي عندما ابتلعتُه. كان في قارورة صغيرة انتزعتُها من فاني قبل عدة شهور عندما هددت بأن تنتحر. كان الحارس الذي يراقبني يتركني لوحدي داخل المرحاض احتراما لي فلم ينتبه للأمر). كان يقال إن انتحاري كان نهاية مدبرة فرضها علي النبلاء حتى لا تذيع داخل البلاط عادات طبقتنا وطرق عيشها. حقدٌ، بطبيعة الحال. كل هذا القيل والقال كان حطب نار تؤجج النيران المستعرة تحت قدمي لويسْ فيليبْ. كان الناس يحتجونْ على غلاء أثمنة الطعام، كما لو أن ذلك كان شأن الملك؛ ينسون الوباء الذي ضرب البطاطس والمحاصيل الهزيلة لسنتين متتابعتين. وكنا نحن في فو-بْرالانْ بالكاد نحافظ على كمية منتوج الحبوب، لكن من حولنا ضاعت غلة القمح. إن جهل القرويين هو أكبر عدو لهم. حين لا يجدون من يلقون عليه باللائمة، يلومون الملك، يلومون جيزو والوزراء. لا جدوى من محاولة تهدئتهم. وانضاف

إلى هذا الوضع ما كانت تعانيه أوروبا بكاملها من مشاكل اقتصادية. في فرنسا، الرّعاعُ متمردون بطبعهم وكان على لويسْ فيليبْ أن يواجه مظاهرات الشارع التي تسبب كل تلك الفوضى. فالمثال السيئ الذي قدمته إنجلترا بمنح حق التصويت لكل المواطنين، من جهة، وخُطب سان سيمون، وفوريي والألماني كارل ماركس، نفذت إلى العقول، وصورت الملكية وطبقة النبلاء في صفة الشيطان، ولم يعد يهم كم كان شكلهما الآن مختلفا عما كانا عليه في «النظام القديم». فالتفاوتات الطبقية، وفقَ خطبهم، هي مصدر كل شرّ. لكن قد يكونون هم أول من يزدري عالَما من دون ثقافة، تحكمه قيم العامة. وأدى منع التجمعات في الشارع إلى نوع خاص من المآدب منذ تموز الماضي. وهذه المآدب جدل فارغ، وذريعة للتجمع وإلقاء الخطب النارية التي تدعو إلى توسيع حق التصويت على كل المواطنين. كيف لهم أن يطالبوا بأن تُمارسَ هذه المسؤوليةَ جماهيرٌ من المتخلفين والجهلة، والمتسكعين، والعاطلين؟ بأي منطق سليم قد يتصرفون؟ إنه حق في غاية الأهمية لا يمكن توزيعه على من يجهلون كل شيء عن الحكم وأمور تدبير شؤون البلاد!

كنتُ مستغرقا في هذه الأفكار بينما كان يحل المساء وأنا أمشي لمسافات طويلة أنتعل أحذية خاصة بالريف. لم تكن قناة المانش تبعد سوى كيلومتر واحد عن بيتس هاوس في موتيسْتون. كنتُ أمشي فوق أرضية منبسطة نسبيا بها بعض البقع المزروعة، بالإضافة إلى كثير من الفطريات والأزهار البرية. قبل أن أبلغ فعلا طريق الشاطئ والصخور المطلة على البحر، كان الدرب يصير منتصبا، تتغير النباتات، وكان خاصا جدا نظرا لما يتخلل التربة من طباشير. وكان جزائي الأكبر خلال تلك الخرجات أن أعثر على السحلبيّة الهرميّة، تلك الزهرة التي ترمز إلى جزيرة وايْت، بناءٌ مرهف بساق وبتلات ليلكيّة اللون أكثر منها هرما يشبه شكل مُعيّن، ألماسة أرجوانية ونباتية تبرز فجأة وسط الأدغال أو في الحقول. كما تنتج الجزيرة عددا كبيرا من أزهار الخشخاش. كنتُ مولعا بعلم النبات منذ الطفولة، أجمع أنواعها وأصنافها. بعد أن تعرفت، أثناء واحدة من جولاتي الكثيرة على الدكتور هاميلتون، تعلمتُ الكثير عن خصائص تلك الأنواع البرية وعرفت أن المادة القلويّة التي ينتجها الخشخاش سمٌّ قاتل. فالأصفر، ذلك اللون المعروف بأنه لون المرح، هو لون أكثر أنواع الزّرنيخ سُمّا. ما أكثرها طرق القتل والموت! كان شاي الخشخاش الأصفر يعطي مفعوله بعد عدة أيام. شيء مدهش أن يفكر المرء، وهو يراها تتحرك مع الريح، كيف أن هذه الأزهار لا تسفر عن نوم يماثل ما تنتجه مثيلتها من أزهار الخشخاش الحمراء، بل نوما لا يستيقظ منه الإنسان. هل يمكن أن يكون هناك موت هادئ كهذا؟ ألا تؤلم الأحشاء؟ كنتُ ما أزال أعاني من مخلفات الزّرنيخ: وهنٌ، حرقة في المعدة، عسر في الهضم، وآلام في العظام. في مدة شهرين، شاب شعري، كانت مفاصلي تحترق وتؤلمني كأنها مليئة بقطع الزجاج. الزمنُ رحيم، وشيئا فشيئا كانت ذاكرة الألم تبرح جسدي، لكن أقل إحساس بألم المعدة أو حتى الإحساس بالشبع بعد وجبات الأكل كان يجعلني أرتعش. كانت أية حركة في أحشائي تجعلني أخشى تكرار التمزق والألم الفظيع الذي عانيتُ منه خلال تلك الأيام.

خلال جوْلتي كنتُ أقطع الشارع الرئيسي في القرية. أغتنم الفرصة لأتبادل إشارات التحية مع من أصادفهم من أشخاص في طريقي، وأتعرف شيئا فشيئا على وجوههم. لا بدّ أنني كنتُ أبدو لهم بورجوازيا قبيح الوجه، لا يملك مبررات مقبولة لما يبديه من تقتير أو ما يظهرُ عليه من هيئة سيد من علية القوم. ذلك أنه رغم أن جزءا من ذاتي كان يجهد نفسه ليكون شخصا آخر، كانت تلفُّني قشرة عنيدة؛ وكانت قُوّةٌ معاكسةٌ تجعلني أتشبّثُ ببقايا ذاتي. داخل بيتْس بْليسْ، كنتُ ما أزال أنا هو السيد الذي يخدمه كل من إبراهيم وويكهام. ومعهما لم أكن أتنازل قيد أنملة عن امتيازاتي، أحافظ على رسميات وجبات الأكل وما تستوجبه من بياضات المائدة، ومن فضة وشموع، كما أجبرهما على مساعدتي في التزيّن وإحاطة ملْبسي بكل ما يتطلبه من عناية ودقة. وكان أدنى تراخ منهما يثير في غضبا مفرطا وغير منطقي أخجل منه بعد ذلك. أظن أنه بالنسبة لواقعي الهش كان الحفاظ على ذلك الفضاء، التافه في ظاهره، أمرا جوهريا. عندما كنتُ طفلا، كنت أكتئبُ بدل الدخول في نوبات غضب. وفي علاقتي الزوجية، وجد الغضب الوقود الذي يحوله من كائن واهن إلى قوة مكّارة وقاسية تستحوذ على عقلي وتجعلني أحيك طرق انتقام متأنقة. أذكرُ جيدا يوم كسرتْ فاني الحصان المصنوع من خزف سيفْر الذي

أهدتني إياه أمي في عيد ميلادي العشرين. كان تمثالا صغيرا ورائعا أحتفظ به كالكنز. كانت أناقة الحيوان الواقف على قائمتين والريح تعبث بعُرفه شيئا يبعث في نفسي الرغبة في أن أقوم وأكون مرة ما رائعا مثله. عندما هشّمتْ فاني التمثال الصغير قطعا في واحدة من وقاحاتها، هرعتُ لأجمع القطع المتناثرة وطردتها صارخا من غرفتي. في تلك الظهيرة، عندما خرجتْ، ذهبتُ إلى صالونها الصغير. غمرني مزيج من الأدرينالين ومتعة طفل شرير ومشاغب وأنا أجول بين أغراضها الشخصية. ترددت لحظة واحدة فقط قبل أن أحطم على الأرض طبقا ورديا من الخزف كان يشغل مكانة شرفية في مزْينتها. وبعد تجاوز هذا الحياء الأولي، هذا الاندفاع الأول، حيث كنت ما أزال أتخذ مسافة للتفكير فيما أقوم به، دخلتُ في هيجان مدمّر. كسّرتُ أباريقها المذهبة، ومزهريّاتها الخزفية الصغيرة المطلية بالمينا. بعد ذلك، وبلذة حقيقية، أخذتُ مجموعة الشمسيات التي كانت تتباهى بامتلاكها، وهي شمسيات ذات مقابض مرهفة وقباب حريرية أنيقة، ورحتُ أحطمها على رُكبتي، الواحدة تلو الأخرى، فيما كان ابتهاجي الغاضب يدخل نهائيا في إيقاع متصاعد وسريع. أفرغتُ كل ضجري، وكل العجز اليائس الذي يجبرني على تحمل امرأة متسلطة، مهووسة، تقضي ساعات في الكتابة لي بأنها تحبني لكنها لا تفوت فرصة لتجعلني شقيا. شعرتُ بمتعة تكاد لا توصف وأنا أقوم بذلك الفعل الانتقامي، الذي أنجزته بهدوء من يتوفر على خطة مسبقة ينفذها عن وعي أثناء الظهيرة الباريسية التي كانت تمضي منزلقة دون ضجيج عبر الزمن. هكذا، مع سبق الإصرار ونية الغدر، أخذتُ منها في تلك المناسبة عينا بعين وسنا بسن.

يجب أن أعترف أنه خطرٌ شديد أن نترك دون مكبح البؤس الإنساني الذي يسكننا. ليس هناك من ماء مبارك يغسل الخطيئة الأولى، وليس هناك من سوط يهدئ وحوش الشرط الإنساني بعد أن تغادر أقفاصها.

إن ما عشتُه يدفعني لأرى نفسي كالغريب حتى أحاول أن أفهم أحاسيسي. ومع ذلك تُدهشني قدرتي على النسيان. تمضي أيام كاملة يكون فيه الشعور بالذنب بعيدا عني. إحساسي الوحيد هو الارتياح، وعلمي بأنني قوي داخل تلك الشّراك التي أوقعتني فيها هانْرييتْ وفاني، لا أضطر للكذب عن هذه ولا عن تلك، لا أرى في عينيهما الشك، ولا العتاب. يجب أن أعترف بأنني، وأنا أتمشى في الجزيرة، أنظر إلى البحر، وإلى «الإبر» الكلسية الراسية في الأمواج، الثابتة في وجه المدّ والعواصف الثلجية، شعرتُ بالسعادة من جديد، وأحسست مرة أخرى باتّزان ذلك الرجل الذي، أمام عدم استقرار زوجته، تكلف ليس فقط بسراويل بيته بل وبتنوراته أيضا. كنتُ أتكلف بالتعاقد مع الخدم وحل مشكلاتهم، أتدبر أمور دراسة أبنائي وأمور تعليمهم، كما أراقب قائمة وجبات الأكل. إن أكبر ألم لا يطاق أشعر به هو أنني تركتهم دون اكتراث، وخاصة رايْناردْ، الصغير، أكثرهم لطفا، كما أشعر بذلك تجاه غاسْتون ولويزا، الأكبريْن. تسعة أبناء يتشت اهتمامي بينهم وليس صحيحا أن الحب لا يميز هؤلاء وأولئك. ربما كان أكثرهم تحملا وهدوءا يتلاشون في الحياة اليومية، وبعضهم لا أعرف عنهم الكثير وأكتفي بمداعبتهم كما لو كانوا حيوانات أليفة. يؤلمني أن أعترف بذلك. لحسن الحظ، هم بمنأى عن هذه التأملات. إن النسيان، والنبذ أيضا يحرراني من أحكامهم.

الفصل السادس

ما كان من الممكن أن يكون منفى كئيبا تحول إلى شيء آخر يوم صادفتُ الشاعر ألفريد تنيسون وصديقه الدكتور هاملتون. كان يمضي شهر تشرين الثاني ذات خريف متردد. الحرارة معتدلة والجو من دون برد يجبر على التدثر بملابس زائدة عن الحاجة. كانت ساقاي تتقويان بفضل جولات المشي المتكررة. في تلك الظهيرة، لأنني خرجت شيئا ما مبكرا عن المعتاد، قررتُ أن أمدد جولتي وأقترب من خليج فْريشْواتر. كان يوما صافيا فراودتني فكرة مشاهدة «الإبر» انطلاقا من الطريق. اعتدتُ أن أتوقف أثناء جولاتي قرب ستراوبيري لين حيث يوجد حجر جنائزي خشن يعود إلى العهد البرونزي. كان هذا «اللونغستون» كما يسمونه علامة على مكان ملعون ومبجل في الوقت ذاته. كان يُقال إن طقوسا وثنية وطقوس سحر كانت تقام هناك. ذلك الجانب الخرافي من العقلية الإنجليزية، المختلف تماما عن العقلانية الفرنسية، كان يجذبني، وبما أن اسم القرية ـ موتيسْتونْ ـ يعني «حجرُ من يتكلم أو حجرُ من يتضرّع»، فقد أضفتُ هذه الوقفة إلى جولات المشي اليومية. متكئا على ذلك الحجر الضخم، تضرّعتُ أحيانا كثيرة من أجل ذاتي، من أجل أبنائي، ليس إلى الربّ المسيحي لوالديّ، بل إلى قوى القدر تلك التي كان القدامى يطلقون عليها أسماء وينسبون لها أشكالا وأساطير. ربما لأنني لم أتجول هناك قط أثناء ليالي البدر الكامل أو أي قمر، لم أر قط أحدا يقوم بنفس الشيء حتى تلك الظهيرة. وبينما كنتُ ألهث بعد أن صعدت التل سمعتُ صوتا عميقا أولا ثم شممتُ رائحة تبغ طيبة. بعد ذلك، بدت ملامح جناح قبعة لبدية سوداء وملامح رجل ذي أنف طويلة وأرستقراطية، شارب ولحية سوداوين بهما شعر كثيف، وعينين ضيقتين. إلى جانبه، بوجه غير معتاد، يضع غليونا متراخيا على شفتيه، كان رجلٌ فارع الطول وأنيق الملبس، له عينان واسعتان متباعدتان في وجهه الذي يعلوه تعبيرٌ شارد وعذب في الوقت ذاته. هو من رآني أولا. حييتُه بانحناءة من رأسي، وأنا أتردد إن كان علي فقط أن أصمت وأتابع طريقي، لكن الرجل الطويل مدّ يده وقدّم نفسه:

ـ أنا الدكتور هاميلتون ـ قال بلطف ـ من أين جئت لتزورنا؟

ـ من فرنسا ـ قلتُ، دون أن أفكر في ذلك، واثقا منذ هذا اللقاء الأول في الطيبوبة الشفافة للدكتور ـ جورْج ديمولانْ ـ أجبتُ وأنا أصافحه.

ـ أنا ألفريد. ألفريد لورد تنيسون ـ قدّم الشاعر نفسه ـ هل أنت في جولة عابرة؟

ـ إنني أخلد للراحة في الجزيرة لفترة من الزمن.

ـ هل تعاني من أي مرض؟

ـ «الضّرر الكبير» ـ كذبتُ. فقد أقنعني إبراهيم أن ذلك المرض وشهرته كداء مُلغز، الذي يُداهمُ بسرعة ولا يسبب أعراضا خارجية، قد يسمح لي باستعماله عذرا كي أختفي لأسابيع طويلة إن دعت الضرورة وأخرس الفضوليين بنبرة اسمه الرّنانة والأسطورية.

ـ لقد نصحوني بهدوء هذه الجزيرة والقيام بجولات مشي طويلة ـ أضفتُ بابتسامة خنوعة.

ـ ألا يكون تشخيصا خاطئا للمرض؟ ـ تدخل تنيسون.

وعكس المنتظر، كان الرجلان معا يبدوان الآن مُهتميْن كثيرا بشخصي.

ـ ما هي وجهتُك الآن؟ ـ سألني الطبيب.

ـ كنتُ أحاول الوصول إلى خليج فْريشْواتر إن أسعفتني قواي ـ قلتُ مبتسماً.

ـ كن رفيقنا ـ دعاني تنيسون. نبرةُ صوته، الغليظ الجهوري والمعدل بعناية، لم تترك لي خيارا.

لم أكن لأتصور يوما أن الشاعر الكبير، ألفريد، لورد تنيسون كان يعيش تحت رحمة مرض الصرع خلال فترة طويلة من حياته؛ مرضٌ عانى منه والدُه كما عانى منه عدد من إخوانه وكان يخشى أن يخرّب دماغه ويحرمه من كتابة الشعر الذي لا يتصور أنه قد يكون من هو الآن من دونه. لا بد أنني سأبدو لهما صريحا بشكل غريب لأنني اعترفت بمشكل صحي مثل ذلك ونحن بالكاد تبادلنا الأسماء، لكن في تلك الجزيرة، هناك في تلك الظهيرة، قرب القبر القديم، التقينا نحن الثلاثة من دون شكليات ولا أقنعة اجتماعية، أحرارا كي نتعارف كما نحن على حقيقتنا. خطيرة، لكن أيضا نافعة يمكنُ أن تكون الأكاذيب. حكيتُ عن تجارب فقط قرأتُ عنها من قبل. تحدثتُ عن لحظات الشرود المفاجئة التي تنتابني. ساهمتْ تلك الأجواء غير المعتادة في أن تجعل الحديث الذي بدأناه خلال جولتنا يتحاشى الشكليات ويخوض، بطريقة طبيعية، في مواضيع عميقة تهم كل واحد منا. تحدّثَ تنيسون عن ارتياحه عندما اكتشف، بعدما ظل يظن لسنوات طويلة أن حالات الغيبوبة التي عادة ما تسبق أكثر لحظات خياله إبداعا كانت تحدث نتيجة أزمة صرع، وأن ذلك لم يكن سوى مقدمة لنوبة داء المفاصل.

ـ كيف لنا أن تصور أن يكون هذا هو مقدمة داء المفاصل؟ ـ تساءل، بينما كان يزيح العشب بعصاه ـ إذا كنت تقول، يا سيدي، إنك لم تتعرض قط لنوبة صرع، بل لهذه الحالات الغريبة من الشرود، فقد أستنتجُ بكل تأكيد أن مرضك، كما هو حال دائي، لم يتم تشخيصه بشكل جيد. ـ ثم اكتفي بإعطائي اسم وعنوان طبيبه الخاص في إنجلترا. هاميلتون هو من أخبرني أن الشاعر قد اقتنى منزلا في الجزيرة بعد أن اجتذبهُ هدوؤها. أما هو، على العكس من ذلك، فقد كان يقيم في وايْت منذ طفولته. فقط دراسة الطب في جامعة كامبريدج هي التي أبعدته عن المكان.

ـ إن ألفريد ينصحك بطبيب في لندن وأنت تتوفر على طبيب بين يديك ـ قال مبتسما. إن لم يكن لديك مانع، أنا بنفسي أستطيع أن أقوم بتشخيص مرضك. يكفي أن تجلس معي لبضع ساعات ونراجع معا ملفك الطبي.

شكرتُه مسرفا في التعبير عن امتناني. تأثرتُ لاستعداده لمساعدة شخصيتي الوهمية. فكرتُ أن علي أن أنغمس في كتب مكتبة بيتْس بْليسْ حتى أنسج حكاية ترضي فضوله.

ـ لو حثثْنا الخطى فإن إميلي ستعدُّ لنا الشاي ـ قال تنيسون. ـ إنها ستفرحُ لرؤية وجوه جديدة. هي تحب فرنسا وثقافتها، وإذا ما سمعت أشياء عن هذا البلد فسيكون يومها سعيدا.

ـ هل أنت متزوج، يا سيدي؟ ـ سألني هاميلتون.

ـ لا ـ قلتُ ـ كنتُ دائما أخشى الزواج.

ضحك الاثنان.

ـ أفهم ذلك ـ قال الشاعر ـ تأخرتُ ثلاثة عشر عاما قبل أن أقرر الزواج من إميلي، وربما ما كنتُ لأقدم على هذه الخطوة لولا أن الشِّعر أظهر لي ثمارها في نهاية المطاف. عليك أن تعلم، يا صديقي، أنه لا أحد يتزوج شاعرا يعيش في فقر مدقع، وأنا كنتُ كذلك لوقت طويل.

ـ لحسن الحظ، زوجتك إميلي امرأة عنيدة وانتظرتْ ـ قال هاميلتون مبتسما.

ـ هذا الطبيب هنا أرمل وفيٌّ لذاكرته ـ قال تنيسون مبتسما. ـ اكتفى هاميلتون بحركة موافقة من رأسه ولم يقدم مزيدا

من التفاصيل، لأن صاحبة البيت خرجت لحْظتَها لتستقبلنا.

كانت ليدي تنيسون فارعة هيفاء، لكنها تنحني أو تنهض برشاقة وفق حجم مُخاطَبها. لها عينان مدوّرتان ومندهشتان بلون الكهرمان، أنف دقيقة ومنخاران صغيران وفمٌ بشفتين رقيقتين مستعدتين لتبتسما على الدوام. كانت أنثى رقيقة، لكن دون تلك الملامح التافهة للأنوثة. يداها الطويلتان لا تبديان أي تردد لا عند التحية، ولا أثناء تقديم الشاي. كان شيئا ممتعا رؤيةُ كيف كانت موسوعية الشاعر وكل هيبته في حضرتها تتلاشى كأنها بالونات تفقد ما بداخلها من هواء. كان واضحا أنها استطاعت أن تُدجّنه وتجعل منه كائنا وديعا ومسرورا بكل بساطة. في صالون إقامتها في فارينغفورد استقبلتنا بمجموعة من الفناجين الجميلة ودعتنا لتذوق حلويات لذيذة. حكت لي أن المنزل يتوفر على عشر غرف وأن أصعب شيء كان عليها القيام به هو إعادة بناء القنوات ووضعها من جديد. كانت إميلي تتحدث الفرنسية بلكنة خفيفة، لكن قواعد النحو التي تستعملها في جملها وطريقة حديثها كانت خالية من الأخطاء.

آه، النساء! كلهن يتمتعن بحاسة شم قوية كحاسة شم الكلاب. قمتُ بكل ما في وسعي كي أبدو مرتاحا ومبتهجا، لكني تكلمت أقل ما يمكن وأنا أخشى أنه ربما أشعر بكامل حريتي في تلك الأجواء الأنيقة، فألمّح، عاجلا أم آجلا، إلى أمور أو أحداث تشي بأنني لستُ فعلا ما أتظاهر بكونه. بيد أن ليدي تنيسون بالكاد كانت تخفي حرصها على معرفة حكايتي وأصلي. كانت تسأل دون توقف وهي تعلق على ما يجري من أحداث في فرنسا وتعبر عن انشغالها بأن الملك لويسْ فيليبْ لن يتمكن من الحافظ على عرشه.

ـ كان ذكيا حين اقترح أن يكون نموذجا للملك «المواطن». كنتُ متحمسة لشخصه بعد شارْل العاشر المثير للحزن والأسى. تكفي الإشارة إلى حكاية تنقلات لويسْ فيليبْ، وهو يعتني بخيله، يعطي دروسا في اللغة الفرنسية بجامعة بوسْتون، يساند الثورة ثم يرى، بعد ذلك، والده فوق المقصلة. يا إلهي! ـ صاحت بإعجاب صادق ـ لكن قرار تقليص دائرة التصويت ومنح هذا الحق فقط لملاك الأراضي كانت شوكة في حلق كل البورجوازية. هل تعلم شيئا عن «حملة المآدب»؟ ما رأيك؟

ـ ساندتُ الثورة بدوري ـ قلتُ مبتسما ـ ملكيةٌ بصلاحيات محدودية، هذا ما تحتاجه فرنسا. أثبتت البورجوازية أنها غير قادرة على ممارسة السلطة بكل هدوء. انتهى بهم الأمر بإعدام كُتّابهم المثقفين، أبطالهم.

ـ هل يعني هذا أنك من مناصري الملكية؟

ـ كلا، لا تسيئي فهمي ـ صحّحتُ ـ أنا جمهوري. الحرية، المساواة، والأخوة مفاهيمٌ أساندها، لكن أظن أننا نحن الفرنسيون لسنا مستعدين بعد، للمساواة على الأقل.

ـ هل لديكَ أبناء؟ ـ سألتْني.

ـ لا ـ أجبتها ـ ليس بعد. أتمنى أن يكون لي أبناء في يوم من الأيام.

لا بد أنني ابتسمتُ في حزن لأنني شعرت كأنني القديس بطرس وهو يرفض طلب السيد المسيح. لكن تنيسون لم يكن شاعرا هكذا عبثا، فتدخل ليخلصني من الحصار الذي ضربته عليّ زوجته المُطّلعةُ السَّؤولة.

ـ هيا يا امرأة، دعيه وشأنه. حدثيه عن البيت، عن شجيرات الورود. لقد جاء ضيفنا إلى الجزيرة بحثا عن الراحة وليس عن القلق.

أظن أن ليدي إميلي، امرأة مرهفة الحس، وتتمتع بذكاء ومهارة غير معتادتين للتناغم مع رغبات زوجها، انتبهت إلى أن انشغالها بالأجواء السياسية غير المستقرة في فرنسا قد يُترجمُ قلقاً بالنسبة إلى أي فرنسي. وفورا استبدلت فضولها بتحفُّظ

فاستفدتُ من ذلك في نهاية الأمر، لأنها، كي تعوضني عما صدر منها، أخذتني لأتعرف على المنزل. إن اليد الواثقة وغير المدّعية لهذه المرأة قد استطاعت أن تجعل بيتا قديما يعود إلى سنة ١٨٠٦، بُنيَ في الأصل وفق أسلوب العمارة الجورْجية وأُدخلت عليه بعد ذلك لمساتٌ وأبراج من الأسلوب القوطي، يتحوّلُ إلى مكان بسيط ومريح. كان تنيسون يقول إنهما في البداية اكتريا البيت ليقضيا فيه فترات الصيف. وكان صيف واحد كافيا لتبدأ زوجته في ذهنها وفي دفاترها بإعادة تشكيله وتصوره مكاناً يُمكن أن يشعرا فيه معا بالراحة لما تبقى من حياتهما.

ـ كان المنزل ـ قال لي ـ مثل بيت شعري على بياض، يمكن أن يتحول إلى كوخ متواضع أو كاتدرائية فخمة. له لغز التحفة الكلاسيكية ـ قال حاسما ـ لأنه يتكيف.

تمكنتُ من أن أتعرف على منزل فارينغفورد وأن أستوعب ما كان يقصده الشاعر بتلك الجملة التي بدت لي، في تلك المناسبة، ملتوية بشكل غير ضروري. ذلك أنه، دون أن يكون كوخا متواضعا، ولا كاتدرائية فخمة، كان منزل فارينغفورد يتوفر على عناصر من الكوخ والكاتدرائية. كانت الغرف فسيحة، لها نوافذ واسعة تطل على حديقة بها شجيرات ورد تحف كل المحيط، بحيث أنه من أي زاوية يمكن للمرء أن يرى في المستوى الأول ورودا من مختلف الألوان وخلفها الخضرة البسيطة فوق عشب حظي بعناية خاصة يحدّ صفا من الأشجار السامقة التي نحدسُ الأفق والبحر بين أغصانها. ويمكن الوصول إلى المكتب عبر سُلّم حلزوني، وتطل نوافذه على حديقة أمام البيت. كان هناك سلم مستند إلى آلية تسمح بالتحرك من نقطة إلى أخرى وبلوغ المجلدات التي تلامس عنان السقف. الكرسي ذو المسند للقراءة، مكتب من خشب صلب، أوراق متناثرة، ومقاعد منجّدة مغطاة بكتب دون ترتيب تنمُّ عن الإبداع المضطرب لصاحبها. أطْللتُ من النافذة فرأيت اللبلاب المتسلق وهو يخلق إطارا أخضر للعيون التي قد تنظر إلى الخارج. كان قطٌّ يرقد فوق الكرسي ذي المسند. كان من السهل تصور ربّات الشعر وهن يدخل متراقصات في تلك الغرفة. لم أكن رجل أدب ولكني كنت معجبا بمن يمارسون هذا الفن. أتذكر أنني شعرت هناك لأول مرة منذ مدة طويلة بدفق من الدموع يصعد من صدري. فكّرتُ أنه ربما يكون هدوء كذلك الذي تفوح به تلك الغرفة شيئا محظورا علي لما تبقى من حياتي.

وخلال تلك الجولة عبر القاعات والغرف رافقنا الدكتور هاميلتون، الذي كان يستمتعُ بالوقْع السحري لتلك الأجواء على نفسي.

ـ إنه ليس كاتدرائية، بيد أن المرء يشعر هنا بنفس خفّة الروح التي تبعثها في النفس مثل تلك البنايات. أليس كذلك؟ ـ قال لي ـ وقريبا سوف تتعرف على جولْيا مارغريت كاميرون!

أخبرني أن جارة آل تنيسون كانت فنانة ومصورة فوتوغرافية. كانت تسكن «ديمْبولا لودْج»، وهو منزل غريب جدا. وعدني هاميلتون أن يأخذني لأتعرف على هذه السيدة -الإعصار- الريح الطيبة، التي سوف تُوثق صورُها بيتَ الشاعر وزواره للأجيال القادمة. «قليلون هم الأشخاص الذي لهم وعي بأنهم يعيشون التاريخ، لكن هي واحدة من الاستثناءات» ـ قال لي.

الفصل السابع

عدتُ إلى موتيسْتون حوالي الساعة التاسعة ليلا. كان إبراهيم أمام البيت، منشغلا بغيابي.

ـ هل أنت بخير؟ ـ سألني وهو يقفز من فوق السور حيث كان جالسا.

ـ على أحسن وجه يا إبراهيم، أنا بخير ـ أجبته ـ تعرفت على الشاعر ألفريد لورد تنيسون وزوجته، وعلى الدكتور هاميلتون، صديقهما. أظن أنني سوف أتسلى في هذه الجزيرة، في نهاية الأمر. ـ ابتسمتُ حتى أخفي أنني متأثر لانشغاله بأمري ـ عليك أنت أيضا أن تبحث عن أصدقاء هنا، لأن إقامتنا ستكون طويلة، على ما يبدو.

ـ إن الصداقات لا تشجع على التكتم والسرية، يا سيدي ـ قال لي، وهو يتناول مني القبعة والعكاز.

ـ لكن، ها أنت ترى، معرفتُهم حفزتني على الإصرار على كتابة «أسطورة» حياتي التي طالما نصحتني بها ـ قلتُ له، وأنا أحاول ألا يقلل تحذيره من المزاج الإيجابي الذي أحيتهُ تلك الجولةُ في نفسي.

كان إبراهيم على حق، من دون شك. وقد تأكدت من ذلك بنفسي في حديثي مع ليدي تنيسون حين كشفتُ، ليس عن رأي جورْج ديمولانْ، بل عن وجهة نظر شارْل تييوبالْد. والأسوأ من ذاك، أنه كان علي الآن أن أخضع للعقلية العلمية للدكتور هاميلتون. هذا الأمر ربما كان خارج وُسع إبراهيم، لكنه لم يكن خارج قدرتي، فكرتُ. وإذا ما منحتني الحياة فرصة لأعيش لا أتصور أنني سأستطيع القيام بذلك مثل سجين على الدوام. لا داعي لأقول إنني لم أشاطره هذه الأفكار. افترقنا عند باب البيت. هو اتجه إلى المطبخ ليهتم بأمر عشائي فيما ذهبتُ لأغتسل وأستعد للعمل في المكتبة تلك الليلة. جمعتُ أقلامي، أخرجتُ كراسة ملاحظاتي بغلافها الجلدي الخشن بعض الشيء التي اقتناها لي إبراهيم، واستغرقتُ في العمل لبعض الوقت حتى أخبرني طرقٌ بالباب أن الأكل كان جاهزا.

بعد النبيذ والطعام المطهي بالبطاطس أثناء العشاء، طلبتُ أن يقدموا لي القهوة في المكتبة. حتى ذلك الوقت بالكاد كنتُ أعرف ما تحويه رفوفها. حسب ويكهام، كان مختلف من سكنوا البيت يتركون فيه كتبا ومزيدا من الكتب. قال إن عمله يتمثل في أن يجد لها مكانا، لكن مادامْ أديلاييدْ اقترحت عليه أن يستعمل معاييره الخاصة في التبرع بالكتب التي كانت تحظى بالمتابعة: روايات قوطية وقصص غرامية، التي ما إن تقرأ حتى تصبح من دون أي شيء آخر تقوله. كان ويكهام يأخذها إلى نْيوبُّورتْ حيث كانت تشتغل مكتبة ذات شعبية كبيرة منذ بضع سنوات، أقيمت على شاكلة مكتبة «شارْل إدوارد مودي» الشهيرة في لندن، حيث يمكن للمرء أن يستعير رواية كل شهر مقابل جنيه واحد في السنة. وبما أن ثمن الكتب كان باهظاً، فإن تجارة مودي قد ازدهرت وكان يقال إن له ٢٥ ألف منخرط، من بينهم الملكة فيكتوريا نفسها. كانت مكتبة نْيوبُّورتْ في وايْت أصغر من ذلك، لكن صاحبها، السيد لانْكاستير، كان صديق مودي وبما أن الملكة كانت تقضي فترات طويلة في الجزيرة، فقد أقام مودي ولانْكاستير شراكة بينهما حتى يضعا الكتب رهن إشارة الزبونة المتميزة وحاشيتها.

ـ إن احتجت لأي كتب، نطلبه من لانْكاستير وسحيضره من لندن في غضون أسبوعين ـ قال لي ويكهام.

أن أعول على هذا الخيار كان أمرا يطمئنني، لأنه رغم أن قسم الكتب العلمية في مكتبة بيتْس بْليسْ كان لا يستهان به، على الأقل فيما يتعلق بعدد المجلدات، فقد كنتُ منشغلا لعدم توفر أي شيء يساعدني على إنشاء حالة صرع قابلة للتصديق حتى أصف للدكتور هاميلتون أعراض المرض كما لو أنها كانت تظهر علي. لقد أظهرتُ أمام الجميع أنني رجل نزيه. ورغم أنني أعترف بتصرفات تستحق اللوم والعتاب مثل فضيحتي الغرامية مع هانْرييتْ، في حياتي الخاصة، فإنني كنت أُظهر في الحياة العامة أنني نزيه أكثر من أي شخص آخر. لم يكن في سجلي حالات سرقة اقترفتُها ولا أحد يمكنه أن يلومني لأنني كنتُ سببا في تعاسته أو أنني أثرت في الملك كي يقذف به من النافذة. بل إنني كنت معروفا بتكتّمي، أو ما

يسميه بعضهم لامبالاتي الراقية التي تسمو على الصراعات الداخلية للسلطة. لا يتعلق الأمر (كم كنت أعرف ذلك حق المعرفة!) بكوني أتمتع بطيبوبة غريزية. كان ذلك امتيازا آخر، لا أقل ولا أكثر. أن يكون المرء ذا قيم وهو لا يحتاج لأي شيء مادي يُعتبرُ وجها آخر من أوجه البذخ المرتبطة بالوضع الاجتماعي، لأن هذا الأمر يسمح، بشيء من الدهاء، بمراكمة سلطات تثير لدى الناس رغبة أكبر من رغبتهم في الغنى المادي، لكني لم أشعر قط بهذه الغواية. أنْ أخادع هميلتون كان شيئا يصيبني بانزعاج يضايقني، ويثير شعورا بالفراغ في معدتي. هل كان حتميا أن أقوم بذلك؟ كان بالإمكان ألا أراه ثانية، وألا أرى تنيسون، أتحاشاهما، كما كان يقترح إبراهيم، وأن أقبل بأن التكتم والسرية، أحسن في حالتي؛ لكن، إن قبلت بهذه الفرضية فقد أحكم على نفسي بالعيش بقية حياتي مثل سجين. لم أكن أستطيع تصور ذلك. كيف أصف ما كنت على وشك القيام به؟ إن الذهن، مما لا شك فيه، ملتوي في نسيانه ولجوئه إلى صور خادعة. وأنا واقف في تلك الغرفة، رأيتُني كما لو أنني أطفو فوق جسدي. ضحكتُ من زيف موقفي الحرج. كيف لتأنيب ضمير غير ذي قيمة كهذا أن يوقفني أنا الذي كنتُ أرقد في قبر مزيف قرب زوجتي في قصر فو-بْرالانْ؟ إن كنتُ قد قبلتُ بأن أتظاهر بموتي الخاص، فما الذي يمنعني من أتظاهر بعيش حياة مُعينة؟

في وسط الغرفة كان هناك مكتب ضيق لكنه فسيح بما يكفي ليضم شخصين، واحد عند كل طرف من طرفيه. كان مكتبا من خشب ناصع اللون مرصع بخشب داكن تنتشر خطوطه نحو الاتجاهات الأربعة كأنه دائرة الريح. لمستُ سطحه البراق والصقيل مبدياً إعجابي بما أنجزه الصانع الذي افترضتُ أنه قد يكون إيطاليا. بعد ذلك، مشيتُ بمحاذاة الرفوف، أمرّرُ يدي على كعوب الكتب دون أن أركز على العناوين بعد. حرّكتُ السلاليم فوق السكة، داعبتُ القطيفة الخضراء التي تغطي الكرسي الوحيد الذي يشغل الطرف الأيمن من الطاولة-المكتب. جلستُ برهة أنظر من حولي. كان علي ليس فقط أن أُسْكت تأنيب ضميري، بل أن أجبر عقلي على الابتكار والتخييل، وهو عمل رائع كانت تعوزني الدربة للقيام به. فكرتُ في ألكسندر دوما وقدرته الكبيرة على الابتكار. عندما عرفتُه كان شابا يشتغل في القصر الملكي كاتبا موظفا في مكتب لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ قبل أن يصبح ملكا. كان محاورا فصيح اللسان متقد الذكاء، يسحر بفطنته في الحجاج ببراعة وازدرائه الظاهر للأعراف وآراء الآخرين. أتذكرُ يوم بدأ ينشر مقالات صحفية ويستعرض موهبته في كتابة أعمال مسرحية. كان والده ابن جارية من هايتي وكان ألكسندر مجعد الشعر مثل الزنوج ويحمل الاسم العائلي لجدّته. كان بدين الهيئة، له عينان خضراوان رماديتان مُتّقدتان يستطيع بهما، وفق ما حققه من فتوحات متعددة، أن يقوض مقاومة النساء. كان معروفا بعشيقاته الكثيرات ومغامراته الغرامية المتعددة. بعد سقوط شارْل العاشر، عاد لفترة قصيرة إلى البلاط واحتفى بصعود لويسْ فيليبْ، رئيس عمله الأسبق، إلى سدة العرش، رغم أنه سيعلن بعد ذلك عن تحمسه المطلق للجمهورية. لا أذكر إن كان وقتها ـ ١٨٣٠ ـ قد كتب رواية الكونت دي مونت كرستو، لكنه كان فعلا يحظى بموكب هائل من المُفترين والمعجبين الذين كانوا يتبعونه كالخطاطيف أينما حلّ وارتحل. إن شهرة الفكر هي الشهرة الوحيدة التي كنتُ سأطمع في نيلها لو أُجبرتُ على الاختيار بين عدد من أشكال الشهرة. بخيال مثل خيال دوما قد أبتكر قصة مثل قصة مونت كرستو، فكّرتُ، وأتصور نفسي هاربا من العدالة التي تلاحقني ظلما ثم أعود بعد ذلك لأطالب بحقي، باستثناء أنه لن يقدم لي أي رفيق من رفقاء الزنزانة كنزا من الكنوز.

فوق طاولة المكتب، وجدتُ كُتُبا كان إبراهيم قد استبقني وبحث عنها في المكتبة بطلب مني. أظن أنه، بحكم معرفته أنني أميل لاستكشاف ما هو غريب، كان الكتاب الذي يتربع على قمة الكومة الصغيرة لا يحمل فقط عنوانا محيرا، «ثَقْبَ القِحْفِ»، بل تُزينه صورة مدهشة لثقب مربع في جمجمة بشرية.

شدّني الكتاب من الصفحة الأولى. كان الأمر يتعلق بمجلد يُنسبُ إلى باحث الأنثروبولوجيا الشهير، الفرنسي بّول بْروكا، حول قضية الجمجمة الإنْكيّة التي عُثر عليها في منطقة كوسْكو في البيرو من لدن شخص يدعى إفْرايم جورْج سْكْوير. كانت

ممارسات ثَقْبَ القِحْفِ من الأمور المعتادة في الثقافات القديمة منذ العصر الحجري الحديث. ما لم يكن واضحا هو إن كانت تلك الممارسات تُنجزُ لمعالجة التشنجات الناتجة عن الصرع، وكسور الجمجمة أو من أجل «فتح منفذ تخرج منه الشياطين المستقرة بذهن المريض». في حالة جمجمة البيرو، كان الشيء المستجد، علاوة على المربع المفتوح بدقة غير معهودة، أن كل شيء يشير إلى أن العملية أُجريت على مريض حيّ، ربما يكون قد عاش بعد العملية لمدة أسبوع أو أسبوعين على الأقل، نظرا للنسيج الملتحم حول الثقب. كان الكتاب يروي كيف أن إفْرايم جورْج تقدم أمام الجمعية الطبية في نيويورك بتلك الجمجمة وترك كل زملائه مندهشين. كان مصدر اللُّقْية هو بيت سيدة غنية من كوسكو يعج منزلُها القصر في ساحة المدينة بأغرب وأغلى البقايا المقدسة وأجهزة السكان الأصليين. أمام اهتمام جورْج بالجمجمة التي عُثرَ عليها في وادي يوكاي، سلّمتها إليه السيدة زينتينو حتى يَدْرسها ويعرضها في نيويورك. كان الكتاب يقدم معلومات غزيرة عن المستكشف. لا أعرف لماذا وجدت تلك المعطيات عن حياته مشوقة للغاية. ربما لأنني من غير وعي كنتُ شخصيا أبحث عن منفذ، مثل منفذ جمجمة كوسكو، أهرب عبره من شرط وجودي كهارب؛ وربما أيضا لأنني سرعان ما أدركتُ أن هناك جهودا شريفة ومناسبة لوضعي الاجتماعي. الاستكشافُ عمل محترم، وتلك الأراضي البعيدة ذات السماء الغريبة (هوندوراس، نيكاراغوا، السالفادور) يمكنها أن تحتضنني دون أن تحوم حولي أي شكوك. هناك ربما أستطيع أن أبتكر لنفسي حياة لم يسبق لي أن تصورتُ من قبل أنها يمكن أن تكون في متناولي. سنوات بعد ذلك، سيقوم شخص آخر، سْكييرْ، بتأليف سلسلة من كتب الرحلات التي تصف ثقافات وعادات أهل الهوندوراس، ونيكارغوا والبيرو. لستُ أدري إن كانت ذاكرتي تخونني، لكن في الصور كان هذا الأخير يظهر رجلا ذا نظرة طيبة، أنيقا ومتعدد الأوجه لأنه كان في الوقت ذاته صحفيا، وسياسيا، بل إن الرئيس زكاري تايْلور قد عينه مكلفا بشؤون الولايات المتحدة الأمريكية لدى جمهوريات أمريكا الوسطى. أعترفُ أن القارة الأمريكية، وقتها، لم تكن فقط لا تثير اهتمامي، بل بالكاد كنتُ أعرفُ شيئا عما يجري في الولايات المتحدة والمكسيك. لم أكن أعرف بعد كم من الآفاق ستبدأ بالتوسع أمام خيالي منذ تلك الصدفة الخالصة التي قادتني لقراءة شيء ما حول جمجمة كوسْكو.

الفصل الثامن

منذ شبابي كنتُ أشعر بميل شديد نحو الملابس المنزلية. كانت المباذل واحدا من أشكال البذخ التي لم أتردد يوما في الاستمتاع بها. كنتُ أملك منها في دولابي بشارع فوبورغ سانت هونوري مجموعة من الإبداعات الحريرية، وأخرى من الصوف أو نسيج الكشمير الخاصة بفصل الشتاء. وكان أول مبذل حصلتُ عليه هدية من أبي قدمها لي يوم عيد ميلادي الخامس عشر. أن أندسَّ داخل ذلك اللباس لأتناول الفطور ثم أقضي جزءا كبيرا من الصباح ملفوفا بين ثناياه كان بالنسبة لي إعلانا عن بلوغ سن الرشد. فالمرء يُقلدُ الآخرين منذ ولادته.

خلال أسبوع كامل، ملفوفا داخل مبذلي، بالكاد غادرتُ بيتْس بْليسْ. قرأت كل ما استطعت عن «المرض الكبير» و«المرض الصغير». أرسلتُ إبراهيم إلى نْيوبُّورتْ في مهمة للحصول على كتب حول الموضوع. كتبُ ترجمة حياتي المزيفة بكثير من التفاصيل. وكان القيام بذلك شيئا مقلقا للغاية بالنسبة لي. يجب أن أعترف أنه أن تكون نبيلا في فرنسا في تلك الفترة كان شيئا يدفع إلى تعطيل الفكر. فالمرء يتحصن بقناعاته ومعرفته لأن المحيط المتقلب من حوله يهدد كل ما راكمه من يقين إلى غاية تلك اللحظة. ومهما بذلتُ من جهد بالكاد كنتُ أستطيع أن أجبر مخيلتي على تصور طريقة جديدة للنظر إلى العالم. مع تسعة أبناء وفاني، لم أجد وقتا للتعمق في فهم التغيرات المتسارعة من حولي. أن أكون وفيا لذوي وأهلي ثم بعد ذلك للملك لويسْ فيليبْ كان شيئا فيه ما يكفي من العمل الشاق. في موتيسْتون، كانت مهمة إعادة ابتكار نفسي تعني أن أكتشف ذاتي شخصا صارما ومرتاحا داخل حكاية كتبت وقتا طويلا قبل أن أظهر أنا على ركح حياتي الخاصة.

مجموعة ملابسي المنزلية، دولابي المليء ببدلات لا تعد ولا تحصى، كل ذلك كان في ملك رجل متأنق، وشخص تافه. فالملابس لا تخطئ. رغم أنه لم تكن تعوزني الأفكار ولا الشخصية، فإن مجموع «الأنوات» المتضخمة التي كانت تحيط بي قد أقنعتني بأن استسلامي لها دون قتال كان هو الطريقة الوحيدة لضمان بقاء مريح على قيد الحياة. هكذا كانت علاقتي بوالديّ، بصهري، بالماريشال سيباستياني بل وحتى بفاني. لو لم تظهر هانْرييتْ دولوزي ديبورْت في بيتي، لكانت حياتي متوقعة حتى القبر، وهو ما كنتُ أعتبره، بعد كل ما وقع، مصيرا مملا وغير مُوفّق. آه! لكن هانْرييتْ، بذكائها المغري الذي غالبا ما كان يتركني من دون كلام، نظرا لدقة قراءتها للواقع، اندست في الجانب القلق من روحي وحركت ما كان ينبغي أن يظل مسرنماً داخل شخصيتي حتى تجد حياتي مكانا لها في ذلك المحيط.

عندما أفكر فيها، فإن أول ما يُشرق في ذهني هو الشكل المثالي لثغرها.

لم أر في حياتي فماً بخطوط أحسن من تلك التي وهبت الطبيعة ثغرها. عند منتصف الشفة العليا «قوس إله الحب» الذي وُضعَ بدقة نحات لم يكن أقل شهوانية من باقي الجسد. عينان واسعتان، أنف أخْنس، بشرة ناضرة لفتاة في الثامنة والعشرين، كل ذلك كان تنبيها بأنه لا ينبغي للمرء أن يثق ببراءة الكُلّ. اعترفتْ لاحقا أن نظراتي المحدقة في شفتيها قد أزعجتها أثناء المقابلة وأنها اضطرت لتبذل مجهودا خارقا للتركيز من أجل أن تجيب على أسئلتي بطريقة أكثر انسجاما ودقة. لكنها أجابت بشكل جيد. أشارت إلى جدها، البارون فيليكْس ديبورْت، حتى تسلط الضوء على سلفها، رغم أنني علمتُ لاحقا أن الجد كان شحيحا ورفض دائما أن يعترف بها لأنها كانت نتاج علاقة غرامية عابرة بين أمها، لوسيل ديبورت، ورجل من رجال الكنيسة، مونْسينْيور دولوزي. كانت هانْرييتْ، قبل كل شيء، امرأة وحيدة. فاليُتم والرفض اللذان كبرت فيهما منحاها مزاجا من الأشواك الحادة وقساوة كانت تغطي عليها بنجاعتها الدقيقة. لكنها كانت بنتا تكرس نفسها لخدمة الغير فأحاطتْ أمَّها بالعناية ورافقتها حتى توفيت نتيجة وباء الكوليرا الذي اجتاح باريس سنة ١٨٣٢. كانت هانْرييتْ تتقن الرسم. خلال المقابلة، فتحت المحفظة وعرضت علي رسومات إعدادية دقيقة منجزة بالريشة تصور أطفالا يلعبون فوق دراجات صغير في تولوري، بَجعات، مسلّة ساحة الكونكورد، ومنازل في شارع «لابي». حدثتني عن أستاذها بْييرْ كْلود دولورمْ،

عن سنوات الداخلية في مدرسة مادام سيلي، عن عملها في ورشة النّقاش نارْجو بشارع روان. بعد ذلك، حدثتني عن نينا، بنت ليدي هيسْلوب، مشغلتها السابقة، وهي سيدة إنجليزية راقية تقيم في لندن.

ـ كانت أربع سنوات حلوة ـ قالت مبتسمة، وقد انحنى «قوس إله الحب» على شفتيها المقوستين حول كلمة «حلوة».

كان بإمكاني أن أشغلها في الحال. من بين ثمان مرشحات أخريات، كانت هي أكثرهن كمالا، لكني رفضت أن أعطيها الانطباع بأنها قد تحصل على الوظيفة بسهولة كبيرة. كنتُ أتلذذ بفكرة تصورها وهي تتحرّقُ جمرا في انتظار قراري. خرجتْ وهي تترك لي رسالة تزكية من لدن ليدي هيسْلوب. أذكر أنها حين كانت تودع شدت القلنسوة الصفراء الشاحبة تحت ذقنها وهي تسحب الشرائط التي تشكل أنشوطة ثم ابتسمت لي. حدستُ أنها كانت تعلم من دون شك أنني سأستدعيها مرة أخرى.

وقع سحرها على الأطفال منذ البداية مثل حب من أول نظرة. وحدهُ غاستون، الابن الأكبر، ظل متحفظا، لكن الأبناء الثمانية الآخرين انسجموا مع روتين الدروس والأنشطة التي كانت متعة حقيقية على ما يبدو. بالنسبة لي، كان ارتياحي وأنا أُعوّل على سندها في تدبير شؤون الأبناء شيئا عظيما. كانت فاني دائما أُمّا فاترة العواطف ومزاجية الطبع. هاجسُها الأكبر هو صورة العائلة، الملابس وآداب اللياقة التي ينبغي أن يتبعها الأطفال. أما أن يتعلموا معارف مفيدة وينموا ذكاءهم فلم يكن يهمها في شيء. كانت متسلطة ولا تستقر على حال، لدرجة أنه سواء أنا كما هانْرييتْ توصلنا إلى قناعة أنه من الأحسن أن نحد من تفاعلها مع الأطفال. فرضتُ قيودا مفهومة، كألاّ تدخل لتراهم أثناء الدروس، ولا في الساعات المخصصة للمطالعة، أو أن تقطع بخرجات للتسوّق الأنشطة المبرمجة خلال اليوم، لكن فاني بدل أن تفهم ذلك، ثارت ضدي وأمام الأطفال أخذت تهاجمني وتنعتني بالمتسلط، أو تريد أن تكسب ودّهم فتأمر بأن يقدموا لهم حلويات ومأكولات لذيذة في أوقات غير مناسبة تماما. كنتُ أغضب حين أدخل فأجد هانْرييتْ جالسة بلا مقاومة تنظر إلى نقطة ضائعة في الفضاء، جسدها منهار فوق الكرسي، بينما فاني، وهي تحمل علبة كبيرة ذات شرائط، تضحك وتمشط شعر لويزا وإيزابيل.

ـ يصعب علي أن أطبع في أذهان الأطفال روح الانضباط مع أُمّ مصممة على أن تقطع وقت دراستهم ـ كانت هانْرييتْ تقول شاكية ـ لكنها أمهم. لا يمكن القيام بأي شيء ـ ثم تبتسم بعذوبة.

وبلغ الوضع درجة قررتُ معها أن أمنع حضور فاني في جناح البيت المخصص للأطفال. وضعتُ نظاما وأجبرتُ فاني على توقيعه. كان من السهل بعد ذلك أن ينعتوني بالقاسي، لكن وقتها كنتُ أعيش تحت حصار زوجتي. كان من ثوابت حياتي اليومية غيرتُها غير المبررة، مطالبُها وشكاواها، هوسُها باسترجاع حب هي نفسها من تكلفت ليست فقط بإخماد شعلته بل حوّلته إلى نفور. فقط من أجل أبنائي بقيت مستمرا في ذلك الزواج الذي صار شنيعا لا يطاق يوما عن يوم. ما كان لي أبدا أن أسمح بالتعسف الذي مارستهُ عليّ فاني. أخضعتْني لموت متعدد وتكلفتْ بتسميم حياتي على مهل. عندما ظهرتْ هانْرييتْ في بيتنا سنة ١٨٤١، كنت قد تخليتُ عن أي شكل من أشكال الحياة الزوجية. أذكرُ جيدا آخر مرة استطاعت فاني باكية أن تُدْخلني إلى فراشها. غبي أنا الذي وقعتُ في شراكها لأنها كانت تعرفُ جيدا خصوبتها المدهشة. وكانت النتيجة هي ابنُنا رايْناردْ. أظن أنها أنجبتْهُ فقط كي تورطني معها أكثر.

كانت علاقتها بالأمومة تتركني مندهشا. لست أدري أي متعة غريبة كانت تجدها في الحمل، أو ما الذي كان يتغير في دمها، لكن كل أنواع شهواتها كانت تزداد حدة: تأكل أطنانا من المحّار، تأمر بإحضار جراد البحر والرخويات، تستحم بمياه معطرة وتأمر مادام دوبْريز، مربية الأطفال آنذاك، أن تدلك جسدها بزيوت معطرة. ضحكاتهما معا في بيت النوم! نظراتهما المتبادلة! ومهما كررت مع نفسي أن شكوكي تعود إلى جهلي بطبيعة العلاقات الحميمية بين النساء، كانت رؤيتهما تثير في نفسي مزيجا من الإثارة والنفور. ومهما كانتا تتصرفان كأنهما مبتهجتين في فضاء أنوثي لا مكان لي فيه، كان لدي انطباع بأن

فاني على الأقل كانت تنتظر ردة فعل من جانبي. لا أدري إن كانت تفكر في إثارة غيرتي أم توحي لي بممارسة ألعاب خليعة. فهل تكون امرأة مُغْتلمة تتستّرُ على ذلك؟ هل كانت تستعمل الأمومة، بما تمثله من هالة النبل والأحاسيس الصافية، غطاء كي تطلق العنان لرغباتها الشرهة؟

كانت تتحمل بافتخار شكلها المنتفخ شهادةً على حياتها الجنسية المكثفة. سمعتُها توشوش لصديقاتها: «ما ذا أفعل إن لم يكن قادرا على النوم إلى جانبي دون رغبة في لمسي؟». حتى في تلك الحالات، كانت تستعمل ألف حيلة وحيلة كي أضاجعها. كانت تقول إن ذلك يخفف من وزن بطنها، ويزيل عنها الآلام. عندما كنا لا نزال نحب بعضنا، كنتُ أضحك. كنتُ أصدقها ولم أكن أعاني من أي مشاكل لها علاقة بالقوة الجسدية. لكن فتورها المتزايد أمام المواليد الجدد كان يبدو لي أمرا غامضا. أي حيوان آخر من الثدييات كان أكثر أمومة منها. كانت تُخرجُ الأطفال من بطنها ثم تدير لهم ظهرها. لا تريد أن تعرف عنهم أي شيء، ولا تهتم بهم. كانت ترضعهم أو لا تفعل ذلك، حسب مزاجها. كان عليّ أن أحصل على مُرضعات، وبعد ذلك على مربيات أو مدرسات. كنتُ أنا الأم الحقيقية لأبنائي. تملّكتني شكوك فظيعة نظرا لانعدام رجاحة رأيها، وبسبب هواجسها وغرائزها الانتقامية. كنتُ أخشى منها أي شيء. لم تكن امرأة كأي امرأة أخرى، لم تكن في كامل قواها العقلية. رسائلها لا تكف عن التراكم فوق مكتبي أو تحت بابي. لستُ نادما على ما وضعتُه أمامها من عراقيل في علاقتها بالأطفال. دفعتني هواجسها إلى أن أمنح هانْرييتْ سلطة مطلقة على الأطفال. هي من كانت تسهر على كل ما يتعلق براحتهم وهي مسؤولة أمامي أنا لا غير.

لقد أضعتُ خيط أفكاري وأنا أنغمس في الماضي. صارت الأيام أكثر قصرا وظلاما ولست أدري ما الذي عليّ أن أتعلمه أكثر من هذا عن الصرع حتى أُكَوّن ترجمةَ حياتي من أجل الدكتور هاميلتون. إن الصرع مرض فضفاض. يمكن للمرء أن يعاني من أحاسيس غريبة، هالات، إشراقات أو نشوات ويُعتبرَ كلُّ ذلك جزءا من المرض. يُسمونه «المرض الصغير»، لكن حتى الأطباء لا يعرفون حق المعرفة بماذا يتعلق الأمر. «المرض الصغير» تسميةٌ تشير إلى اللغز. إن القديسين المتصوفين يمكن أن ينسبوا لأنفسهم هذا المرض لما يعتريهم من حالات غيبوبة. أما «المرض الكبير» فهو شيء مختلف تماما. ورغم أن هذا التشخيص هو ما اقتسمته مع الدكتور هاميلتون، كنت أعرف الآن ما يكفي عن المرض حتى أستحثه كي يقدم لي تشخيصا مماثلا لذلك التشخيص الذي تلقاه تنيسون في لندن. وهذا الأمر لن يرضيه فحسب بل سيساعدني في ترسيخ بناء تماهٍ ودّي معه، ومع الشاعر وزوجته. حالة أخرى مشابهة! كنتُ أعرف بالتجربة كم هو مريح أن يعرف المرءُ أنه ليس الوحيد في معاناته.

إن القراءة حول علم الأعصاب، والدماغ، وبنائه الدقيق والكيميائي، أحيت في نفسي إعجابا لطالما كان يبعثه في ذاتي علمُ وظائف الأعضاء. لو لم أكن نبيلا، كنتُ دائما أفكر أنه قد يعجبني أن أكون طبيبا. منذ شبابي تعلمتُ كثيرا من أمور علم الحياة حتى أعوض عن موهبتي المكبوتة. مع هاميلتون يمكن أن أتعمق في معارف أخرى. كانت تحيرني طيبوبته، عيناه الواسعتان، وجهُه بوجنتيه العريضتين، صوتُه بنبرته الخفيضة والعذبة. إذا كانت قوة الشاعر وشخصيته تكبحاني، فإنني مع هاميلتون كنتُ أشعر بالراحة، كما لو أن الأمر يتعلق بشخص كنتُ أعرفه قبل مدة طويلة.

الفصل التاسع

كوابيس. كوابيس فظيعة. الدّمُ له طريقة خاصة للبقاء حيا في الذاكرة. أحمر متدفق على الدوام. لا يمكن تصور كمية السائل الذي يخرج من شريان كالشريان السُّباتي. بالنسبة لمن رأى مثلنا مرة هذا المنبع الذي تتدفق منه الحياة مسرعة، فإن الرؤية تظل مختومة بشمع أحمر في الذاكرة. لا أعلم متى بدأتُ أصيح أثناء النوم، لكني أعرف أنني كنتُ أفعل ذلك تكرارا. صيحاتي كان يقف لها الشعرُ في الرأس وحالةُ السرنمة التي أكون عليها، قبل أن أستيقظ، تعطي انطباعا مرعبا، حسب ما كانوا يقولون.

ذات ليلة استمر خلالها السمر متأخرا بعد العشاء، اقترحتُ على هاميلتون أن يقضي الليلة في بيتْس بْليسْ ويتفادى بذلك البرد والظلام أثناء رحلة العودة إلى الجهة الأخرى من الجزيرة. قبلَ اقتراحي فآويناهُ في غرفة الزيارات. عند الفجر، ذهب إبراهيم مهرولا لينادي عليه عندما لم يتمكن من أن يوقظني من كابوس كان يلمُّ بي بينما كنتُ أصيح وأئنُّ. وهكذا استيقظتُ على وجه هاميلتون وهو يرجُّني.

ـ جورْج، جورْج، عُد يا صديقي، عُد!

عدتُ بطبيعة الحال. كنتُ دائما أعود من أحلامي. كل مرة، كانت طبقة من البرد الرطب تغطي جسدي والعرقُ يُبلّلُ ملابسي. لكني كنتُ أعود بانتظام إلى الحياة رغم أنه في الحلم كانت فاني تضع يديها حول عنقي، تفتح الشريان السُّباتي بظفر طويل من أظافرها وتنظر إلى عينيَّ حتى أصبح منْزوفا بلا حياة فألقي بنفسي داخل التابوت بالقرب منها ثم أرقد بعينين مغمضتين، لباسي مضرج بالدماء ويديّ مشبوكتان فوق صدري. حينئذ تعود إلى مكانها في المدفن وتغمض عينيها.

في تلك الليلة، لست أدري إن كان بسبب تلك الهالة من الطيبوبة التي تحيط بهاميلتون، أو نظرا لاستعداده لفهم الطبيعة الإنسانية، أثر في حضورُه حدّ البكاء. انتحبتُ دون تحكم في بكائي. فاجأني عمق قلقي. كان البكاء مؤلما، أجشّا لا عزاء له. شعرتُ أنه بدل أن يكون تفريجا، مَخْرجا لحزني وخيبتي، كان صدعا ينفتح ليجردني من أقنعة وذروع، سيلا جارفا يهلكني. أجبرني الخجل من الكشف عن عمق الهجران الذي أشعر به على الهدوء. طلبتُ العفو من هاميلتون. كنتُ أعاني من كابوس متكرر، كذبتُ، حيث كنتُ أرى كاميْ ديمولانْ يموت يائسا فوق المقصلة لأنه لا يعرف مصير زوجته لوسيلْ.

ـ هذه القصة تجعلني أشعر بتقمص عاطفي كبير حتى أنني في الحلم أصبح كاميْ ديمولانْ في طريقه إلى المقصلة. أحس بعجزه وأشعر بيأسه.

ـ أشخاص مساكين. أليس كذلك؟ لا أستطيع حتى أن أتصور كيف كان ذلك ـ قال وهو ينظر إلي بحزن.

ـ أعدموا لوسيلْ أسبوعا بعد ذلك.

عانقني الطبيب بقوة. لقد شعر بدوره بالتماهي مع الآمال التي أثارتها الثورة الفرنسية في النفوس، قال. ولذلك فإنه يتفهم الرعب الذي ربما شعر به أبطال هذا الحدث وهم يتحولون إلى ضحايا انتقام خارج السيطرة نفّذَهُ رفاقُهم بالتحديد.

أظن أننا معا قد شعرنا بالارتياح ونحن نتحدث عن معاناة الآخرين ونضع مسافة مع تلك الحميمية الفجائية الناتجة عن كوابيسي وقلقي.

رافقني هاميلتون في تناول وجبة الفطور ولاحقا في جولة مشي أكد لي أنها قد تكون مفيدة لجسدي وروحي معا. مشينا في هواء صبيحة باردة ذات رياح، تحت سماء بها بياض كثيف ينفذ عبره ضوء الشمس ويمْحي معالم الأفق. أدهشتني ذاكرتُه التصويرية. كان يستطيع أن يردد عن ظهر قلب مقاطع كاملة ليس فقط من الشعر، بل مما كتبه نثراً بيرْسي بيشْ شيلي،

شاعر رومانسي إنجليزي كان منبهرا بأعماله. وازدادت شهرته بشكل كبير بعد موته المأساوي عندما غرق المركب الذي كان يسافر على متنه في خليج سبيتْسْيا في إيطاليا.

ـ شيلي هو أحسن من كتب عن الروح التي سادت بعد الثورة الفرنسية. لقد ولدتُ سنة ١٧٨٢ وكنتُ طفلا صغيرا جدا وقتئذ، لكني أذكر وأنا في الحادية عشرة من عمري، أنني كنتُ أسمع والدتي ووالدي يتحدثان ويتأسفان عن الضراوة المعدية وعن الموت خلال فترة «الرعب». أظن أن الفرنسيين في تلك الفترة، بحكم أنهم كانوا قريبا جدا من عين الإعصار، لم يتمكنوا من قياس وقع تلك الأحداث على روح تلك الفترة. فشيلي يُشيد بالانتصارات التي أحيتها الثورة، الحدث السعيد الذي قد يغير مصير الإنسانية بكاملها. كان هناك تفاؤل بقدوم مجتمع تصبح فيه المساواة، والحرية، والأخوة أساسا لكل العلاقات الإنسانية. ويعترف شيلي أنه كان يُنتظرُ خيرٌ كثير من الثورة حتى أن الحصول عليه كان مستحيلا. عليك أن تقرأه. إنه مقدمة قصيدة طويلة بعنوان «ثورة الإسلام». كثير من عشاق الثورة، كما يقول، صاروا محطمين معنويا بسبب «اليأس الحزين لأسمى آمالهم». لذلك فنحن نعيش فترة «حالكة من كره البشر»، يقول. يعجبُني وصفه، وما يستعمله من كلمات، حين يؤكد مثلا إننا نجد «عزاء في تضخيم اليأس الذاتي بمحض إرادتنا». ـ كان هاميلتون يقول ما يقتبسه من الشاعر بصوت غليظ وهو يقوم بحركات ليشير إلى أنه ينطق بكلماته. ـ شيلي كاتب مقالات كبير ـ تابع قوله ـ أُعلنُ عن ذهولي ودهشتي عندما يصف كاتب ما تماما ما أشعر به أنا وكثير من الناس مثلي. أتساءل كيف يفعل مثل هؤلاء الكُتاب ذلك، وأي موهبة تربطهم مع بقية الناس مثلنا؟ كأنهم يسمعوننا نُفكر.

ابتسمتُ. في مناسبات عديدة استطاع الأدب أن يمدني بتوضيح حول إدراك غامض أو أشكال من الحدس. وأنا أستمع إلى هاميلتون أدركتُ قلة الوعي الذي كان لي شخصيا وللكثيرين مثلي عن وقع الثورة على الإنجليز، والإيطاليين، وسكان بلدان الشمال الأوروبي، بل وحتى على الأمريكيين أنفسهم. أدهشتني قلةُ خيالي. كم من الوقت قضيت دون أن أرى أبعد من أرنبة أنفي؟ بالنسبة لي، كانت فرنسا دائما هي مركز العالم، والحضارة. بل حتى مقصلة الدكتور غييوتين نعتبرها اختراعا حضاريا. كانت آلة قتل فعّالة، سريعة ونظيفة. لا علاقة لها بحكاية رأس ماري ستيوارت، التي اضطر الجلادُ لضربها ثلاث مرات بالفأس كي يقطعها عن جذع الجسد. وحتى بعد أن انفصلت عن الجسد ظلت شفتا الملكة تتلوان الصلاة لبضع لحظات. كانت هذه الحكاية، وحكايات أخرى عن برج لندن، تزرع الرعب في نفسي، وتبدو لي ملخصا للفرق بين الرهافة الفرنسية والفظاظة الإنجليزية.

الاستجوابُ الذي أخضعني له هاميلتون بضعة أيام بعد ذلك حتى يصدر تشخيصا لمرضي، لم يكن مُرهِقا ولا مُقلقا كما كنتُ أخشى. كان هاميلتون كائنا غريبا، يهتم بجوانب متعددة من الحياة والطبيعة، وينتقل اهتمامه بسهولة من موضوع إلى آخر. هكذا أصرفتُ اهتمامه وأنا أُقحم في حديثنا أسئلة أو تعاليق توجه تقصياته نحو مجالات أخرى. وكانت جمجمة إفراييم جورْج، بثقب القحف المربع الذي يميزها، موضوع إعجابه. ألحَّ على أنه يجب أن يرى التزيينات ويقرأ النص بنفسه. كانت نارٌ مطقطقة أشعلها ويكْهام تضطرمُ في الموقد. جلب إبراهيم شراب الويسكي وقدمه لنا في كؤوس زجاجية قصيرة.

لزمتُ الصمت بينما كان هو منهمكا في القراءة. حين انتهى، رفع عينيه.

ـ ألا يبدو لك، يا جورْج، أن بلدك وبلدي قد أصبحا عجوزيْن نزقيْن؟ وعكس ذلك، أمريكا، كل هذه القارة الواسعة، عبارة عن لغز يعج بالإمكانات. تصور أنه إن كان علم النبات، والجيولوجيا، ودراسة المعادن وأنواع الحيوانات في هذه الجزيرة يحظى باهتمامنا، فكيف سيكون اتصالنا بغابات، وجبال وأماكن بالكاد حطّ بها العلم بقياساته وآلاته المجهرية؟

ـ أظن أنني بورجوازي أكثر من اللازم كي أتصور ذلك ـ ابتسمتُ ـ لكني أعترف أن فضولي هنا قد انتعش بعض الشيء. في فرنسا، اعتدتُ أن أذهب إلى الريف، وأستمتع بالطبيعة. أثار علم النبات اهتمامي منذ الطفولة. كان لدي مدرسٌ خاص

أيقظ في نفسي الرغبة في رؤية ما وراء سطح الأزهار والنباتات، لكن بعد ذلك ورثت أمور والدي فلم يعد هناك وقت لأنمي تلك الرغبة ـ أثناء ذلك كنت أتظاهر بأنني قادم من حياة تختلف عن حياتي، ففكرتُ في فو-بْرالانْ وفي البستاني المخلص الذي كان يحلو لي أن أجمع صحبتهُ فطريات وأوراق فريدة.

ـ نعم، بالطبع. نحن في هذه القارة العجوز خصصنا قرونا طويلة للدراسة وأعتقد أننا توصلنا إلى استنتاجات دقيقة نوعا ما حول أسلافنا. وراح المصريون، والسلتيون، واليونانيون، والرومان يسلمون لنا شيئا فشيئا أسرارهم، لكن، كم نعرف عن الإنْكيّين، والأزتيك، والمايا، تلك الحضارات العظيمة والغامضة؟ آه! لو ولدتُ من جديد، لو كنتُ شابا، لن يروق شيئا آخر غير أن أسافر، وأكتشف، وأطرح عددا لا يحصى من الأسئلة. سمعتُ أنهم يبحثون عن مدينة ضائعة في جبال الأنديز؛ مدينة إلْدورادو الأسطورية. هناك من تصور أنها توجد في غابة الأمازون، ولكن هناك إشاعات تقول إنها تقع في مكان مرتفع. لن أدخر شيئا كي أعيش لحظة اكتشاف عظيم!

ـ أظن أنك عشت لحظات اكتشاف كثيرة، يا هاميلتون ـ قلتُ ـ أغبطك على معارفك الواسعة في علم التشريح وعلم النبات. أنت منْ قضيت على التداوي بالعلق في إنجلترا.

ـ حسنا، لا تنس أن باسْتور، بعد وباء الكوليرا سنة ١٨٣٢، جعلنا نعي بضرورة التعقيم. لم أقم سوى باتباع نظرية مواطنكُم فرانْسوا بْروسي، لكني أعترف أنها كانت معركة من أجل إقناع المرضى بأن العلق لم يكن دواء لكل داء ولا يمكن أن يحارب كل أنواع الأمراض -قال مبتسما- أعترفُ بأن القرف الذي تثيره في نفسي تلك المخلوقات كان حافزا للقيام بأبحاثي -تابع هاميلتوت قوله- هذه الحيوانات تتغذى على خيول مريضة، فكيف نتصور أنها يمكن أن تعالج أمراضا؟ ربما قد نندهش في المستقبل وتظهر هذه الحيوانات للمساعدة في محاربة التعفنات وأمراض أخرى، لكني رأيت حالات متعددة من النزيف وعددا كثيرا من أمراض الجلد الناتجة عن الاستعمال المفرط لهذه الأنواع، حتى جعلتُ النضال من أجل استئصالها مهمتي في هذه الحياة.

ـ كانت ضربة موجعة لمربي العلق في فرنسا ـ قلتُ ـ ففي منطقة لاجيروند لوحدها كانت هناك، في وقت معين، آلاف الهكتارات المخصصة لتربية العلق.

ـ تماما. كانت تجارتها رائجة لدرجة أن التجار بدأوا يبيعونها ممتلئة بالدم حتى يزداد وزنها. غرقت السوق بعلقات مريضة أو ناقصة. كلا، يا جورْج، الطب ليس علماً يحظى بتأمّل عميق. إن الجسم البشري كونٌ لا يقل تعقيدا عن النجوم والكواكب الأخرى. وأخلاقيات الطب لا تنسجم مع التجارة.

ـ وماذا عن ثقْب القِحْف، عن هذه العملة التي أُجريت على صاحب تلك الجمجمة التي عثروا عليها في كوسْكو؟ ما رأيك في ذلك؟ لأن إجراء عملية على الجمجمة قد يتطلب كثيرا من الدقة ـ قلتُ.

ـ لقد مارس المصريون بدورهم عمليات ثقْب القِحْف. السؤال هو كم كان من أنجزوا هذا الثقب الدقيق المربع في الجمجمة يعرفون عن الدور الحاسم الذي يلعبه الدماغ في جسم الإنسان ـ قال وهو ينقر بسبّابته على الصورة ـ إن الدماغ مازال إلى يومنا هذا، مثل أمريكا، قارة بالكاد تم استكشافها. والآن علي أن أذهب. سوف أحدثك في يوم آخر عن جونْ لويد ستيفنز وعن فردريك كاتروود. إن كانت قصة إ. جورْج سْكييرْ تبدو لك ساحرة، انتظر حتى تكتشف حكاية هذين اللذين استكشفا حضارة المايا وسجلا أكثر من أربعين موقعا ضائعا في الأدغال. عثرا على معابد وأهرامات عجيبة رسمها كاتروود ببراعة. هل تتصور، يا جورْج، ما معنى العثور على أهرامات في الجهة الأخرى من العالم؟

استنتج هاميلتون بعد فحص وضعيتي الصحية أنني كنتُ، مثل الشاعر تنيسون، أعاني من سوء تشخيص لمرضي. لم تكن حالتي تمثل الصورة الكلاسيكية التي تدل على الصرع. كنتُ إنسانا أكظمُ غيظي، متوترا، قال لي، ولستُ بمنأى عن نوبات

فزع، كما عاين ذلك بنفسه نتيجة كوابيسي.

ـ إن أشخاصا مثلك يستفيدون من محيط هادئ لا توتر فيه مثل جزيرة وايْت ـ ابتسم الدكتور ـ عليك أن تفكر في البقاء هنا لأطول وقت ممكن. عادة ما تكون بيتْس بْليسْ خالية من السكان حتى حلول الصيف، ولا بد أن صديقتك لا يزعجها بتاتا أن تمكث هنا خلال هذه الشهور من فصل الشتاء.

ـ نعم، نعم. إنها تلح علي كي أمكث لأطول مدة أنا بحاجة إليها.

ـ آل تنيسون لديهم مجموعة رائعة من الأصدقاء. سوف تتعرف على جولْيا مارغريت كاميرون التي حدثتُك عنها. سآخذك إلى ديمْبولا لودْج. إنها صديقة لأشخاص غريبي الأطوار. وخاصة واحد منهم. إنه بصدد كتابة رواية ويبدو مُغرما بحكايته، لكنه يمتنع عن إعطاء ولو فكرة فضفاضة عن أحداث الحبكة. ربما لأنه يخشى أن يسألوه عن شيء ما. بالكاد يفتح فمه. بل بلغ بي الحدُّ أنني تساءلت إن كان لا يعاني من أي خلل عقلي. إنه غرب حقا.

ابتسمتُ مع نفسي وأنا أفكر أنه هذا النوع من الأشخاص هم الأصدقاء الذين أنا بحاجة إليهم، أشخاص يعوزهم الفضول، لكني بذلت جهدا حتى لا أظهر تحمسي لمعرفتهم. كان إبراهيم على حق. كانت هويتي الجديدة هشة؛ وقد لا تصمد في وجه فحص مُلحّ. كان المجتمع الإنجليزي المخملي مطلعا على الأمور. وعادة ما يعلمون بما يروج في القارة من قيل وقال، خصوصا ما يتعلق بالمجتمع الفرنسي وأخباره.

ـ يجب أن أقول إن إقامتي في هذه الجزيرة كانت دواء رائعا ـ قلتُ وأنا أرافقه نحو الباب ـ وباستثناء كوابيسي، لم أعد أشعر بحالات الاضطراب خلال النهار أحيانا عندما يبدو لي الواقع كأنه سراب فأفقد مفهوم الزمن.

ودّعنا بعضنا البعض. بقيتُ لحظة أخرى أنظر إليه وهو يمشي، أرى حواشي معطفه تعبثُ بها الريح.

لستُ أدري كم مزيدا من الوقت بقيت في المكتبة، أتصفح الكتب وأقرأ عن الاستكشافات. فكرتُ أنه ربما لا داعي لمرحلة الشباب من أجل إنجاز اكتشافات. ربما نحتاج فقط لنتيه في غابات مجهولة. المكسيك، أمريكا الوسطى، كانت مناطق غريبة تثير في نفسي أحاسيس متضاربة. لم أكن أتصور أن المرء يمكن أن يعيش في أماكن كهذه، بعيدا عن الحضارة، وسط ساكنة ذات هويات مختلطة، أشخاص خاضعون للاستعمار، نصفُ إسبان ونصفُ سكان أصليين. لم أكن معجبا بالإسبان. كنتُ أرفض غلوهم في الدين. فقط آدابهم هي ما يشفع لهم: دون كيخوته لميغيل دي سيرفانتيس، وبعض الشعراء من العصر الذهبي، لكني كنت أعتبر أنه من الناحية الثقافية كانت فرنسا وإنجلترا متفوقتين على إسبانيا، وتمثلان درجة أخرى من درجات الدول. كان كورْناي، وراسين، وموليير معاصرين لشكسبير الإنجليزي. والمسرح، في نظري، كان هو أسمى الفنون التي يمكن للمرء أن يتعرف من خلالها على ذاته أو على أعدائه. لكن الأعمال الأدبية المثيرة، وقتئذ، كانت هي أعمال فكتور هوغو. كنت أحب «قصائد غنائية وأساطير شعرية». كان هذا الكتاب يرافقني بينما كان لرواية «آخر يوم في حياة رجل محكوم بالإعدام» صدى خاص في نفسي.

السؤال: كيف سيكون مآل حياتي؟ سؤال كان يحلق من حولي كأنه وطواط لا ينال منه التعبُ.

الفصل العاشر

أحاديثنا خلال تلك الأيام أقنعتْ هاميلتون باهتمامي الصادق بالطب. ونظرا لقلة الطلبة الذين يمكن أن يطور معهم شغفه الجنوني بالتعليم، فقد اتخذني تلميذا له. انصعتُ دون تردد لرغبته في تدريسي التفاعلات الكيميائية، ومركبات الأعشاب التي يجربها، ورسومات التشريح التي كان يوليها عنايةَ راهبٍ ينجز منمنمات. كان يحلو له أن يمتحنني بتمارين يذكُرُ فيها الأعراض لأتكهن أنا بما يعاني منه المريض من علة. ذات يوم، طلب مني أن أرافقه إلى القرية لزيارة المرضى. بدأت أساعده في عمله. كان يقدمني بصفتي صديقه جورْج ديمولانْ، «عالم بيولوجيا مرموق من فرنسا».

لم يسبق لشخص مثل هاميلتون أن كان له وجود في حياتي. لقد قلتُ سابقا إنه يشع طيبوبة. وكان طيباً للغاية حتى إن طيبوته غالباً ما تكون محيرة. استغرقتُ وقتاً طويلاً قبل أن أثق به، ولا أتساءل عن أجندته اللاحقة، إن كان يشك في وينتظر فقط اللحظة المناسبة ليكشف خدعتي، إن لم تكن أسئلته حول هواياتي وحياتي الماضية سوى قطع نرد يرميها نحوي بينما يغلي آلاته قرب النار وهو يرتدي وزرته الجلدية التي يشدها إلى حزامه خلال التجارب.

كان هاميلتون مقتنعا بأن الطب سيتجاوز إلى الأبد فكرة الأمزجة الأربعة، الحجامة والتداوي بالعلق. وكان يؤكد إن طريقة العيش تؤثر في الصحة أكثر مما كان متعارفا عليه. كان صديقا مقربا من عالم الأوبئة اللندني الشهير، جونْ سْنووْ، الذي كان يتبادل معه مراسلات غزيرة حول هاجسهما المشترك: داء الكوليرا. تمكن سْنووْ من أن يبرهن على أن الأحياء الأكثر تعرضا لداء الكوليرا كانت هي تلك التي تضم آبارا بها مياه ملوثة. كان معارضا لفكرة أن الكوليرا بخار عفين، بيد أن نظريته حول علاقة هذا الوباء بالماء أو علاقة الطعام غير السليم بالتعفنات كانت تثير جدلا قويا ونقاشا حادا في الأوساط الطبية. كان هاميلتون ماهرا في استعمال الريشة كما في الاشتغال بالمبضع، وخاض من أجل صديقه معارك كتابية في رسائل كان يثبت فيها صلاحية أفكاره في الجرائد اليومية والمجامع العلمية. وامتد التعاون بين هاميلتون وسْنووْ إلى جوانب أخرى من علم الطب. اكتشفا معا الخصائص التخديرية لمادة الكلوروفورم. وقد وصف هذا الدواء إلى الملكة فكتوريا حين وضعت ابنها الثامن، ومنذئذ بدأ يُستعمل بكل حرية في العمليات الجراحية. لكن هذا حدث بعد أن غادرتُ الجزيرة. قبل ذلك، قمتُ رفقة هاميلتون بتجارب تتعلق بآثار استعمال مادة الكلوروفورم. تأكدنا من فقدان الوعي، والنوم العميق وما يتلو ذلك من غثيان. وأصرَّ عددٌ كبير من أصدقاء المجموعة، من بينهم تنيسون، على تجريبه بدورهم. كانت فكرةُ نوم فوري وعميق تسحرُنا جميعا، لكنها كانت تخيفنا في الوقت ذاته. وقرر الدكتور هاميلتون، بكل مسؤولية، أنه ما لم نعرف المزيد عن المشكلات المحتملة لهذه المادة المخدرة لا ينبغي أن نستمر في تجريب هذا النوع من الهروب من الواقع. احتفظتُ منها ببضع سنتيليترات داخل قارورة صغيرة شفافة. كان وضعُ بضع قطرات على منديلي لأغيب عن ركح ذهني مدة وقت قصير ضربا من البذخ الراقي.

وشيئا فشيئا بدأ واقعي يمتلأ بوجوه وحكايات لا تمتُّ بصلة إلى حياتي الماضية، لكن ذهني كان يسجل الجديد كأنه صور متراكبة فوق خلفية من الظلال المختبئة. لم تكن هانْرييتْ وفاني أبدا بعيدتيْن عن المستوى الأول من القشرة المُخيّة أو ما يشكل وعيي. كثيرا ما كنتُ أستيقظ مفزوعا وأنا أفكر في الأغراض المستعجلة التي علي أن أقوم بها في هذه الحياة التي لن أعود إليها أبدا.

كنا هاميلتون، تنيسون وأنا نشرب الشاي معا مرّتيْن في الأسبوع على الأقل. أتذكّرُ لورد ألفريد برجليه فوق المكتب، يدخن غليونا وينظر نحو خط الأفق الذي بالكاد كانت تظهر ملامحه من بين الأشجار التي تُرى من النافذة. وكان من بين مواضيع أحاديثه المفضلة فترة إحدى عشر عاما التي توقفت خلالها قوته الإبداعية نظرا لما للنقد اللاذع والساخر الذي تعرضت له مختاراته الشعرية الصادرة سنة ١٨٣٢، والتي تحمل عنوانا يصف محتواها بكل اقتضاب: قصائد. ما الذي يجعل

من الكائنات البشرية كراكيز؟ كان يتساءلُ. كان يتذكر بقوة صبيحة من صباحات شهر نيسان من سنة ١٨٣٣ يوم قرأ ذلك التعليق المُدمّر الذي كتبه كروكر في مجلة *The Quarterly Review*. كان يؤكد أنه مازال يحمل مطبوعا في ذاكرته المربع الصغير في أسفل الصفحة على اليمين، كما يذكر بدقة حجم وأسلوب الحروف التي كُتب بها العنوان.

ـ لقد عجّل هذا الفظ جونْ وِلْسون كْروكر بموت كيتْس بما كتبه من نقد عن قصيدة «إنديمْيونْ» ـ قال ـ لكن أن يقارنني أنا بشاعر من شعراء شرق لندن، وينعتني بأنني أقلد كيتْس، ويلمح بأن شعري، كما صداقتي وإخلاصي لآرثر هلانْ، ينمّان عن حياة جنسية حادة ومضطربة، أمرٌ أثّر في كثيرا كما لو أن مرض الجذري قد شوه وجهي. لم أكن أرغب في الخروج إلى الشارع. بسبب كْروكر لذتُ بحصن التكتّم والسرية. اختبأتُ. لكن هذا لم يكن هو أصعب ما في الأمر: لمدة إحدى عشر عاما أبتْ يدي أن تتلقى ما يمليه عليها خيالي. كنتُ أفكر في مكر بعض النقاد الذي يكسبون شهرتهم انطلاقا من مدى ما يلقون من بصقات في الهواء، أو مزاج جملهم اللاذعة فتنتابني حالة من الغضب والخيبة لا تخف حدتها إلا عندما ألقي كتبا من نافذة مكتبي ـ ابتسم ـ وأنا أرى إيميلي تخرجُ لتجمعها كان أمرا يصيبني بخجل طفولي. كانت التعاليق من هذا النوع، كما لو أنها قادمة من رسول أولمبي، تبدّدُ كل طاقتي ورغبتي في الاستمرار على قيد الحياة. وما زلتُ أتفاعل مع ذلك بنفس الحرص الشديد. لا يهم أن أتعرف حقد ولا سوء نية من صاغ الشتم، لأن الكلمات السلبية تنغرس في ذاكرتي كأنها بثرات قيح لا يمكن لأحد أن يُشفيها. شيء ما يموت بالنسبة لي ـ كان تنيسون يقول، بشعره الطويل المتلبك، وهو يحرك يديه ـ أعرف أنكم لا تفهمون ذلك. أنا بدوري، كما قلتُ، لا أكف عن شتم ذاتي، واعتبار نفسي كركوزا لأنني أعطي كل هذه الأهمية لكلمات الغير، لكن، لنرى: ما نحنُ غير الكلمات؟ كيف لا نقيس الخير والشر بالكلمات؟ خلاصي هو لعنتي! لماذا لم أستطع أن أتقبل رأي جونْ ستيوارْت ميلْ في نفس الكتاب، ونظرته السخية وهو ينسب لي عبقرية لا نقاش فيها، وخلافا لذلك حفظت عن ظهر قلب ذلك التهجم الوحشي الذي وجه لي كْروكر، هذا المدافع عن الثورة الفرنسية، هذا السياسي الإرلندي الذي يتظاهر بأنه أديب؟

ـ عليك أن تعترف، يا ألفريد، أن كْروكر أثر فيك كل هذا التأثير لأنه ما زال يسكنك شيطانُ النقد الذي كان يسكن والدك ـ قال هاميلتون. حين سمعتَ ذلك الخطاب من خارج الأسرة فكّرتَ أنه يؤكد كل ما سمعتَهُ منذ طفولتك في بيتك الخاص.

ـ إنك لا تملك أدنى فكرة عن هذا الإحساس، لأنه لم يسبق لأحد أن انتقد أمام الملأ نصا من كتابتك تعتبره أنت من أحسن ما لديك ـ قال تنيسون مقاطعا.

ـ بكل تأكيد، وأتفق معك تماما في هذا الأمر.

لا أحد منهما قد يشعر بما يعنيه أن يكون المرء معروفا بوصفه مجرما قتل زوجته وأم أبنائه. كنتُ أرقبُهما وأستمع إليهما، لكن نبرات كلماتهما كانت تقودني نحو دروب قد لا يتكهنان بها أبدا. تذكرتُ الذهول الذي تلقى به المجتمعُ الفرنسي خبر الجريمة، والتعليقات الصحفية التي كان يُقرأ فيه الاندهاش من أن نائبا من غرفة الأنْداد الفرنسيين، شخص يحمل اسمي ومميزاتي الشخصية، كان قادرا على ممارسة كل تلك الضراوة الفظيعة وقتل الدوقة المسكينة بطعنات من سكينه. لم أتمكن من البقاء هادئا فوق الكرسي. طلبت منهما أن يسمحا لي بالانسحاب. كان علي أن أغادر. كان رأسي يؤلمني.

ليلتها، وفي وقت متأخرا جدا، استيقظتُ وقرأتُ القصيدة الجديدة التي سلّمها تنيسون لي ولهاميلتون كي نقرأها على انفراد. أحتفظ بها كمن يحتفظ بقطعة خبز أيام مجاعة قاتلة، وأقضمها أحيانا حين أشعر باليأس والإحباط. تتحدث القصيدة عن عوليس، بعد أن عاد إلى إيثاكا وملّ الحياة اليومية؛ فجمع بحارته وانطلق من جديد. أحفظ عن ظهر قلب المقطع الأخير منها:

فهلمّوا يا رفاقي.

لم يتأخرْ أوانُ البحثِ عن عالمٍ جديدٍ
ادفعوا .. واعتدلوا جالسينَ في انتظامٍ
واضربوا الأخاديدَ الرنّانةَ.
غايتي الإبحارُ خلفَ مغربِ الشمسِ
خلفَ المواضعِ التي تستحِـمُّ فيها
كلُّ نجمةٍ غربية .. حتى أموت.
ربما جـرّتـْنا الخلجانُ الى الأعماقِ.
ربما لامَسْـنا الجزرَ السعيدةَ
ورأينا «أخيلَ» العظيمَ الذي عرفناه.
حقاً ذهبَ الكثيرُ، لكنّ الكثيرَ لمّـا يزلْ.
حقاً لم نعُد في القوّةِ التي في الأيامِ الخوالي
زحزحْنا بها الأرضَ والسماءَ.
لكننا نحنُ نحن :
مزاجٌ واحدٌ من قلوبٍ جريئةٍ
أوهَنَها الزمانُ والمصيرُ
غير أن عزماً متيناً يشدّنا
لنبحثَ ، نسعى ، نجهدَ ...
ولا نستسلمُ أبداً .[1]

وأخيرا، تعرفتُ على جولْيا مارغريت كاميرون. كان هاميلتون يتحدث عنها بحماس كبير ورتب زيارتنا إلى إقامتها في ديمْبولا لودْج. كان يلح على أنها شخصية جديرة باهتمامي، وامرأة ساحرة كانت تحدث ثورة في فن التصوير الفوتوغرافي.

ـ ثم إنه ينبغي أن ترى بيتها، منزل يعجُّ بالناس وبالشمس. يكاد يكون بلدا ـ قال هاميلتون مبستما.

وفعلا، كان المنزل واسعا جدا، وغريبا للغاية. كان يبدو، وقد غطى نصفه اللبلابُ، كأنه لعبة مركبة للأطفال، لأنه كان يتكون من ثلاث وحدات متطابقة تبرز في الواجهة، بينما وسط الكل كان هناك مستطيل أصفر عمودي يضمُّ باب الدخول. ورغم أنه كانت تعوزه أناقة الهندسة إلا أنه كان صيغة أخرى من صيغ البيوت الإنجليزية الصغيرة يعاني من التعمْلُق. كان من الداخل عبارة عن متاهة كانت، بفعل روح صاحبته المرحة والفنية، تسحرُ المرء وتضعه في مزاج جيد ما أن يتجاوز عتبة الباب. أقول مزاج جيد. وهذا ما شعرت به ما إن دخلتُ وسمعتُ صوتا مألوفا لبيت كبير يملأه الأطفال. كان لجوليا تسعة أطفال، لأنها بالإضافة إلى أبنائها الستة تبنّت ثلاثة أطفال آخرين، أخبرني هاميلتون، وهو يضع قبعته ومعطفه ويدعوني لأقوم بالشيء ذاته في دولاب قديم ذي أبواب غوطيّة. أحدث خبرُ قدوم الدكتور جلبة كبيرة. جاء للسلام عليه أطفال، من ذكور وإناث، تختلف أعمارهم وتتباين قاماتهم. تردد صدى الخطوات في السلاليم وسُمعت صيحات تنبيه في الغرف. حسب ما أذكر، كانت جوليا مارغريت هي آخر من التحق بقاعة الاستقبال. وبُعيْد المتعة الأولى التي أثارها في نفسي سماعُ جلبة الأطفال، ورؤية ألوان الأثاث الزاهية، والنوافذ الكبيرة، والجرار المملوءة بالنباتات، والأنبوب البرونزي لوضع المظلات، والكراسي النمساوية الأنيقة، وكثرة اللوحات والصور على الجدران، انتابني الحنينُ إلى أنني لن أسمع مرة أخرى جلبة أبنائي، وصخب بيتي كما في الأيام الخوالي. ومن الذكريات السعيدة انتقلتُ فجأة إلى التحقق من ظروفي. نزل ثقلٌ على حنجرتي حتى بلغ قاع المعدة، نبضَ قلبي بضربة على ضلوعي ونزلَ شلاّلُ ماء يغلي عبر سيلان دمي. كنتُ أعرف ذلك الإحساس.

فقدتُ للحظة القدرة على التفكير أو شرْحِ الكلمات، فكان علي أن أتمسك بقطعة أثاث حتى لا يجرفني الواقع معه إلى الجحيم. وكنتُ على تلك الحالة عندما ظهرت جوليا مارغريت. وأنا أحاول أن أستفيق من إغمائي، رأيتُها تحيي هاميلتون بودّ. وكانت بساطتها تبرز بعض معالمها، التي لم تكن جميلة بل مثيرة، لأن الوجه الطويل، والأنف الدقيق، والعينان الواسعتان، والبشرة البيضاء، والشعر المنقسم عند الوسط المشدود بعقيصة إلى الرقبة، كلُّ ذلك كان توليفا لعزيمتها. كانت جوليا مارغريت تتمتع بحس الاحترام والعناية بالغير. خصّت هاميلتون بما يكفي من الوقت للاطلاع على علاجاته الأخيرة ومستحضراته النباتية. عندما انتبهتْ إلي ركّزت كلُّ حواسها الخمسة على استقصاء أظن أنه قد يكون هو طريقتها في العمل. فهذه السيدة، وهي فنانة اكتشفت فن التصوير في مرحلة متقدمة من عمرها، كانت تشبه نوعا ما أكلة البشر لأنها تعطي الانطباع برغبتها في شُرب مواضيعها، نقشها في ذاكرتها، تمهيدا لنقشها على حامض الصور الفوتوغرافية وعلى لوحاتها. وكان اهتمامها بي نابعا أيضا من أصولها. كانت جوليا هي بنت الفارس أنطوان دو ليطانْ، الذي كان وصيف الملكة ماري أنطوانيت ثم بعد ذلك ضابطا ضمن صفوف الحرس الشخصي للملك لويسْ السادس عشر. أمها، تيريزْ بْلين دو غونكور، التي ولدت في الهند، كانت بدورها من طبقة الأرستقراطيين الفرنسيين. كانت جوليا تتحدث الفرنسية بطلاقة وبشكل صحيح، من دون لكنة تقريبا. وبينما كانت تحدثني عن عائلتها وعن دراستها في فرنسا، قادتني نحو مائدة مستديرة غُطّيت بشرشف طُبعتْ فوقه رسوم عصافير ثم أزاحت من فوقه كتبا وأوراقا. كانت القاعة تعج بقطع الأثاث، لكن كثرة المجلات، والحلي التافهة، والأغطية المطوية بعناية والوسادات، تعطي شعورا بالوجود في مكان من دون بروتوكول، مكان يسترخي فيه المرء ويستمتع بالأجواء. لحظتها، كان حضورها القوي يساعدني على أن أتعافى بأعجوبة.

ـ بيتي هادئ معظم الأوقات -قالت وهي تفسر حركات الذهاب والإياب التي تردد صداها- لكن جاء الأبناء والبنات والأحفاد ليحتفلوا بعيد ميلاد زوجي بعد بضعة أيام.

ـ إنه بيت كثير الحركة على الدوام، يا جوليا ـ قال هاميلتون. عندما لا يأتي أبناؤك يحضر أصدقاؤك. إنها جلبة حياة سعيدة. لا ينبغي لك أن تعتذري إطلاقا.

ـ أقرُّ بأن الوحدة تزعجني ولا أقدرها حق قدرها إلا داخل غرفتي السوداء ـ قالت وهي ترسم ابتسامة جميلة للقبول بما كان ينسبُه إليها هاميلتون من مسؤوليات.

في أوقات سابقة، كان من الممكن أن تكون جوليا الشخص الذي كان بودي أن أتبادل معه ملاحظات حول عائلتيْنا ونتحدث عن الهند وفرنسا، لكني بذلت مجهودا لأرد على أسئلتها بأجوبة قصيرة وأترك هاميلتون، الذي كان انشغاله بأصدقائه غالبا ما يدفعه للحديث عوضا عنهم، ليعطي تفاصيل عن موت كاميي ديوملانْ، عن آثار الثورة الفرنسية في ذاكرتي ومخاوفي من الأخطار التي تحذق بالملك لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ. وبينما كان هو يتحدث، تفحّصتُ جوليا بمتعة وحزن. كان لها وجهُ، وبالخصوص شخصية امرأة ربما كان من الممتع أن أتبادل معها أسرارا. ذكّرتني بنبرة الثقة التي كانت هانْرييتْ تقدم بها آراءها. لكن عند جوليا مارغريت لم يكن هناك أي ازدواج في الشخصية. كان وجهها يشرق بشغف الأفكار. أظن أنني أدركت، لأول مرة، ضعفي تجاه النساء الذكيات. كانت فاني تملك، رغم مميزاتها الخاطئة، مواهب لا يمكن الاستهانة بها في مجال الكتابة لكنها بددتها بهوسها المجنون بالحب. قبل وقت ليس بالكثير أراني إبراهيم في إحدى الجرائد الباريسية خبرا يعلن عن قرب صدور يوميات فاني ومراسلاتها. غريب جدا أن يرغب أحدهم في قراءة عدد كبير من صفحات الشكوى والهذيان أملتها الغيرةُ الهاجسية. لم أكن مسرورا لموتي في الغالب، لكن مع هذا الخبر، كان علمي بأنني في «القبر» شيئا مريحا.

أخذتْنا جوليا مارغريت في جولة عبر بيتها لتُرينا الصور الموضوعة داخل الإطارات والمعلقة في كل مكان. ولأول مرة، رأيتُ كيف كانت يدُ فنانة تحاول أن تذهب إلى ما وراء النّسْخ البسيط لوجوه ولحظات من الحياة. كانت جوليا تستعمل

الظلام بطريقة خاصة، كما لو كان حجابا يكشفُ حين يُخْفي. كان ما تقوم به من تركيب لمشاهد أدبية أو أسطورية عملا صارما بعض الشيء، لكنه كان مدهشا أيضا لأصالته وبساطته. كانت تملك عدة بورتريهات تمثل تنيسون عابسا، في فترات من فترات اكتئابه، لكنه على وعي بأن البورتريه سيبقى خالدا من بعده.

كان القيامُ بمتابعتها عبر البيت والتفرج على الغرف، والأسرّة المبعثرة أو المرتبة حديثا، والملابس المطوية، واشتمام رائحة أبنائها، وإدراك راحتها هي أيضا، هو ما دفعني للتفكير في الارتياح الذي قد أشعر به وأنا أعترف لهما معا بالورطة التي كنتُ فيها وأطلب النصح منهما. انتابتني رغبة قوية في العودة لأكون ثانية من كنتُ، ولأكون مرة أخرى ندّا من مجلس أنْداد فرنسا، رجل له تاريخ، ونسب، وليس ذلك البورجوازي الحقير الذي كنتُ أجسده بخرق. كان السخط، والشعور بالذنب، والخيال أشياء تدفعني لأرى في جوليا مارغريت وهاميلتون تفوقا حميميا يرْشحُ من كل مسامّهما. كنتُ أعرف ذلك الإحساس. كانا يتعرفان على ذاتيْهما عضويْن ينتميان إلى طبقة خاصة كانا يسمحان لي مؤقتا بولوجها بفضل أفكارهما المتحررة. وكان يحلو لهما ليس أن يكونا قادرين على استعمال الحرية فحسب، بل على ممارسة المساواة والأخوة. وكما تنصبُ القطط شعر ظهرها حين تدرك الخطر، كذلك أنا، بحكم أنني نبيل، كنتُ أعرف جيدا تلك النبرة، والنظرات، التي يمكن أن تكون من خلالها طبقةٌ ما قريبة من طبقة أخرى. كان من الممكن أن يضحكني ذلك، لكن خلال جولتي في اليوم الموالي، اعترفتُ أنه ليس من المجدي إنكار ذلك الانزعاج والمرارة العميقين اللذين أصابني بهما بُعدها الصامت والكتوم. وصار لأسلافي، لوجوههم في بورتريهات قصر فو-بْرالانْ، تكشيرةٌ تعبر عن الامتعاض واللوم. لا بد أنهم سيكونون أكثر تسامحا مع جريمة قتل مما قد يكونوا متسامحين مع هويتي البورجوازية الجديدة.

الفصل الحادي عشر

مع هانْرييتْ دولوزي ديبورْت خنتُ سلالتي.

كذب من قالوا إنني كنتُ زير نساء. كانت لي مغامرات غرامية عابرة نساء تافهات من ذوات الغنج والدلال. أفعال ترويح يمارسها الجسد بعد ليال طويلة تفيض بالنبيذ. صحيح أنني كنت أحسد زملاء وأصدقاء لهم عشيقات جميلات وحيويات يضمنون معهن علاقة حصرية بوضعهن في شقق باذخة يزورونها كجزء من روتينهم اليومي. أما عشيقتي أنا فكان هو قصرُ فو-بْرالانْ. لم أكن أملك الطاقة لأهتم بأي بيت آخر. الأكيد أنني شغّلتُ هانْرييتْ في أسوأ فترة من فترات من زواجي، حين لم يعد لي أي أمل في التصالح مع فاني. سوف نعيش تحت نفس السقف مجبريْن بحكم الأعراف الاجتماعية وشرف العائلة. ولم يقلل انتهاءُ آصرة الحب بيننا من الالتزام في الاستمرار الذي اكتسبناه عند زواجنا. كانت هذه الظاهرة أمرا معتادا في وسطنا.

استسلمتُ لحياة ليس فيها من متع الإحساس سوى ما يليق بإنجازات سلالتي وبطولاتها. جعلني الاهتمام بأبنائي أتقرب من هانْرييتْ. كنا نتشاطر حب فن الرسم، والأدب، والشغف المشترك بالسياسة. كانت تتمتع بحس دعابة ساخرة، غالبا ما تفاجئني حدّتُها. وجدتُ نفسي أدخل معها في أحاديث طويلة ومسلية، ونحن نمشي مسافات طويلة في الحديقة عندما كنا نسافر إلى فو-بْرالانْ. وكما كان الأمر بالنسبة لي، كان القصر يمارس عليها جاذبية خاصة. كانت لديها أفكار حول النباتات التزيينية، والنافورات. ونظرا لغياب زوجة أتقاسم مها خططي ومشاريعي، وجدت فيها أذنا صاغية وحسا جماليا كافيا كي يقترح بكل تكتم نبرات وألوانا مختلفة. لست أدري إن كنتُ قد أخذتها بعين الاعتبار! ما كنتُ أُقدّر هو اهتمامها!

كانت أحاديثنا بريئة في بداية الأمر، لكنها كانت امرأة جذابة، امرأة لا يمكن تحديدها بشكل غريب، تتمتع بحس عملي رائع يتناقض مع رومنسية تطفو على السطح بالرغم منها. كانت امرأة نفورة، متشككة، بل ومنغلقة. لكنها، شيئا فشيئا، أخذت تنفتح، تكتسب ثقة، وتسمح لي برؤية جانبها الأكثر خفة. ومن علاقة بين سيد ومدرسة، أصبحت علاقة بين رجل وامرأة ألقي بهما معا في هذه الجزيرة الغريبة التي كانت تتشكل من بيتي وحياتي وقتئذ. وكان شيئا محتوما أن نحتك في يوم من الأيام. صارت الجاذبية مغناطيسية. كنّا نبحث عن بعضنا البعض منذ الصباح الباكر، نخرج معا رفقة الأطفال. أصبحنا لا نفترق. وأخذت هانْرييتْ تكشف عن طباع حادة من شخصيتها يمكن أن تكون عدوانية ومحتشمة، متيقظة وفاترة، شهوانية وصارمة. في الأخير، وقع ما لا يمكن تجنبه، وذات ليلة أصبحنا الواحد بين ذراعي الأخرى. كان ذلك هروبا ممتعا بالنسبة لي. بالنسبة لها، كان ضربا من تملُّك السّلطة. صار من الصعب علي أن أعرف ما أستند إليه من أمر معها. كانت أحيانا تتلقى أوامري بسرور كبير بل وتدعهما بأفكار رائعة، وأحيانا أخرى، كانت إجراءات بسيطة تصطدم بنظرات مؤلمة، حركات رأس مذعنة، فترات صمت، وهيئة عدوانية. كانت حالاتها النفسية غير متوقعة. ربما كان هذا ما أوقع بي إلى حد الهوس والضعف. فبأي وهاد خفية من روحي كانت تقترن تقلبات نفسية هانْريتْ ودرجات نبرة صوتها؟ بين عشية وضحاها، تلك التي كانت تحبني تكف عن حبي؛ وتلك التي كانت تكرهني، تقرر فجأة أنني الحب الوحيد والخالد في حياتها. كنتُ أتودّد لذاتها اللطيفة واللّعبيّة القادرة على خلاعات ممتعة، أحاديث ضاحكة وأحكام ثاقبة. كنتُ أشعر بالأمل في بعض الأيام وأنا أظن أننا وجدنا أخيرا تناغم توازن سعيد، لكنها سرعان ما تغير وجهها اللطيف بوجه يفيض عتابا ولوما. وكان العقاب الذي تُخضعني له يتمثل في إخفاء سبب تحوّل الحب المثالي قبل سويعات إلى قطع صغيرة مهشمة. لكنها، بعد ظهيرة من العدوانية، ودون تفسير، تظهر مثل شبح، حافية القدمين وصامتة في ليل البيت، ثم تندسُّ في سريري، باكية نادمة، لتمحو بعناق واحد غضبي وأنا أظنها قد ضاعت. كنت أتظاهر بعدم الاكتراث بحالاتها النفسية دون أكشف لها عما أعانيه من همّ وغمّ، حتى بعد أن علمتني الأيام أنه وراء تكلّفها قد تأتي نهاية الحب المعتادة. الآن أتساءل إن كان ذلك

التصرف يهدف إلى الإبقاء حالتي مضطربا والحصول على وله العاشق المحموم بداخلي. حتما، كان ذلك العذاب يهيجني فأقضي ساعات أفكر فيها، مهووسا بفك شفراتها، أعشقها أكثر فأكثر، بينما تبدو كأنها تبتعد.

وقد حملني الزمن وما وقع من أحداث إلى الظن بأنه داخل هانْرييتْ كان يتعايش عدم ثقة تخفيه بشكل سيء (يمنحها هالة من الهشاشة الجميلة) مع فكر ثاقب ونفعي، يستطيع القيام بوضع خطط جد معقدة من أجل إدراك أغراضه دون اعتبار أي شيء آخر غير مصلحته الخاصة. وعندما تفشل خططها، تفقد السيطرة على تصرفاتها.

ولم يتجل ذلك بوضوح أكبر إلا خلال الأيام التي تلت طردها على يد صهري وفاني. وبفضل تدخلي الحازم سُمح لها بالحفاظ على منصبها إلى أن شُفي الأطفال من نوبة الحمى القرمزية. بقيتْ لمدة شهر آخر وخلال تلك الفترة رأيتُها تغتنم لحظات غياب فاني لتدخل عدة مرات إلى غرفتها. يوم تعقّبتُها، وقد أثار الأمر اهتمامي، سمعتُها تلعن، تبكي وفي الأخير تتمسك بإحدى دعامات السرير لترجّ السقيفة التي تغطيه، كما لو أنها كانت تريدها أن تسقط على زوجتي حين تكون نائمة.

بعد مرور بعض الوقت سأعلم أنه، عندما تم إصلاح سرير فاني، قال النجارون إن أحدا ما قد وضع شمعا مكان البراغي التي كانت تشد السرير في مكانه. بعد كل ما حدث، عرفتُ أنها هي من فعل ذلك.

كانت تصرفاتها في تلك الفترة تتميز بالمضض وسرعة الغضب. عاتبتني حتى الملل عن انعدام رجولتي كي أفرض نفسي فوق رغبة زوجتي وصهري؛ اتهمتني بأنني لا أحبها وأنني استعملتُها تزجيةً للوقت كي أخفف من تعاسة الجحيم الذي كنت أعيشه في زواجي. شعرتُ أنني محاصر. كانت فضحية «علاقتنا الخطيرة» على كل لسان في باريس. كنتُ أخشى طول يديْ صهري الأخطبوطيّتيْن، كما كنتُ أخاف من أن أفقد نعمة لويسْ فيليبْ وشقيقته أديلاييدْ. كانت تربطني بهما وشائج ودّ وإخلاص ترسخت منذ الطفولة وتقارب عائلتيْنا. وحين رحلت هانْرييتْ في النهاية، دفعها القلق المحموم لتكتب لي رسائل حب يائسة، مقنّعة في شكل رسائل شكاوى موجهة إلى بنتيّ الكُبْرييْن لْويزْ وبيرْت. كانت رسائل غير لائقة تروي فيها يأسها وهي تجد نفسها مفصولة عنهما. بل كانت تدعي أن إخلاصها وعنايتها يجعلانها جديرة بأن يعتبرانها والدتهما الحقيقية. أذكرُ رسالة تصف فيها ألمها بأنه الأكثر حرقة من بين كل ما عانته آلام، وتقول إنها حتى لو بكيت من الألم فإنها تفضل أن تكون بين أحضاننا على أن تشعر بقلق البعد عنا. كما تضيف إنها فقط باللجوء إلى مجهود كبير كانت تكبح نفسها حتى لا تهرول نحونا وتستعطفنا أن نخرجها من ذلك النُّزل الذي تسكن فيه.

كانت ابنتيّ المسكينتان، البريئتان والمرهفتان، تبكيان دون عزاء، بينما كنتُ أتساءل كيف يمكن لهانْرييتْ أن تقول إنها تحبهما كل ذلك الحب وهي، كي تتوسل بحبي، كانت تكتب مثل تلك العبارات التي لم تكن تعمل سوى على إثارة عواطف من لم يكن لهم أي سلطة على تغيير وضعها.

أعترفُ أنني قلق ومرتاب بطبعي وأنه حتى في هيامي بهانْرييتْ، في أكثر أيام شعورنا صفاء، ونحن نتجول عبر غابات قصر فو-بْرالانْ القديمة والجميلة، كان ذلك الجانب في ذاتي يتردد بين صدّها وحبها الجامح. لكني لم أتصور قط تلك الطاقة التي ستحاول من خلالها أن تعود إلى جانبي وإلى جانب أبنائي.

صارت أفكاري مشوشة خلال تلك الفترة. لماذا تسببت شكاوى هانْرييتْ في أن أصدّها بكل تلك القوة؟ كرهتُ طريقتها في مخاطبتي وهي تدسّ رسائل خفية فيما كانت تبعثه من خطابات لابنتيّ. لم يتبق شيء من الكتمان الذي كنتُ معجبا به في شخصها. لم يكن ينقصها الكثير لتكشف لهما عن العلاقة الغرامية بيننا، وهو ما كانت تتداوله حتى العصافير في شوارع باريس. تصرُّفُها أخرسَ طبعي العاطفي، الذي فضل أن يتصرف بشفقة أمام ظروفها. كنتُ أرغب فقط في أن أغلق بإحكام صفحة تلك الفترة من الإخفاق الذي لم أتكهن بعواقبه. كان الماريشال سيباستياني يهدد بالتدخل حتى تباشر فاني في

إجراءات الطلاق. لقد خاطرتُ باستقراري وباستقرار أسرتي من أجل ركوب مغامرة لا مستقبل لها، من أجل متعة جسدية وجاذبية لا تستحقان أي مخاطرة.

استحوذ عليّ الخوفُ. أفرغني من الذكريات الجميلة، ومن كل الأسباب التي تبرر لماذا أحببتُ فاني وكيف أحببتُها.

جبناء أنا وأمثالي ممن نتنكر بسرعة للعشق. أو ربما لا يكبر العشق إلاّ في ذاكرتنا ويتحول من شموع إلى نيران. المرء غالبا ما يكذب على نفسه. وأنا أفعل ذلك، من دون شك. وأخشى أن يكون ما سيبقى هو الحقيقةُ التي أبتكرها.

الفصل الثاني عشر

كان إبراهيم يزودني بكل تفاصيل ما يجري من أحداث في باريس. وكان الاستماع إليه يجعلني أخشى على مصير لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ. بعد أن كان ملكا بورجوازيا، وملكا مواطنا، أصبح موضوع سخرية وانتقاد. كانت الوضعية السياسية تتدهور بسرعة، وأنا أتساءل ماذا سيكون مآلي لو خلعوا من يرعاني عن عرشه. فتنحيةُ الملوك عن العرش أصبحت رياضة فرنسية.

تذكرتُ آخر لقاء بيننا في القصر الملكي. هناك كان يقيم مؤقتا ليراقب عملية وضع مجموعة اللوحات الفنية لأسرته في مختلف قاعات القصر وتعليقها على جدرانه. كان مكتبه فخما. كانت الطاولات الخشبية الإيطالية المرصعة مغطاة بالكتب والخرائط. ومن النوافذ كانت تُرى الحدائق والأروقة التي تضم المقاهي، والمكتبات ومحلات البيع الصغيرة، علاوة على مسارح مركب «الكوميديا الفرنسية». كان من عادات آل أورليان أن يفتحوا الحدائق ويحصلوا على مداخيل من كراء المحلات الصغيرة. كان ذلك الفضاء هو مركز باريس الاجتماعي من دون شك. وفعلا، هناك نهض كاميْ ديمولانْ فصعد فوق مائدة بإحدى المقاهي وألقى تلك الخطبة الملتهبة الشهيرة التي أطلقت شرارة ثورة ١٧٨٩.

ـ انظر، يا شارْل، من هنا أستطيع أن أحدس تقريبا كل ما يدور في باريس من دسائس ـ قال مبتسما عندما اقتربتُ من النافذة. أنت تعيش في الريف تقريبا. أما زال يُسمع صياح الديكة في شارع فوبورغ سانت هونوري؟

ـ ما زال يُسمع صياحُها ـ قلتُ ـ لكن ذلك لن يستمر لوقت لطويل. منذ أن بُني قصرُ الإليزي، هناك عدد متزايد من النبلاء الذين يريدون أن يسكنوا هناك وعدد أكبر من الناس يزورون المنطقة. أخشى ألا نكون قريبا من ضواحي باريس.

أمسك ذقنه وحدجني بنظرة ماكرة. كان رجلا قد تجاوز عمره السبعين. وجنتاهُ المترهلتان تمنحانه هيئة رجل طيب وشكل كلب صيد ضخم. أنف طويل، جبين عال، وتسريحة شعر عصرية. كان شعره ينزل جانبا، شعرٌ كثيف ومجعد (كان ألكسندر دُوما يمزح معه قائلا إنهما شقيقان من الشَّعْر)، مع خصلة طويلة فوق الجبين وأخرى تنزل على العذار تشيان بشيء من الشيب. عندما عرفتُه، كنتُ طفلا وهو في سن المراهقة. بعد ذلك اختفى ولم أسمع سوى عن حكايات هروبه من صفوف جيش نابليون، عن إقامته في سويسرا ورحلاته عبر أمريكا. كان أستاذا لمادة اللغة الفرنسية في بوسْتون، وسجينا تقريبا لدى الإنجليز والإسبان في هافانا، حيث ظل محاصرا لمدة سنة في انتظار أن يبحر وسط الحرب التي دارت رحاها بين إنجلترا وإسبانيا. وبُعيْد تتويجه ملكا، كان من عادته أن يتجول لوحده في مدينة باريس، يتأبّطُ مطريّة. كما كان الناس يسمعونه وهو يغني لامارسييزْ أي النشيد الوطني الفرنسي من شرفة قصره. كان شخصا يتمتع بذاكرة قوية. ولما رأيت كيف كان يستعملها اقتنعت بأنها ميزة أساسية لرجل سياسة ناجح. كيف كان ينادي على شخص ما باسمه، وكيف يذكر زوجته أو أحد أبنائه، كان ذلك شيئا يستحق المعاينة. كانت تعوزني ميزة مثل تلك الميزة. كان الملك يثني على سرّيتي وتكتُّمي. يبحثُ عني ليتحدث عن شكوكه أو ليسرّ لي ببعض أسراره، لكنه لا يوافق على اقتراحاتي بنفس الطريقة. لم أتمكن من إقناعه بمنح حق التصويت لكل المواطنين وترخيص ما يسمي «الاقتراع العام» الذي تم الإعلان عنه في إنجلترا. فقد أقنعه وزيرُه الأول، جيزو، بمنح حق التصويت فقط للفرنسيين من ملاك الأراضي، وأصحاب الثروات، أو من لديهم شيء يفقدونه حسب نتائج الاقتراع. وكان يقول إنّ تعاطفَ جماهير من أشباه الأميين لا يمكنُها أن تحدد من سيتحكمون في مصير فرنسا. كان الملك مقتنعا بأن الأغلبية تفتقد لرأي صائب وأن التصويت ينبغي أن يكون امتيازا مقتصرا على الطبقات الأكثر تعلما.

آه، جيزو! بسببه لم يتبق من الميولات الجمهورية للملك إلا شيء قليل. بموقف حازم، أمر بمنع التجمعات العامة. ونتيجة لهذا المنع ظهرت «حملة المآدب». كان معارضو نظام الاقتراع الجاري به العمل يجتمعون ليأكلوا، ومقابل ثمن الأكل يستمعون للخطب الثورية التي يلقيها من يدافعون عن ثورة أخرى، و»ربيع شعبي». لم يكن لويسْ فيليبْ يعير اهتماما

كبيرا لمثل هذه التجمعات. كان راضيا عن أفكار جيزو، الذي يعتبره رجلا محافظا لكنه ذكي، وملتزم بالحفاظ على السلم وتجنب اندلاع ثورة أخرى. ومعه، بلغت العلاقات مع إنجلترا، المتوترة منذ قرون، مرحلة من الانفراج السياسي الذي كان ينبئ بأن البلدين سيصبحان حليفين قويين وليس خصمين كما كان الحال إلى غاية تلك اللحظة. أذكر أنه وقف، أطلَّ من النافذة مفكرا ثم ابتسم وهو يعود ليجلس من جديد.

ـ بعد سنوات من التجريب والأخطاء ظننتُ معها أننا نحن الفرنسيون لن نتفق بيننا بما يكفي من أجل أن نتقدم، ها هي فرنسا الآن تسير في الطريق الصحيح. إننا نحقق نموا اقتصاديا رغم المحاصيل الزراعية السيئة خلال هذه الموسم؛ وقد دخلنا في الثورة الصناعية وبنيْنا السكك الحديدية التي سوف تعبر البلاد. ولهذا السبب بالضبط يشغلني قلق من قرروا أنه لا قيمة لأي شيء إن لم يصوت الجميع. إن جيزو صارم نوعا ما، لكنه فقط حين تقلد مهامه وفرض شيئا من الصرامة استطعنا أن نخرج من سنوات من عدم الاستقرار السياسي. لكن دعنا لا نتحدث ثانية عن هذا الموضوع ـ قال وهو ينظر إلي ويدنو حتى جلس فوق كرسي وثير قرب موقد النار ـ كيف هي الأمور في بيتك؟ سمعتُ بعض الشائعات حول علاقة لك مع مربية أبنائك. من الأفضل أن تكون محترزا.

فاجأني بسؤاله. أظن أن لوني قد تغير.

ـ أقاويل ـ قلتُ ـ الآنسة دولوزي ديبورْت متفانية في خدمة أبنائي وأنا أقدرها لذلك.

ـ لقد وكل والدي تربيتنا لامرأة خاصة جدا، فليسيتي دو جينْليس ـ وهو يضم يديه بأطراف أصابعه وينظر شاردا، مفكرا ـ معها تعلمتُ الألمانية، والإنجليزية، والإيطالية، والإسبانية. إنجاز كبير ـ قال مبتسما ـ لكنهما معا كانا عشيقين. من العادي جدا أن تنشأ كل هذه الروابط حين يعيش الناس في نفس البيت يوما عن يوم، لكننا نعيش أياما يطغى عليها الفكر المحافظ، يا شارْل ـ ثم نظر إلي محدقا ـ إن الجمهوريين قد وضعوا طبقة النبلاء تحت المجهر. اسمح لي إن تدخلت في أمورك، لكنك تعرف أنني أقدرك كثيرا.

ثم أكدتُ للملك من جديد أنه لا داعي ليشغل باله. لم يرقني أن أكذب عليه، لكني لم أجد سببا كي أكشف له عن حياتي الخاصة.

وباستعادة الأحداث، بعد الفضيحة وتدخله لإنقاذي، ندمت لأنني لم أصارحه بالأمر. لا بد أنه لامني حين علم بالحقيقة. لكني مدينٌ له بحياتي.

ذهبتُ إلى السرير وشعور بالتعب ينتابني. ليلتها، عاودتني الكوابيس. رأيتُني مطاردا من لدن ذلك الدولاب الثقيل في غرفة فاني حيث تحتفظُ بملابسها وقبعاتها. في حلمي، لم يعد الدولاب يحوي ملابس، بل رسائل. آلاف مؤلفة من الأوراق المكتوبة بخطها المرتب، الدائري، بحروفه الكبيرة والمُؤطَّرة، ونقطه المرسومة فوق بعض الحروف كأنها دوائر. كانت الكتابة المائلة، التي تُبْرزُ معالمُها ذلك البعد الدرامي لشخصيتها المهووسة، ترتمي عليّ كما لو أنها سرب من الحشرات السوداء التي تطنُّ في وجهي، تندسُّ في أنفي، وفي أذنيّ. كانت تنهال فوقي الأوراق والدولاب، بينما أنا أخبط بيديّ وأحاول الهروب عبثا. كانت الأوراق الحادة تجرح يديّ، كأنها سكاكين وسط صخب يصم الآذان. وفي صراعي اليائس كنتُ أشعر من جديد بالغضب الأعمى الذي شعرتُ به يوم علمت أن فاني وصهري، الماريشال سيباستياني، قد سرّحا هانْرييتْ دون موافقتي. كان الغضب يملؤني قوة، وأنا على حافة أن أهلك أتمكن من أن أصبّ جام غضبي على الدولاب وأنتقل من الخوف إلى التمتع بدم بارد. استيقظتُ لاهثا من الجهد، أتصبب عرقا وقلبي يجفل. أزلتُ عني الأغطية والملاءات. كان قميص نومي مبللا بالعرق. جلستُ فوق السرير. شربتُ حتى الثمالة كأس الويسكي الذي نسيته فوق طاولة النوم ثم مشيتُ أتحسس طريقي نحو الدولاب فوجدت قميص نوم جديد. كانت رجلاي مرتخيتيْن ويداي ترتعشان. قد يكون من العبث أن أحاول النوم

ثانية. فتحتُ شبابيك نافذة غرفتي. في الخارج، كان ضوء الفجر الضئيل قد بدأ يمزق حجاب الظلام. والضبابُ الذي يطلقه البحر نفخات على الجزيرة يسطعُ كأنه كائن عجيب يضيئه نور المنارة عند الفجر. قررت أن أرتدي ملابسي وأخرج. انتعلتُ الجزمة، ارتديتُ السروال، ووضعت فوق قميص النوم معطف القنص الذي كنتُ أرتديه أثناء جولات المشي. وجدت بسهولة القفازين والقبعة ثم نزلت السلاليم في صمت. جعل الهواء الرطب والبارد الدموع تسيل من عينيّ عندما خرجتُ. تنفستُ بعمق ومشيت بسرعة حتى أشعر بالدفء. لم أكن أرغب في مغادرة محيط المنزل لأصادف موزعي الحليب أو الخبز، لذلك توغلتُ في الحديقة الواسعة التي تحيط ببيتْس بْليسْ. في العمق كان هناك مستنقع بين أشجار الدّرْدار ومقعد اعتدتُ أن أجلس عليه في بعض المساءات. توجهت إلى هناك. كانت ذكرى غضبي يوم أخبرني صهري وفاني بقرارهما تأبى أن تفارقني وتجعلني أنخر بقوة. وفي ركن جلي من ذاكرتي تمكنت من رؤيته، انتبهتُ إلى حجم هذا الفعل المتهور لفاني، وهي تدفع والدها ليتواطأ معها ضدي. هذا الفعلُ كان بداية نهاية ليس فقط لحياتها، بل لحياتي أيضا. كنتُ ضحية أخرى من ضحايا قتلها، لأنه لا يمكنني أن أطلق كلمة حياة على هذه الحياة التي أعيشها هاربا وشبحا.

كنتُ قد حضرتُ في ذلك الصباح في غرفة الأنْداد إلى جلسة استعرض فيها جيزو عنادَهُ. عدت إلى البيت منهكا ومتشائما. ما إن تجاوزتُ عتبة الباب حتى شعرتُ بذلك الجو المتوتر والصامت الذي كان يخيم على الخدم. رأيتُ عربة صهري في الفناء الداخلي فعزوتُ ذلك الجو الثقيل الذي يخيم على المكان لحضوره. مُصمماً على ألاّ أغضب، صعدتُ بهدوء السُّلم الكبير المؤدي إلى قاعات الاستقبال في البيت وقُبيْل أن أبلغ بسطة السّلم رأيتُه يستعد للنزول، يتبادل جملا مبهمة بشأني مع فاني التي كانت تودعه. وظل الاثنان صامتين عندما انتبها لحضوري. ضغطت فاني على ساعد والدها وأوقفته. أما أنا فصعدتُ وحيّيتُهما بالبرودة التي طبعت دائما علاقتنا، موحيا لهما أنني كنتُ أرغب في التوجه إلى جناح غرف أبنائي. وبحركة من يده، أوقفني هوراس سيباستياني. يجب أن نتحدث، قال. رافقتُهما معا إلى قاعة الاستقبال، منزعجا من الهيئة المهيبة والمتغطرسة لصهري، والموقف الأنثوي القلق لزوجتي، التي جلست قرب والدها كما لو أنها بحاجة إلى حمايته.

ـ أنت تعرف أنني حاولت ألا أتدخل في زواجك ـ قال سيباستياني ـ لكن من أجل سمعة العائلة وصحة ابنتي، أجدني الآن مجبرا على القيام بذلك.

نظرتُ إليهما دون أنطق ببنت شفة، لكن دون أن أمنع حركة تهكم لاذع من أن تعبر قسمات وجهي وأنا أسمعهُ يشير إلى صحة فاني التي كانت وردية ممتلئة الجسم وتبدو كأنها تلميذة منضبطة ووديعة.

ـ لقد أخبرتني ابنتي بالخروقات التي ميزت تعاملك مع الآنسة دولوزي ديبورْت، يا شارْل. يجب أن أعترف أنه رغم ما سمعت إشاعات في كل باريس حول الموضوع، فكرتُ أنه، حتى لو كانت صحيحة، ربما يتعلق الأمر بعلاقة عابرة، لكن فاني تؤكد لي أن الأمر ليس كذلك، وأن الموضوع مستمر منذ أكثر من ثلاث سنوات، وأنه ألحق ضررا كبيرا بزواجكما حتى أنها بدأت تفكر في طلب الطلاق، لأنك رفضت أن تستجيب لطلباتها المتعددة لك بالابتعاد عن تلك المرأة والعودة إلى الحياة الزوجية معها.

ـ إن ابنتك، أيها الماريشال، مع كامل احترامي، تعاني من غيرة لا دواء لها ـ ابتسمتُ ساخرا ـ وفوق هذا أظن أنها قد أخطأت المهنة، إذ عوض أن تكون أُمّا وزوجة كان عليها أن تتعاطى لكتابة الروايات والتراجيديات. وهذا ما تقوم به كل يوم: تكتب رسائل. لدي منها المئات، وكل رسالة أكثر درامية من الأخرى. لو قرأتُها كاملة، قد أكون مضطرا لأمتنع عن القيام بواجبات المواطنة والأبوة. أما بخصوص مهمتها كأم، فقد اضطررتُ إلى أن أحد من تفاعلها مع أبنائنا، لأنه لا يعقل أن تقطع دروسهم وتخضعهم لتباكيها.

ـ إنك قاس وظالم ـ انفجرت فاني قائلة وهي ترفع صوتها، ووجهها الوديع يتحول إلى ذلك الوجه الغاضب الذي أعرفه

جيدا ـ وحتى تعلم كل شيء، قمتُ أنا وأبي اليوم بتسريح تلك السافلة التي جاءت لتدمر زواجنا.

نظرتُ إلى سيباستياني. كان الهدوء الذي حاولت الحفاظ عليه يتدفق خارج ذاتي ومكانه كان يغلي سائلٌ بدأ يجري في جسدي.

ـ بأي حق جئت، ياهوراس، إلى منزلي لتتصرف في خدمي؟

ـ منزلك؟ ـ ردّ علي ـ لا تنس أن هذا المنزل منزلي أنا، وأنني تنازلت عليه ليكون بيتا لأسرة ابنتي ـ تابع بنبرة مهادنة ـ شارْل، هناك العديد من المربيات المحنكات المحترَمات في باريس، فلماذا ينبغي أن تكون الآنسة دولوزي هي من تشغل هذه الوظيفة؟ إن كنت بريئا مما ينسب إليك، لا أرى سببا لترفض تعويضها بمربية أخرى.

ـ هناك سبب في غاية البساطة ـ قلت وأنا أحاول أن أكون متزنا ـ لويز وريناردْ يعانيان من الحمى القرمزية. منذ عدة أيام وهما يعانيان من الحمى. لا يمكن أن نضعهما بين يدي مربية مجهولة طالما هما مريضان.

ـ حسنا ـ قال سيباستياني، وهو يمد ذراعه نحو فاني ليمنعها من الكلام ـ يمكنها أن تبقى هنا حتى يشفى الطفلان، لكن ولا يوما واحدا بعد ذلك.

كانت الفخ الذي نصباه لي حاسما. لم يكن بوسعي أن أطالب ببقاء هانْرييتْ دون أن أشي بنفسي. أما الطلاق والنميمة ونفوذ سيباستياني فقد يسحقني كل ذلك اجتماعيا وسياسيا. لم أكن مستعدا للتضحية بوضعيتي، ولا بأبنائي من أجل هانْرييتْ. كنتُ هالكا إن لم أُبْد شيئا من التعقل واللامبالاة.

ـ حسنا ـ قلتُ ـ سأقبل قراركما لكنه ظلم كبير في حق شخص كان دائما بمثابة أم لهؤلاء الأطفال منذ ست سنوات.

وكأنها حيوان هائج، رأيتُ فاني تنخر من الغضب وتحاول أن تنقضّ علي.

ـ انظر إلى ابنتك، يا هوراس، هي من فقدت رشدها.

بعد ذلك، نهضتُ دون أن أضيف شيئا وغادرتُ القاعة. كنت أخشي أنه لو بقيت هناك فإن الغرفة لن تتسع لاحتواء ذلك الغضب الإجرامي الذي كان يغمرني. كانت تنخرني الإهانة، والتمادي في التصرف في أمور بيتي الداخلية، وغطرسة هوارس سيباستياني. كان أمرا يثير سخطي ما ذكر من أنه قدّم لي منزل فوبورغ سانت هوونوري «هبةً» منه، وهو يعلم جيدا أن افتقادي المؤقت للسيولة كان يرجع إلى ما كنتُ أقوم به من إصلاحات في قصر فو-بْرالانْ، الذي كان في ملك عائلتي ولا بد أن يكون واحدا من أرقى قصور فرنسا وأحسنها صيانة. لكن من الأكيد أنني لم أكن أملك يومها ما يكفي من المال لأترك منزل باريس، إلا إذا قررت أن أبيع قصر فو-بْرالانْ، وهو ما لم أكن مستعدا للقيام به. آه فاني، فاني السريعة الغضب، تكشف أسراري أمام والدها! لم يعد لدي شك في أنها قد جُنّت. لكن ليس بسبب الحب، طبعا، بل بسبب الأنانية التي كانت تمنعها من رؤية ما وراء أرنبة أنفها. لم تكن اللعينة تشعر بالحب حتى تجاه أبنائها. لم يكن كل الحب الذي كانت تدعي أنها تكنه لي غير خدعة كانت هي أولى ضحاياها. كان ذلك هو مناصُها كي لا تواجه واقعها كطفلة مدللة وغير مهذبة ربما كانت ترغب في زوج وديع، في كركوز يحقق أوهام امرأة مُغْتلمة تتستر على ذلك. كم كرهتها! بعد ذلك اليوم، لم يعد بداخلي غير الكراهية نحوها. كانت قسوة قلبي درعا صلبا لفَفْتُه حولي لأحتمي به. أذكرُ غطرستي المتعالية وأخجل منها. طبعا، كانت فاني على حق. هذا ما أراه الآن. لكن يومها كانت تعميني عزّة النفس. لكني ما كنتُ لأقتلها، أبدا. أبدا. على الأقل ليس بتلك الضراوة، بذلك الخرق الفظيع.

الفصل الثالث عشر

استمرت إقامتي في جزيرة وايْت لمدة سنة تقريبا. منذ الشهور الأولى من سنة ١٨٤٨ أصبحت أخبار فرنسا مقلقة أكثر فأكثر. كان إبراهيم يسافر إلى نْيوبُّورتْ مرتين في الأسبوع فقط من أجل اقتناء الجرائد والحديث مع البحارة القادمين من لوهافر. كان ما أحدثتْهُ قضيةُ «تيسْت كوبْيير» من هرج ومرج وموجة الإشاعات بخصوص جريمة قتل فاني سيباستياني تشكل ذريعة للمعارضة كي تسيء لسمعة الملك، والتشكيك في حكم لويسْ فيليبْ. وكان يُقال إن الملك، قد ساعدني لأهرب باللجوء إلى مجموعة من الحيل. وكتبت جريدة «الإصلاحي»، المحسوبة على اليسار، إن الهدف من انتحاري المزعوم كان هو تفادي محاكمة فرد من طبقة النبلاء، مما يبرهن على أن العدالة في فرنسا لم تكن تشتغل بمبدأ المساواة. ويضيف المقال إن مصادر مجهولة تشير إلى أن دوق شْوازولْ دو بْرالان كان يختبئ في جزيرة وايْت.

وما إن علمتُ بهذه الأخبار حتى اختفى ضربةً واحدة وهمُ الأمان في جزيرة وايْت. كان ردُّ فعلي الأول أن أهرب، وأفر إلى أي مكان آخر. كما قرأتُ أيضا أن هانْرييتْ دولوزي ديبورْت، بعد أن دخلت سجن لاكونسييرجوري تمّت تبرئتها على يد الوكيل إتْيان دونيزْ باسكييه، ثم أبحرتْ نحو نيويورك رفقة كاتب يدعى فيلدنغ، صديقُها وحاميها.

ـ أظن أنه لا ينبغي لك أن تتخذ قرارات متسرعة ـ نصحني إبراهيم، بكل رباطة جأش ـ لا أظن أن أصدقاءك هنا يقرأون جريدة «الإصلاحي».

ـ لا أستغرب أن تعيد الجرائد الإنجليزية نشر الخبر. إنها أكثر ميلا إلى النميمة.

ـ تصرّفْ بشكل طبيعي. إنْ تواريْت عن الأنظار، ستؤكد أي شك قد يظهر بينهم.

تذرعتُ بآلام في العظام بسبب طقس الشتاء، فقلّلتُ من زيارات للأصدقاء. لكنه كان يصعب علي ألا أراهم تماما. استمررتُ في الحضور إلى بيت تنيسون مرتين في الأسبوع. عندما كان في مكتبه يقرأ علينا قصائده الأخيرة، كنتُ أجول بنظري بين الموائد والأوراق المتراكمة وأنا أخشى أن أرى منشورات باللغة الفرنسية. لكن صوت تنيسون كان يسحرني وهو يتلو شِعْرُه المغناطيسي المتقن. كانت لغته الإنجليزية صافية تعج بشتى الإشارات الكلاسيكية، لكنها مفعمة بالقوة، والتذكر والموسيقى. فقط الاستماعُ إلى صوته، ومعاينةُ شغق الكلمات التي تنعكس على وجهه المحاط بشعر أسود، لحية وشارب كث، كان يجعلنا في حالة تنويم مغناطيسي. كنتُ أتأثر لرؤية إميلي وهي تنظر إليه بإعجاب حب هائل تكنه له. كانت عقلا نشيطا وعميقا يسكن جسدا واهنا وعليلا، رفيقٌ لا يناسبُ القوة الباطنية التي كانت تشع منها. كنتُ أقدرها، لكن ذكاءها الثاقب زرع في نفسي الرغب منذ البداية وخاصة في الأيام الأخيرة. شعرتُ بعينيْها تتفحّصاني مستغرقتيْن في التفكير. كانت تصرُّ على أن تسألني عن رأيي فيما يحدث في فرنسا، إن كنتُ أعرف جيزو، وما رأيي في الملك، إن كنتُ أثق في الجمهورية، واليسار، والاشتراكيين الطوباويين. هل سمعْتَ عن طرد الشاب ماركس من فرنسا؟ هل قرأْتَ بيانه الشهير؟ كان حجمُ ما يقع من أحداث في بلدي يسلط الانتباه علي بصفتي مرجعا في الموضوع. كان عليّ أن أزن كلماتي، وأكون ممثلا محنكا لا ينسى دورهُ. فتحولت السهرات الجميلة الهادئة إلى عذاب. وكانت عينا هاميلتون الواسعتان المدورتان تلاحقاني بدورهما كأنها كلبان من كلاب صيد. كان يبدو لي أنني أسمع ارتيابه، وما قد تطرحه إميلي على نفسها من أسئلة.

جوليا مارغريت كاميرون، المنهمكة دائما في إنجاز بورتريهات لوحاتها، كانت هي مُحاوري الأكثر إمتاعا. لم يكن يهمها شيء من عالم السياسة كما يهمها فن التصوير. قبل أن تتزوج، وحتى تواسيها عن العش الفارغ، أهدتها ابنتُها الصغرى آلة تصوير فاكتشفت بذلك إمكانياتها الفنية.

كان الجو باردا خلال أعياد الميلاد تلك السنة ففضلتُ أن أمكث في بيتْس بْليسْ وأعتذر عن عدم حضور العشاء في بيت

جوليا مارغريت. خشيتُ أن تُحطّم سعادةُ تلك الأسرة قلبي. دعوتُ ويكهمام وإبراهيم للعشاء معي. اقتسمتُ معهما قنية من النبيذ الرفيع ثم انسحبتُ باكرا لأتذكر واحدا واحدا وجوه أبنائي، ورائحة القرفة والصنوبر والريحان في فولوكونت، وصوت الأثواب الصقيلة لفاني وبناتي وهن يمشين. كنتُ أرى تلك المشاهد في ذاكرتي، ثم أدسّ وجهي في السرير، بحثا عن طمأنينة مستحيلة.

انتهت السنة بموت آخر غير متوقع: مادامْ أديلاييدْ. كانت تعاني من الرّبو وقلب واهن، فلم تقاوم نوبة من الإنْفلونزا وتوفيت يوم ٣١ كانون الأول من سنة ١٨٤٧، وهي تنام قيلولة فوق كرسيها ذي المسند داخل عرفتها.

بعد وفاتها، وقد أقلقه النبأ، باح لي إبراهيم بما أصدرته له من أمر بأن يبقى معي ما كان ضروريا من وقت. حدثني بما كانت تكنه لي من عطف وانزعاجها الكبير من فاني، وهو ما كان يجهل أسبابه. ثم اعترف لي أن مادامْ قد زوّدتهُ بما يكفي من الموارد لبقائنا على قيد الحياة وأخبرتْهُ أن الملك، الذي كان مطلعا على الوضع، سيأخذ مصلحتي بعين الاعتبار في حالة غيابها. اندهشتُ للثقة التي وُضعت في الخادم. تصورتُ حينئذ أنها هي، أكبر مستشارات الملك نفوذا وأكثرهن اطلاعا على أسراره، ربما كانت السبب في بقائي على قيد الحياة. علمتُ حينئذ أن رعاية لويسْ فيليبْ قد لا تعوزني، لكني انشغلتُ بما قد يقع لو اختفتْ هي من جانبه.

ولم تكن مخاوفي دون أساس. تمت الإطاحة بالملك لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ يوم ٢٤ شباط من سنة ١٨٤٨، شهرين بعد وفاة شقيقته. بإلحاح من جيزو، يده اليمنى، منع الملك المآدب التي كانت تُستعمل من طرف المعارضة للقيام بحملات ضد حكمه. وكردّ فعل على ذلك، بدأت يوم ٢٢ شبّاط انتفاضة شعبية. عمال، وحشود من الرعاع ساروا في شوارع باريس يطالبون بالاقتراع العام. شعر الملك لويسْ فيليبْ بدعم أفراد الحرس الوطني الكثيرين فأصدر أمرا بإعلان حالة الطوارئ، ثم أقال جيزو من رئاسة مجلس الوزراء في إشارة توفيقية منه. لكن عددا كبيرا من أفراد الجيش، كانوا إلى جانب المواطنين فانتهت الفوضى بمجزرة في شارع «كابّوشين». لا يعرف أحد من أطلق النار أولا، لكن الجنود ردوا على ذلك. نتيجة تلك المواجهة كان هناك خمسة وستون قتيلا وأكثر من ثمانين جريحا. يوم ٢٤ شباط، اهتاج الناس فنهبوا المحلات التجارية، أحرقوا المباني ونصبوا أكثر من ألف وخمسمئة من المتارس. ووصلت الحشود حتى قصر التولوري حيث كان الماريشال بوجو مستعدا لقطع الطريق عليهم دون شفقة. في تلك اللحظة بالذات، وتفاديا لمزيد من إراقة الدماء، تنازل الملك لويسْ فيليبْ عن العرش تاركا وريثا له حفيدَهُ الصغير كونت باريس، الذي بالكاد كان يبلغ تسع سنوات. قامت دوقة أورليان، التي عُينت وصيّةً على العرش، وتوجهت داخل عربة مع الطفل إلى الجمعية الوطنية، لكن الجمهوريين واليسار رفضوا الاعتراف بها وأعلنوا الجمهورية الثانية، تحت قيادة المدافع المرموق عن الليبرالية، العجوز دوبّون دو لورْ. في سن الحادية والثمانين، كان هذا القصير ذو الشعر المجعد، بتسريحته التي تشبه تسريحة نابوليون، شخصا يحظى باحترام الجميع. مما جعلهم يقبلون به رئيسا للحكومة، ولو أن الشاعر لامارْتين كان هو من يدير زمام السلطة في واقع الأمر. وستدعو هذه الحكومة المؤقتة إلى انتخابات بعد أن أقرّت العمل بنظام الاقتراع العام.

دون حماية مادامْ أديلاييدْ والملك، أدركتُ أنني لن أتأخر كثيرا في أن أجد نفسي مجبرا على مغادرة جزيرة وايْت.

الفصل الرابع عشر

بعد أيام قليلة، عاد إبراهيم قلقا من نْيوبُورتْ. طلب مني أن نذهب إلى الحديقة حتى نتحاشى ويكهام، الذي كان مثل روح معذبة تجوب أرجاء البيت يرتب وينظف.

كان الظلام قد بدأ ينزل والجو بارد. احتميتُ بوضع شال فوق ملابسي الشتوية ثم ارتديتُ قبعة وقفازين. حاولتُ أن أتظاهر بالرزانة، بيد أن وجه إبراهيم، عادة هادئ، كان يبدو منقبضا وشاحبا.

ما إن توغلنا في الحديقة، بين ظلال العشية، حتى بدأ يتكلم.

ـ إن الملك في لندن ـ قال لي ـ جاء رفقة كل أسرته وهو تحت حماية الملكة فكتوريا والأمير ألبيرت.

ـ يا إلهي! ـ صحتُ. وهل تعرف في أي مكان يأوي؟

ـ استقبلوه في لكيرمونت هاوس ـ قال لي ـ تحدثتُ مع البحارة الذين نقلوه من باريس. كانوا عائدين من لندن. قالوا لي إنه منهار. ما العمل، يا سيدي؟ لن يكون هناك من يحمينا، ولا من يدفع المصاريف وعلينا أن نرحل من بيتْس بْليسْ ـ أضاف وهو ينظر إلي بقلق.

لزمنا الصمت. شعرتُ بصدري ينقبضُ، وقاومتُ إحساسا بالخذلان والشك كان يحاول أن يشلّني. اقتربت من المقعد وتركتُني أسقط. كان علي أن أفكر بسرعة، أن أسيطر على الخوف.

ـ أعتقد أن رجال شرطة الجمهورية الثانية سيحاولون العثور عليك، موسْيو ـ قال إبراهيم، وهو يعلم أنه يزيد حملا آخر فوق كاهلي.

ـ كان عليهم أن يتركوني لأموت، يا إبراهيم ـ قلتُ ـ وأنا أدفن رأسي بين يديّ.

ـ لا تقل هذا، سيدي الدوق. على العكس من ذلك، إن الحياة التي فُزتَ بها تستوجب منك أن تحافظ عليها. كان من الصعب إعادتها إليك ـ قال مبتسما.

إبراهيم المخلص. كان إخلاصه رائعا. لا أستطيع فهمه، إلى حد ما. غريبةٌ هي الوشائج التي تُنسج في زخم الحياة. كان إبراهيم يشعر بامتنان مفرط نحو مادامْ أديلاييدْ. ولإنها كلفته برعايتي كان أمرا كافيا كي لا يدخر جهدا للعناية بي والتكلف بحاجياتي. لا أدري إن كانت قرابتُنا قد أقنعته أنني لستُ شخصا سيئا. فكرتُ في رئيس خدمي، أوغوستو، الذي خدمني لسنوات طويلة، والذي لم أشعر معه، رغم ذلك، بتلك التضحية الصامتة، لكن القوية، التي يتمتع بها إبراهيم.

ـ ألم ترغب قط في العودة إلى المغرب، يا إبراهيم؟ ـ سألتُه.

ـ لا، سيدي الدوق. هناك قد أكون صاحب دكان أو قد أسوق الإبل عبر الصحراء. ما رأيتُه في باريس، ما كنتُ لأراه قط.

ـ عليك أن تعود إلى باريس.

ـ ربما، لكنه ليس الوقت المناسب للانشغال بأمري، يا سيدي. عليك، يا سيدي، أن تفكر فيما ستقوم به من الآن فصاعدا.

ـ معك حق. علي أن أغادر الجزيرة. لقد فكرتُ في الأمر. أظن أن أصدقائي الجدد، بمن فيهم الدكتور هاميلتون الطّيب، بدأوا ينظرون إليّ بارتياب. أخذوا يشكون في أمري. وأنا لا ألومهم.

ـ يجب أن تجد طريقة كي تلتقي مع الملك. والذهابُ إلى لندن من هنا ليس أمرا صعبا.

ـ تقول إنهم يقيمون في كليرمونت هاوس؟

ـ نعم. في إيشْر، قرية صغيرة في ضواحي لندن. يمكن أن أقترب من المنزل وأرتب أمور الزيارة. نسافر إلى لندن ثم ننتقل إلى إيشْر على متن العربة. ستنتظر في نزل قريب التعاليم التي أتوصل بها من الملك كي يستقبلك بعيدا عن الأنظار.

ـ فكرة المثول أمام الملك لويسْ فيليبْ تصيبني بالغم. آخر مرة قابلته فيها لم أقل له الحقيقة.

ـ لم يعد للأمر أهمية. لستُ أدري إن كان سيسر لرؤيتك، لكني لا أستغرب ذلك. على أي، إنه الوحيد في هذه الظروف الذي يستطيع أن يساعدك على الخروج من هنا.

ـ نيويورك ـ قلتُ بسرعة.

ـ إنها ليست فكرة سيئة ـ ابتسم إبراهيم.

ـ لقد رحلت هانْرييتْ إلى نيويورك ـ اعترفتُ.

ـ أنت تعرف إن كان هذا هو أحسن حافز. على أي حال، نيويورك مكان جيد للتخفي، حتى تبني حياة جديدة.

بين عشية وضحاها أخذت فكرة اللقاء بهانْرييتْ من جديد وتصفية الحساب معها تتشكل فمنحتني ما كان يعوزني من حافز. كان عليّ أنت أتحدث مع هانْرييتْ. ليس من أجل ذلك الحب الضّال، بل لأتخلص من الزّرنيخ الذي لم يعد ينخر جسدي فحسب، بل روحي أيضا.

اتفقتُ مع إبراهيم على القيام بما كان يقترحُه.

بعد ثلاثة أيام، دعاني مرة أخرى لأتجول معه في الحديقة.

ـ لقد قمتُ ببعض التحريات. إن المسار الذي يناسبانا أكثر هو أن نغادر نْيوبُّورتْ نحو غوسْبورت. ومن غوسْبورت إلى لندن هناك مسار عبر القطار. التذاكر باهظة الثمن، ولذلك ليس هناك مسافرون كثيرون.

ـ غوسْبورت، تقول؟ أظن أنه هناك استقبلت الملكةُ فكتوريا الملك لويسْ فيليبْ قبل ثلاث أو أربع سنوات. كانت هناك المحطة، لكن لم تكن هناك خدمة القطار. إذن، بدأت تشتغل اليوم؟ لقد سبقنا الإنجليز في هذا الميدان. نحن لدينا سكة حديدية فقط من سانت إتيان إلى ليون! على العكس من ذلك، هنا الإنجليز ... تقول إن لديهم خدمة القطار من جنوب هامْبشير إلى لندن؟

ـ لست أدري كم سنستغرق من الوقت، لكنه من دون شك سيكون أسرع وأكثر أمانا من عربة الخيل، التي تلزمنا بقضاء ليلة أو ليلتين في النُّزل.

ـ ونجد أنفسنا أمام خطر قُطاع الطرق. كفى. سنذهب في القطار. لا أذكر المحطة جيدا. رافقتُ الملك، لكن الذكريات تختلط في ذهني.

اتفقنا أن ننطلق في اليوم الموالي. كان علينا أن نتوقع أن الملك قد لا يمكث في ذلك القصر الصغير، أو نجد صعوبة في الوصول إلى شخصه. رافقني إبراهيم إلى الغرفة كي أعد حقيبتي. سآخذ متاعا قليلا. في نهاية الأمر، ليس لدي سوى قليل من الملابس. في لندن أيضا سوف أرتدي ملابس تاجر بورجوازي، مع سترة وسراويل داكنة، شالي الصوفي وقبعتي.

ـ هناك سيكون البرد أشد من هنا ـ قال إبراهيم بينما كان يُخرج الملابس من دولابي ويضعها في حقيبة من الجلد والخشب. كم يبلغ من العمر؟ كان سحنته تشي بآثار الشمس ورمل الصحراء، بيد أن حركاته كانت رشيقة وجسده مرن

وضامر؛ من الصعب أن نعرف إن كان ذلك يرجع إلى خاصيات عرقه الوراثية أو إلى كرهه لحياة الاستقرار وحبه للترحال.

أطللتُ من النافذة. كان الليل غارقا في ضباب كثيف. عند الفجر، حين سننطلق، سنقوم بذلك ونحن نتوغل في هذا العالم الشبحي من الضباب الذي سيخفينا عن أنظار الفضوليين.

ـ أمرتُ فيكهمام أن يُحضّر الشاي، وجلبتُ خبزا صغيرا للفطور. سيأتي الحوذي على الساعة الخامسة بالضبط.

ـ لست أدري ما كان سيصير بي من دونك، يا إبراهيم ـ قلتُ ـ وأنا أضغط بشكل خفيف بيدي على كتفه. لم أكن أظهرُ كثيرا عواطفي، لكن الإخلاص الهادئ لذلك الرجل، ربما لأنه غامض، كان شيئا يؤثر في بشكل عميق.

ابتسم مسرورا. قال إنه ليس ثمة من شيء أشكره عليه. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ينقذ فيها شخصا من الموت أو المطاردة.

ـ إنني أنتمي إلى نوع من الناس تحيط بهم دائما مثل هذه الأخطار ـ قال لي. أنا أيضا، إن كنتُ هنا، فلأنني وجدتُ من يشفق على حالي.

ـ سوف تحكي لي ذلك، في يوم من الأيام ـ قلتُ مبتسما. ولم أشجعه على مزيد من البوح. كنتُ متعبا للغاية. كنتُ متحمسا لفكرة السفر في اليوم الموالي، لكن كانت تتعبني مواجهة وجوه وأماكن مجهولة ومُهدِّدة. أشباح لا هوية لها مثلي، تسكن بيوتا ومقابر.

لم أر كوابيس خلال الليل. استغرقتُ في نوم عميق، صامت، لا صور فيه ولا أصوات. كان بودّي أن أمكث هناك، في هذا اللاوجود الذي يهديني إياه جسدي حين ينغلق كأنه محّارٌ في الظلام.

أيقظني إبراهيم. كانت الرابعة فجرا في ساعة سلسلتي، الشيء الوحيد الذي كنتُ أحتفظ به من أشياء الماضي. نزلنا الأدراج مع الحقيبة. شربتُ الشاي مع قطع الخبز الصغير التي ذهنتها بالزبدة. وبينما كنتُ في قاعة الأكل الفسيحة والمقفرة، حيث ألح علي إبراهيم أن أتناول الفطور، عبرتْ ذهني صور من طفولتي. كان مذاق الزبدة واحدا من المذاقات المفضلة لدي. كانت أمي تقول إنها تأكل زبدة بالخبز وليس خبزا بالزبدة. تذكرتُ قاعة الأكل في قصر فو-بْرالانْ. كم من الصور مما عشتُه ستظل ثابتة الآن بعد أن ابتعدتُ عن أُلْفة محيطي لأصير شخصا آخر؟ فليس التذّكر انطلاقا من هوية حقيقية كالتّذكُّر انطلاقا من هوية مبتكرة. على هذه الأخيرة أن تستأصل بعناية من الماضي ما يمكنُ أن يشي بها. ولا شك أن من يستطيع تقمص شخصية أخرى بكل مهارة عليه أيضا أن يجد لنفسه ذكريات متخيلة. أعترف أنني، رغم المخاوف التي كانت توحي لي بها مقابلة الملك، فإن فكرة عدم التظاهر كانت شيئا يريحني. قد أسترجع اسمي ونسبي، ولا يهم إن كان ذلك لوقت قصير جدا. حماقة. من يهمه ما كان، إن لم يعد كذلك؟ كنتُ شجرة مقطوعة، من دون جذور. كنتُ أستمر على قيد الحياة، لكن لم أعد نافعا. لا توجد وحدة يمكن مقارنتها بمفهوم الانتفاء، وعدم الوجود. غارقا في هذه الأفكار، وطعم الزبدة التي تذوب في فمي، صعدتُ إلى عربة الخيل، ركنتُ رأسي إلى زاوية النافذة، تلحّفتُ بالضباب وانطلقتُ فجر ذلك اليوم نحو لندن، دون أن أعرف إن كان لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ سيستطيع مساعدتي.

الفصل الخامس عشر

لم يكن الضباب قد انتشر بعد حين وصلنا إلى نْيوبُّورتْ. نظر إليّ الحوذي بشيء من الفضول. عزوتُ ذاك لمعاملة إبراهيم المتكلفة؛ عندما يكون منشغلا أو قلقا يبدو أنه يفقد موهبة الكلام فيعوضها بلطف وأدب مفرطيْن. تظاهرتُ باستغراب من عنايته وغمزتُ بعيني الحوذي، الذي ابتسم مسرورا لأنني شملتُه بثقتي، وانصرف ما إن حصل على أجره. كانت أرصفة الميناء في نْيوبُّورتْ تستقبل خصوصا مراكب شراعية صغيرة. كانت الملاحة ممكنة في مقطع قصير عند مصب نهي ميدينا. وفي كوؤسْ، كان طرف الجزيرة يمتد نحو البحر المفتوح. وكان سولينت، المضيق الذي يفصل الجزيرة عن الساحل الإنجليزي، خاصا جدا لأنه يعرف حركتيْن بحريتيْن. عند الجزْر، تصبح مساحة كبيرة منه عبارة عن شاطئ رملي. تقلع السفن عند المدّ وتبحر بسرعة كبيرة بفضل التيار. قبل سنتين أو ثلاثة، تم تدشين خدمة «قنطرة عائمة»، حيث تقوم سفينة بخارية من الحجم الكبير بنقل مسافرين فوق السطح بينما يخصص الداخل لحمل السيارات والبضائع. وعند الرسوّ، كان جسرٌ متحرك يُفتحُ انطلاقا من رافد قُصّ مشدود إلى السفينة ويمتد نحو الرصيف. وعند الإقلاع، يتم رفعُه وشدّه بطريقة محكمة. كان إبراهيم يود أن نقطع المسافة على متن هذا الوحش البحري، لكني أقنعته باتخاذ وسيلة نقل تقليدية: سفينة شراعية تتركنا في غوسبورت. ما كنت لأشعر بالأمان داخل وسيلة نقل بحري تحْتدمُ نار متأججة بداخلها. أعترف أنني تصرفتُ مثل رجل من الأرياف. لو كنتُ أعلم لحظتها أنني سوف أقطع المحيط على متن باخرة تتحرك بطاقة الفحم!

كانت السفينة الشراعية التي ركبناها بعد مفاوضات قام بها إبراهيم، بينما كنتُ أتجول عبر الأرصفة، عبارة عن مركب شراعي صغير يدعى «آرابيلا». كان له صار واحد وثلاثة أشرعة. تبحر بسرعة جيدة. شعرت بالارتياح لما علمت أننا المسافران الوحيدان على متنها. ستتابع «آرابيلا» رحلتها نحو بورسموث وهناك ستجد زبائن في عودتها إلى الجزيرة. لا بد أن القائد كان في سني. كان رجلا ذي سحنة برونزية داكنة، يرتدي لباسا أزرق أنيقا. كانت بعض الشرائط البيضاء قد بدأت تظهر على شعره الأسود. أوحى لي شكلُه بالاطمئنان. كنتُ أكره من يدّعون أنهم «ذئاب البحر المجرّبين»، ممن يدخنون دون توقف وتفوح منهم رائحة الرُّوم. يكثر عددهم في الأرصفة. هؤلاء وأطقمهم الوسخة هم من يملؤون صفوف الملاحين ويحولون الموانئ إلى أماكن قذرة. لم أكن من أصدقاء البحر. كانت لدي معدة متوترة وحركة الأمواج تصيبني بالدوار. بيد أن جمالية المياه تدفعني لأفكر في الله. رؤيةُ الضوء المتغير فوق تلك اللّبدة السائلة وهي تحمرُّ أو تفقد كل ألوانها لتعكس السماء الحادة كان شيئا مدهشا لا يتكرر بنفس الطريقة. ويمكن القولُ إنني كنتُ دوقا صعب الإرضاء، محافظا، شكليا، متأنقا ومحبا للنظام، لكن هذا الكائن كان ينطوي على كائن آخر يحب الطبيعة ويعشقها. ربما يعود ذلك لأنني ترعرعتُ في فو-بْرالانْ. كانت الغابات، والأرض، والنباتات هي مكاني الطبيعي.

أقلع القائد كارلين على الساعة السابعة وثلاثين دقيقة صباحا بالضبط من نيوورت وأخبرنا أن الرحلة ستكون ممتعة. كان البحر هادئا. أراحني ذلك الخبر. قررت أن أمنع مخاوفي من أن تؤرقني وأن أستمتع بتلك الرحلة القصيرة. مع البحر الهادئ سنصل إلى غوسبورت لتناول وجبة الغداء.

خلال الرحلة، حثنا الضابط الأول على متن السفينة، وهو رجل ثرثار، وقال بصوت منخفض إن القائد كارلين يتحدّر من عائلة مرموقة في بورستموث، لكنه عكس أشقائه، وكلهم رجال أعمال، اختار البحر. كانوا يعتبرونه نعجة سوداء في صفوف العائلة، لكنه لم يكن يكترث للأمر.

ـ كان ضمن طاقم مركب لصيد الحيتان في نانتوكيت خلال فترة شبابه ـ قال ـ لكنه في النهاية كره صيد الحيتان.

عبرنا مضيق سولينت عند منصف الصباح. صارت معالمُ جزيرة وايْت غير واضحة وسط الضباب، بينما أصبح الشاطئ بخلجانه وقُراه الصغيرة أكثر جلاء كلما كانت الشمس تُفرّق الضباب ونحن نقترب من اليابسة. كانت «آرابيلا» سفينة مريحة

وقضيتُ وقتا طويلا جالسا عند جسر القيادة، في مقعد على جانب دفّة الرّبان. كان القائد كارلين قليل الكلام ولا يرد على أسئلتي سوى بكلمات قصيرة. تخليتُ عن محاولتي في الحديث معه وأخذت أنظر إلى البحر. لمّح لي أنني قد أشعر براحة أكبر في المقصورة الداخلية، لكنه كان يعرف أنه لو نزلتُ عبر السلاليم الضيقة يمكن أن أعاني من الدوار. اخترتُ أن أظل هادئا وأراقبه وهو يتحكم في الدّفّة. من حين لآخر، كانت الأمواج ترجّنا رجا خفيفا، لكنه، رابط الجأش، ظل متمسكا بعجلة الدفة مركزا على النقطة الثابتة التي تشير إلى وجهتنا. حتى وقت قريب، إن كنتُ قد حرصت على أن أحصل على معارف وأكون شخصا ذا ثقافة واسعة، لم يسبق لي قط أن تميزت باهتمام بأمثالي من الناس. فالقائد كارلين، بطبعه الغامض، بعينيه الزرقاوين المركزتين على شساعة البحر، ولباسه الأزرق الأنيق، لا بد أنه يحتفظ في سره بحكاية خيالية تتشكل من التناقضات العائلية والآلام، والانفصالات الغاضبة. ما الذي حمله ليترك وضعا داخل عائلة ذات نسب عريق ويرحل إلى أمريكا الشمالية لينخرط في طاقم مركب لصيد الحيتان يتكون من أشخاص لا يتقاسم معهم أي شيء؟ هل يكون من خصائص الرجال ترُك مثل هذه الأسئلة للنساء؟ إنهم يربوننا نحن الرجال على أن نعمل ونكد، ونوفر للأسرة ما تحتاجه من أمور مادية. ومسؤولية تلبية هذه الحاجيات كانت أمرا متعبا. لكن، في الشهور الأخيرة، وأنا أتجول في موتيستونْ مع الدكتور هاميلتون، لم يصعب علي أن أتجاوز صمتي وأهتم بحياة سكان القرية انطلاقا من موضوع حالتهم الصحية. وكم كانت مدهشة تلك السهولة التي يتحدثون بها عن أنفسهم، عن أسلافهم، عن الطقس والسياسة، دون أن يتوقفا ليلتقطوا أنفاسهم. نادرا ما كانوا يشعرون بالحاجة لأبادلهم القول وأطلعهم على أموري. انطلاقا من تلك التجربة بدأتُ أستمتع بحكايات الآخرين وأشعر بالرغبة في أن أعرف كيف كانوا يتدبرون أمورهم من أجل العيش.

كما كنتُ أحب أن أتملك آرائي دون أن أخشى انتقاما.

كانت أشرعة سفينة «آرابيلا» تطقطق مع الريح القوية، لكن صوتها كان هادئا ومتواصلا. كان شيئا جميلا رؤيةُ الصاري والأشرعة المنتفخة وهي تمخر عباب المياه الزرقاء المُخْضرّة فوق مضيق سولينت. كان المضيق يتلاشى غرب الجزيرة التي بالكاد تظهر بعيدا. كنا ندنو من غوسبورت. ومن وسط المياه، رأينا مراكب شراعية أخرى وخَطّ الساحل. وفي الوقت الذي كنتُ أشعر فيه بارتياح لأن الرحلة مرت دون مشاكل، شعرتُ بالفزع من اليوم الذي ينتظرني. بعد ساعات قليلة من السفر سنصل إلى لندن. قد لا يكون من السهل أن أقابل الملك لويسْ فيليبْ دون أن ينفضح أمري. كان إبراهيم يفكر في الحصول على شَعْر مستعار وملابس تجعل من الصعب التعرُّف عليّ. كان شيئا منتظرا أن يسافر الملك رفقة جزء من حاشيته، علاوة على أسرته. وقد لا يكون من المستبعد أن يكون رفقته حتى باسكييه، القاضي الذي حكم عليَّ في محكمة الأنْداد، هاربا بدوره من غضب الجماهير. أما التفكير في أنني سأحصل على لقاء خاص وسري مع الملك فكان ضربا من الوهم. لكن لم يكن هناك من بديل. كان مستقبلي متعلقا بحماية لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ وسخائه.

وصلنا إلى ميناء غوسبورت. وضعتُ القبعة، وتدثرتُ بالشال. أخرج إبراهيم أمتعتنا من داخل السفينة. ودّعْنا القائد كارلين، الغامض والصموت، والضابط الأول.

ـ سررنا بلقائك، سيد ديمولانْ ـ قال لي هذا الأخير.

حيّيتُهما معا بنصف ابتسامة. لن أعرف عنهما شيئا آخر بعد ذلك. لم يكن ذلك اليوم ملائما لأتآخى مع أمثالي من الناس.

تكلف شاب يدفع عربة يدوية بحمل الحقائب ومرافقتنا إلى محطة القطار. لم تثر القرية ولا أهلها اهتمامي. ونظراتي مركزة على حذائي في الشوارع المرصوفة بالحجارة، سرتُ خلف إبراهيم حتى بلغنا محطة السكة الحديدة. ما إن رأيتُ البناية ـ الحاجزُ الأمامي الذي يبدو أشبه بواجهة كنيسة، وسلسلة الأقواس الهيفاء المتواصلة التي تحيط بجزء كبير من سكة القطار ـ حتى تذكرتُ تفاصيل أخرى من رحلتي رفقة الملك ولقائه هناك بالضبط مع الملكة فكتوريا والأمير ألبيرْت. كل هذا

يبدو اليوم بعيدا.

كان عدد كبير من المسافرين يستعدون لصعود العربات تحت البطانة الحديدية للسقف الذي يغطي الأرصفة والقطارات. في المحطة، كان يهيمن حماس الأسفار الغريب. والمسافرون، الذين لا يعرفون بعضهم البعض، يتآخون حول الحقائب، ولحظات الوداع، وحركة الحشد.

All aboard ! ، هيا اصعدوا جميعا! صاح الحمّالون، الذي يسهل التعرف عليهم من لباسهم الأخضر بحواشيه الحمراء وقبعاتهم المستوية التي تحمل نفس الحاشية على الواقية.

جلستُ في المقعد. كان داخل العربة مريحا، يكاد يشبه العربة التي تجرها الخيول. آه. لكن ما إن بلغت القاطرةُ السرعة المذهلة لعشرين كيلومترا في الساعة حتى لم يعد يُسمع سوى نفخ المُولّد البخاري وانزلاق العجلات على السكة. وكان الجسد مرتاحا لنهاية حركات الخيول أو الوقفات الفجائية لأي حوذي غاضب. استمتعتُ لحظة بمستجدات السفر على متن القطار، لكن مناظر طبيعة الشتاء، الباهتة والشاحبة، والصوت الرتيب للعجلات وهي تجري فوق السكة لم يعمل سوى على زيادة حدة النوم المتأخر الذي كنتُ أحمله من الليلة السابقة. اتكأتُ على النافذة ونمتُ نوما عميقا.

الفصل السادس عشر

بعد ساعة رجّني إبراهيم. كنّا في فاريهام. هناك كان علينا أن نغير القطار الذي يربط بين ساوثامبتون ومحطة واترلو في لندن. وقد يتطلب الوصول إلى وجهتنا ساعتيْن أخريين، ثلاثة، أو ربما أربع ساعات أخرى من السفر. شعرتُ أنني تائه لما توقفتْ وتيرةُ القطار بشكل مفاجئ، وارتفع نشاط المسافرين الحثيث وهم ينزلون، يطالبون برزمهم وحقائبهم، وعلا صوت مكابس القاطرة، وارتفع صوت الحمالين وهم يرشدون المسافرين المغادرين والداخلين إلى المحطة.

لا أستطيع أن أذكر شيئا تقريبا عن القطار الذي أخذناه إلى لندن، أو الرحلة نحو محطة واترلو، لكن يبدو لي أن العربات كانت مغلقة وأكثر راحة. لا أستطيع أن أتذكر لأن ذهني دخل في حالة محمومة وراح ينسج المشاهد ويتساءل عما قد يجري، عن هذا الأمر أو ذاك. وكان قلقي يزداد كلما اقتربنا من وجهتنا. يتعين علي أن أجد طريقة أعيد بها تأكيد براءتي أمام لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ، دون أن أورط هانْرييتْ، ودون أن أكشف بالضبط عما جرى في تلك الليلة الفظيعة. كيف لي أن أفسر الثلاثين طعنة التي تلقاها جسدُ فاني؟ كيف لي أن أشرح الشريان السباتي الذي قُطع عند العنق، وصراع فاني الضاري من أجل العثور على مخرج من الغرفة، وضربات مقبض المسدس على رأسها ثم ضربة الرحمة التي تلقتها على مستوى الجمجمة بواسطة الشمعدان الثقيل؟ كنتُ أعرف أن مسؤوليتي عن الجريمة قد استُنتجتْ من عدة مؤشرات: لطخات الدم على مبْذلي الذي حاولتُ أن أنظفه بالماء، الأوراق وقطع الثوب التي حرقتُها في موقد النار في غرفتي، سكين القنص في صوان غرفتي، مقبض المسدس الذي كان في ملكيتي وبه دم فاني وشعرها. لو كان هناك من طريقة لتمييز آثار اليدين أو أي آثار أخرى تكشف عن هوية مشتبهين آخرين، لربما أسفر حلُّ هذه الجريمة عن نتائج مختلفة، لكن هذه التقنية كانت ما تزال ضربا من خيال المحققين. إن الأدلة، الناتجة عن شبهات وفظائع تلك الليلة، كانت تشير إلي أنا.

كانت محطة واترلو مليئة بالصقالات والعمال المنهمكين في بنائها. كان فيها فقط رصيفان تغطيهما بنية حديدية من المثلثات المتواصلة تبدو كأنها كيرٌ ممتد لآلة أكورديون. وكان الباب الرئيسي يعج بنساء يرتدين معاطف طويلة وثقيلة ذات ياقات جلدية ويضعن قبعات مخملية بها ريش، وبرجال يضعون قبعات طويلة وبذلات مفصلة بعناية. تقدم إبراهيم وسط الناس يفسح لي الطريق، ويحمل الحقيبتين. وصلنا إلى الشارع، وهناك اكترينا عربة ستأخذنا إلى إيشْر، في سورّي.

انطلقنا عبر الطريق عند منتصف الظهيرة. كانت طبقات من الضباب تنتشر من حين لآخر وتجبر العربة على تخفيف السرعة فوق الطريق المغطاة بالحجارة. وخلافا للمدينة التي كانت تعج بالعربات، لم نصادف سوى بعضا منها في مقطع الطريق نحو إيشْر. ابتعدنا من لندن عبر أحياء بها منازل من طابقين بُنيت بالآجور ولها واجهات مسطحة قليلة الزخارف. تركنا وراءنا الشوارع حيث ترتفع عالية هنا أو هنالك بنايات جميلة تحاكي الأبواب ذات الأسلوب الكلاسيكي الجديد. كنا نرتعش من البرد.

كانت إيشْر قرية صغيرة ومنبسطة، بها أكواخ من التبن المنسوج والمتراص ـ أو ما يسميه الإنجليز «*thatched roofs*» ـ تبدو كأنها قبعات بُنّية فوق منازل ريفية ذات جدارات بيضاء وروافد بادية من الخشب. عندما دخلنا إلى إيشْر مررنا عبر كليرمونت. رأيتُ من بعيد الإقامة التي بنيت وسط الحديقة. كانت بيتا بني وفْق أسلوب بالادْيو. في وسط الواجهة الآجورية كان يبرز ما يشبه معبدا صغيرا، أعمدة شاهقة وإفريزٌ مثلث يستند على الواجهة، يعوزه الأسلوب. ربما كان الجزء الداخلي يعوض قبح الجزء الخارجي. عندما وصلنا إلى النُّزل، بيتٌ قديم حولوه إلى مكان لإيواء الضيوف، شعرتُ أنني مرهق بسبب السفر. كان إبراهيم بدوره يشعر أنه منهك. قال إن ظهره يؤلمه. ظلّ يرافقني بينما كانت زوجة صاحب النُّزل تقدم لي حساء لحم خروف بالخضر ذكَّرني بمدى سوء مأكولات الإنجليز، لكني كنت جائعا فشربتُ الحساء دون أن أنبس ببنت شفة، مستعينا بقطعة خبز جيدة. وقام إبراهيم بالشيء نفسه، جالسا رفقة صاحب النّزُل. تصورتُ أنه ربما كان

يسأله عن وصول لويسْ فيليبْ وعن خصائص القرية.

كان النّزل يحمل اسم «ش و ل». اسم غريب، فكّرتُ. ليلتها أخبرني صاحب النُّزل أن ذلك كان تكريما منه للزوجين الملكيين، شارْلوت، أميرة ولز وليوبولد، أمير بجليكا، اللذان كانا يقيمان في كليرمونت هاوس. كانت قصة رومانسية ومأساوية، لأن الزوجين الشابين الوسيمين والعاشقين لم يتمكنا أن ينعما سوى بسنة واحدة من السعادة. وفي السنة الموالية، توفيت الزوجة عند الوضع وهي في سن الحادية والعشرين من عمرها.

وأنا أستمع إليه فكرتُ في فاني التي كانت أُمّا تسع مرات ولم يحصل لها من مشكل غير السمنة لأن وزنها بلغ مائتي رطل. لم تكن الحياة عادلة.

ـ يقول مستر تيتْ إن إيشْر قد استعادت حيويتها هذه الأيام مع وصول النزلاء الفرنسيين ـ قال لي إبراهيم، وهو في الغرفة الصغيرة لكن المريحة حيث آويتُ لأقضي الليلة ـ وقد تعاقدوا مع عدد كبير من الأشخاص لخدمتهم في كليرمونت هاوس ـ أضاف ـ غدا سأطلع على مزيد من التفاصيل. ارتح الآن، يا سيدي.

ـ هذا ما سأفعل، لا تشك في ذلك.

نمتُ نوما مسترسلا، وأنا منهك. منذ مدة طويلة لم أنم كذلك دون أن توقظني الكوابيس أو رائحة دم فاني وأنا أشعر بإحساس بالاختناق. وقد جعلتني تلك الليلة المريحة التي نمتها أستيقظ باكرا وأنا أنوي القيام بجولة مشي عبر الريف الإنجليزي، الذي بدا لي منذ الوهلة الأولى من أجمل الأرياف الرعوية التي أحتفظ بها في ذاكرتي. كانت وجبة الفطور من أكثر المأكولات الإنجليزية التي يمكن أن يستحملها المرء، فشربتُ فنجانين من الشاي وأكلتُ كعكتين صغيرتين دهنتُهما بالزبدة والمربى. وبشكل غريب، شعرتُ بمزاج جيد. فكرتُ أنني كنتُ أتنفس هواء أكثر بعد أن خرجتُ من ضيق جزيرة وايْت. مروري بلندن لوحده جدّد روحي. انتبهتُ إلى أي مدى كنتُ مشتاقا لضجيج وحركة مدينة كبيرة. صعدتُ إلى الغرفة بحثا عن معطفي وقبعتي. دلّني صاحب النُّزل على الطريق الضيق الذي سيقودني إلى الغابة. خرجتُ إلى هواء الصباح الصافي والبارد ثم أسرعتُ الخطى متوجها نحو الدّرب. كانت بعض أشجار الصنوبر تبرز دائما خضراء وسط فروع من دون أوراق في المنظر الشتوي. كان الضباب قد بدأ يتلاشى، وأشعة الشمس تتسرب عمودية إلى الغابة البعيدة. مرّ إلى جانبي شاب على صهوة جواده ورفع قبعته يحييني. وكلما مشيتُ كان جسدي يستعيد حيويته وطاقته. كان توتر الأيام الأخيرة يتركني. نظرتُ إلى الحواجز التي ترتفع كثيفة على جانبي الطريق. خلال فصل الشتاء تبدو كأنها جدران متشابكة، تعج بالأغصان الملتوية واليابسة. وما إن يحل الربيع حتى ترتدي الخضرة وتزين الخطوط الفاصلة بين مختلف الحقول. لم أتأخر طويلا في التوغل في الغابة. بالكاد كان يُسمع صدى خطواتي فوق طبقة من الأوراق المتساقطة الميتة. كنتُ أستمتعُ بجولتي. وتأخذني الذاكرة إلى حديقة فو-بْرالانْ البرية التي طالما أحببتُها. وفي الاتجاه المعاكس رأيتُ ماشيا آخر يقترب فوضع ذلك حدا لهدوئي. كان من يدنو يرتدي عباءة حمراء يظهر نسيجُها الغني من بعيد ويضع قبعة مثلثة القرون من تلك التي يضعها الجنود الفرنسيون. شعرتُ بإنذار يشتعل فورا بداخلي: ماذا لو كان شخصا فرنسيا من ضيوف الملك؟ بدت لي حينئذ نزوتي في مغادرة النّزل والقيام بجولة في الضواحي جسارة متهورة، ناتجة عن رغبتي في حياة عادية، وأنا أظن أنني حر مثل سائر الناس. ماذا أفعل لو كان الأمر يتعلق بعضو من أعضاء حاشية الملك لويسْ فيليبْ يمكن أن يتعرّفني؟ قد يكلفني طيشي ثمنا لا أقدر حجمه. خفيةً، وأنا أتظاهر بالبرد، رفعتُ ياقة المعطف وعدّلتُ اللفاعة حتى تغطي الجزء الأسفل من وجهي. مشيت أخفض عينيّ وأنا أصلّي متمنيا ألا يتوقف الرجل ويتابع سيره.

ـ *Good morning*، موسْيو ـ حياني الغريب، وهو بالكاد يرفع قبعته ويتوقف. لم أجد بدا من أن أتوقف بدوري وأرد التحية. كانت لغته الإنجليزية ذات لكنة فرنسية قوية.

ـ *Live in the town ?* ـ سألني مستقصيا إن كنتُ أسكن في القرية.

أجبتُ موافقا بحركة من رأسي، دون أن أنظر إليه.

ـ *Nice woods* ـ قال. نعم، كانت الغابة جميلة، قلتُ موافقا، وأنا أتحاشى نظراته.

ـ *Nice morning*. صباح جميل. ـ أردفتُ، وأنا أحرص بكل ما استطعتُ على أن أنطق بأحسن نبرة إنجليزية ممكنة.

بالكاد نظرتُ إليه، لكني أدركتُ أنه لم يكن أحدا ممن أعرف.

ـ *Taking care of the king ?* ـ تشجعتُ فسألته إن كان في خدمة الملك.

ـ *Oui* ـ قال مؤكدا.

ـ *Good morning then* ـ قلتُ وأنا أرفع يدي في إشارة وداع لأبين له أنه علي أن أواصل طريقي.

ـ *Au revoir* إلى اللقاء ـ قال في الأخير.

أسرعتُ الخطو. كنتُ أسمع في أذنيّ إيقاع دقات قلبي المتسارعة. فجأة، تملكني الرعب وإحساس بالاختناق، وصار الهواء الطلق الذي كنتُ أستمتع به قبيل لحظات ينذر بالخطر. لولا أنني قررت أن أنتظر أن يختفي الدركي من الطريق، لجريتُ عائدا إلى النّزل كي أختبئ. جلستُ فوق جدع شجرة. أخذتُ نفَسا عميقا. عاتبتُ نفسي لأنني تصرفت مثل طفل خائف. ذكرياتُ مخاوف الطفولة، في ليال كنتُ أشعر خلالها شعورا يقينا أن الشبح تحت سريري سيأخذ كاحلي لو نهضت لأتبوّل في المبولة، سمحت لي، في النهاية، بالضحك من خوفي الذاتي. هدأتُ، بلغتُ حافة الغابة، عاجزا عن تقدير النباتات حق قدرها. انتظرتُ وقتا من الاحتراز وعدتُ إلى النُّزل بأقصى ما سمحت لي به رجلاي.

الفصل السابع عشر

خوفا من أن ألتقي بأحد من أفراد حاشية لويسْ فيليبْ قد يتعرّفني، مكثتُ خلال تلك الأيام داخل غرفتي في النّزل متظاهرا بالمرض. كان إبراهيم يجلب لي أنواعا من الحساء لا طعم لها أثناء وجبات الأكل. عدتُ من كليرمونت وأنا أعرف معلومات عن قاطنيها. وبالفعل، رفقة الملك كانت أسرتُه وفرقة من الحرس الذين سرعان ما سيرحلون عائدين إلى فرنسا. وكان يُقال إن جيزو ستُوجه له الدعوة لإلقاء دروس في أوكْسفورد، لكن لا شيء من هذا تحقق. أما الدوق إيتيانْ دونيزْ باسْكييه، رئيس مجلس الأنداد والمدعي العام المكلف بقضيتي، فقد انسحب إلى الريف في نورماندي، ليكتب. فلم يكن من هناك من سبب كي أخشى أن أصادفهم، لكن، برأي إبراهيم، أي واحد من الدركيين يمكنه أن يتعرّفني. وأي احتراز ممكن فهو شيء ينصح به، قال لي، نظرا للإشاعات التي تروج في فرنسا والتي كانت تدعي بحق أنني ما زلت على قيد الحياة، مختبئا في جزيرة وايْت.

لم أكن أتصور أنني سأقابل الملك متنكرا، كما كان ينصحني إبراهيم، أو أن أظهر هكذا في طريقه وأنا أبرز من وراء سياج في حديقة كليرمونت، أو أن أستعمل وسيلة أخرى من ضرب الخيال. كنتُ في مأزق محتارا بين أن أُعرّض نفسي للسخرية أم لا حتى أحميها. لأن لقاءا كهذا ينطوي على مخاطرة. لم أكن أريد أن أتسبب للملك في مزيد من المشاكل، لكن الحلول البديلة كانت قليلة. فاخترت أسهل حل: أن أكتب رسالة سيتكلف إبراهيم بتسليمها، مستغلا صداقته بأوفيمي، التي كانت هي السيدة المرافقة لمادامْ أديلاييدْ، قبل أن تموت هذه الأخيرة.

إن الكلمات لا تسعفني للتعبير عن امتناني. أنا واحد من رعاياك ومستعد لأتصرف حسب ما تأمرني به. كانت جزيرة وايْت ملجأ رائعا، لكن الإشاعات بدأت تلاحقني حتى في ذلك المكان. يجبُ أن أرحل بعيدا، لكني شبحٌ من دون موارد. لو سمحتم لي، يا صاحب الجلالة، بلحظة من وقتكم، أود أن أعبر لكم عن امتناني بشكل شخصي وأتحدث معكم عن الطريقة التي يمكن لأخي إدْغارد أن يسدد لكم الدَّيْن الذي أجد نفسي مضطرا لأطلبه منكم حتى أختفي نهائيا من حياتكم.

ختمتُ الرسالة بشمع أحمر، مستعملا مقبض عصاي. مقبض عادي، لا يحمل شعار نبالة، ولا أي شيء يمكن أن يشي بي، لكنه يضمن أن لا أحد غير جلالته، يمكنه أن يطلع على مضمونها. ذهب إبراهيم ليسلمها في اليوم الموالي.

جاء جواب لُويسْ فيليبْ بعد عدة أيام. كان يطلب مني أن أنتظر حتى يرحل الدركيون. وحين سيكون لوحده مع أسرته، يمكنه أن يستقبلني.

وجاءت دعوة قدومي إلى كليرمونت وقتا قليلا بعد ذلك. هيأ إبراهيم قميصي وارتديتُ أحسن ما يليق بي من ملابس بورجوازية، هي الوحيدة التي كنتُ أملكها.

ظننتُ أن لُويسْ فيليبْ سيستقبلني لوحده في المكتب، وأنه سيتم التعامل بتكتم وسرية مع ظهوري. وضعتُ برنيطة على رأسي، ألقيتُ على كتفي العباءة الشتوية السميكة، ثم حضرتُ، رفقة إبراهيم، إلى كليرمونت هاوس بُعيد الغروب. كان إبراهيم قد تلقى تعليمات بطرق الباب الرئيسي. وأمام اندهاشي وذهولي، كان أنطوان دو أورليان، دوق مونبنْسييه، ابن الملك الأصغر، هو من خرج لاستقبالي. كان شابا ذا وجه وسيم وشارب كثّ، فارعا، متأنق الملبس، له مواهب أهل والده. عانقني بود لأنه يعرفني منذ أن كان في سن المراهقة. بقيت جامدا.

ـ من كان يقول إننا سنلتقي مرة أخرى في مثل هذه الظروف؟ ـ قال مبتسما ـ إنك مثل لِعازَرُ، يا سيدي ـ قال ساخرا. ـ تفضّل، تفضّل، نحن ننتظرك للعشاء.

أومأتُ موافقا برأسي وابتسمت دون أن أتمكن من قول أي شيء، مذهولا حين انتبهتُ إلى أن لويسْ فيليبْ قد أفشى لهم

سر موتي المخادع. لم أكن أستطيع أن أفهم ذلك ولا أملك الشجاعة، وأنا متورط في ذلك الوضع، كي أهرب من انبعاثي القهري، أو أن ألوم أحدا على إفشاء سري المحفوظ. تبعتُه كالمسرنم. انسحب إبراهيم محتشما، وقد أخبرني قبل ذلك بعينيه كم كان يبدو له قرار الملك عبثيا وغير موفق.

كان البيت منزلا كبيرا ومزينا بطريقة بسيطة، بمرايا كبيرة وأواني صينية وسُلّم يؤدي إلى الطوابق العليا. دخلنا إلى قاعة الأكل. لم يكن الملك في الصالون بعد، فدنت مني الملكة ماري أميلي، الصموتة عادة، وهمست في أذني:

ـ شارْل، سامح الملك؛ إنه مضطرب بسبب كل ما جرى. يبدو أنه لم يعد يهمه أي شيء، لكن لا تشغل بالك. لقد طلبتُ من كل واحد من الحاضرين هنا أن يقسم بالتزام الصمت.

كان خدّاي يحترقان. لا بد أنهما كانا أحمرين. كان خجل عميق يغمرني. شعرتُ بحرارة تسري في كل جسدي، ولم يكن أمامي من بديل فقمت بجولة حول المائدة. حييتُ زوجة أنطوان، أميرة إسبانيا لويسا فرنانْدا، كما حييت دوقة نيمور، فيكتوريا، زوجة لويس دوي أورليان، الابن الثاني للملك، والأميرة الجميلة كلمنتين دو أروليان وزوجها الأمير أوغوست. وكانت كل من فيكتوريا وأوغوست ابْني عم فكتوريا، ملكة إنجلترا. وهما من شرحا لاحقا أن كليرمونت هاوس كان واحدا من المنازل المفضلة لدى الملكة. كان في حوزة عمها المفضل، ليوبولد. عندما عُيّن ملكا لبلجيكا، ترك البيت للشابة فيكتوريا، التي قضت هناك عدة فصول من فصل الصيف. وبما أنها سلمته إلى العائلة الملكية الفرنسية المخلوعة فإن ذلك دليل على مدى الودّ القريب الذي كانت تكنه لهم.

غريبٌ ذهنُ الإنسان غرابة الحياة. بعد ذهولي، وخجلي وخوفي في البداية، شعرتُ بارتياح كبير. كان من الممكن أن أكون أنا مرة أخرى. لم يكن علي أن أتظاهر. منذ أن غادرتُ باريس، لم تتح لي فرصة أن أكون رفقة نبلاء آخرين. كانت المائدة محضرة بشكل فاخر، بها أواني من بيت ساخونيا، شموع في شماعد من فضة وشرشف افترضتُ أنه صنع في بيت من بيوت صانعة المطرزات في بْروج في فلاندرة. وفي الوقت الذي كان جزء من ذاتي يفرح بتواجده من جديد في الماضي، كان عدم تناسب ذلك المشهد مع لباسي ووضعيتي الحالية يخلقان لي تناقضا داخليا يملؤني خرقا. وأنا أسمعُهم ينادونني شارْل أو تيوبالد، وأعلم أن فوقهم جميع يحوم سؤال ما إذا كنت مذنبا أم غير مذنب، وأفكر في أنهم يتحرقون فضولا لمعرفة تفاصيل تلك الليلة المشؤومة التي ماتت فيها فاني، كلُّ ذلك كان يسبب لي قلقا عظيما. بذلت مجهودا لأخفي توتري وأتصرف بشكل طبيعي. في نهاية المطاف، فكرتُ، قد يكونون بصدد التأقلم مع ظرف يجهلونها. كنا جميعا غرقى ننتمي إلى فرنسا التي طردتنا من حضنها بعنف. هم عاشوا للتو ثورة رمتهم خارج حياة من الراحة والسلطة التي كانوا ينعمون بها. يمكنني أن أوجّه الحديث في هذا الاتجاه، وأسألهم عن تجربتهم، أجبرهم على تذكر مخاوفهم أمام رُعاع خارج السيطرة احتشدوا أمام تولوري وأجبروا لويسْ فيليبْ أن يقرر بين فقدان السلطة أو لست أدري كم من الأرواح البشرية التي كان من الممكن أن تسقط بأمر منه.

ـ اجلس، يا شارْل ـ طلبت مني الملكة وهي تتكهن بحيرتي. جلستُ على يمين الأميرة كلمنتين، التي كانت تجلس بدورها على يمين المكان الفارغ المخصص للملك على رأس المائدة. انتهيت من الجلوس عندما دخل لويسْ فيليبْ. وقفنا جميعا. اقترب مني مباشرة وعانقني عناقا حارا وعاطفيا.

ـ صديقي، شارْل شْوازولْ دو بْرالانْ ـ قال وهو ينظر إلي ويحتفظ بيديه فوق كتفيّ ويتفحصني ـ أرى أنك قد استعدت عافيتك. آسف لأننا نلتقي من جديد مثل جنود مهزومين في أرض غريبة. سوف تحكي لي كيف كانت الشهور التي قضيتَها في جزيرة وايْت. إننا ندينُ للملكة فيكتوريا بكل هذه الملاجئ التي نستطيع أن نكون فيها كما نحن بكل كرامة. لقد رافقني شارْل تيوبالد في الزيارة الأولى التي قمت بها لدى الملكة فكتوريا ـ قال، متوجها إلى الآخرين ـ هل تذكر، يا شارْل، عربة

قطار الملكة في غوسبورت؟

ـ طبعا ـ قلت موافقا بحركة من رأسي، وأنا أبتسم.

ـ مر وقت قصير جدا منذ تلك المناسبة ـ قال الملك متنهدا ـ وكم تغيرت من أشياء منذ ذلك الوقت!

فهمتُ كلام الملكة. كان الملك مهموما، شاردا عن ذاته. ويبدو أن الحاجة للشعور بشيء من الحياة العادية قد فرضت نفسها على جانبه العقلاني.

وبينما كنا نستمتع بلحم خنزير مع قطع التفاح، ولساني يتذوق نبيذا لذيذا وخبزا هشا، استرخيتُ وطبقتُ خطة لطرح الأسئلة. علمتُ، بارتياح، أن صهري قد نقل أبنائي إلى قصر فو-بْرالانْ. وامتلأ الحديث بطرائف تتعلق بالأيام الأخيرة من أيام الملكية. ليس هناك من شيء أكثر غواية من دعوة الناس ليصوروا أنفسهم ضحايا أو أبطالا. تحدثوا بكل تفصيل عن تلك الأيام التي كانوا يذكرون منها بكل جلاء وجوها، وأصواتا، والساعة بالضبط حين حدث هذا الأمر أو ذاك. وحكت الأميرة كلمنتين كيف قضت هي والأمير أوغوست، متنكريْن في لباس مدني باريسي، عدة ساعات وسط ازدحام كبير في ساحة لاكونكورد، يستمعان لخطابات ملتهبة كان يلقيها مناصرون للملكية ومدافعون عن التيار اليعقوبي، وقد صعدوا فوق نوافير الماء، يتبادلون الهجومات.

ـ رغم أنه ينبغي أن أعترف أنني كنت مرعوبة وأنا أرى كيف كان الغضب ينتشر بين الحشود، فكرتُ في المهندس المعماري جاك إغناس هيتورف ـ قال الأميرة كلمنتين ضاحكة ـ وما قد يعانيه وهو يرى النافورات قد تحولت إلى منابر للمتمردين ـ كم هي غريبةٌ الأفكار التي يمكن أن تخطر فجأة على المرء وهو في أسوأ الظروف.

ـ إن نافوراته ـ تدخلت الملكة ماري أميلي ـ نسخةٌ بالألوان من نافورات ساحة نافونا في روما.

ـ دعينا من إيطاليا، ماري أميلي، بفضل مُحافظ نهر السين الفعال، رامبوتو، الذي أقنعني بوضع مائتي كيلومتر، نعم مائتين، ـ قال مؤكدا ـ من الأنابيب و١٧٠٠ صنبور. وكانت هذه هي النافورات الأولى التي صُمّمت فقط من أجل تزيين باريس، وليس لتزويد أهل باريس بالماء.

ـ لحسن الحظ، يا بابا ـ قالت الأميرة كلمنتين ـ أنه خلال ذلك اليوم، على الأقل، كان هناك سكارى استعملوا النافورات لقضاء حاجاتهم.

ـ كلمنتين! ـ قالت الأم، بينما كنا نحن نضحك من شطارتها.

ـ نعم ـ تابعت ـ ، لا أدري إن كان أحدكم قد تجرأ واختلط بالحشود، لكن أنا وأوغوست استطعنا أن ننجو ونحن نتظاهر بأننا جزء منهم. وأبي يعرف كم كان مهما أن نتمكن من الوصول إلى فرساي كي نخرجه من هناك ونأخذه إلى السفارة الإنجليزية حتى يلجأ إليها.

ـ تذكري أنه كان زوجي، أخوك لويس، هو من قاد الجنود الذين منعوا دخول الرعاع إلى تولوري، حتى يمنح الملك متسعا من الوقت كي يتنازل عن العرش ويلجأ إلى مكان آمن ـ قالت دوقة نيمور ـ وقال لي إن تحاشي مجزرة هناك كان أكبر مهمة قام بها في مشواره العسكري.

ـ أمّا ابني الشجاع ـ أضاف الملك ـ فقد فصله الرعاع عن هيلينا عندما كان يأخذ كونت باريس إلى غرفة النواب كي يقترحه ليعوضني. وجد نفسه أمام خطر أن تعدمه الحشود دون محاكمة. لولا تدخل أحر أفراد الحرس الوطني الذي أعاره زيّهُ الرسمي، لا نعرف كيف كان سيعامل معاملة سيئة، بل ربما كان سيموت في ذلك اليوم.

ـ هذا هم الأهم ـ قالت الملكة ـ المهم أننا لا نأسف على موت أي أحد منا أو من أقربائنا. لا يمكن أن ننسى أنه، في خضم كل هذا، نحن ملتئمون مجتمعون ونحظى بترحاب ودي من طرف الملكة فيكتوريا. فليبارك الرّب الملكة!

ـ أنا غادرتُ سفارة إنجلترا في باريس تحت اسم «مسترْ سميث»، دون أن يتعرّفني أحد ـ قال الملك مع ابتسامة ساخرة ـ كما فعلت أنت، يا شارْل، قطعتُ المسافة بين لوهافر ونيو هيفنْ متنكرا.

وصلت وجبة الغداء إلى نهايتها مع نفيخة تذوب في الفم. أكلتُ بمتعة، وعيا مني بأنه ربما تكون المرة الأخيرة التي أتذوق فيها أكلا على الطريقة الفرنسية. ورغم أن الملك وأسرته حكوا طرائف عن هروبهم من فرنسا بنبرة من يسخر من نفسه، وجدتُني متأثرا حتى أنني تظاهرتُ بنوبة سعال كي أخفي الدموع التي ملأت عينيّ. إن كنتُ أنا، الذي كنتُ فيما مضى دوقا ووريثا لآل شْوازول النبلاء، واستطعتُ بصعوبة أن أتكيف مع حياة الناس العاديين، فإنني فقط أتخيل كيف سيكون الأمر بالنسبة إليهم. طبعا، قد يستمرون كما كانوا، وقد يستعملون أسماءهم ويحظون، حتى في أنجلترا، بالمعاملة التي تليق بالملكية، لكن ذلك عزاء ضئيل. ربما تصورا أن الحياة ستكون أكثر سخاء معهم.

انتقلنا إلى صالون آخر من المنزل كي نتناول الشاي ومشروبات روحية. كانت الملكة، والأميران كلمينتين وأوغوست، ودوقة نيمور، وأنطوان مع زوجته لويسا فرناندا، ينظرون إلي بينما يحملون الفناجين الصغيرة أو الكؤوس إلى شفاههم. وختمت الملكة حكايات يوم ٢٥ شباط، برواية حدث الإغماء الذي تعرضتْ له وهي تغادر القصر. اضطر أربعة مساعدين لحملها حتى العربة التي قادتها إلى الميناء ومن هناك نحو المنفى.

بعد رواية همومهم، صار واضحا بالنسبة لي أن الحاضرين هناك كانوا ينتظرون أن أحكي لهم محنتي على سبيل ردّ المعاملة بالمثل.

أثناء العشاء، كان مستحيلا بالنسبة لي ألا أفكر في الخدم الذين يرتدون زيّا مميزا أثناء تقديم الطعام. بعد شهور عديدة من الاختباء كنتُ واعيا تمام الوعي إلى أي حد كان سري مكشوفا. لم أعد أملك تلك الثقة الغريزية التي يمنحها الانتماء الطبقي والنسب العريق. أسفتُ لأنني لم أصغ إلى براهيم الذي نصحني بأن أظهر أمام الملك على حين غرة خلال جولة من جولاته. الآن كان لا بد من أن أستجيب لتطلعات الجماعة وأوضح لهم الشكوك حول ذنبي؛ ذنبٌ كان يبدو من خلال تصرفهم أنهم يستبعدونه وهم يغدقون علي بمعاملة حميمية ولطيفة كتلك التي كانوا يعاملونني بها في فرنسا خلال فترة طويلة من العلاقات بين عائلاتنا.

كان الصالون يتوفر على موقد نار واسع من المرمر حيث تطقطق النار. أخذتُ كأس كونياك. تركنا الخدم لوحدنا. حاصرتني كل العيون بالأسئلة.

ـ هناك شبح فيل بيننا ـ قالت بلا مواربة الأميرة كلمنتين، التي كانت أكثر جرأة وصراحة من بين من كل أبناء لْويسْ فيليبْ.

نظرتُ إليها ثم نظرتُ إلى الآخرين واحدا واحدا، وأنا أعي أن نظرةً محدقة لها سلطةُ الإقناع بضمير صاف.

ـ أعرف ذلك ـ أجبتُ. وقبل كل شيء علي أن أدعوكم أن تسألوا أنفسكم، ما دمتم تعرفونني طبعا حق المعرفة، إن كنتم تظنونني قادرا على أن أوجه ثلاثين طعنة إلى فاني. «ثلاثون» ـ كررتُ ـ هذا ما قاله الطبيب الشرعي؛ وهو عدد سادي من الطعنات ـ . ثم خفضتُ عينيّ. غطيتُ وجهي بيديّ. لم أكن أتظاهر. كلما فكرت في هذا العدد، كنتُ أضطربُ.

تدخلت الملكة:

ـ *Mon ami*، يا صديقي، إنك لا تدين لنا بأي تفسير، من فضلك.

ـ لكن، يا أمي ـ قال أنطوان، دوق مونبنْسييه ـ لقد قدم باسْكييه عددا كبيرا من الأدلة وأنا أريد على الأقل أن أستمع لدفاع شارْل.

ـ لو كما نعتقد أنك مذنب لما كان هناك ما نسأل عنه ـ قالت الأميرة كلمنتين ـ أنا أريد أن أصدق براءتك. لكن أنت، ألا تشعر بالحاجة إلى دحض ما قدمه إتيان باسْكييه من أدلة؟

حدجني لويسْ فيليبْ بنظرة خالية من الحماس. لا بد أنه يشعر بالفضول، لكن، كما كانت تقول زوجته، لم تعد تهمه تلك القضية بعد أن فقد مُلْكَهُ. أما الآخرون، فكانوا يجدون، بعد عدة أيام من القلق، موضوعا يركزون عليه اهتمامهم، شيئا ما قد يذكرهم بآخر الأيام من وشوشات البلاط.

ـ ليس أمرا سهلا ما تطلبون ـ قلتُ . أشكر جلالة الملكة على رغبتها في تجنيبي إعادة تشخيص شي مؤلم كهذا. لكن، بما أنني لم أتمكن من الدفاع عن نفسي أمام غرفة الأنداد في فرنسا، أود أن أقوم بذلك أمامكم لأنني أعتبركم أندادي، أيها الشاهدون الأعزاء على حياتي.

ـ إنني أتفق مع شارْل ـ قال الملك، وهو بالكاد يعتدل فوق الكرسي ـ لنستمع إليه. إن شقيقتي العزيزة أديلاييدْ وأنا كانت لنا دوافع لمعرفة براءته. وقد أديتُ ثمنا غاليا بسبب الفضيحة وما أثارته من إشاعات.

قبل أن أبدأ ألقيتُ نظرة من حولي. كنتُ أريد أن أتغلب على عدم انسجام المشهد في ذلك الصالون ذي الأسلوب الكلاسيكي الجديد، بمراياه العالية، ولوحاته التي تمثل مشاهد القنص، وجراره المملوءة بالأزهار، وخارطة كروية تصور الأرض فوق قاعدة من الخشب، وكلْبان سلوقيّان بحجم طبيعي من الخزف الصيني على جانبيْ موقد النار، ومن ينتظرون باهتمام كلماتي. الملكةُ ماري أميلي، بعينيها الضيقتين، وأنفها الطويل، ووجهها النحيل، وشعرها الكستنائي الفاتح المشدود في عقيصة، كانت تبدو شاحبة وغاية في القلق. أما الأميرة كلمنتين، دوقة نيمور، ودوق مونبنْسييه، أصغر أفراد المجموعة، فكانوا يتحدثون فيما بينهم في همس. كان لويسْ فيليبْ جالسا على كرسي من الطراز الباروكي منجّد بقماش به ورود زرقاء، ويبدو متزعزعاً بعد أن فقد صلابة عموده الفقري. كان يفتح ساقيه ويضع يديه على حجره. بدأتُ قصتي:

ـ ليلة السابع عشر من آب، عادت الأسرة بكاملها إلى قصر فو-بْرالانْ. طلبتُ أن تنتظرنا ثلاث عربات عند المحطة. ركبت الدوقة، وابنيّ مع مُربّيهما في عربة؛ وركبتُ أنا رفقة ابنتيّ اللتان كانت تلحان على زيارة الآنسة دولوزي، التي كانت تقيم منذ تسريحها من بيتي، يوم السابع عشر من تموز، في نُزل لومير. كانت مادامْ لومير تريد من زوجتي أن تكتب رسالة تزكية لهانْرييتْ حتى تتمكن من الترشح لشغل وظيفة معلمة. كنتُ أشك في أن فاني تريد أن تكتب لها الرسالة، لكني طلبتُ من الآنسة دولوزي أن تأتي في اليوم الموالي على الساعة الثانية زوالا وتحاول أن تقنع الدوقة بكتابتها. هناك شهود على أنني قلتُ هذا الأمر. هل كنتُ سأقول هذا لو كنتُ أخطط لقتل فاني؟ كانت العائلة ستذهب لتنام ليلة في باريس. في اليوم الموالي، كنا قد قرّرنا أن نذهب إلى دْييبْ، إلى الشاطئ، ونلتقي بآل سيباستياني الذين كانوا في انتظارنا. كنا قد حجزنا غرفا في فندق «بالي روايال». مرة أخرى، هل يكون من الملائم القيام بكل تلك الاستعدادات؟ ربما. إنها ليست حجة جيدة لتبرئتي من الجريمة. أعرف ذلك. فقط أشير إليها. أريدكم أن تتذكروا هذا التاريخ: السابع عشر من آب. شهر بالضبط على مغادرة الآنسة دولوزي لمنزلنا في شارع فوبورغ سانت هونوري. (لم يكن قصدي أن أتهم هانْرييتْ، لكني أنا بنفسي لم أنتبه سوى آنئذ إلى هذه المصادفة. وكانت مصادفة دالة بالنسبة لي). أوفيمْيا، السيدة المرافقة للدوقة، أخبرتْني أنها قد تناولت قطعة لحم عجل وكأس شاي ثم ظلت تقرأ في غرفتها. كانت ليلة قائظة. باريس في شهر آب. لا ينبغي أن أستغرق في وصف الطقس. غيرتُ ملابسي في غرفتي، تمنيتُ ليلة سعيدة لمساعدي، أوغوست، وضعت المبذل فوق ملابسي ثم أخذت أتصفح

الجرائد وأنا ممدد فوق الكرسي ذي المسند. ثم نمت نوما عميقا. كان يوما مُتعبا. يا إلهي! كيف لي أن أتصور أنه سيكون آخر نوم هادئ أقضيه ـ قلت وأنا أصارع ذكرى تلفُّني: رائحة ليل باريس، رائحة الرطوبة، والعرق؛ ليست رائحة جميلة، لكنها رائحة مألوفة تتعرَّفُها حواسي، رائحة بيتي، وأبنائي، وملابسي المنزلية. أذكرُ أنني توجهتُ ليلتها إلى غرفتي وسط المصابيح الخافتة والبيت المستغلق بالصيف، وقطع الأثاث المغطاة، والشماعد المُغلّفة. كان بيتا ينام، ينتظر عودة الأسرة من الشاطئ، بداية الخريف، والشتاء اللامع في مدينتنا، وأوغوست ينتظرني في الصباح، سيمون الحوذي يأخذني إلى غرفة الأنداد، إلى القصر الملكي، لأتناول وجبة الغداء في مقهى لوبْروكوبْ.

حوالى الساعة الرابعة والنصف صباحا، أيقظني الضجيجُ والصياح في غرفة فاني. جريتُ مهرولا إلى هناك. كان هناك فقط ضوء شمعة واحدة مشتعلة. كانت فاني ترقد قربة كرسي طويل في غرفتها مضرّجة بالدماء. المسدسُ الذي شحنتُه احترازا كان بين يديّ عندما لمستُ رأسها. لذلك كانت به آثار دم وبعض آثار شعرها. عندما دنوتُ، تلطخ مبذلي بالدم المتدفق كالنافورة من عنقها. أزلتُ من يديها حبل الجرس الذي حاولت أن تنادي بواسطته على مرافقتها وتوقظ الخدم، ثم دسستُه، دون تفكير، في جيبي. بالكاد أستطيع أن أفسر الرعب والقلق اللذين استحوذا عليّ. أغلقتُ على نفسي في غرفتي دون أعرف ما أفعله. الحقيقة أنني لحظتها لم أكن أعرف إن كانت فاني حية أو ميتة. لم أملك الشجاعة لأقترب منها أكثر، وهي جامدة مضرجة بالدماء. الدّمُ، رائحةُ الدم أيقظت فيَ غثيانا فظيعا. نظفت نفسي بمنديل. أيقظتني النتانةُ، بالإضافة إلى روائح أخرى. شعرتُ ببرد قارس. أشعلتُ النار في الموقد وهناك أحرقت المنديل. زودت النار بشكل آلي، دون تفكير، بالملابس التي وضعها أوغوست، رئيس الخدم، فوق سريري. من تلك التفاصيل: من ملابسي المنزلية ـ التي حاولتُ أن أنظفها بماء القنينة في غرفتي، وأنا أفكر أنه ربما يجب أن أذهب لأبلغ الأطفال بالخبر ـ وحبل الجرس الذي كنتُ أحتفظ به في جيبي، والنار التي أشعلتها في الموقد، صاغ رجالُ الشرطة الأدلة ليوجهوا لي التهمة. فضلوا أن يتجاهلوا أن الباب الصغير المطل على الحديقة والمؤدي إلى الغرف كان مفتوحا. أنا واثق أن القاتل قد دخل من هناك. أخذت خنجرا من مجموعتي بعد ذلك بقليل، عندما كنت قد هدأت بعض الشيء، ثم خرجتُ إلى الحديقة لأرى إن وجدتُ آثارا. ولا داعي لأشرح لكم حالة الاضطراب التي كنتُ عليها. وأنا عائد من الحديقة تعثرتُ وسقطتُ من السلاليم. ومن ثم جاءت تلك الكدمات التي عزوها لصراعي مع فاني. بالله عليكم! بأي قلب كنتُ سألاحقها كالمسعور في كل أنحاء الغرفة، وأوجه لها ضربات وطعنات بالسكين، مرات ومرات حتى أجهز عليها تماما؟

نعم أعترفُ أنني أصبت بالحيرة وثار غضبي عندما سألني المفتش أَلارْ بتلك الطريقة، يتهمني بكل تفصيل من التفاصيل، دون أن يعير اعتبارا لحالة الصدمة والاضطراب التي كان عليها ذهني. فضلتُ أن ألوذ بالصمت وأتركه ليظن ما يشاء. وانتبهتُ إلى أنه، نظرا للفضيحة الأخيرة مع الآنسة دولوزي ديبورْت، وتهديدات زوجتي بالطلاق مني، بالإضافة إلى مئات الرسائل التي تشتكي فيها من لامبالاتي التي سيجدونها في صالوني الصغير وفي صالونا، لن يكون هناك من حجة دفاعية تبرئني من الجريمة. فكرتُ فقط في أبنائي وكيف أخفف عنهم عبء خزي محاكمة طويلة ربما قد يجرونهم إليها بدورهم أيضا ليدلوا بشهادتهم وحيث ستظهر تصرفات فاني الفظيعة والمشينة. بعد محاولة انتحار فاشلة أقدمتْ عليها قبل عدة شهور، قمتُ بتفتيش دقيق لغرفتها فوجدت قارورة دواء له رائحة الثوم في جارور سرّي داخل وسط لوازمها الشخصية. احتفظتُ به خشية أن تعود لتحاول وضع حدّ لحياتها.

أغمضتُ عينيّ وألقيت برأسي إلى الوراء على الكرسي ذي المسند. كنتُ أشعر أنني منهك. كانت رجلي اليمني ترتعش بطريقة لا إرادية. رجوت «عذراء الفضوليين» أن تُخْرس الأميرة كلمنتين، الوحيدة التي ظلت عيناها طوال روايتي مسمرتين في ومظاهرُ عدم التصديق بادية على محياها.

ـ هذا يكفي ـ قال الملك، وهو ينظر إليهم جميعا ـ أتمنى أن تكونوا قد أرضيتم شكوكم.

ـ اسمح لي، يا والدي، أن أطرح سؤالا واحدا ـ قالت الأميرة كلمنتين ـ إذن، سيدي الدوق ـ قالت وهي تتوجه إلي ـ من قتلها؟

الصمتُ الذي تلا السؤال تركني مفحما. أنا وحدي كنتُ أعرف ما جرى بالفعل. كنتُ آمل أن آخذ ذلك السرّ معي إلى القبر.

ـ *That is the question* ـ هذا هو السؤال، أجبتُ، وأنا أبتسم بسخرية حزينة. حين اتهموني أنا لم تكن هناك تحقيقات أخرى. لم يقم رجال الشرطة بعملهم. وقتئذ، كان هناك عدة أشخاص يحيطون بالمنزل. حشود متعطشة للانتقام، أشخاص تلذّذوا بالتفكير في أن نبيلا من النبلاء عليه أن يذهب للمحاكمة وربما يُحكم عليه بالمقصلة. استنطقوا الخدم، والفضوليين من المارّة، والمربي الذي اتفقتُ على أن ألتقي به في ذلك اليوم، لكن ألارْ وباسْكييه أداناني منذ الوهلة الأولى.

ـ جريمة كاملة ـ أكد دوق مونبنْسييه.

ـ أخذوا الآنسة دولوزي إلى سجن لاكونسيرجوري ـ قال الملك ـ وضعوها في زنزانة معزولة، كي تبقى بعيدة عن أي شيء يمكن أن يساعدها في وضع إثبات غيبة.

ـ ألا يمكن أن تكون هي القاتلة؟ ـ جازفت الملكة قائلة ـ ألا يمكن أن يكون هناك متواطئ معها؟ ربما تكون قد فكرت أنه بعد موت فاني يمكنها أن تأخذ مكانها.

لم أنطق بكلمة. نظرتُ إلى الملكة، بتعبير فيه كثير من العجز. لم أكن مستعدا لأخمن، وأواصل الخوض في حديث فكرتُ أنه يمكن أن يفضي إلى خطر أن يتحول إلى متاهة خطيرة.

ـ عليكم أن تتمنوا حظا موفقا للسيد الدوق ـ قال الملك، وهو يقف ـ ربما لن ترونه مرة أخرى. يجب أن أعالج معه بعض الأمور في مكتبي. وكما تعرفون، سرُّه يجب أن يبقى بيننا فقط. والكشف على أنه ما يزال حيا يُعتبر من باب إلحاق العار بشخصي.

وقف أفراد الجماعة. كان وداعا رسميا وباردا. كانت تسبح في الجو حكاية جريمة فظيعة، لا حل لها، أثرت فيهم جميعا بطريقة أو بأخرى.

وحدها الملكة أميلي كان ودودة. دنت من أذني وهمست لي قائلة: «كنتُ أعرف ذلك، يا شارْل، كنتُ أعرف أنك بريء. الله يرعاك ويحميك».

كان مكتب الملك مضاء بشمعدان به ثلاث أو أربع مصابيح تشتغل بزيت الحيتان. كان عبارة عن غرفة في زاوية المنزل، به أربع نوافذ عالية، اثنتان تطلان على واجهة المنزل والأخريان تطلان على جهة الغرب. وُضعت على أحد الجدران رفوفٌ خشبية تعج بالكتب التي كانت في مكتبة قاطنه القديم، الملك ليوبولد، عاهل بلجيكا. كان أصل طاولة المكتب من البندقية وبها رسم دائري منقوش، وترصيعات بألوان مختلفة من الخشب. كان أكبر وأجمل قطعة أثاث في الغرفة بكاملها. وفي الزاوية كان ثمة كرسيان كبيران للقراءة.

جلسنا على الكرسيين.

ـ إنني أتفهمك جيدا وأجدني في وضعك ـ قال لي وهو يُشعل نرجيلة سرعان ما ملأت المكان برائحة الصّنْدَل ـ أنت اتهموك بجريمة قتل؛ وأنا اتهموني بكل ما تعانيه فرنسا من ويلات. سقط عدد كبير من الأموات أيضا خلال هذه «الثورة» الأخيرة ـ قال مبتسما بسخرية أمام الكلمة ـ نحن بلد يقسو على ذويه ـ أصاف قائلا ـ إننا ندخل في أوقات عصيبة. منذ عهد

الرعب، انتفى احترام النبلاء، والتقاليد؛ وفُقدت الثقة في قيادة الملوك. لم ينفع والدي في شيء دعمُه لثورة ١٧٨٩، فقد جرّدوه من لقب نبالته وأصبحوا يسمونه «فيليبْ المساواة». مات في المقصلة، واضطررتُ أنا لأرحل إلى المنفى. لا بد أنك مررت بتجربة تدل على قساوة المنفى. أنا عرفتُ ما معنى الفقر، ولكن ذلك كان في سنوات تكويني. ما كنتُ لأصبح ملكا جيدا لو لم أعش دون امتيازات خلال تلك السنوات. لستُ نادما على ذلك. لقد جاء دورُك، يا شارْل، لتتعلم كيف تكسب رزقك. يجب أن تفكر في اقتناء أراضٍ، وزراعتها. أنت تحب الطبيعة. هذا امتياز لصالحك؛ لكن عليك أن ترحل بعيدا. ليس في مصلحتك ولا في مصلحتي أن ينكشف سرّ بقائك على قيد الحياة. أستسمحك على عدم تحفظي اليوم، لكني ظننتُ أنه قد يكون من المفيد لأفراد عائلتي معرفةُ ما حدث على لسانك. لقد ألقت جريمة قتل فاني بظلالها على السنة الأخيرة من حكمي. واتهموني بأنني تركتك لتهرب، كما اتهموني بأنني زودتك بالزّرنيخ حتى يَحولَ موتك المعجَّلُ دون محاكمتك. فقضيتك وقضية ارتشاء تيسْت كوبْيير، بالإضافة إلى تشدد جيزو، كانت بمثابة عثاث قوّضت أسس حكمي. وعلى دماء فاني ومحاولة انتحار تيسْت كوبْيير الفاشلة بنى اللبيراليون والمتعصبون للجمهورية حملة المآدب الشهيرة. عندما أقدم جيزو على منع ما كان مبرمجا يوم ٢٢ شباط، هيّجَ الزعماءُ الناسَ وحرضوهم على أن يتمردوا بأعداد كبيرة. وبشكل لا يصدق، قام عدد كبير من أفراد الحرس الوطني بمساندتهم. هذا ما أقنعني بأن أطلب من جيزو أن يتنحى عن منصبه. يوم ٢٣ شباط، بدأ الوضع يهدأ عندما سُمعتْ طلقات نارية في شارع كابوشين فكان رد الجنود مبالغا فيه مما أدى إلى حدوث مجزرة. لقي خمسة وستون شخصا حتفهم. وقد أثار هذا الحادث الحشود. استيقظتْ باريس في صباح اليوم الموالي على متارس مزروعة في كل مكان ثم توجهت الحشود نحو تولوري، بعد أن هيّجها الجمهوريون وأعدائي. نصحوني بأن أدخل على رأس جنودي وأستعيد باريس. رفضتُ أن أُسْكت الدم بمزيد من الدماء. كان بإمكاني أن أقوم بذلك، أتعرف هذا؟ لكن العسكريين كانوا يديرون لي ظهرهم وخشيتُ أن ينقلبوا ضدي لو أعطيتهم الأوامر. لقد طفح غضب الحشود وتجاوز كل حد ومنطق. لم أجد بدا من أن أتنازل على العرش وأعين خلفا لي حفيدي، كونت باريس. كان علي أن أتوجس من أن أعضاء غرفتيْ الجمعية الوطنية الفرنسية لن يقبلونه. آه كم تُؤلمني فرنسا، يا صديقي!

شعرتُ بالشفقة نحو هذا الملك الذي كان، في نظري، من أحسن ملوك فرنسا. كان يجسد الهزيمة تجسيدا حيا. وكان يبدو أن عظامه ترفض أن تتحمل عبء جسد سمين بعض الشيء. كان متعبا مثلي. كان الوقت متأخرا، حوالى الحادية عشرة ليلا، عندما سلّمني كيسا ضخما مملوءا بنقود ذهبية ومجوهرات. اتفقنا على أن يتسلم هو من شقيقي إدْغار مقادير مالية منتظمة. سوف أنظر في الطريقة التي سأتوصل بها بالنقود. أخبرته أنني أنوي الإبحار إلى نيويورك وهناك أقرر الوجهة التي ستسير عليها خطواتي.

نصحني ألا أعود إلى جزيرة وايْت، وأن أقتني تذكرة في ليفربول لأركب واحدة من سفن خطوط كونراد. قال إنها أكثر السفن أمانا.

تعانقنا. لن نلتقي أبدا مرة أخرى. توفي الملك لويسْ فيليبْ سنتيْن بعد ذلك في نفس المنزل حيث عدتُ، ذات ليلة ولآخر مرة في حياتي، لأكون شارْل شْوازولْ دو بْرالانْ.

الفصل الثامن عشر

كما فعل الملك، بدا إبراهيم ممانعا لعودتي إلى جزيرة وايْت. أما أنا، فإن عدم العودة والقطع نهائيا مع المكان دون وداع ولا تفسير لرحيلي عن آل تتنيسون، وجوليا مارغريت وخصوصا هاميلتون، كان أمرا يملؤني بالقلق، أو يبدو تصرفا لا يليق بشخص نبيل، مهما كان بورجوازيا.

ـ ربما يحاصرونك بأسئلتهم. وقد حدثتني أنت بنفسك عن شكوكات السيدة تنيسون.

ـ أعرف، أعرف ذلك يا إبراهيم. لكن هي والشاعر شخصان استثنائيان، من أولئك الأشخاص الذين لا يصادفهم المرء سوى مرة واحدة في حياته. يبدو أنه من قلة الأدب أن أختفي هكذا بكل بساطة. ثم، ألا تظن أنه من الممكن أن يتصورا تماما ما يشغل بالنا؟ وعلاوة على ذلك، كيف أجازي الدكتور هاميلتون على ما قدمه لي من مؤانسة وعزاء؟ علمني كثيرا من الطب حتى أنني أستطيع الآن أن أمارسه!

كنتُ أذرع الغرفة جيئة وذهابا بخطوات واسعة أمام نظرات إبراهيم القلقة بعض الشيء، لأنه كان يرى أن الطريق الأمثل هو ذاك الذي أشار علي به لويسْ فيليبْ: أن أتوجه إلى ليفربول وأبحر منها نحو نيويورك.

ـ لقد نسيتَ كمْ كُنتَ قلقا في الليالي الأخيرة، وأنت تظن أنهم ربما اكتشفوا أمرك ـ قال إبراهيم الذي كان يتكلف بوضع ملابسي بعناية داخل صندوق السفر ـ إنك ما زلت تحافظ، يا سيدي، على عادات أصلك ونسبك. لكن عليك ألا تسمح للُطفك أن يجعلك تركب أخطارا غير ضرورية. يمكنك أن تكتب ملاحظة إلى السيد هاميلتون قبل أن ترحل، إن كان الأمر يؤرقك إلى هذا الحد، لكن الاختفاء هو الأنسب. من الآن فصاعدا، سيكون الاختفاء هو أحسن حل عندما تجد نفسك محاصرا، أو على وشك أن ينفضح أمرك. فكر جيدا أنه من المرجح جدا أنه، بعد غياب الملك، ستبعث سلطات الأمن الفرنسية قضيتك من جيد وستستأنف الاستقصاء. لا يمكن أن تطمئن تماما. لقد أوصاني الملك خاصة أن أحميك. والتزمتُ بذلك ـ ثم قام بانحناءة قليلة. انتهي من جمع أغراضي واستسمحني كي ينسحب.

ـ ليلة سعيدة، يا إبراهيم ـ قلتُ ـ غدا أبلغك قراري بالذهاب إلى وايْت أو ليفربول.

استلقيتُ فوق السرير وأنا ما زلت أرتدي ملابسي، حتى من دون أن أزيل حذائي. كنتُ منهك المشاعر، لكن، داخل جسدي، كانت طاقة متوترة تسري في عضلاتي كأنها سائل يُوتّر ساقيّ وذراعيّ. مغمض العينين، كنتُ أرى مشهد كليرمونتْ هاوس. ما الذي قد يكون ظنه أفراد الأسرة الملكية؟ تذكرتُ نظرة الأميرة كلمنتين، لباسها الأبيض ذي الحزام المشدود، تقويرة الصُّدرة التي تكشف عن جلد أبلق، والمساحة الفاصلة بين نهديها حيث ينزل الطرف الأسفل من صليب لازوردي معلق بعنقها، كأنه يشير إلى الطريق. منذ عدة شهور، وحتى في لحظات الوحدة، لم تباغتني رغبات الجسد، لكن تقويرة كلمنتين دو أرليان وذراعيْها، ويديْها، بالإضافة إلى همّتها بل ووقاحتها، استطاعت أن تُحركني. وهي تنظر إلي لتودعني، لاحظتُ في عينيها تحدّيا لصدْق حكايتي. لم تكن تصدقني. انتبهتْ إلى أنه كان ما يزال هناك شيء لم يُكشف بعد، شيء اختار الآخرون أن يتحاشوه، إن كان فعلا قد أدركوه. ذكرني موقفها بهانْرييتْ، بأولئك النساء من ذوات الفكر الحاد والبصيرة الرهيبة. كان أوغوست، زوج كلمنتين، منطفئا تماما. لن تعاني الأميرة من قلة العشاق. يستحيل تفادي شهوانيتها، أو عدم تصورها منساقة وراء غرائزها دون أي اعتدال. أظن أنه كان يسرها أن تعرف ما توحي به للآخرين من استهامات، وبهذه المعرفة السرية تظهرُ للعموم رابطة الجأش بشكل جليل. شملتُ الأميرة كلمنتين وانبعاث أحاسيسي الذكورية الأخيرة بشيء من الاهتمام. ظننتُ أن هذا سيساعدني كي أنام، بيد أنني كنتُ مخطئا. لم أستطع أن أزيل من ذهني الواجب الذي كنتُ أشعر به لتوديع أصدقاء تلك الشهور التي قضيتُها في جزيرة وايْت. كنتُ أتساءل إن كنتُ سأشعر بنفس الحاجة لو تعلق الأمر بالصيدلي أو

بائعة الورد. ألم تكن تلك الهالة التي تحوم حول تنيسون وزوجته، حول جوليا مارغريت كاميرون وهاميلتون هو ما يدفعني لذلك؟ ألا أطمح لكي يذكروني، ويكتبوا عني، أو يتركوا ملاحظات تشير إلى ما جرى بيننا من أحاديث عند المساء؟ *Vanitas vanitatum et omnia vanitas* ، فكرتُ وأنا أتذكر معلمي في قصر فو-بْرالانْ، الذي كان يلخص هكذا انتقاداته لسيدات البلاط المتأنقات اللواتي كنّ يزرن أمي. «باطلُ الأباطيل، الكلُّ باطلٌ»، كما كان يقول. وماذا كنت أصنع أنا غير الأباطيل؟ كانت جزءا مني. كان من السهل علي أن أعترف بذلك، لأنني كنتُ أظن أنه لا أحد، حتى أكثر الناس تواضعا، كانت تعوزه الأباطيل. فالهوية تنبني على هذه اللبنة الأساسية من بناء الأنا. الأسماء، والألقاب، والثروات، والمآثر، والزوجة التي نتخذها، وما ننجبه من أبناء، وما نطأه من بيوت، كل هذا يشكل جزءا من ذلك الجسد، من تلك الحركات، من هذا الشكل المادي الذي نتمشى به في دروب الحياة. كنتُ أرى أنه يتنافى مع طبيعتي أن أختفي هكذا مثل لص أو هارب، وأقبل بأنني فعلا إنسان محظور. عندما كانت تنكشف هذه الحقيقة أمامي بقوة كأنها ومضة برق في سماء حالكة، كان صدري ينقبض حتى أنني أخشى أن أموت. كنتُ أستطيع أن أشعر بدماغي يصغر ويعتصر داخل جمجمتي؛ أشعر باندفاع عبثي في الرغبة في مغادرة جسدي، وأكون جِبْلة خارجية وأغادر تلك القشرة الكبيرة، وأغير جلدي لأن جلدي الحالي كان غير مرغوب فيه، خطرا، تهديدا. لا أستطيع تفسير هذا الأمر. كنتُ أريد أن أسترجع الزمن وأعيده إلى الوراء. كيف يُعقل أنني قبل شهور، ملفوفا في مبذلي، كنتُ أدخن السجائر الصغيرة والمعطرة التي أقتنيها من محل مادامْ دوشان، في منزلي بشارع سانت هونوري؟ أقضي صبيحة أو أخرى مستلقيا على الكرسي ذي المسند تحت النافذة، أنظر إلى الخريف وهو يحمّص أوراق شجرة الزيزفون ذات المائة سنة في الحديقة، أقرأ بلزاك أو هوغو؟ كم مرّ من الوقت عن آخر مرة تركني فيها الحوذي عند الباب الرئيسي لمسرح «الكوميديا الفرنسية»؟ كم مرّ من الوقت منذ أن كنتُ ألتقي بأصدقائي في مقهى فْوا، بعد أن نصفق على مسرحيات موليير؟

نهضتُ وغادرت النُّزل حتى لا أشرع في خبط الحيطان بيديّ، وركل الأرض برجليّ، وأنساق وراء الغضب.

كان من العبث أن أقاوم. قد لا أستطيع أن أودع آل تنيسون، والدكتور هاميلتون، وجوليا مارغريت. بل حتى عدمُ شكر ويكهام عن صبره وخدماته كان أمرا يؤرقني. تلك المجاملات لن تكون أبدا جزءا من حياتي. لم يعد أمامي من شيء سوى أن أقطع المحيط، أصل إلى نيويورك وأبحث عن هانْرييتْ. كان دافعي حقدٌ جديد يحتوي غضبي من حياتي الضائعة. قليلون مثلي من يحظون بفرصة الغضب من موتهم الذاتي.

الفصل التاسع عشر

في اليوم الموالي، انطلقنا على متن العربة. كان القطار الذي سيأخذنا إلى ليفربول سيغادر من محطة مؤقتة، ميدلاند غودْس شيدْ، في منطقة كينْغْ كْروسْ في لندن. كيف كان إبراهيم يتدبر أمره ليعرف دائما وجهته؟ من حولي، كان دائما صامتا ورسميا في معاملته، لكنه مع أصحاب الفنادق، والحوذيين، ورؤساء الخدم وأشخاص يمتهنون مهناً مثل مهنته، كان يتواصل ويربط علاقات بسهولة تثير اندهاشي. بعد عشاء ليلة أمس وجحافل الشكوك والعتاب التي داهمتني حتى الفجر لم أعد أملك من الطاقة سوى ما يجعلني أنساق. أذكر الغابات، وإيقاع العربة، وحديث إبراهيم الغامض مع الحوذي وهما يتكآن على مقعد السائق. وما إن بدأ الليل ينزل حتى اصطدمنا بالهواء الكثيف والمتسخ في كينْغْ كْروسْ. كان الدخان الخفيف الذي يطفو فوق الشوارع والبنايات ينذر بقدوم ضباب كثيف ينزل فوق لندن ليبتلع كل شيء. أطللتُ بفضول على الشارع. كان هاميلتون قد وصف لي ذلك المكان بكل تفاصيله. في نظره، منذ نهاية أشغال بناء قناة ريجانْت أصبحت كينْغْ كْروسْ مقدمة لجحيم يهدد لندن بسبب جشع رجال الصناعة. وجنوب القناة كانت تشتغل شركة الغاز والفحم في أوراش بانْكراس. وكانت معامل أخرى، ذات مداخن ينبعث منها دخان أسود تنمو بلا كابح في أي أحد. «إنهم يعانون من الضباب ولا يعلمون أنه ناتج من بيوتهم»، كان هاميلتون يقول، وهو يحرك ذراعيه. كما كان يؤكد أن كينْغْ كْروسْ كان مكانا تاريخيا، لأنه في ذلك المكان خاضت الملكة المحاربة بوديكا آخر معركة لها ضد الرومان. «إنها مدفونة هناك وأؤكد لك أنهم سيبْنون السكة الحديدية فوق رفاتها. فالمال لا يحترم التاريخ، ولا حتى عظام الأبطال».

من حولي كان يتحرك عدد كبير من العربات ويقطع الطريق رجال ونساء من مختلف الهيئات، بعضهم يرتدون ملابس الخدم وقبعات عالية، وآخرون يلبسون ثيابا رثة. تكهنتُ، من هيئة وحركات بعض النساء عند زوايا البوابات، أنه هناك، ليلا، تشتغل محلات دعارة وقاعات لتدخين الأفيون. رأيتُ آسيويين يرتدون قمصانا من دون ياقات ويضعون قبعات عالية. رأيتُ زنوجا أقوياء البنية وأنيقين، ومتوسلين رث الثياب مُتوردين، شُقر، يعلو وجوههم النمش. كان الحوذي يتقدم ببطء لأن الحشود غير الخائفة كان يعوزها رد الفعل لتفسح الطريق أمام الخيل. كنا سننام تلك الليلة في لندن. القطار المتوجه إلى ليفربول سيخرج في اليوم الموالي، إن نحن تمكنا من اقتناء التذاكر. نظرا لتوافد عدد كبير من المهاجرين الذين ينطلقون من هناك نحو أمريكا، كان من المرتقب أن نقضي بعض الوقت من الانتظار، في لندن إن لم يكن في ليفربول. وكان من أثر تنوع الأجواء وجدّتها أنها نفضت عني الخمول والغمّ. أعجبتني الطريقة التي كان رجال ونساء يسبحون بها في سيل جارف من الحركة والدخان، مجردين من هويتهم، لا يتميز الواحد منهم عن الآخرين. لا يهم أن يرتدوا ملابس مترفة أو أسمالا، لأن دأب الوجوه، والتوتر الناتج عن الوهم بأنهم ربما يتقاسمون هدفا مشتركا، كان يوحدهم. كانوا جميعا مثل أجزاء من حركة كبيرة يسعون جميعا إلى خدمتها. استعجلتُ الحوذي. في نُزل «النسر» نصحونا بالإقامة في «فندق الشمال الكبير». توجهنا إلى هناك. منعزلا بعض الشيء عن الضوضاء، كان الفندق بناية صلبة ذات واجهة فخمة من الأسلوب الكلاسيكي الجديد. بساطٌ طويل، عرفت من ثوبه أنه نموذج أصيل من فن الشرق، وسطحُ الخشب المصقول في مكتب الاستقبال كانت تمنح المكان مسحة أصيلة تسمح بنسيان قطع الأثاث البالية والستائر القديمة. قلتُ مع نفسي إنني سوف أستغني عن إبراهيم تلك الليلة، وأحرص على أن يتركني لوحدي. كانت فكرةُ السرية تغريني أمام الفوضى المتذبذبة للشوارع. يمكن أن أمضي دون أن ينتبه لي أحد لحسن الحظ وأستمتع بليلة من الاستكشافات، دن أن أنشغل في اليوم الموالي بأن أحدهم يتحدث عن مساري الليلي.

بعد أن انتهى من وضع أمتعتي في الغرفة الرائعة الفسيحة والأنيقة، أخبرتُ إبراهيم أنني سأختلي باكرا ونصحتُه أن يقوم بالشيء نفسه. كان اليوم الموالي، لو حصلنا على مقاعد في القطار المتجه إلى ليفربول، يعني اثنا عشر أو ثلاث عشر ساعة من السفر. وافق إبراهيم ثم انسحب بعد أن تمنى لي ليلة سعيدة. أغلقتُ الباب. تمددتُ لحظة. بعد ذلك رششتُ

وجهي بماء ثم بشيء من الكولونيا لأنتعش. يا إلهي! فكرتُ، كم شختُ في وقت قصير جدا! كان الشيب يخفف من سواد شعري. بفضل الطعام الإنجليزي الثقيل، وما أتناوله من كعك ساعة شرب الشاي كان وزني قد ازداد بضعة أرطال. كان ذلك جليا على قسمات وجهي، ووجنتيّ المدورتيْن ومَقْرن الشفتيْن الأكثر عمقا. لاحظتُ أن هناك تجاعيد جديدة حول عينيّ وعند مفرق الحاجبين. في أقل من سنة واحدة، كانت سنوات عمري الأربعين تبدو كأنها خمسون سنة. أشفقتُ على حالي، على وجهي الخالي من كل أثر الانشراح والثقة وحيث كان بريقُ عينيّ مزيجا من الخوف والاضطراب. كان الكُلّ يشبه حيوانا هلِعاً يستعد لينطلق مثل أي قاتل هرب من العدالة، وهو خائف.

لففتُ نفسي في الشال الصوفي، أخذت عصاي، وقبعتي العالية وغادرتُ «فندق الشمال الكبير» نحو الشارع، بأكبر شكل من التكتم وبأسرع وجه ممكن، وأنا آمل أن يكون إبراهيم نائما وألا يتبعني. كنتُ أحمل قطعا ذهبية وضعتُها بإحكام في جيب من حزامي. كان الليل مظلما لكنه مضاء بفوانيس غازية. شعرتُ أنني حُرّ. تركتُ فكرة التستّر لتُغريني. لو تشجعتُ وتمكنتُ من أن أعتبر وضعيتي الجديدة فرصةً لأتخلص من الأثقال وأحصل على حياة أكثر أصالة وأقل خضوعا لإملاءات طبقتي، سأرفع من معنوياتي. مثل بالون، كان خيالي يرتفع، لكنه لا يطير سوى لوقت قصير: ومن أعمق غرفات روحي كان يخرج نُواحي بكل تأكيد. كم كانت مضللةً وغريبةً فكرةُ تصور حياة تشبه قليلا جدا تلك الحياة التي فقدتُها! كنتُ أفتقد بكثير من الحنين أبنائي، وخاصة لُويزْ وريناردْ، البنتُ الكبرى والابن الأصغر.

اسكُتْ، اسكُتْ، قلت مع نفسي. توقفتُ وسط رصيف الشارع. لو أن فكرة جولتي ستخسر هكذا بسرعة، من الأحسن أن أعود إلى الفندق. لكني لم أكن أرغب في العودة إلى تلك الغرفة الواسعة والموحشة. قررتُ أن أركز على ما يجري من حولي وأعيره كل اهتمامـــي. مشيتُ لبعض الوقت وراء امرأة أثارت انتباهي، وكانت ترتدي تنورة قصيرة كستنائية اللون وقميصا فضفاضا يمكن أن نتكهن بقميص نوم من تحته. كانت تشد شعرها بعقيصة في خصلات ضاربة إلى الحمرة تختبئ تحت قبعة صغيرة وشال رقيق يغطي رأسها. لم أكـــن أرى وجهها لكن ذلك لم يكن مهما. قد يكـــون تسلية بريئة أن أتساءل عما تقوم به هنا، من تكون، أين تسكن، وما عملها. أعجبتني طريقـــة مشيها وهي تضغط بقوة على عقبي حذائها. مشيتُ وراءها لمدة نصف ساعة حتى توقفت عند بوابة كتبت عليها لافتة منقوشة على الخشب تقول: «*The Curious Cat Club*».

دخلتْ إلى هناك. من الجانب، رأيتُ أنها امرأة شابة نسبيا، لها تقويرة تكشف عن نهدين بارزين، وعرق لؤلؤ يبرز من عنق عريض تحت قميصها الحريري. هل يكون ذلك المكان ماخورا؟ دفعني الفضول لأصعد السلالم بعد وقت من الاحتراز. طرقتُ الباب عدة مرات ففتح لي رجل طويل، أسود، ضخم البنية، يرتدي لباس خدم أسود وصدرية حمراء.

ـ أنا عابر سبيل ـ قلتُ. جئتُ من فرنسا وقد حدثني صديقي رامونوف أنه يمكن أتناول هنا شراب كونْياك يدفئني في برد شهر شباط.

نظر إلي الرجل بارتياب، لكني كنتُ أعرف كيف أستعمل مظهري وأتحرك بعجرفة لا تبالي بالرفض. انسللتُ من جانبه وأنا أتحاشى دور الشرطي الذي كان يقوم به.

تجاوزتُ بابيْن خلف ستاريْن ثقيليْن من المخمل الأحمر كالنبيذ. بالداخل، كانت تُسمع ضحكات وأصوات أحاديث، كؤوس تقرع، وأشخاص يتحركون بخفة. وحين فُتح آخر ستار، ظهر مكان داخلي باذخ. جدرانٌ مغطاة تماما بالمرايا تعطي الانطباع بمكان لا متناه. وفي السقف عُلق شمعدانان جميلان من البلور وبهما مئات الشموع المشتعلة. وفي إحدى الزوايا، كان يلمع بيانو مفتوح، أسود برّاق. كراسي كبيرةٌ ومقاعد مغلفة بأثواب حريرية بها رسوم مذهبة وُضعتْ بطريقة غير منظمة تمنحُ المكان دفئا خاصا. خمسة أو ستة أركان كان يشغلها رجال من مختلف المشارب، بعضهم في غاية الأناقة

وآخرون لهم هيئات تجار الثوب أو النبيذ. وبالقرب منهم، نساء يرتدين ملابس تشي بأنهن عاهرات من ذوات السعر المرتفع، يتغنجن ويحتسين مشروبات روحية ذات لون أخضر وأشهب في كؤوس صغيرة. توجهتُ دون توقف نحو أريكة على الجانب الأيسر من الغرفة. عندما جلستُ، تمكنتُ من رؤية الحضور بشكل أفضل. منذ هانْرييتْ، منذ موتي، لم أزر أي امرأة، ولم أستمتع برؤية أي نساء جميلات. وكان النظر إليهن هو أكثر ما يغريني تلك الليلة. لم أكن بحاجة للمضاجعة. وأنا هناك أحتسي جرعات الكونياك من النوع الجيد، يمكن أن أعتبر نفسي سعيدا، سعيدا جدا كما كنتُ أستطيع أن أكون عندما كان شيء ما خارق للعادة يجلب انتباهي ويسمح لي بنسيان ما وراء ذهني وما يختبئ فيه من هياكل عظمية. لم تكن المواخير غريبة عني، لكني لم أكن من المداومين على فتياتها. من باب التعالي، ربما. كانت تزعجني فكرة الأداء مقابل الجنس. لم يكن أحد بعيد المنال تماما في باريس عندما يتوفر المرء على الوسائل، يحمل لقبا نبيلا ويتمتع بجسد لائق. لكن الجنس يمكن أن يكون لعبا ضاريا. عندما حضر النادل، شاب أشقر، ضامر، له وجه غلام، طلبتُ كأس كونْياك، ثم قلتُ له، وأنا أدسُّ بقشيشا وافيا في كمّ قميصه، إنني أريد أن أكون لوحدي وطلبتُ منه ألاّ تقترب مني الفتيات إلا عندما أشير له بذلك.

ـ هل تفضل أن أرافقك أنا؟ ـ قال مبتسما.

ـ كلا. لا يتعلق الأمر بميولات في هذه الحالة. فقط أريد أن أبقى لوحدي.

علتْ وجهَ النادل تكشيرةٌ، تعبر عن الاستسماح وعدم التصديق في الوقت ذاته، ثم انسحب. من مكان مراقبتي، وأنا أحتسي المشروب الحريري، رأيتُ من بعيد تلك المرأة التي، من دون قصد، دلّتني على هذا المكان. ربما فطنت إلى أنني جئتُ أتعقبها خفية، لأنها كانت تنظر إلي كثيرا. كان لها وجه غريب ذو وجنتين بارزتين ولونٌ شاحب أكثر إثارة بسبب شفتيها من دون أحمر شفاه، شعرٌ أحمر وعينان زرقاوان واسعتان. كانت نظراتها تنم عن شيطنة ومرح يتطلع إليهما الزبائن. تطلقُ قهقهات عالية وتدل نبرة ضحكاتها التهريجية والخادعة على أنها كانت تؤدي دورها جيدا. تتمثلُ رفقتُها في رجُلين، واحد منهما له بطن ناتئة، لحية وتصرفات فظّة؛ أما الآخر، فكان شابا نحيفا أنيق الملبس. كان يبدو منزعجا. ظننتُ أنه كان هناك ليرضي العجوز.

وأنا أتسلى برؤية ما يدور بين ثلاثتهم، استندتُ على الكرسي المريح. استرخيتُ. وفي ذهني ظهرت صور حية لانتشاء جنسي يلي تلك الألعاب. نهضت المرأة رفقة الرجلين ورأيتُ أنها كانت تقودهما عبر السلاليم المؤدية إلى الغرف. فهل سيقومون بمضاجعة ثلاثية، أم أن العجوز سيكتفي بالنظر إليهما بينما هي والشاب يتضاجعان؟ شعرتُ بحرارة تسري في أربية فخذي وبانتصاب يملأ سروالي. يستحيل أن أكفّ عن تصور المشهد؛ المرأة الشاحبة، بجلدها اللؤلؤي، ونهديها المكتنزيْن، وخصرها الضيق، الشعيرات فوق بطن يلمع كأنه درّاق تحت ضوء الشمعة، زغب فرجها، ربما أحمر، كثيف والشاب في حالة نزع بينما هي تدلُّه، على مهل، كي يُجرّدها من الملابس. آه! لو أن الشاب تغلب على خجله، ربما يستطيع أن يدفن وجهه بين نهديها ويشتم عرقا خفيفا، ثم يسمعُ، وهو يلمس بأذنيه المناطق المستديرة من جلدها، البقرات تخور بعيدا. ضحكتُ عندما انحرفت الوجهةُ الإيروتيكية لأفكاري نحو ذكرى بيرْتْ الصغيرة، عندما رأت أمها تُرضعُ رينارْدْ، فأرادت أن تعرف إن كنتُ كل ليلة أسمع البقرات تخور داخل بطن أمها. كنتُ ممتنا لذكرى ابنتي التي أخذتني من الخيال إلى الواقع. قررتُ ألاّ أنتظر الشابة الشاحبة التي كان بودي أن أتعرف عليها. صعدتُ نحو غرفة فتاة فارعة هيفاء، إيرلندية منتصبة كالتمثال، ذات شعر كستنائي، متناثر وأملس، قالت إنها تدعى سينيدْ. كانت الغرفة صغيرة ذات جدران بلون المشمش ومرآة سوداء علقت فوق موقد نار صغير كانت تحترقُ داخله بضع قطع من الخشب. لم أستغرق وقتا طويلا. كانت سينيدْ جميلة لكنها خرقاء. سلّمتْ لي جسدها بطريقة آلية وكذلك تصرفتُ أنا أيضا. كان ترويحا جسديا لا غير. لم يكن مهما. أدّيْتُ وخرجتُ.

عندما عدتُ إلى الشارع، اتبعتُ تعاليم نادل الماخور لأجد قاعة تدخين الأفيون التي نصحني بها. كانت هناك عدة

قاعات في تلك المنطقة، قال لي بتكتم، لكن قاعة «وانْ كينْ» كانت أكثرهن أمانا ونظافة. تدخينُ الأفيون في لندن كان واحدا من الأسباب التي تدفع كثيرا من الأصدقاء الباريسيين لعبور بحر المانش. كنتُ أفضل أن أقوم بذلك في ميناء ليفربول حيث قاعات تدخين الأفيون، أو «*Opium dens*»، كانت أقل بذخا، لأن زبائنها من البحارة وصاروا مؤخرا من الإيرلنديين الذين لم تكن لديهم أي رغبة في أن يستيقظوا من دون شك.

كنتُ أعرف القنب الهندي، لكن مفعول الأفيون كان يتجاوز مفعول أي مادة أخرى. يمكن للمرء أن يحصل على هلوسات عابرة بواسطة صبغة الأفيون، لكن حلم الأفيون، حسب العارفين، كان تجربة متسامية. أعترف أن انسياقي وراء الأحلام كان يوحي لي بقدر متكافئ من الرعب والفضول.

كان التصميم الذي رسمه الشاب على المنديل مفيدا، وبعد شارع أو شارعين وصلتُ إلى شارع فكتوريا، «قرب حانة جنّية البحر النشوانة»، حسب ما جاء في إرشاداته. مشيتُ عبر الشارع الذي كان بالكاد مضاء، لكنه يعج بالحركة. كان أشخاص يدخلون إلى الحانة ويخرجونْ منها، وفوق الرصيف كان هناك عدة رجال جالسين، يرتدون وزرات عمل ويدخنون سجائر. فتيات بالغن في التزيين بالمساحيق، يرتدين تنورات ذات فتحات واسعة تكشف عن جوارب جميلة، ويمزحن مع مجموعة من البحارة عند زاوية الشارع. مررتُ قرب حانة «جنّية البحر المنتشية». بحثتُ عن المدخل ذي السلاليم التي تنزل نحو الأسفل. لم أجدها. ما كنتُ لأجدها لولا أنه، فجأة، خرج شاب ذو ضفيرة طويلة من الباب فرأيتُ خلفه ثقب السلاليم. دنوتُ منه بسرعة قبل أن يبلغ الشارع.

ـ *Client*، زبون ـ قلتُ ـ *Me. Client*، أنا، زبون.

نظر إلي. كانت له لحية بها بضع شعرات رمادية وعينان لوزيتان تبدوان كأنهما تنتهيان قبل بداية خط الشعر. نظر إلي وتردد لحظة بين أن يعود أو يُبعدني. في الأخير، هزّ كتفيه وأشار لي أن أتبعه. في الأسفل، وأنا أتجاوز باب الصالون، لفّني ضباب الغلايين. نادى الصيني على فتاة ذات شعر أسود مشطتهُ على شكل ضفيرة، ترتدي لباسا أصفر من الحرير وجوارب قصيرة. حدثتني بلغة إنجليزية بها لكنة خفيفة. قادتني. *First time ?*. نعم. كانت أول مرة. ونحن نتوغل في قاعة التدخين، كنتُ أرى بشكل أوضح المقاعد الخشبية الواسعة الموضوعة على كل جانب من الغرفة. حواجز خفيفة تفصل بين كُوّات المُدخّنين. كانت الأريكة التي قادتني إليها الفتاة منعزلة شيئا ما عن بقية الأرائك. قد تكون خاصة بالمبتدئين. ومن دولاب صغير، عال وضيق، أخرجتْ غليونا طويلا يتوسّطُه ما يشبهُ مقبض باب.

داخل المقبض، الذي كان في الحقيقة إناء برونزيا صغيرا جدا، سخّنتْ الخليط الأخضر القاني وأخذتْ ترصّه رصا حتى صيّرتْهُ كويرة صغيرة. أمرتني أن أتكأ على جنبي الأيسر إن كنتُ أيمنا؛ أو على جنبي الأيمن إن كنتُ أيْسرا. اتكأتُ على جنبي الأيسر ثم شرحتْ لي أن الغليون طويل حتى يقيني من الحرارة المنبعثة من المصباح البرونزي الذي ينبغي لي أن أسخن الأقيون على لهيبه. وهكذا يتبخر الأفيون وينفذ في الغليون وإلى رئتيّ. قدمتْ لي شيئا آخر لوضع الغليون، نهضتْ من جانبي، ثم قامت بانحناءة خفيفة وتركتني ممددا على الأريكة. ولمدة طويلة لم أقم سوى بالنظر من حولي واشتمام الروائح ـ مزيج غريب من رائحة النباتات وشحم الحيوان ـ بينما كنتُ أستعد لأخْذ أول نفخة. كنتُ أحاول أن أتجاوز الخوف من الانغماس في نوم كابُوسي تطفو فيه صور استطعتُ أن أمحوها بفعالية كبيرة. تذكرتُ أحلامي في جزيرة وايْت، تذكرتُ أنني أستيقظ باكيا وهاميلتون إلى جانبي. شعرتُ بالغثيان. عادت الشابة إلى مخدعي تماما بالضبط عندما كنتُ أصل إلى نتيجة مفادها أنه من الأحسن لي أن أرحل، لكني أمامها أبيتُ أن أعترف بالخوف شبه الأنوثي الذي كان ينتابُني. منتبهةً وخدومةً، ساعدتْني على أن أتكأ وظلّت معي حتى رأتْني أسحبُ أول استنشاق. كان أول ما اعتراني غثيانٌ، وإحساس بأن أحشائي كانت تتصارع لتنقلب من الداخل نحو الخارج. قاومتُ ببسالة كي لا أتقيأ، وفجأة انغمستُ في نوم لا يوصف: كانت الألوان

محسوسة. كانت الشفقة، والسلم، والغضب أو الاشمئزاز أحاسيس تتأرجح بين الانتشار خارج ذاتي أو اعْتصار عظامي. كانت سحب أرجوانية تطفو في حلقي أو تنزل إلى أمعائي. كانت الألوان كائنات لها شخصية، وتملك لغة حدسية تكشف عن روح الأشياء. سبحتُ وتركتُني عرضة للمسات وهمس اللون الوردي، والأخضر، والأصفر والأزرق. كانت الألوان الأرجوانية، والحمراء والسوداء تسكن سيقاني الخائفة، وتبحث عن المرور دون إثارة الانتباه.

عندما غادرتُ قاعة التدخين كنتُ ما أزال أرى هالات قزحية تلفُّ فانوسا أو أحد المارّة. ظننتُ أن فك رموز روح الألوان التي رأيتُها قد يستغرق وقتا طويلا، وربما الحياة بكاملها. عدتُ إلى الفندق مع بداية طلوع الفجر، ثم تمددت فوق السرير بملابسي ونمتُ.

كان إبراهيم ينظر إلي عندما استيقظتُ. يبدو كأنه عملاق متجهم، غاضب، يشبك ذراعيه فوق صدره، واقفا قرب السرير. كان بإمكاني أن أستمر في النوم، فدماغي لم يكن يميز النهار من الليل، لكني فتحتُ عينيّ وجلستُ فوق السرير.

ـ هل من أمر مستعجل، يا إبراهيم؟

ـ القطار المتوجه إلى ليفيربول سيغادر بعد ساعة من الآن. كنتُ أتردد في أن أوقظك، لكني قررت أن أقوم بذلك لأن الفندق يقدم وجبة فطور جيدة. أما في القطار، فلا أستطيع أن أضمن أي شيء.

ـ حسنا فعلتَ، طبعا ـ وجعلني ذكْرُ الأكل أشعر بالجوع على الفور.

كانت ساعة واحدة بالكاد كافية كي أجمع أمتعتي، أرتدي ملابسي وأتناول وجبة الفطور. وصلنا إلى المحطة في الوقت المناسب حتى نتحرك وسط الحشود التي أخذت تتجمع في الأرصفة. كان الرجال يصعدون إلى العربات بعد توديع زوجاتهن وهم يضعون قبعات على صدورهم، ويلتحفون معاطف تقيهم بردا كان ما يزال يقرص الجلد. اخترقنا أنا وإبراهيم صخب الرصيف، والجماعات الصغيرة التي يبدو أنها كانت تأبى أن تفترق بل تريد أن تبقى هناك مع الأصدقاء لمخادعة الوقت، بيد أن سائق القطار كان قد بدأ يسحب الحبل الذي يُشغّل صفارة القطار والمكابس التي تنفثُ الدخان. تمكنت أنا وإبراهيم من ولوج العربة قبل استعجال الوداع الأخير. كان القطار أكثر راحة من ذلك الذي ركبناه من بوستمورث إلى لندن. جلستُ أنا وإبراهيم في مقعدين قرب النوافذ واستعددنا لنقاوم بجلد خمس ساعات قد تستغرقها الرحلة قبل الوصول إلى ليفربول.

كنا نسافر من طرف إلى آخر من إنجلترا. كان ذلك بلدَ حواجز تفصل بين الحقول، وأرض تُستغلُّ بعناية. كان الريف جميلا رغم فصل الشتاء والجو الرمادي القاتم. بعض الأشجار ذات الخضرة الدائمة تشكل ممرات محفوفة مستقيمة ومصممة بعناية. كما لو أن جنسا من العمالقة قد جلسوا ووضعوا تصميما مصغرا ثم راحوا يصممون الحقول، نظرا لما كانت عليه من روعة وتناغم. شيء مختلف عما هو عليه الحال في فرنسا، فكرتُ، وشعرت بألم مفاجئ في صدري. حين يغادر المرء باريس يجد الريف حزينا بالأحرى جهة الشمال. وجهة الجنوب، كان الريف أكثر حسنا للناظرين، لكننا نحن الفرنسيون أهل حاضرة، رغم أننا نحرث الأرض. كانت بيوتنا متجمعة في قرى صغيرة، وليس وسط لا شيء، كما هي منازل الإنجليز بسقوفها من التبن المضغوط، الجميل والدائم بشكل رائع. كنتُ أشاطر إبراهيم ملاحظاتي. كان ينظر إلي متسليا بالاستماع إلي وأنا أتحدث كثيرا على غير عادتي. إنه الأفيون. أنا واثق من ذلك. لقد استرخى صدري، وفكُّ فمي، ووسط جلد جمجمتي، التي لم تعد تؤلمني منذ يوم موت فاني. لكن فعل المخدر لم يدفعني إلى استرجاع مشاهد الجريمة من جديد، وهو ما بدا لي أمرا غريبا. افترضتُ أن المادة المخدرة لا تتجاوز حواجز التحكم في الذات وأنه لهذا الأمر ترجع وداعة من يخضعون لمثل هذه الأشكال من النوم. لم أر في قاعة التدخين أحدا يصيح أو يشتكي. كان يسود سلْمُ رجال يحلمون. خلال الرحلة أخبرتُ إبراهيم بمغامرتي. في البداية، لم يأخذ الأمر باستخفاف. اشتكى من أنني لم أوقظه كي يرافقني. كان أمرا خطيرا. ما كان علي أن أذهب لوحدي، لكنه، في الأخير، استمع لحكايتي بانتباه. في الصحراء حيث ترعرع، قال لي، كان الناس

يتناولون شاي الرّز كمخدر.

ـ إنه شاي يمر بعدة مراحل من الطهي ثم ينكمش حتى يصير مُرّا. يتناولونه ببطء فيؤدي إلى حالة من الحساسية المفرطة. تتخذ الصحراء أبعادا لطيفة وهادئة فيستطيع المرء أن يتحمل قيظ النهار، وبرد الليل، وشح المياه، وقلة كميات الطعام.

ـ بالنسبة لي، الألوان هي التي اتخذت أشكالا آدمية ـ قلتُ مبتسما.

هذا ما رأيته وشعرت به، فكرتُ؛ ألوان تثيرني بإلحاح، تتفاعل معي راقصة كما لو أن الأمر يتعلق بإعصار بطيء يتهدهد ويخترقني بخيوط بُخارية كل واحد منها له لون مختلف.

ـ ألوان أمومية، يا إبراهيم. أمومية، أخوية، عاطفية. شيء غريب جدا.

ابتسم إبراهيم.

ـ أنا رأيتُ الكثبان تتراقص في الصحراء ـ قال.

الفصل العشرون

كان الليل قد بدأ ينزل حين وصلنا إلى شارع لايْم في ليفربول، وسط المدينة. كنا قد حجزنا غرفا في فندق واترلو بشارع رانيلاغ، قريبا جدا من هناك، لكنه كان علينا أن نأخذ عربة لحمل الحقائب. عندما خرجنا إلى الشارع لا حظنا على الفور أنها مدينة موشومة بالبحر. كانت تفوح في الجو رائحة الزفت، والبحّارة، رائحة الفوضى والأشخاص من ذوي الطباع الفظة، الذين تتسبب لهم الحياة الصعبة في الغضب وتلغي عندهم أي أثر للصبر والتسامح. بعد أن رفضتُ في البداية تصرف الحمالين والحوذيين، فضلتُهم بعد ذلك على مستخدمي لندن، الذين كانوا يتصرّفون بأدب جميل وطاعة عمياء، ربما بنيّة أن يجعلوا الزوار يظنون أنهم جميعا مؤهلون لخدمة الأرستقراطيين.

كان شارع لايْم هو الشريان الرئيسي في ليفربول. من المكان حيث كنّا ننتظر العربة، كنتُ أستطيع أن أرى العموديْن اللذين أطلق عليهم الناس اسم «الشمعدانان» (*candlesticks*) وأسديْن حجريّيْن كبيريْن يقفان على جانبي سلاليم بناية من الآجور. استأجر إبراهيم عربة من بين عدة عربات كانت تنتظر الزبائن في المحطة، ثم انطلقنا نحو الفندق. فعوضت الضربات المكتومة لحوافر الخيل على حجر الشوارع صوت القطار الذي كان ما يزال يطن في أذُنيّ.

تسليتُ بمشاهدة حركة الأرصفة. رأيتُ رجالا ضخام البنية لهم أجساد عمال الشحن والتفريغ؛ رأيتُ محامين يضعون قبعات ويحملون مظلات؛ أمهات أو مربيات يدفعن عربات أطفال؛ نساء يحملن أكياسا تبرز منها باقات من الفجل. بدوا لي مثل فئران تجري نحو جحورها قبل أن تتوارى الشمس. حشود، وحشود. شدني الحنين إلى جزيرة وايْت، إلى أصدقائي، أولئك الذين لن أراهم أبدا، والذين إن لقيتهم بالصدفة قد أكون مضطرا لأختبئ. قبل الإبحار، فكرتُ أن أزور مكتبةً وأقتني كتابا لألفريد تنيسون أقرأه أثناء الرحلة إلى نيويورك.

ـ إبراهيم، تذكر أن تسأل غدا في مكتب الاستقبال بالفندق أين يمكن أن نجد كتبا لصديقنا تنيسون. علي أن آخذ معي كتبا للرحلة.

ـ أتمنى أن تكون القراءة ممكنة. سمعتُ أن القليل هم من يقاومون المد والجزر. نصحوني بأخذ كثير من الليمون والشاي.

ـ سنبحث عن هذه الأشياء غدا. معك حق. نحن بحاجة إلى أشياء أخرى بالإضافة إلى الكتب، لكن أكثر ما يفزعني في هذه الرحلة هو ألا أقوم بأي شيء لمدة أسبوعين كاملين.

حدجني إبراهيم بنظرة خالية من أي تعبير. عندما وصلنا إلى ليفربول، كانت لدي شكوك إن كان سيذهب معي إلى نيويورك، لكنه سرعان ما بدّدها عندما تحدث عن شراء تذكرتيْن لنا معا. طمأنني أنه لم يتردد في مرافقتي. كثيرا ما كان يؤلمني أن أفكر أنه لم يكن سوى عبْد بالنسبة لي. كان يعيش من أجلي ويلبي كل طلباتي بنجاعة مدهشة. كان ذكيا للغاية، بحيث أنني، في غياب أي شخص آخر قريب إلي، كنتُ قريبا منه، كما لو كان صديقا. كنتُ أعي أن هذا التصرف ينطوي على شيء من الوهم من جانبي، رغم أنه تصرف مستحيل ولا يُنصح به. لذا كنتُ أغيّره بتصرف آخر. وهذا هو الحل الذي وجدته. فتارة كنت أعطيه أوامر وتارة أقحمه في أفكاري بصوت عال، وفي أحاديثي معه.

استبْعدَ إبراهيم انشغالي بضجر الرحلة.

ـ لن يكون الأمر بهذه الصعوبة ـ قال لي ـ أؤكد لك ذلك. إن الوقت لا يتوقف عن المرور بسرعة. ثم إنه سيكون هناك مسافرون آخرون.

ـ ذكِّرْني أن أشتري أوراق لعب.

وصلْنا إلى الفندق. كان الفانُوسي يُشعلُ المصابيح الغازية. كان شابا تنمُّ ملابسه عن رثاثتها لكثرة ما ارتداها من مرات. كانت مظاهر العظمة باديةً على الفندق. كان هو الإقامة المفضلة لقواد السفن. علمنا، أن ميسْتر لينْ، صاحب الفندق، كان يملك في القاعة الرئسية بورتريهات لاثنين وسبعين من هؤلاء القواد، الذين اختفى كثير منهم في البحر. جذبني هذا الأمر وكان هو السبب الرئيسي في اختياري فندق واترلو عندما كان إبراهيم يستعرض الإعلانات الخاصة بالفنادق في جرائد لندن. كان البهو فسيحا، به شماعد، وسجادات فارسية بها رسوم حمراء، مغراء وزرقاء، وجدران بلون القشدة تنتهي بعارضة لها لو النبيذ الأحمر عند هامشها الأسفل. وكانت قطع الأثاث المرصوفة على طول الصالون بنفس هذا اللون. جلستُ أنتظر أن يفتش إبراهيم غرفتينا، دون أن أنتبه، في أريكة خلف ظهري، إلى حضور رجُلين يتبادلان أطراف حديث حادّ. كنتُ على وشك أن أنهض وأنا أشعر أنني دخيل على ما يجري بينهما عندما سمعتُ أحدهما يقول كلمة «*Sûreté*»، وهو اسم مصلحة التحقيقات في الجرائم التي أعاد نابليون تنظيمها. طبعا، هما أيضا لم ينتبها إلى حضوري. بقيتُ مسمرا في مكاني، دون تنفس تقريبا، حتى يستطيعا إتمام حديثهما، ولم أتصور قط أنني سأسمعُ ما سمعتُه. كان أحد الصوتين عذبا، قويا، ذا نبرة عميقة وخفيضة، أما الآخر فكان حادا، وزاعقا بعض الشيء. تصورت صاحب هذا الصوت الأخير نحيفا ورسميا، بينما صاحب الصوت الخفيض فتخيلته رجلا طويل القامة ذا هيئة محترمة. سأسمي الأول «ألف» وسأسمي الثاني «باء»ـ لأنني كنتُ أجهل اسميهما.

ـ هل تظن، إذن، أنهم سيتركونك لتحتفظ بمنصبك في قسم التحقيقات؟ ـ سأل باء.

ـ أنا سأبقى. كان والدي صديقا لفيدوك ـ قال ألف، بكل ثقة.

ـ فيدوك؟ ـ سأل باء.

وكانت الدهشة التي سجلها يمكن أن تكون دهشتي أنا أيضا. كان فيدوك أشهر المحققين في فرنسا. بعد ماض من الجرائم، اشترى حريته مقابل التجسس لصالح الشرطة الفرنسية. وكان جيدا في عمله حتى أن أسس «*Sûreté*»، وهو قسم التحقيقات الخاص بالمجرمين الفرنسيين، الي تمكن من حل عدة قضايا معقدة فاكتسب شهرة عابرة.

ـ هو نفسه ـ أجابه باء ـ من بين موظفيه الأوائل كان والدي هو الوحيد من دون سجل إجرامي ـ ضحك المُخاطَبُ ـ ، لكنه كان يروي حكايات فيدوك. شخصية ساحرة. وبالعودة إلى سؤالك، لا أظن أن وظيفتي في خطر. لن يطردني منها لويس نابليون. فمصلحة التحقيقات تقع خارج اختصاص الجيش الذي هم بصدد إعادة تنظيمه. وهذه المهمة تقع على عاتق الجنرال الكبير جاك لوروا دو سانت أرْنو، الذي كان سابقا قائدا في المنطقة العسكرية للجزائر وعضوا في الفرقة الأجنبية. رجل لا ضمير له كلّفه الأمير-الرئيس، من بين مهام أخرى، بالانتقام من الملك لويسْ فيليبْ.

ـ لويسْ فيليبْ حكم على لويسْ نابليون بالسجن مدى الحياة في هامْ. وله ما يكفي من الأسباب ليأخذ بثأره.

ـ لا تبالغ. لم يمض وقتا سيئا. ألّف كتابه الشهير، واستمر يكتب للمجلات والجرائد، وكان له ابن مع المرأة المكلفة بغسل ملابسه.

ضحكا معا.

ـ المسألة أن لويسْ نابوليون حرم أبناء لويسْ فيليبْ من الإرث ومنعهم من أن يصبحوا ملاك أراضي في فرنسا. لقد حمل انتقامه محمل الجد. بالإضافة إلى ذلك، شكل لجنة سرية لاستقصاء حقيقة ما وقع من فضائح في ذلك العهد. انتحارُ شْوازولْ دو بْرالانْ، مثلا، ألا تظن أن هذا الانتحار لم يكن سوى مخرج مناسب كي يُجنّب الملك صديقَهُ الكبير خزيا أمام عامة الناس؟

من أين لبْرالانْ أن يحصل على الزّرْنيخ ويتناوله إن كان تحت حراسة مستمرة؟ لقد أمر أميرنا-رئيسنا بحملة لقنص الدوق الهارب، وعرض نقط ضعف لويسْ فيليبْ. وهو مستعد لرصد أموال ورجال للبحث عنه.

لم أتحرك. تمسكتُ بذراعي الكرسي. كان لويسْ نابليون رجلا ثاقب الفكر مثل عمه، وداهية. في السجن، ألّف كتاب نهاية البؤس؛ وببرنامجه الشعبوي، واسمه، فاز في الانتخابات الفرنسية الأولى. لم يكن رجلا سيئا، لكن الفوز بالرئاسة لمدة أربع سنوات لم يكفه. وقد نزل بضربة الرحمة عندما أغلق الجمعية الوطنية بالقوة العسكرية، سجن عددا كبيرا من النواب وفرض الرقابة على الصحافة. شعرتُ بإحساس جسدي، كما في بعض الأحلام، بأنني أسقط في السلاليم، وشعرتُ فورا بغريزة أن أنهض وأخرج إلى الشارع، أغادر الفندق، أترك إبراهيم وكل شيء. خوفٌ بارد جعلني أرتعش. أغلقت معطفي. تابع الرجلان حديثهما. لم أجرؤ على النظر إليهما. وعلى العكس من ذلك، ركزتُ نظري على باب الفندق الزجاجي، على النهار هناك في الخارج، على ألوان المارة وهي تنعكس عند مرورهم مثل منظار لا يمكن توقيفه.

ـ أين يمكن أن يكون قد ذهب شْوازولْ دو بْرالانْ؟

ـ سمعتُ إشاعة تقول إنه في جزيرة وايْت، لكن، طبعا، في هذا الوقت، وبعد أكثر من سنتين على الجريمة، هو فقط يعرف أين يتواجد. لا أظن أنهم سيعثرون عليه، إن أردت رأيي. لو أنهم بحثوا عنه عند وقوع الأحداث للتو، ربما، ولكن ...

ـ لو كان في جزيرة وايْت، لن يكون من الصعب معرفة متى، مع من، وأي وجهة قصدها.

ـ هل توجه إلى القارة أم إلى لندن.

ـ ماذا تفعل أنت لو كنت مكانه؟

ـ أُبحرُ إلى أمريكا. نعم، هذا ما سأفعله. أستسمحك، ولكن زوجتي تنزل السلاليم. وعدتها أن آخذها لتناول العشاء في المطعم. إلى الغد، يا هوارثْيو.

لم أتحرك. خشيتُ ألا تستجيب ساقيّ لأوامري. كانت ربلة ساقي اليسرى ترتعش. وقف زوجا رجل مصلحة التحقيقات ليحييا المحاور الآخر. لم أجرؤ على أن ألتفت لأرى وجهيهما، فعلتُ ذلك عندما مرّا هو وهي من أمامي. احتفظتُ بصورة وجه تافه، عادي، لم يبق منه في ذاكرتي غير شارب كثّ وأسود قاتم، وفي الخلف وجه امرأة لها ملامح طائر.

وشيئا فشيئا، استعدتُ هدوئي وقناع حياتي العادية.

من بهو الفندق صعدتُ مع إبراهيم إلى الغرفة الفسيحة ذات الشرفة. وبصوت منخفض، حكيتُ له الحديث الذي سمعتُه للتو.

ـ لم أكن أريد أن أشغل بالك، موسْيو، ولكني كنت أشك في أن هذا سيحدث. علينا أن نشدد من احترازنا. ربما يجب أن تظل في هذه الغرفة حتى وقت إقلاع الباخرة. لن يفوتك الكثير إن لم تر أشياء أخرى في ليفربول. حسب ما علمتُ، فإن الباخرة ستنطلق بعد ثلاثة أيام. وأخبروني أن بواخر شركة «خطوط كولينس» أكثر احتراما لمواعيدها ووقت وصولها من بواخر شركة «خطوط كونراد»، كما أن ما توفره من شروط الراحة على متن بواخرها أحسن بكثير. اقتنيتُ لنا تذكرتيْن على متن باخرة «أتْلانتيكْ»، التي تقطع المسافة في ظرف أحد عشر يوما، عشر ساعات وواحد وعشرين دقيقة. بالمقارنة مع هذا، تستغرق رحلة باخرة «بريطانيكا»، التابعة لشركة كونردا، اثنا عشر يوما، تسعة عشر ساعة وواحدا وعشرين دقيقة.

ـ حسنا، يا إبراهيم، هذا رائع.

ـ ثم إن «أتْلانتيكْ»، موسْيو، هي الباخرة العابرة للمحيط الوحيدة التي تتوفر على صالون حلاقة ـ قال وهو يبتسم

بمكر.

ـ أرى أن الأخبار لم تُخفْك ـ قلتُ.

ـ إطلاقا، موسْيو. عكس ذلك تماما. أظن أن هذا سيكون لك حافزا، يا سيدي، كي تقبل نهائيا بأهمية أن تنحت لنفسك قصة حياة بكل تفاصيلها. وسيتوقف مستقبلك على قدرتك في تخيل شخصية أخرى وتقمصها. لقد قلتُ لك ذلك مرارا وتكرارا، لكن هناك أشياء يصعب تقبلها، مثل الظن بأن ما يحدث للآخرين لن يقع لنا، إلى أن نجد أنفسنا وجها لوجه أمام المخاطر.

ـ ماذا سيكون مصيري، يا إبراهيم؟ أظن أنهم لو اعتبروني ميتا فسيحررني ذلك من القلق. سيقومون بتحرياتهم في جزيرة وايْت. سيسألون الأصدقاء.

أخذني إبراهيم من ذراعي وأجْلسني.

ـ لن يفيدك الآن كثيرا القلق من هذا الأمر. لحسن الحظ، أصدقاؤك في الجزيرة من النوع المتعالي. قد يغتاظون إن شك محققون فرنسيون في حسن اختيارهم ولمحوا لهم أنهم كانوا أصدقاء رجل قاتل. روِّحْ عن نفسك قليلا. العالَمُ رحب وفسيح. لا تيأس. نحن قاب قوسين أو أدنى من وضع محيط بكامله بين ماضيك وحاضرك. استرح قليلا. سأذهب لأجلب لك طعاما منعشا.

هكذا كان إبراهيم. لا ينفع معه نقاش.

تفقدتُ الإقامة في الفندق. كانت تضم غرفة صغيرة بها سرير صغير وضيق وأخرى بها كرسي ذو مسند يمكن للمرء أن يستلقي فوقه للقراءة وطاولة للكاتبة. تركتُني أسقط فوق الكرسي ذي المسند.

فوق أي انتقام مادي، كان لويسْ نابليون يرغب في توجيه ضربة معنوية للْويسْ فيليبْ دو أورْليانْ، الآن، وبعد عدة محاولات للوصول إلى السلطة، بما في ذلك محاولة انقلاب فاشلة، أصبح أخيرا هو أعلى سلطة في فرنسا. تصورتُ العار والسخرية التي قد يتحملهما لويسْ فيليبْ وعائلته كاملة لو أن لويسْ نابليون تمكن من تقديمي حيّا أمام فرنسا. تخيلتُ الدركيين وهم يفرغون قبري المزيف في فو-بْرالانْ، كما تخيلت المقالات الصحفية والكاريكاتورات. قد يكون ذلك حفلا للصحافة، لباريس بأكملها. وإذا ما تمكنتُ من تفادي السجن بفضل مساعي أحد المحامين، فأي حياة يمكن أن تكون لي سوى حياة حبيس منعزل. إن المرء يفكر في هذه الأشياء وبينما الذهن ينسج رعب الضحية التي تشعر أنها سرعان ما ستسقط في يد القناص، فإن الجسد لا يبقى بمنأى عن الخوف. تجمّدت الغرفة بسرعة، وأخذت أسناني تصطكّ. نهضتُ وسحبتُ ملاءة السرير لألُفّ فيها نفسي. انقبضتْ معدتي بتشنج مؤلم. عندما عاد إبراهيم يحمل صينية شهيّة بها حساء بصل يتصاعد بُخارُه وقطعة رجل حمل مع البطاطس، كنتُ قد صرتُ قطعة لحم ترجُّها رعشات البرد، ألتحف كل خرقة يمكن أن أضعها فوق جسدي. البردُ، البردُ اللعين، كان يهاجمني ويفضح حالاتي النفسية.

بتكلُّف وضع إبراهيم الصينية فوق المكتب ثم توقف يشبك يديه فوق صدره قبالة المكان الذي كنتُ أعاني فيه من الشتاء المفاجئ لمخاوفي.

ـ سيدي، دوق شارْل شْوازولْ دو بْرالانْ، بكل احترام أدعوك للتحلي بالعقل وقوة الشخصية ـ قال بصوت وقور، يكاد يكون كهنوتيا، لم يسبق له أن سمعته ـ إن رجالا مثلك يعيشون حياة مريحة. وإذا ما قارنّاها بانشغالاتنا، فإن انشغالاتك لا تكاد تعدو انحرافا عن روتين رضاك ومُتعتك. إنك لم تعرف، يا سيدي، لحد الساعة ما معنى أن يكون المرء واحدا آخر ضمن كتلة بشرية غير مميزة لا أهمية لها، يتحرك وسط موج بشري فوق الأرض، يتقبل حظا لا بديل له عنه، حظ دائما لعين

يقدمه له القدر. ويوم عن آخر، يتولد حرمان مُعيّن عن حرمان آخر، وتؤثر مصائب العمل في الحب، والابن. فيفقد المرء رزقة وشرفه. إذا كان يرعبك، يا سيدي، أن تجد نفسك مضطرا لتغيير هويتك، تصور ما يعنيه أن يضطر المرء لتغييرها عدة مرات خلال حياته؛ تصور روحا نبيلة ونزيهة مضطرة لتتاجر بشرفها وتصاحب الأشرار من أجل البقاء على قيد الحياة. إن البقاء، سيدي الدوق، هو الشراع والريح التي تدفع هذا الجسد الذي هو نحن، لأنه مادام معلقا بالصدر هذا الكيرُ الذي كلما تنفسنا يغذي محركا صغيرا مشتعلا ومختبئا خلف ضلوعنا، فإنه لا يوجد شيء آخر أهم من ذلك. أنا الذي انتزعتُك من بين براثن الموت، أطالبك أن تعيد النظر في حياتك باعتبارها حظا. أي شيء تعرفُ، يا سيدي، عما تخبئه لك الحياة في المستقبل؟ ما أدراك، يا سيدي، إن كان كل هذا قد حدث لسبب ما يتجاوز إدراكك؟ لقد قلت لك إن العالم، في جغرافيته الفسيحة، كاف ليحتضنك دون أن يشي بك، لكن يتعين عليك أن تستعد لتكون أكثر مما كُنْتَهُ، وعليك أن تتحدى روحك ولا تستسلم أمام حنين حاضرك. أتمنى لك عشاء هنيئا. وأرجو أن تضع الصينية في الخارج فوق الأرضية عندما تنتهي من الأكل. ليلتك سعيدة.

الفصل الحادي والعشرون

حبيساً في غرفة مثل نزيل سجن باذخ، كان الخوف من أن يقبضوا عليّ ويأخذوني إلى فرنسا لأنال أقسى درجات الذل والعار يُصيب معدتي بالوهن. لا أستطيع الأكل. نمتُ لبضع لحظات ثم عاودتني الكوابيس. دمُ فاني يفورُ؛ الغرفة، الملطخة باللون الأحمر، تتشكل حية، فتصيح في وجهي المصابيح والزخارف، مظلاتُها الجديدة، الحذاء الحريري، الرفوف وموقد النار. أستيقظُ وأنا أتصبب عرقا، لكني بالكاد أستعيدُ وعيي، يتغلغلُ البرد في ملابسي المبللة. عبثا كنتُ أحاول أن أتسلى بقراءة حكايات قصر الحمراء لواشنطن إرفينغ. ثم أعود لقراءة رواية كونت دو مونت كريسيتو. هروبُ البطل من السجن هو ما كنتُ أحلم به. أصل إلى نيويورك وأبحث عن هانْرييتْ. قضيتُ ساعات وأنا أتخيل لقائي معها. علمتُ من بعض الإشاعات عن الكاتب الأمريكي الذي ساعدها لتصل إلى الولايات المتحدة وكان يقدم لها الحماية. مهما يكن، وأيّ كان معها، فإن هانْرييتْ سوف تستقبلني وعلينا أن نصفي ما بيننا من حسابات. عاد إلى ذهني ذلك المشهد يوم جاء بها وكيل الملك وأحضرها أمامي: أنا مستلقي على السرير يعصرني الألم، والزّرنيخ يمزّق أحشائي. ظنوا أنهم لو وضعونا وجها لوجه، وقابلوا هانْرييتْ مع عشيقها المحتضر ربما يكشف ذلك عن الطبيعة الحقيقية لعلاقتنا. اضطررتُ لأغمض عينيّ. كنتُ أموت فضولا ورغبة لأراها بعد ما كتب لنا أن نعيشه معا، لكني لم أكن واثقا من نفسي. سمعتُها تقترب، سمعتُها تشفق علي، تكهنت بالحركة التي قد تغطي بها وجهها وهي تضع يديها على فمها.

ـ هذا غير ممكن! ـ كررتْ وهي تنفي وتترك إمكانية ذنبي مفتوحة في الوقت ذاته.

لم تكن الذكرى تصل مثل صدى ذلك فحسب، بل كانت تحيا من جديد وهي تعصر معدتي وقلبي وتصيبني بإحساس من الاختناق. في ذاتي، كان يختلط دمُ فاني بابتسامة هانْرييتْ، تلك الحركة المصاحبة لعبارة «هذا غير ممكن!»، التي رأيتها من دون حاجة لأراها، والتي تميزها تماما؛ وأنا أكره ذاتي لأنني عشقتها، لأنني ظننتُها بتولا، زهرة عفيفة أخرجتُها من مزهرية البراءة لأُثبّتها بدبّوس على طيّة صدر سترتي، لآخذها مثل زان خليع، مثل مغازل متعجرف، كما كان الناس ينعتون وقتئذ في باريس الرجل الذي يُظهر أن امراة واحدة لا تكفيه. نعم، لقد كنت جبانا بالفعل وأنا أرفض أن أنظر إليها. دنتْ هي من السرير حيث كان الألم يعصرني. اشتممتُ رائحة العطر الذي اقتنيتُها لها من دكان العطارة عندما بدت ابتسامتها أساسية، بيضاء ومُسْكرة، مثل ورود الياسمين المتسلقة التي تصعد عبر شرفات قصر فو-بْرالانْ، والتي كانت أزهارُها، كأنها رسومات طفل، تسحرُ أمي التي تقول إن شكلها البسيط الخالي من الزينة يخفي سحر عطر حاد وسابح يملأ الغرفات.

بعد ثلاثة أيام، عندما أصبحت جدران الفندق أكيارا تنتفخ لتخنق أنفاسي، حان أخيرا موعد الإقلاع إلى نيويورك. اقتنى لي إبراهيم قلانس، وقبعات، ومعاطف ونظارات مدورة ذات إطار أسود تمنحني هيئة أستاذ منغمس في أبحاثه. إن كنتُ أريد، قال لي، يمكن أن أتظاهر بالعمى وأتركه يقودني مثل دليل نحو العربة التي سوف تحملنا إلى الميناء. رفضتُ أن أذهب بالتظاهر إلى هذه الحد. قد لا أكون ممثلا جيدا ويمكن أن أجعل الوضع أسوأ مما هو عليه. قبلتُ العكاز وجرّبنا مشية عجوز صدئت عظامُه وتصلبت. هكذا مشيتُ رفقته عبر رواق الفندق، لا أنظر سوى إلى الأرضية، أستند إلى ذلك العكاز الذي ينتهي عند طرفه بمقبض به رأس قط نُحت من العاج. لا يبدو أن أحدا انتبه إلينا. همس لي إبراهيم أن أكون هادئا. لم أر في المطعم أي شخص أثار حديثُه انتباهي. غادرنا، إذن، بشكل طبيعي، باستثناء أنني تعثرت وأنا أنزل الأدراج المؤدية إلى الرصيف، وهذا، أظن، هو ما جعل شيخوختي المزعومة أكثر قربا من الحقيقة.

أبحرنا يوم ١٠ نسيان من سنة ١٨٥٠ ، ذات يوم ملبد بالسحب. كان الشتاء يقاوم ويرفض أن يرحل والأيام تتناوب بين ربيع وشتاء مما يسبب ارتباكا لدى السيدات، اللواتي يرتدين ملابس مزركشة الألوان ذات أنسجة ربيعية خفيفة فيتحركن في الشوارع وهن يرتعشن من البرد. أما الأشجار، واثقةً من تاريخها العريق، فكانت أغصانُها تتزيّن ببراعم ستعيدُ لها شخصيتها

الخضراء في الأيام القليلة القادمة.

كانت السفينة التي ركبناها تابعة لخطوط «كولينس» وتدعى «س.ٍ س. أتلنتيك»، نموذج رائع لسفينة تشتغل بالبخار والأشرعة. كانت سفينة طويلة، صقيلة، خشبية، بها عجلات ذات قواديس على ميسرتها وميمنتها، وتوفر خدمات من الدرجة الأولى والثالثة. حسب معطيات قدمها القائد جيمس ف. لوس ـ رجلٌ أصهب قوي البنية، له يدان ضخمتان، لحية حمراء وضحكة جهورية لطفل كبير ـ كان طول «أطلنتيك»، من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها، يبلغ ٢٨٤ قدما، وتزن ما مجموعه ٢٨٥٦ طنا. وكان لها محركان بخاريان يُولّدان قوة تعادل ١٠٠٠ حصانا. وسنقطع المحيط الأطلسي في مدة أحد عشر يوما، عشر ساعات وإحدى وعشرين دقيقة، كما أكد لي.

اندهشتُ لما رأيته على السفينة من بذخ وذوق رفيع. كانت الصالونات مزينة بسجادات فارسية ومصابيح بلورية ونحاسية، وبها كراسي جلدية بلون النبيذ الداكن، وقطع أثاث خشبية رهيفة مرصعة بحجارة اليشب اللامع. كانت قاعة الأكل الخاصة بالمسافرين في الدرجة الأولى، تتكون من أربع موائد دائرية، يمكن لكل واحدة منها أن تضم حوالي اثنا عشر مسافرا. كانت الغرف صغيرة لكنها ذات شكل جميل، بها فوطات من الثوب الغليظ، كوّتان يمكن رؤية البحر من خلالها، سرير فردي مع طاولة عند رأسه ومساحة كافية لوضع الأمتعة.

خارج غرفة نومي، كانت تُسمع جلبة كبيرة. ومن خلال الكوّتين لاحظتُ الحركة التي تُخيم على الميناء. كان مئات الأشخاص محتشدين يودعون ذويهم، منهم أصحاب الملابس الرثة الذين يبدون داكنين من شعر رؤوسهم حتى لون أحذيتهم، ومنهم أصحاب الألوان الزاهية التي ترتديها نساء ورجال متأنقون تجمهروا جميعا في الميناء يودعون أشخاصا آخرين، تنتظرهم عربات مغلقة لتعود بهم إلى المدينة. تفحصتُ الوجوه، وأنا خائف من أن أتعرف أشخاصا من الفندق. كيف يستطيع الدركيون أن يعثروا علي؟ كل يوم تقريبا، تقلع سفن إلى أمريكا. هل يكون هناك رجال شرطة على متن سفن مختلفة مهمتهم تحديد مكان تواجدي وسط الرُّكاب؟

انسحبتُ من كوة الغرفة. جلستُ على السرير، وأنا أرغم نفسي على الهدوء. كان الخوف يسكن دماغي كأنه فأر يخرج ليقتات على مُخّي، أو يتحرك في صمت عبر متاهات ذهني، وحين أستيقظُ يعضني دون شفقة.

أثناء العشاء، قال القائد إن الجرائد في نيويورك، يوم رأت «س.س. أتْلانتيكْ» يُبحر لأول مرة، وصفته بأنه «أروع سفينة بناها الإنسان منذ عهد نوح القديم» ثم أطلق ضحكته الضخمة المرحة.

بعد العشاء، وقد بقينا لوحدنا، نظرت أنا وخادمي إلى بعضنا البعض ثم ضحكنا بدورنا. تركتُني أسقطُ فوق السرير مرتاحا، كما لو أنني وصلتُ إلى مخبأ آمن بعد القيام بمهمة تهريب محفوفة بالمخاطر. وأمام القائد تظاهرتُ بأنني شخص قليل الكلام، قصير البصر، وهي شخصية قد لا يُكلفني كثيرا تقمُّصُها لمدة عشرة أيام، لو وصلنا إلى نيويورك دون عوائق كبيرة. وقد زاد من معنوياتي أننا وصلنا إلى السفينة سالمين، بعد أن تركنا وراءنا قلق ليفيربول بحشودها وحركتها الدائبة، تماما كما أنعشت روحي فكرةُ العزلة أثناء رحلة سوف يبعدني البحرُ خلالها عن تلك الحياة السابقة التي لم تكن تقدم لي إلا الألم والملاحقات. إن الزمن، فكرتُ، سيمحو شيئا فشيئا ما حدث. بعد مقابلة هانْرييتْ، يمكن أن أبدأ حياة جديدة.

ذهب إبراهيم إلى الغرفة المجاورة. حرصت على أن يسافر، مثلي، في الدرجة الأولى. ظننتُ أن ذلك سيحمي هويتي لأنهم لن يتصوروا أن نبيلا تعود على حدود صارمة لطبقته، يمكن أن يتعامل مع من هو أقل منه بكل هذا الاعتبار. بدا إبراهيم مرتبكا، لكني أقنعتُه. والحقيقة أن وجوده بجانبي كان يُطمْئنُني، لأنني طورت معه تبعية كنتُ أخجل منها بنفسي في بعض الأوقات. كنتُ أعرف أن تلك السنتين من العزلة والتحليق فوق الواقع وأنا أجهد نفسي كي أستوعب القطيعة مع كل ما كنتُه، ما كنتُ لأتحملها من دونه. ليس فقط لأنه كان هو الوحيد من يعرف حيثيات وضعيتي، بل إنه لسبب أو لآخر

ربما ما زلتُ لم أدركه بعد، وبعد تجاوز مخاوفه الأولى، قرّرَ أن يتقبّلني بل ويشعر بالودّ تجاهي. وتفسيري الوحيد هو عادةُ الترحال التي تميز إبراهيم، انجذابُه الطبيعي نحو المغامرة، عدم المكوث في أي مكان والانسياق مع ما تقدمه له الحياة أثناء الطريق في استسلام يُحسدُ عليه. لم يكن يحدثني كثيرا عن حياته، لكني وقتها كنتُ أستطيع أن أجمع الشظايا وأكون فكرة عن الطريق الطويلة التي قطعها كي يتحول من جَمّال ودجّال، ومن ناقل يحمل الحرير والتوابل، بالإضافة إلى ممارسة التهريب، إلى كاشف عن السموم يزود الأميرة أديلاييدْ بالأعشاب الطبيّة ليصبح لاحقا هو منقذي وحاميني. صحيح أن الأميرة قد ماتت، لكن إبراهيم لم يكن يعول عن مكان يرجع إليه، خصوصا الآن بعد أصبحت عائلة أورليان في المنفى. كنتُ مكلفا بأن أوفر له أجرا جيدا، وأضمن مؤونته، ليس وفق بذخ البلاط، بل بطريقة تحفظ كرامته. أظن أنه كان يقدر تبعيتي له، ويأخذ مأخذ الجد عرض حمايته لي وتعاطفه معي.

بالكاد تكلمتُ خلال العشرة أيام التي استغرقتها الرحلة. ادّعيْنا أنا وإبراهيم أننا تاجريْ حرير وزرابي وتكلف هو بإخبار مسافرين آخرين كنا نجالسهم ساعة الأكل، وإطلاعهم بطبيعتي الصامتة، نتيجة علاقتي بالحسابات والأمور المالية. قضيتُ ساعات طوال في جانب السفينة مستلقيا فوق كراسي مائلة، أنظر إلى شساعة البحر الداكنة الزرقاء وحمرة ساعات الغروب اللامعة. تبعتنا طيورُ النورس حتى ابتعدنا من اليابسة. ذات ظهيرة، سبح إلى جانبنا سرب من الدلافين ورأينا بعيدا حيتاناً ضخمة تتنفس وهي ترتفع من الماء كأنها حِمامٌ صغيرة.

شيء غريب يحدث عندما ينظر المرء إلى البحر وقتا طويلا. يُقال إننا كائنات تنتمي إلى اليابسة، لكني أظن أننا ننتمي إلى البحر بالأحرى. إن النظر إلى البحر، إلى أمواجه المتكررة بلانهاية، إلى سطحه السائل الذي يوجد تحته لغزُ المجهول، كان له على نفسي أثر تنويمي دفعني إلى تأملات عميقة. رأيتُ ما كنت أعيش فيه من سطحية إلى حد الآن. ولأول مرة شعرتُ بما يشبه التواضع داخل ذاتي. أقررتُ بهشاشة وتقلب السلطة، التي ظننتُ أنني كنتُ أملكها لحدود ذلك الوقت: ممتلكاتي واسمي المرموق لا ينفعاني في شيء وأنا محشور مع عامة الناس البسطاء. اتضح لي مدى وطأة الظروف ووزن تقلبات الدهر في حياة البشر. ماذا كنتُ سأكون لو ولدت في مهد آخر، لو كان لي والدان مختلفان؟ في نهاية الأمر، كان كل ما أملكه في الحقيقة هو هذا الجسد الذي يحملني وذلك القَدْر القليل أو الكثير مما يأويه ذهني وذكائي. لم أعط هذه الأشياء أهمية كبيرة قط. حصلتُ على كل شيء مجانا في هذه الحياة فكان كافيا لي أن أتمتع بأصول اللياقة، وبجسد جذاب نوعا ما وتربية على يد مربين ذائعي الصيت، لأصنع حياة مقبولة في عيون الآخرين، وأتزوج فاني، وأرزق بأبناء يحسبونني اليوم ميتا. كان أحسن ما أدركتهُ من معارف هو ما كنتُ أعرفه من معلومات عن النباتات والأعشاب الطبية مما تلقنته على يد الدكتور هاميلتون. وهذه المعارف قد تشكل خيارات يمكن أن تكون في متناولي عند الحاجة. كما أنني كنتُ أعرف كيف أتصرف في الأراضي، قلتُ مع نفسي مواسياً. إن ملاحقة الشرطة قد تدفعني إلى البحث عن مكان قصي يمكن أن أكون فيه شخصا آخر، حيث يمكن أن أستعمل ما أعرف بذكاء وأبتعد، ليس فقط في الممارسة، بل أيضا في طريقة تفكيري، عن ذلك الإحساس الزائف بالسلطة الذي جعل حياتي سهلة للغاية. وفي أحيان كثيرة، على الكراسي المائلة فوق سطح السفينة، عندما لا يرقبني أحد، كنتُ أبكي بغزارة. كانت حالتي النفسية متقلبة جدا. كانت لحظات التبصر والرغبة في بداية حياة مختلفة تتناوب مع أكثر الأحاسيس حدةً وخزيا بالفراغ والهزيمة. كانت فاني تظهر فوق الأمواج. كنتُ أراها شابة، عندما أُغرمتُ بها، وتظهر أيضا ربّة بيت بدينة، هيستيرية تتصبب عرقا كما صارت فيما بعد. فهل كنتُ أنا المسؤول عن ذلك؟ إن جسد المرأة يعاني مع ولادة الأبناء، وهي كانت تتشوه شيئا فشيئا مع كل وضع وأيضا مع الصدّ الذي لم يكن لي بدّ من الإحساس به عندما كنتُ أتخيلها حوتا رخوا وأحتقرها أمام غواية جمال أجساد أخرى، أهرب من شكاواها ورسائلها المجنونة. بل إن حبها بدا لي من صنع ذهنها كي تشعرني بالذنب وتكدر علي عهدا أخذته على ذاتي كي أتحملها زوجة، لكن دون أن أحرم نفسي من ملذات الحياة، وممارسة الجنس مع أجساد أخرى جميلة، أو الجمع بين ملذات مختلفة كما كانت تفعلُ ذلك هانْرييتْ، وهي تهديني متعة الفكر ولذة الجسد.

في تلك الصباحات ذات الضوء الذي يرشح عبر سحب ربيعية أمام المحيط الأطلسي، استعاد سمعي ويداي الصوت الفظيع للشمعدان وهو يصطدم بالقشرة الصلبة لجمجمة زوجتي، وارتعاش المعدن وهو يصطم بالبيضة البيضاء حيث يقبع الجنون ويكسر مركز الحياة. كنتُ أكرر مع نفسي، وأنا أتذكر تلك اللحظة، إن تصرفي كان بدافع الشفقة، كنتُ أحاول أن أبرر الذنب وأزحزحه عن مكانه، لكن، بعد ذلك، في جولة الذكريات، حين تتوالى الأحداث بسرعة كبيرة، كان لزاما علي أن أعود إلى بداية كل شيء وأرى كم من مجمل تصرفاتي قادنا، هي وأنا، إلى تلك الليلة المشؤومة.

من سيقرأ تلك الرسائل العديدة التي بعثتها إلي؟ من سيسأل أبنائي ويطلع على تلك الأهواء التي تكالبت عليهم، لأنها لم تستطع أن تسيطر علي؟ من سيحدس تلك الأفعال البغيضة التي دفعتْها إليها رغبتُها في الانتقام؟

فوق ظهر السفينة، كانت تمر قبالتي في مساءات البحر الهادئ، نساء ذات جلد ناصع البياض، إيرلنديات من ذوات الشعر المشتعل، ربما كان بإمكانهن من قبل أن يشعلن نار رغبتي. ربما كنت سألاحقهن وأقتنصهن لأعرف ما يختبئ تحت القمصان والتنورات، لكن الخوف أيضا أصاب رغبتي بالفتور. لم أكن أرغب في أن أندسّ بين سيقان نسوية سقيمة وناعمة. كنتُ أجهد نفسي لأتذكر الأعماق الدافئة والمبللة، اللذة وهي تُغرق سطح الجسد بكامله، الانفجار عند لمس القاع، لأنني كنتُ أخشى ألاّ أستعيد أبدا تلك اللذات، لكن ذلك كان عبثا؛ كان ذهني وقتئذ يسكن متاهة من دون مخرج.

تائها في ذكرياتي، بالكاد سجلتُ ما كان يقع من حولي. أتذكر أن النّو ضرب مرتين فتزحزحت لقوته السفينة، التي غرقت في أضواء بروقه الشبحية ورجات رعده. أتذكر صمت الركاب وصيحات البحارة والقائد وهم منهمكون في أعمالهم.

عند بداية الرحلة، بعد أن ذرعَ السفينة من أقصى طرف إلى أقصى طرف آخر، طمْأنني إبراهيم قائلا إنه لا يري شيئا، ولا أحدا يوحي بالتفكير بأنهم يلاحقونني. ما أدهشه هو ما رآه عندما نزل إلى مقصورة المسافرين الفقراء، المكدسين في عتمة تنبعث منها رائحة الصدأ والقيء والبراز. ولتغذيتهم كانوا يزودونهم بكميات قليلة من الطعام: خمسة أرطال من الشوفان، رطلين من الرز، رطل من الطحين، نصف رطل من السكر، ورطلين ونصف من الخبز الرديء كل أسبوع. وكان على كل واحد منهم أن يحضر هذه المأكولات لوحده، يتناوبون على مطبخين، مما يؤدي إلى مشاجرات يومية. ولما تركته لوحده بسبب صمتي وسكوتي، ربط إبراهيم علاقة صداقة مع امرأة إيرلندية. أقنعْنا القائد بأن يتركه ليأخذها إلى سطح السفينة ويتجول معها عند الظهيرة. كانت امرأة ذات شعر مجعد، أحمر كثيف، وعينين زرقاوين جميلتين، ولون شاحبة، ترتدي ملابس تتسع لها أكثر من اللازم نظرا لنحافتها المفرطة. كان اسمها كاسيدي. ذات ظهيرة، كان مزاجي خلالها أحسن حالا، لأن الشمس كانت تلمع بقوة في سماء صافية والبحر يبدو رصاصيا وهادئا، أشرتُ إلى إبراهيم أن يقترب مني رفقتها. كانت المرأة تتحدث بطريقة جيدة، رغم مظهرها. كانت اللكنةُ الغيْليَّةُ لإنجليزيتها تضفي جمالا على صوتها الأجش والشهواني بعض الشيء. سألتها عن اسمها الغريب.

ـ إنه شَعْري ـ قالت ـ لأن كلمة «كاس» تعني «تجعيدة» في اللغة الغيْليَّة.

كانت كاسيدي تحمل العديد من الحكايات الفظيعة عن مجاعة البطاطس. كان الآلاف من مواطنيها يقطعون المحيط الأطلسي بحثا عن فرص في أمريكا الشمالية. «*An Gorta Mor*» هو الاسم الغيْلي الذي كانت تستعمله كاسيدي للإشارة إلى تلك الآفة. شيء ما مثل «الموت العظيم». ثم تغير قسمات وجه كاسيدي وعكست بريق سعادة خفية وهي تحكي أنه، عندما تعفنت البطاطس بسبب «*Blighit*»، الآفة الزراعية، أشفق صاحب الأراضي التي اكترتها منه أسرتها لعدة سنوات، فوعدهم بأن يقتني لهم تذاكر سفر ويزودهم بشيء من المال عندما يصلون إلى نيويورك. كان وعدُه هو خلاصهم، قالت. كان أسرتها، مثل عدة أسر أخرى، ستموت جوعا إن لم تستطع أن ترحل من إيرلندا. نظرنا أنا وإبراهيم إلى بعضنا بعيون انتقلت من الريبة إلى العجز في غضون ثوان معدودة. لن يكون هناك من عمل لكاسيدي وأسرتها عندما

سيصلون إلى نيويورك، لأن ملاكي الأراضي من الإنجليز في إيرلندا كانوا يستغلون تلك الكارثة للتخلص من المزارعين. ندمت على بدأ ذلك الحديث وناديتُ عليها إلى جانبي. لم يكن الوقت مناسبا للشعور بالشفقة أو الالتزام مع أي كان. فالخلاص بجلدي كان يستوجب مني أن أتصرّف مثل حيوان مُطارِد وأن أنسى هذه المميزات الإنسانية التي يمكن أن تقضي عليّ.

لم تشتكي كاسيدي كثيرا من ظروف السفر في مقصورة الفقراء. كانت مسرورة لأن القائد تمكن من تفادي تكاثر الحشرات والقمل وهو يجبر الركاب على تنظيف المقصورات التي يتكدسون داخلها.

ـ هل تعرف الحكايات؟ حكايات السفن المقابر، التي يمنعونها من الرسو بسبب حمى التيفوس التي تحملها بداخلها، أو حكاية تلك السفينة التي ألقت برُكّابها في نهر سانتْ لورينْس في كندا. لم ينجُ منهم سوى من استطاعوا أن يبلغوا الساحل وبعد ذلك ظلوا يزحفون بسواعدهم وسيقانهم حتى وصلوا إلى المستشفى. أعرف ذلك لأن واحدا من أهل بلدتنا كان على متنها وحكى ذلك في رسالة إلى عمي. كنّا جميعا نخشى أن نموت في هذه الرحلة.

ـ لكن، مع ذلك، ركبتم البحر.

ـ من الأحسن أن ينتظر المرء الموت واقفا؛ ويتحداه بدل أن يبقى أمامه جامدا ولا يحرك ساكنا. هذا ما قاله والدي ـ ثم رفعت كاسيدي ظهرها قليلا كأنما كلماتُه كانت تستوجب منها ذلك.

كان إبراهيم ينظر إليها كما لو أنه يريد أن يحميها من مثل تلك المصائب والمحن. انشغلتُ لذلك. قد يكون من السيء أن يتعلق بهذه المرأة البائسة. كان الإيرلنديون يعيشون في جماعات كبيرة صاخبة، وعنيفة في كثير من الأحيان. يعانون من السكر المفرط، وكثير من الآلام التاريخية. كانوا من أتعس الناس المرحين في هذا العالم؛ أفراحهم، متعهم، تقطر حزنا؛ مصائبُهم تدور حول نفسها لتصير عظيمة ومُدمرة. وضعتُ نصب عينيّ أن تختفي كاسيدي من ناظرنا هي وأسرتها ما إن نصل إلى نيويورك. لا ينبغي لإبراهيم أن يشغل نفسه بشيء آخر. كان ملكي. ليس كعبد، صحّحتُ فكرتي، بل لأنه كان ضروريا بالنسبة لي. كنت متعلقا بوفائه، وبخدمته لي. كاسيدي يمكن أن تكون تعقيدا لو استطاعت أن تستقر في ذهن إبراهيم المنظم والأمين. النساء. لا أحد يعرف بما هن قادرات على القيام به.

الفصل الثاني والعشرون

بعد ستة عشر يوما على إقلاعنا من ليفربول، دخلنا إلى ميناء نيويورك. اعتذر القائد عن عدم الوفاء تماما بالوقت الموعود. لم يعر أحد الأمر أهمية كبرى. كنا في نيويورك. كان ينزل مطر خفيف. تقدمت السفينة عبر مضيق قصير وأمامه انفتح أمام عيوننا الميناء الواسع مع بعض الجزر الصغيرة والسفن الكبيرة والصغيرة التي تتحرك في مياهه الهادئة. وتحت المطر الخفيف كان المنظر يبدو ملفوفا في نسيج رقيق شفاف. بدأ معظم الركاب يخرجون نحو سطح السفينة. كانت تُسمع بعض الهتافات وهناك من كانوا يتعانقون ويغنون ويرفعون أطفالهم فوق ذروعهم. كنتُ قرب إبراهيم. كاسيدي، على مسافة قريبة منا، كانت رفقة والدها وأمها في صمت، في واحدة من لحظات الهدوء الإيرلندية النادرة.

أخذت جزيرة مانتاهتن تبدو تدريجيا مع اقترابنا منها. أسفت لغياب الشمس عن ذلك اليوم، لكن المطر الخفيف كان يناسبني كي أغطي نفسي بعباءة المعطف وأتواجد على سطح السفينة، رفقة باقي الركاب، دون الخوف من أن يتعرفني أي أحد. رؤيةُ ذلك العالم الجديد، في الجهة الأخرى من العالم، ملأت عيني بالدموع. وغمرني إحساس محلي، إحساس شخص أوروبي بئيس أمام أمريكا، القارة الأسطورية حيث يمكن لسوء الطالع أن يتحول، بين عشية وضحاها، إلى حسن طالع؛ القارة التي يعيد فيه الناسُ ابتكار ذواتهم، يغيرون أسماءهم، ويعيدون كتابة حكاياتهم؛ بلد يضم أصحاب مبادرات حقيقيين ونزهاء كما يضم أوغادا، وأشخاصا هاربين من الخزي والعار، أو مجرمين من أصحاب الدم البارد ممن يبحثون عن أعمال شريرة جديدة. شعرتُ بالارتياح وأنا أصلُ دون مكروه إلى هذه الوجهة. دون سابق إنذار، اعتراني تعب عميق. عدتُ إلى قُمْرتي قبل أن ترسو السفينة في غاردن كاسل، البناية حيث سنسجل أنفسنا كمهاجرين. تركتُني أسقط فوق السرير وضحكتُ من نفسي. كم كان درْعي كاذبا وكم كان من الصعب أن أحمل ذلك القناع الذي اخترته! أظن أنه ما كان يمضي علي يوم دون أن أندم على أنني لم أبتلع كمية أكبر من الزّرنيخ.

اتفقنا أنا وإبراهيم على أن نأخذ كل ما يكفي من الوقت لمغادرة السفينة. لم ننزل مع ركاب الدرجة الأولى، بل امتزجنا مع الإيرلنديين النحفاء من أصحاب الملابس الرديئة. ورُغماً عني، أقنعني إبراهيم بالنزول رفقة أسرة كاسيدي ومعها أيضا، مؤكدا أن ذلك قد يدفع إلى الظن بأننا زوجيْن، وهو ما يعتبر شيئا مناسبا إن كان هناك من يتجسس علينا في الميناء. لم أظن أنها كانت خدعة أصيلة جدا، لكني لم أكن أملك الطاقة لمعاكسته. تركتُه ليتصرف ويرتب الأمور مع الشبان الذين تكلفوا بإنزال أمتعتنا. كان الميناء يعج بالحمّالين، والعربات التي تجرها الخيول، والعربات المغلقة، وكمّ هائل من المظلات التي تعيق تقدم الناس، لأن أصحابها كانوا يتفادون بعض المارّة فقط ليصطدموا بآخرين. لم يكن الجو باردا جدا، لكن الرذاذ كان كافيا ليجعل المرء يرتعش. ومن الميناء، حيث كان يتبعنا الشبان الذين يحملون الأمتعة، توجهنا، بتعليمات من رجال شرطة يرتدون بذلات ذات ثوب أخضر، نحو بناية مستديرة خاصة بالهجرة. بعد سنوات سيتم نقل هذه الخدمة إلى جزيرة إيليس، لكن، لحسن الحظ، في كاسل غاردن، لم تكن تأخذ كل المعلومات الدقيقة التي تسمح بعد ذلك بتحديد أسماء معينة على لائحة المهاجرين الذين ظلوا يتوافدون دون انقطاع، وقد اجتذبتهم وعود العالم الجديد. سجلتُ نفسي تحت اسم «جورْج ديمولانْ»، متحدر من مارسيليا. خلال مدة الانتظار التي قضيناها في تلك البناية الغريبة المستديرة والقبيحة، مزيج من كنيسة غير متناسبة ذات نوافذ غوطية من حولها، ورواق عبثي، استرجعتُ حكاية «الكونت دي مونت كريستو». هل يمكنني أنا أيضا أن أعود من الموت وأردّ الاعتبار لنفسي؟ لمستُ داخل الجيب السري لمعطفي قطعة الورق التي سجلتُ فيها عنوان هانْرييتْ دولوزي ديبورْت. لم أكن أستطيع أن أتصور كيف سيكون ردّ فعلها وهي تراني حيا.

خلال مدة الانتظار في بناية الهجرة، كان إبراهيم يتحدث مع كاسيدي وأسرتها. كانت الأم امرأة فارعة ضامرة، ونحيفة بدورها، لكن لها عينان واسعتان جدا مثل ابنتها ونظرة خنوعة وحزينة. أما الأب، فكان له وجه دموي وصاف مثل كل

الإيرلنديين المميّزين، أحمر الشعر، أكلف الوجه، أقصر من زوجته مع بقايا بطن ربما كان منتفخا فيما مضى من الأوقات اليسيرة. كان شخصا ثرثارا يتحدث بلغة إنجليزية أكادُ لا أفهمها. خمّنتُ أن كاسدي كانت تتكلف بالترجمة لإبراهيم عندما يشير لها هذا الأخير، غالبا، أنه لا يفهم هذْر والدها. طفلان بين الرابعة عشر والعاشرة من العمر، صامتان بوجهين ضجرين، يجلسان قرب الأم، التي كانت تردع اندفاع ابنيْها ليقفا من حين لآخر، ويخرجا من البناية ويعودا إليها.

خرجنا من هناك عند المغيب. ودّع إبراهيم كاسيدي بكل حنان. أما أنا فودّعتُ بحركة من رأسي ومصافحة يد الفتاة.

ـ أشك أننا سنراهم ثانية ـ همستُ لإبراهيم بينما كنا نتجه نحو عربة مغلقة كي تأخذنا إلى الفندق.

هزّ رفيقُ رحلتي كتفيه ليعبر عن عدم اكتراثه.

ـ أعجبتك الفتاة، يا إبراهيم، لا تُخف ذلك.

ـ أيقظت في ميلي الطبيعي للحماية. ـ قال إبراهيم مبتسما ـ لن أنكر ذلك. وهي جميلة، ألا تظن ذلك، يا جورْج؟ كانت رفيقة مؤنسة لي أثناء الرحلة، ومن يدري، لا أستبعد أن أراها ثانية. أنا أومن باللقاءات العرضية.

ـ نعم، إنها جميلة ـ ابتسمت بدوري ـ لكن، عكسك أنت، لا أومن فقط باللقاءات العرضية، بل إنني أخشاها الآن. علينا أن نكون حذرين.

قلتُ ذلك وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي. الآن، وأنا فوق اليابسة، بعد أن تلاشى الرذاذ وبدأتُ أخيرا أرى بمزيد من الوضوح أشكال البنايات، المتشابه فيما بينها، فإن حماس تواجدي في نيويورك، بعد عبور المحيط، قد محا مؤقتا مخاوفي وخطر القبض عليّ. ورغم أنني لم أستطع استبعاد ذلك الاحتمال، قررت أن أزيحه وألا أسمح له بأن يطفئ الرغبة في الاستمتاع بجدة ما يحيط بنا. دون استثناء، كان كل الناس يمشون بسرعة، ويتقدمون بعزم، ولا علاقة لذلك مع ما يميز الإنجليز أو الفرنسيين من تثاقل. وحدها ليفربول يمكن أن تُقارن مع هذا الأمر، لكن هناك كان الحافز ينبع من اليأس في الهروب من البؤس، أما هنا فالحركة الحثيثة هي ميزةُ عالمٍ في طريق البناء. وبينما نحن نسير بسرعة، يتبعنا شاب يحمل الأمتعة فوق عربة مدفوعة، انتبهتُ إلى تنوُّع سحنات الأشخاص الذين نصادفهم وإلى اللغات المختلفة التي كانوا يتحدثون بها.

صعدنا إلى عربة مغلقة بعد أن توجهنا إلى حديقة صغيرة وجميلة تدعى بولين غرين، حيث علمتُ أنه كان ينتصب إلى حدود الاستقلال تمثال الملك الإنجليزي جورْج الثالث، والذي حُوّل بعد ذلك رصاصا بعد أن هدموه وصهروه.

وكان الشارع الفسيح الذي صعدناه بعد ذلك يحمل اسما على مسمى: برودواي، الشارع الواسع. كانت البنايات ذات لون رمادي أو أبيض مصفرّ. كان المُتزمّتون الهولنديون والإنجليز قد أسسوا المدينة في حيّز جغرافي ضيق. ولاستيعاب أمواج المهاجرين كان لا بد من تشييد بنايات عمودية من عدة طوابق. بسرعة تحولت نيويورك إلى قبلة لكل من كانوا يهربون من ماضيهم ليجربوا مواهبهم في مختلف المشاريع الإنسانية المتعددة والنابعة من الخيال. كانت المدينة برج بابل ثانية، لكنها هذه المرة ستدوم وستستفيد من كل اللغات التي لا تعدُّ ولا تحصى.

البناياتُ المتعدد، بواجهاتها ذات الأسلوب الكلاسيكي الجديد، وأعمدتها وأفاريزها، أثارت ضحكي. كان شيئا مضحكا أنهم في العالم الجديد كانوا يقلدون تأثير الإرث اليوناني والإغريقي. فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية، بدستورها المتقدم وتطلعاتها إلى الديمقراطية والجمهورية، تعتبر نفسها وريثة لهذه الثقافة. مررنا بالقرب من كنيسة الثالوث المقدس، التي لمحنا بُرجَها من سطح السفينة ونحن نصل إلى الميناء. كنا أنا وإبراهيم، كل واحد ملتصق بنافذة من نوافذ العربة المغلقة، ننظر مسحوريْن إلى المدينة. كان الفانوسيون يشعلون واحدا واحدا المصابيح الغازية في شارع برودواي. وعكس ما نصحني

به إبراهيم، قررتُ أن نقيم في أحسن فندق في المدينة: أستور هاوس، في زاوية شارع برودواي وشارع فيسي، قرب مكتب البريد والحديقة المركزية. ألا يزعجك أن تصادف أحدا ممن تعرفهم؟ سألني خادمي.

ـ كن واثقا أنهم لن يتعرّفوا عليّ. بل حتى أنا لا أتعرّف ذاتي ـ قلتُ مبتسما. كنت أقول ذلك عن قناعة. فقدت عشر كيلوغرامات من وزني. بنظارتين تشبهان نظارتي أستاذ، ولحية كثّة وشاربيْن وملابس داكنة، كنتُ أبدو مختلفا تماما. وعندما أُدخلُ رأسي في البرنيطة الجيدة التي اقتنيتُها في لندن كان يختفي أي أثر لشارْل.

كنتُ مستعدا للقيام بعدة أشياء، لكن في نيويورك لم أكن مستعدا للتخلي عن أسلوب حياتي ما دام هذا الأسلوب متاحا لي. يستحيل أن أعرف ما يخبئه لي المستقبل. ربما مثل ذلك المستكشف الذي قرأت إنجازاته البطولية في جزيرة وايْت، ماذا كان اسمه؟ سْكيرْ! الذي عاش في البيرو وفي ذلك البلد الصغير الآخر، نيكاراغوا، أنا بدوري سوف أتيه في واحدة من تلك المناطق الموحشة، لكن ما دام هذا الأمر لم يحدث، ورغم أنني لا أستطيع أن أشهر اسمي، ولا وضعي الاجتماعي، ولا ألقاب نبالتي، سوف أتصرف كما أنا. ويمكن لإبراهيم أن يظل في نفس الفندق الذي أقيم فيه، لأنه يتوفر على غرف خاصة بالخدم في الطابق السادس من تلك البناية الباذخة التي وصلنا إليها بعد مرورنا قرب كنيسة القديس بولس.

نزلنا قبالة الكشك الذي تحيط به الأعمدة. كان الفندق يشغل كل مجموعة البنايات وتكرر زواياه ما يظهر على واجهته من أعمدة، في محاولة لعكس صلابة معبد قديم. كان داخلُه مزيجا من الأسلوب الكلاسيكي الجديد. كانت الجدران المغطاة بغرانيت أخضر داكن تقتسمُ باقة ألوانها مع قطع الأثاث المذهبة. وكانت أناقةُ العمارة تتوارى شيئا ما خلف البذخ المبالغ فيه واللامع الذي سأراه لاحقا في كثير من بنايات نيويورك. أمام انعدام تميزهم الطبقي، كان الأغنياء الجدد يحرصون على التصنع في استعراض رخائهم الاقتصادي. في الرواق الفسيح، كان مجموعة من الأشخاص يتناولون مشروبات كحولية قبل وجبة العشاء أو *super*. عندما لا حظتُ المشهد، ابتسمتُ في دواخلي أمام هذا التقليد للأذواق الراقية في البلاطات ومنازل النبلاء في أوروبا حيث توجد الزخرفة بشكل طبيعي. لم تكن مظاهر البذخ لدينا سوى نتيجة لسنوات وسنوات من ممارسة الذوق الرفيع ومعرفة الفن عبر الزمن. أما هنا، فكانت الأبهة مدروسة بعناية والأساليب مكيفة لتترك أكبر أثر في نفوس الوافدين الجدد. كان بوّاب الفندق يتحدث فرنسية صحيحة، لكن بلكنة فظيعة، وكان المستخدمون لطفاء ومؤدبون والحمّالون من السود يتحركون في صمت، ويحملون الأمتعة دون أن يتبادلوا النظرات مع النُّزلاء.

وكما في السفينة وفي مصلحة الهجرة، قدمتُ نفسي تاجراً في الحرير. قادني الحمّال نحو غرفة فسيحة ومريحة في الطابق الخامس. هناك، دلّوني على الحمام والمرحاض الأقرب من غرفتي، الذي كان مرتبا ونظيفا، ومزودا بقطع الصابون وقوارير العطر. بعد ذلك، أخذ الشابُ إبراهيمَ إلى الطابق السادس. بعد أن بقيت لوحدي، استلقيتُ فوق السرير المغطى بلحاف من القماش الحريري المذهب. كان الإحساس باليابسة ما زال يتضارب في نفسي مع تموجات السفينة. حتى وأنا مستلق، لم يكن توازني قد استقر بالكامل.

كان قصدي الآخر من اختيار ذلك الفندق هو ألاّ تظن هانْرييتْ أنني هارب من العدالة ومنهزم. أغمضتُ عينيّ وتخيّلتُها. تذكرتُ رسائلها في الأيام الأخيرة قبل مقتل فاني. فالمرأة التي تقاسمتُ معها لحظات قوية من السعادة والحميمية الجسدية، كشفتْ لي من خلال رسائلها عن إنسانة غريبة وطائشة. أي مشاهد كانت تدور في مخيلتها؟ أن تترك البيت الذي شعرتْ فيه بالأمان لمدة ست سنوات ربما قد يُحيي في نفسها جرح هجران والدها ورفض جدها، بارون ديبورتْ، الذي لم يقدم لها قط أي دعم ورفض دائما أن يعترف بقرابتها من عائلته. لا شك أن طفولة هانْرييتْ كانت تنطوي على عدة مفاتيح لفهم تصرفاتها. لقد اقتنعتْ بأنها ستعوضُ فاني. بدأتُ أخاف منها. لم أكن مخطئا تماما عندما فكرتُ أنها قادرة على القيام بأي شيء.

على قطعة ورق كنتُ أحمل العنوان الذي استطاعت فاطمة، شقيقة إبراهيم، بذكائها الحاد والثاقب، أن تحصل عليه في بيت آل ريمي، حيث كانت تقيم هانْرييتْ. رغم رغبتي في مقابلتها، لم أكن مستعدا لذلك اللقاء. كنت أشعر أنني منهك، وجسدي مفكك.

عاد إبراهيم بعد وقت قصير، فطلبت منه أن يحضّر لي حماما بالماء الساخن حتى تسترخي عضلاتي. في اليوم الموالي، سوف تشرق الشمس ثانية وكل ما كان علي أن أقوم به سوف يُنجزُ.

الفصل الثالث والعشرون

ـ صباح الخير، موسْيو ـ رفع إبراهيم ستائر غرفتي حوالى التاسعة صباحا ـ الجو رائع اليوم. نهضتُ باكرا وجلبت لك الجرائد. «نيويورك هيرالد» و «نيويورك تايمز». هل تريد أطلب منهم أن يأتوك بالفطور إلى الغرفة؟

ـ شكرا، إبراهيم ـ قلتُ وأنا أنهض لأطل من النافذة. كان المنظر من غرفة الفندق رائعا جدا. كانت تطل على زقاق جانبي، لكن السماء كانت صافية والجو يبدو أنه يرفع سرعة خطى المارة وإيقاع سيرهم: منظر قبعات وبرنيطات، وسيدات رفقة صغارهن بتصفيفات شعر جميلة. آه! كان يوما جميلا ليشعر المرء أنه عادي ولا يخشى شيئا من أحد. سرّيةُ مدينة كبيرة في الجهة الأخرى من المحيط وكان لها طعم الانبعاث بالنسبة لي.

ـ موسْيو، لم تقل لي أي شيء بشأن وجبة الفطور ...

ـ سأنزل إلى قاعة الأكل. أظن أنهم لا يستقبلون الرجال إلا خلال النهار. هؤلاء المتزمتون الأوروبيون. لقد أخطرني بذلك البواب ليلة أمس. ولا يقبلون النساء إلا إذا كُنّ مرفقات.

ـ لكن ...

ـ دعنا من هذا، يا إبراهيم.

وضعتُ النظارتين بإطارهما الأسود الكبير. نزلتُ لأتناول وجبة الفطور في صالة الفندق الفاخرة. طلبتُ بيضا، وقهوة وخبزا صغيرا. أحضروا لي أيضا عصير برتقال كثيف عصروه للتو فكاد يُخرجُ دموعي من عينيّ. كنتُ دائما أظن أن عصير البرتقال على هذا النحو من الطراوة ضربٌ من طعام الآلهة. لم تكن قاعة الأكل مليئة بالناس. رجال لوحدهم مثلي، مستغرقين في قراءة الجرائد، يرتدون ملابس ذات تفصيل رائع، يشغلون عدة موائد، بين مائدة أو مائدتين تضمان شخصيات مهمة تتحدث على ما يبدو في أمور مالية. الستائرُ الثقيلة، الموائد المستديرة التي وُضعت فوقها بعناية أواني نُقشت عليها حروف الفندق، لوازم المائدة الفضية، الخدمُ الذي يرتدون بذلات أنيقة والضوء القادم من النوافذ، كل ذلك أعاد لي إحساسا بالرفاهية كنت قد فقدته. استرخيتُ وتهيأت للاستمتاع بالفطور، مع الكرواسان الطازج والقهوة التي يتصاعد بخارها الدافئ وتفوح رائحتها القوية.

كانت الجريدة تعرض مقالا مطولا عن تدشين مقر «الجمعية الأمريكية للجغرافيا»، وقد أثارني كثيرا لأن إليها ينتمي المستكشف والسفير سْكييرْ، الذي كنتُ مهتما بمغامراته. وجوهُ الشخصيات، لحاهُم وشعرهُم الطويل، نظاراتهم المستديرة، وخصوصا هيئاتهم النبيلة والمحترمة، أثاروا إعجابي بشكل رائع. كما قرأتُ أخبار الصناعة، مثل تدشين معمل «سانْجير» لإنتاج آلات الخياطة ومقابلة مع السيد ستينواي، صانع آلات البيانو، الذي كان يعد بصنع قطع ذات جودة عالية. وقد ألهاني عن القراءة ارتفاع نبرة الكلام في المائدة المجاورة حيث كان يتحدث سبعة أشخاص يرتدون ملابس أنيقة. وكان الحديث يتمحور حول رجل ذي طلعة بهية، فارع الطول، له أنف طويلة، ووجنتان بارزتان، وشعر كثيف أشهب وعينان صافيتان غائرتان، يصعب تحدي لونهما، يحفهما حاجبان قويان. كان جلدُه ملفوحا بحرّ الشمس. ربما يكون بحارا لأنهم ينادونه «العميد البحري». «العميد البحري فاندربيلتْ» ـ كان يقول أحدهم ـ «إنك تتحدث عن مغامرة محفوفة بالمخاطر». بحركة من يده رفض هذه الحجة. حين تكلم، بعد تحذيرات مختلفة من عدة أشخاص آخرين، تردد صدى صوته في قاعة الأكل.

ـ خطوة تقلص المسافة بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي؛ تُجنّب رحلة طويلة ومجازفة إلى باتاغونْيا وعبور مضيق ماجلاّن؛ وتُجنّب المرور عبر مستنقعات باناما؟ كما قال أحد ملوك فرنسا: باريس تستحق فعلا أن نقيم قداسا.

لم أتمالك نفسي، ومن مائدتي قلتُ:

ـ *Paris vaut bien une messe*. قالها هنري دو نافار، عندما وجد نفسه مجبرا على اعتناق الكاثوليكية كي يعتلي عرش فرنسا.

فاستدارت لتراني سبعة أزواج من العيون.

ـ هلا تفضلت يا رجل لترافقنا وتعطينا رأيك ـ صاح العميد البحري، وهو يرفع يده ليشير لي أن دعوته لا تقبل النقاش.

نادما، لكن متحمسا في الوقت ذاته، دنوت منهم. صافحوني واحدا واحدا، وشدّوا على يدي (يد جورْج ديمولانْ): بانْكروفْت، جورْج فولْسوم، هنري غرينيل، هنري فارنوم بّور، هيرام باروني وألكسندر إسحاق. تعرفتهم جميعا. كانوا هم أعضاء «الجمعية الأمريكية للجغرافيا» التي رأيتها للتو في الجريدة.

أنا العميد البحري كورنيليوس فانْديربيلْتْ، تشرفت بمعرفتك ـ قال وهو يشدّ على يدي بحرارة.

ـ *My pleasure* ـ قلتُ بإنجليزيتي البريطانية.

ـ لندخل في صلب الموضوع. لن نلهيك كثيرا ـ تابع فانْديربيلْتْ قائلا ـ لا شك أنك تعرف خبر اكتشاف مناجم ذهب كبيرة في كاليفورنيا. لقد عرفت حركةُ السفن ونقل الركاب من هذا الساحل إلى ذلك ارتفاعا ملحوظا في الشهور الأخيرة ـ ثم قام بحركة مشيرا لي أن أقترب من الخريطة التي كان يبسطها فوق المائدة ـ انظر يا سيدي: حاليا يتعين على من يريد أن يركب مغامرة هذه الرحلة أن يبحر من نيويورك نحو نيوأورليان ومن هناك يركب سفينة أخرى، يعبر بحار أمريكا الجنوبية، يقطع مضيف ماجلاّن ـ أبغض مكان فوق الأرض، لأن هناك يلتقي المحيطان وتصبح الملاحة خطيرة فعلا ـ ليقوم بعد ذلك، إن استطاعت السفينة أن تقاوم تلاطم أمواجٍ أعلى من سقف هذا الفندق، بقطع الطريق المعاكسة، ثم يصعد من رأس هورن حتى سان فرانسيكو في كاليفورنيا. ـ ثم ختم شرحهُ بأن وضع سبابته فوق الميناء المنشود. رفع عينيه الخضراوين الداكنتين فصارت نظرته ماكرة مسلية. ـ لكن، على العكس من ذلك، انظر لترى ما يرفض هؤلاء الجغرافيون العنيدون رؤيته. تابعْني جيدا على هذه الخريطة ـ ثم وضع فوق الخريطة الأولى خريطة كبيرة تمثل أمريكا الوسطى ـ ، هل ترى هذ الحزام الضيق الذي يربط ين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية؟ إنها أمريكا الوسطى ـ ثم وضع سبابته على بلد صغير في وسطها ـ في هذا البلد، الذي يسمى نيكاراغوا، والذي لا شك أنك لم تسمع به من قبل، هناك نهر كثير المياه هو نهر سانْ خْوانْ، الذي يأتي من المحيط الأطلسي ويصب في هذه البحيرة الكبيرة. انظر جيدا: هل ترى هذا الشريط الضيق من الأرض؟ إذا رست السفن في ميناء البحيرة، لا يبقى سوى قطع خمسة وعشرين كيلومتر! خمسة وعشرين كيلومتر فقط على متن عربات للوصول إلى السفينة التي تنتظر في المحيط الهادي!

ـ هذه إمكانية رائعة ـ قلتُ ـ ما هو المشكل أمام هذه البديل الأفضل؟

ـ المَلارْيا ـ قال جورْج بانْكروفْت.

ـ وباناما أسوأ من ذلك بكثير ـ قال فانْديربيلْتْ.

ـ منحدرات سريعة داخل النهر ـ قال فارْنوم بُّور.

ـ جُزيئات! ـ صاح العميد البحري، وهو يقف واضعا نهاية لتلك الجلسة. ـ سوف أدعوكم لرحلتي الأولى. وأنت، يا صديقي، أعتذر عن اقتحامي لفطورك. لو عندك قطعة ورق، دعني أسجل لك عنواني. ربما انضممت أنت أيضا إلى رحلتنا الأولى ـ قال مبتسما.

ثم كتب لي العميد البحري كورنيليوسْ فانديرْبيلْت عنوانه على قطعة ورقية اقتطعتُها من الجريدة، ثم احتفظتُ بها في جيبي دون أن أعيرها اهتماما كبيرا. لم أتصور قط أن ذلك اليوم سيكون بداية أكبر مغامرة في حياتي. بل بدت لي مثيرة قلةُ فضول أعضاء الجمعية. لم يلاحظ أحد منهم لكنتي الفرنسية، ولم يسألني أحدهم عما أقوم به هناك. ودّعوني بكل أدب وتركوني دون أن يعلموا، فيما تخبئه الحياة من مصادفات، أنني أنا بدوري قد قرأت أشياء عن نيكارغوا.

الفصل الرابع والعشرون

كانت الورقة التي كُتب عليها عنوان هانْريييتْ تشير إلى رقم ٢٤ من شارع مايْدين لينْ، عند زاوية ساحة ليبيرتي بْليس، وهما شارعان محاذيان لكنيسة «الثالوث الأقدس»، التي لمحنا بُرجها من سطح السفينة عند وصولنا إلى الميناء. تأكدتُ من خلال خريطة صغيرة رسمها لي بواب مكتب الاستقبال في الفندق أنه يمكنني بلوغ وجهتي مشيا على الأقدام. كان يوما مناسبا للمشي، وإمكانية رؤية عشيقتي مرة أخرى لم يكن شيئا يعجبني. لكن، ما إن وضعتُ قدمي في الشارع حتى انغرست الفكرة في قُصّي، وأثارت في نفسي إحساسا بالاختناق ناتج عن استباق حدث مزعج. تساءلتُ إن كان لما قررتُ أن أقوم به أي معنى. ظننتُ أنه كان انتقاما ضروريا قد يساعدني لعلاج كوابيسي ووخز ضميري الذي لا يتوقف. لكن ذلك اليوم الجميل كان يحتمل استعمالات أخرى كثيرة أحسن من هذا الاستعمال. كان «برودواي» حقا شارعا عريضا. بنايةُ البريد، التي رأيتها وأنا أغادر فندق أستور هاوس، الذي كان في زاوية التقاء عدة شوارع، ذكّرتني بباريس. هندستُه بقبة مغطاة بصفائح الأردواز الرمادية والنافذة العالية في الوسط، كانت تحمل تأثيرا فرنسيا من دون شك. وعكس مدينتي، كانت نيويورك مزيجا من عدة أساليب، بحيث كانت مقاطع من الشارع محفوفة ببنايات متشابهة من ثلاثة، أربعة، بل وحتى ستة طوابق، بينما كانت بنايات أخرى عبارة عن صناديق بسيطة، ربما يزينها إفريزٌ جميل، في حين تُستعملُ الطوابق الأرضية محلات تجارية صغيرة، أو محلات لإصلاح الأحذية، كما تباع هناك قبعات، ومعاطف، وملابس، ومصنوعات حديدية، وساعات، وملابس نساء؛ مجموعة واسعة من الخدمات العديدة والمتنوعة. كان شيئا غريبا بالنسبة لشخص مثلي، اعتاد على مدن مثل باريس ولندن، أن يشعر بمتعة المشي في الشارع، محاطا بعدد هائل من الغرباء. ذلك لأن أجواء نيويورك، وروح المدينة، كانت مختلفة تماما عمّا عرفتُه من قبل. كانت حيوية روح المدينة هي حيويةُ مكان يحتدم بصُهارة الابتكار الشخصي. كان ذلك يتردد بداخلي، ويجعلني أشعر أنني شخص بين الآخرين، شخص آخر يبحث عن مكان ينسى فيه المصير المحدد بالمهد، بقرارات الغير أو بالذنوب، يسعى إلى الحياة التي اختارها ونحتها لنفسه. كانت رائحة العالم الجديد تُشتم من لباس الناس، من طريقة توقفهم عند الحانات أو المقاهي. رجال ونساء مجتمعون، يتحدثون عند أبواب المحلات، يتجولون مع كلابهم، يحملون إعلانات علقت فوق ظهورهم لعرض سلع مستعملة، يتمازحون، يبيعون الأزهار أو الحلويات عند زوايا الشوارع. وكان أكثرهم تواضعا يرتدون بذلات عمل من نسيج خشن وهم ينظرون إلى موظفي المكاتب يمرون وهم يتكلمون بطلاقة ويرتدون بذلات بربطات عنق صغيرة، وإلى النساء المعتدات بأنفسهن وهن يتبادلن الحديث مع فتيات يغطين رؤوسهن ويرتدين المريلات. *Liberté, égalité, fraternité*، حرية، مساواة، أخوة، فكرتُ. لقد تجاوزت الفيدرالية الأمريكية الثورة الفرنسية. كان دستورها وثيقة نموذجية، تردد صدى مبادئها في الخطابات الملتهبة لدانْتون، وروبيسبْيير وكاميي ديمولانْ، سنة ١٧٨٩. وعكس المواطنين في بلدي، لم يتراجع الأمريكيون إلى الوراء. كانوا مازالوا ينظمون أنفسهم وفق نفس القيم والمؤسسات التي ورثوها عن مؤسسي الاتحاد. أما نحن فقد انتقلنا من الثورة إلى «الرعب»، إلى نابليون، والإمبراطورية، والمَلَكيّات، واستمر نفس الأمر مع نابليون الثالث. لم نكن قد تمكنا بعد من العيش وفق وعود مارْيان، فتاةُ القبعة الفريجية، التي قُطعت رؤوس العديد من الناس أمام وجهها الجميل. كانت الثورة فشلا تردد صداه في أبعد الأقاصي. وكان جديرا بالتفكير في الملكية، والسلطة المتوارثة، إن لم تكن ربما هي أحسن الأنظمة، مادام الكثيرون من عامة الشعب يطمحون إلى تقليدها. كان الملوك، وفق سلالة توارثهم العائلية، يخففون عن المواطنين عبء قرارات لم يكونوا مؤهلين لاتخاذها. لكن، هنا في أمريكا، ربما تكون تجربة حكم أشخاص عاديين لأشخاص عاديين نتيجة جيدة وتشكل نموذجا يحتذى به. كانت مدهشة، بالطبع، تلك الحيوية التي تسود في الشوارع. كانت المساواة وهْماً، بطبيعة الحال. رأيتُ في طريقي بعض السكارى يتّقون حرّ الشمس عند عتبات بعض البنايات المنهارة. فالفقر لن يختفي أبدا، لأن الفكر البشري لا يتجاوز الصعوبات بنفس الطريقة وهناك من لا يستطيعون أبدا تجاوز ماضيهم البئيس. تساءلتُ إن كان

إبراهيم قد عثر على كاسيدي وأسرتها. تركتُه قلقا في الفندق ولم أجد صعوبة في إقناعه باتباع طريقتي والخروج إلى الشارع. بدا مسرورا عندما اقترحتُ عليه ذلك. طبعا، لن يكن أمرا هينا أن يجد إيرلنديين وصلوا لتوهم وانطلقوا مختلطين بالحشود، لكن نيويورك لم تكن هي باريس. فكما التقيتُ أنا بالصدفة الأشخاص الذين كانوا يظهرون في الجريدة هذا الصباح، وهم يتحادثون بالقرب مني في قاعة الأكل بالفندق، ما الذي يمنع إبراهيم من العثور صدفة على صديقته في أحد الشوارع القريبة من الميناء؟

وفي أقل من الوقت الذي خمنته وصلتُ إلى كنيسة «الثالوث المقدس». كان الشارع الذي تسكن فيه هانْرييتْ على بعد كُتلتين أو ثلاث كُتل من البيوت. زجّ بي اندفاع مؤخّر إلى داخل المعبد. كان المكان مظلما وباردا بضع درجات عن الشارع. لم تكن هندسته المعمارية ترقى إلى صوفيّة كنسية نوتردام ولا إلى سمُوّها، لكنه كان يقلد عقودها الغوطية على جانبي الصحن الأوسط. كان المذبح يشبه مذابح الكنائس الكاثوليكية، لكن من دون صلبان، فقط زجاج مزخرف خلف المذبح الأكبر. وبداخله، وجد الصمت لنفسه ملجأ. كان الصمت هو أكبر مقيم في هذا الفضاء الذي يفوح برائحة البخور وتصطف فيه المقاعد الخشبية يمينا ويسارا. كانت امرأة، ترتدي ملابس داكنة وقبعة باهتة، ورجل أصلع يجلسان في الصفوف الأمامية هما رواد الكنيسة الوحيدين في تلك الساعة. جلستُ بدوري. وافقني ذلك الهدوء بعد جلبة الشوارع. ورغم كل الشرود والملاحظات التي ألهتني خلال جولتي، يجب أن أعترف أن إحساسا بضيق التنفس والخوف من مواجهة هانْرييتْ مرة أخرى لم يبرحني. أغمضت عينيّ وتنفستُ بعمق. ما الذي كنتُ أنتظره من تلك المرأة؟ ربما تبرئتي؟ أن نقتسم الذنب بيننا؟ اعترافها، بغض النظر عما تعترف به؟ هل أستطيع أن أمحو تلك الليلة الحالكة من ذاكرتي؟ هل تخفف عني رائحتها، التي طالما طاردتُها، تلك الرائحة الأخرى، رائحة دم زوجتي؟

وأنا أغادر الكنيسة، أبهر عينيَّ جلاءُ ذلك النهار في يوم مشمس تماما. كانت ريح منعشة تجري عبر الشوارع. كنتُ غير قادر على أن أتلكأ في إنجاز الأمر. ربما تكون قوة وحدتي الذاتية ما يدفعني نحو هانْرييتْ. ومع ذلك، كان اندفاعي يخبو، وأنا أفكر إن لم يكن من الأفضل أن أتموقع بالقرب من بيتها، وألاحظ حركاتها، بل أتركها لتراني من بعيد، وأجرب إن كان تتعرّفني، أخيفُها بعض الشيء، أجعلُها تظن أنها ترى أشياء خارقة. أعترف أن الفكرة خلقت لي ما يشبه متعة شاذة. كنتُ أتسلى بإثارة مخاوفها. كان ذلك يذكرني بالذعر الطفولي من الأشخاص المبعوثين من الموت الذي طالما كان يتسلى به الكبار. فكرتُ أنه، في النهاية، لو أنها فطنتْ لأمري، قد تشعر بالارتياح أكثر من الدهشة وهي تتحقق من أن حضوري لم يكن شبحيا.

جلستُ في صحن درج عند إحدى السلاليم في رقم ٢٤ من شارع مايدين لينْ، في بناية عادية مثل عدة بنايات أخرى كثيرة، تتألف من أربعة طوابق، ويعلوها إفريز من الأسلوب الكلاسيكي الجديد يتكرر في إطارات النوافذ أيضا. حسب ما كنتُ أتوفر عليه من معلومات، كانت هانْرييتْ تقطن في الشقة رقم 3A. ومن تلك المسافة، لم يكن يظهر الفرق بين طابق وآخر. ومن صحن الدرج، حيث مكثتُ ساعة تقريبا، انتقلتُ لأمشي فوق الرصيف من أعلى إلى أسفل عدة مرات. بعد مرور ساعة ثانية، استنتجتُ أنني لا أملك فكر من يُلاحِق الآخرين، ولا صبرَ أوغوست دوبان، ذلك المحقق كثير الملاحظة الذي ابتكره إدغار آلان بّو.

عدتُ إلى برودواي، دخلت إلى حانة، وطلبت جعة. كان منتصف النهار تقريبا، فقررت أن أنفذ مباشرة ما خططت له.

كان الباب المصنوع من الخشب والزجاج المُلمّع موارِبا في رقم ٢٤ من شارع مايدين لينْ. صعدتُ وأنا أحاول ألاّ أحدث ضجيجا فأدركتُ الطابق الثاني ثم وصلت إلى الطابق الثالث. شقة رقم 3A. كانت نبضات قلبي تمنعني من سماع أي شيء آخر. وقفتُ أمام الباب لأحاول إسكاتها وأجبر تنفُّسي على الهدوء. كان علي أن أكون متحكما في ذاتي تحكما مطلقا عندما يُفتح ذلك الباب. أي شيء يمكن أن يحدث للمرأة التي تلتقي صدفة بميت حيّ مثلي. في إحدى الشقق كانت تُسمع نغمات

مترددة تنبعث من آلة البيانو. أخذتُ نفسا عميقا، أغمضتُ عينيّ، خلعتُ القبعة، انتظرتُ أن تتجاوز أنفاسي تعب الصعود عبر السلاليم. بعد ذلك طرقتُ الباب. ثلاث ضربات، حازمة، قوية. سمعتُ الخطوات. فُتح الباب. نظرت إليّ هانْرييتْ بعينيْن متفحّصتيْن دون أن تتعرّفني.

ـ من تكون؟ فيما أستطيع خدمتك؟

خفضتُ رأسي. تظاهرت بأنني أبحث عن ظرف في معطفي. خلعت النظارتين والبرنيطة ثم نظرتُ إليها محدقا في عينيها هذه المرة.

ـ *Bonjour*، هانْرييتْ.

التقت عيناي بعينيْها. اختنقتْ من الدهشة. حملتْ يديها إلى فمها ثم صفقت الباب. تخيّلتُها في الجهة الأخرى، تسند ظهرها إلى الباب. عبر الخشب، كنتُ أستطيع أن أشعر بتنفسها المضطرب. كانت تمتمتم عبارات تعجب غامضة. قرّبتُ وجهي من السّاكف فوق مقبض الباب والقفل، ثم همستُ:

ـ هانْرييتْ، دعيني أدخل.

ـ لاااااااااا. لا.لا.لا. لا يمكن ـ قالت متعجبة وهي بالكاد تحبس صياحها. سمعتُها تلهث.

ـ لقد جئتُ من بعيد جدا ـ تابعتُ ـ أنا بحاجة لأتحدث معك. سأشرح لك كل شيء.

ـ أنا لا أعرف من تكون أنت، يا سيدي. اذهب من فضلك ـ قالت.

ـ إنك تعرفين جيدا من أنا، رغم أنك لم تفكري يوما في رؤيتي مرة أخرى.

ـ أنت شخص محتال. شارْل مات منذ زمان. لا أدري ما هي لعبتك، لكن اذهب من فضلك.

ثم حل نفاذُ الصبر مكان الخوف والقلق. إنني لم أصل إلى هناك كي تصفق الباب في وجهي. قرعتُ الباب ثلاث طرقات أخرى. طرقات مُلحّة.

ـ *Alors, ouvre*، افتحي، إذن ـ كرّرتُ ـ علينا أن نتكلم. لن أتحرك من هنا حتى تسمحي لي بالدخول.

مرّ عليّ الوقتُ طويلا. كررت الأمر نفسه وأنا مستعد لألاّ أذهب.

سمعتُ خطواتها تتحرك عبر الشقة. هل تكون رفقة أحد ما؟ كان ذلك احتمالا لم أضعه في الحسبان، لكني لم أسمع أصواتا، فقط خطواتها تذرع الشقة جيئة وذهابا. قرعتُ الباب ثانية بقوة ثلاث مرات.

في الأخير، استسلمت هانْرييتْ. ساد صمتٌ، اقتربتْ، وفتحت الباب هذه المرة بتثاقل كبير. امتلأتُ بالهواء كأنني حيوان على وشك أن ينقض على فريسته. عبرتُ ساكف الباب بقفزة واحدة، دون تردد وبحنق، يدفعني العزم على ألا أقبل بأن يُصفق الباب في وجهي مرة أخرى.

هي، ظهرُها مسند إلى الجدار، كانت تبدو هلعة في الرواق الضيق. تركتُها تقف هناك. دخلتُ حتى بلغت عمق الشقة الصغيرة، ووصلت إلى قاعة بسيطة بها نافذة كبيرة ترى من خلالها قمة البرج التي تتوج كنيسة «الثالوث المقدس». وقرب القاعة كان هاك مطبخ صغير جدا. ومن باب مفتوح رأيتُ السرير المعدّ والغرفة المرتبة بعناية فائقة. فتشتُ المكان الذي كانت تعيش فيه. كانت تلك هي طريقتي كي أهدئ من روعي. كان مكانا متقشفا، به كتب كثيرة. قرب المطبخ، رأيتُ مائدة

مع كرسيّيْن، ومزهرية صغيرة بها زهرة أقحوان صفراء وحيدة، كانت قد صارت حزينة، وسقطت العديد من بتلاتها فوق المائدة. وعلى الحائط، عُلقتْ رسوم تمثل مدينة باريس، من بينها رسم يصور قصر اللكسمبورغ.

ـ ليس هناك ما تخشينه ـ قلتُ بعد هذا الفحص الدقيق ـ أنا لستُ شبحا.

ـ لم أظن أنك شبح. لم أكن أعرف ما أصدق ـ قالت بحزم، وهي تتجاوز فزعها. تركتْ مكانها قرب الحائط. تكاد تكون ملموسة عودةُ ذلك التحكم الذي كانت تمارسه على ذاتها.

ـ لا أحد قد يُصدق ذلك، قلتُ مبتسما ـ أنت شاحبة جدا.

ـ هذا أمر عابر سأتجاوزه. رأيتُك محتضرا ـ قالت بصوت متردد مرة أخرى ـ وظلت تلك الصورة عالقة بشبكة عيني.

ـ هل أرّقتك تلك الأسابيع الثلاثة التي قضيتها في سجن لاكونسييرجوري؟ ـ لم أكن أريد أن أبدو متهكما، لكني لم أتمكن من تحاشي ذلك ـ لكن ربما شعرْتِ بشيء من الارتياح. أليس كذلك؟

نظرتْ إلي بحقد. تركتْ نفسها تسقط فوق أحد الكراسي الكبيرة في الصالة. كراسي مغطاة بنسيج من القطن المزين برسوم أزهار صفراء وزرقاء.

ـ كانت الإشاعات صحيحة إذن ـ قالت كأنما تحدث ذاتها وهي تواصل التفاتتها نحوي ـ كان يُقالُ إن انتحارك لم يكن انتحارا حقيقيا، وإن الملك قد ساعدك لتهرب. لكني رأيتُكَ ولم أصدق الأمر.

ـ لم تكن كمية الزّرنيخ التي تناولتُها كافية لتقتلني ـ قلتُ، وجلست إلى المائدة الصغيرة قرب المطبخ ـ الزّرنيخ إن لم يقتل المرء في غضون ستة أيام، يمكن أن يبقى على قيد الحياة. الملكُ وآخرون لم يكونوا يرغبون في تلك المحاكمة. جعلوني أختفي عندما ظنوا أنني لن أموت. ملأوا تابوتي بالحجارة. وقد أنقذني بعض البدو الرحل بفضل ما يستعملونه من مشروبات علاجية وأبخرة، لكن أن يستمر المرء على قيد الحياة بعد أن يموت ليست سوى طريقة أخرى من طرق الموت. فقدت كل شيء: أبنائي، قصر فو-بْرالانْ، شرفي، وضعيتي، مستقبلي، واسمي. ـ نهضتُ، بدأت أتمشى أمامها، مضطربا ـ أعرف أنك أقْنعْتِ باسكييه، وكوزان، وكونت سان أولير ببراءتك. ودعاكِ كوزان «الشريرة الساحرة»، أما هوغو فقال إنك اكتسبت سحرك مقابل قلبك. وأوقعتِ فيلدينغ في غرامِك. وها أنت الآن في نيويورك، في حمايته، هو الذي ستتزوجينه، من الأكيد، وستعيشين معه حياة شريفة. أنت لا تخسرين أبدا، يا هانْرييتْ. عرفت كيف تدافعين عن نفسك في الحياة، بأي ثمن ـ ثم حدجتُها بنظرة متهكمة.

نظرتْ إلي. كانت هانْرييتْ تبدو على أحسن حال، أكثر نحافة، بوجه مستطيل، وعينين غائرتين بعض الشيء، لكنهما دائما جميلتين. فمها المقوس، الرائع الشهواني. كانت ترتدي فستانا أزرق فاتح، بسيطا، لكنه يكشف عن خصرها الدقيق ومن تقويرته يبرز نهداها المدوران.

ـ لماذا أتيت؟ ـ سألتْني، وهي تنظر إليّ مليا بشيء من الخنوع ـ لقد تركتُ فرنسا ورائي ولا أريد أن أعود. هنا يمكنني أن أنسى كل ذلك. لا أعرف بعد، ولكن من المحتمل أن أتزوج هانْري. إنه صديقي غير المشروط. سوف أحبه إن اتخذني زوجة له.

ـ هل تظنين أننا سنتمكن من النسيان يا هانْرييتْ؟ إن رائحة الدم توقظني من النوم ليلا. أشمها في الوقت الذي لا أنتظر ذلك. تمتزج بروائح المدينة، والبحر، كما لو أنها استقرت في أغشية أنفي المخاطية.

غطّت فمها بيدها لحظة في حركة اشمئزاز.

ـ دعنا لا نتحدث عن هذا الأمر، أرجوك.

ـ إنني لا أتحدث فيه مع أي أحد آخر ـ قلتُ ـ أنت الشخص الوحيد الذي يفهم ما أقول، وأحيانا أودُّ لو أقوله لأي أحد آخر. إنه يجثم ثقيلا على ضميري. أرى الصور، آثار الأيادي الدامية فوق سجاد الجدران. أسمعها، يا هانْرييتْ. فهل استطعت أنت أن تنتزعيه من ذاكرتك؟

ـ لا تقل أكثر من هذا. لا تقل أكثر من هذا. أرجوك ـ نهضتْ من دون وجهة محددة، ثم ذهبتْ إلى المطبخ ـ هل تريدُني أن أضع الغلاية فوق النار؟ هل تريد شايا؟ سوف أحضر لنفسي كأسا، إن لم يكن لديك أي مانع.

ـ حسنا. لنتناول شايا. لنشرب شايا، كما كنا نفعل يوم كنا حُرّين طليقيْن.

بدأت هانْرييتْ تحرك الأواني في المطبخ. نهضتُ. استندتُ إلى الأثاث الخشبي الخشن الذي يفصل المطبخ عن الصالة.

ـ لم نكن حرّيْن قط ـ قالت دون أن تنظر إلي ـ هي لم تكن تسمح بذلك، لا حيّة ولا ميّتة.

ـ هل تعرفين شيئا عن أبنائي؟ هل لديك من أخبار عن غاستون، لويزْ، وريناردْ؟

ـ لقد أصبح غاستون اليوم دوق شْوازولْ دو بْرالانْ. كلهم يعيشون مع الماريشال سيباستياني في نفس المنزل: شارع فوبورغ سانت هونوري، رقم ٥١. منعوهم من الكتابة إلي. يُمزّقون ما أبعثُ لهم من رسائل. حسنا، تلك التي بعثتها لهم يوم أصبحوا يتامى. أظن أن لويزْ قد تزوجت.

ـ أعرف ذلك.

أعلنت الغلاية أن الماء بدأ بغلي. وضعت هانْرييتْ الكؤوس، والسكر والحليب في صينية. جلسنا من جديد. قدمتْ لي الشاي. كان شعرها قد تشعّث بعض الشيء. ومن العقيصة المحلولة فوق رأسها كانت تنزل بعض خصلات الشعر الكبيرة على وجهها. رأيتُها تحمل الكأس إلى فمها. تذكرتُ.

ـ هناك سبب واحد جئتُ لأراك من أجله ـ قلتُ وأنا أسمّر عينيّ في عينيها ـ أريد أن أعرف ما الذي حدث تلك الليلة. أنا بحاجة لمعرفة هذا الأمر. بعد ذلك، يمكنك أن تنسيني، يمكنك أن تنسي ذلك إن استطعت، لكنك تدينين لي بها التفسير. لن ألحق بك ضررا. أنا ميّتٌ والأمواتُ لا يتكلمون.

بدتْ كأنها تختنق. جحظت عيناها الزرقاوان. أحّتْ. أحّتْ. أحّتْ. نهضتُ وقدمتُ لها ماء من المطبخ. كانت الدموع في عينيها. طفقتْ تبكي.

ـ لا أستطيع يا شارْل، لا أستطيع؛ لا أدري كيف أشرح لك ذلك. أنا وحش فظيع. أظن أنني جُننتُ ـ أنَّتْ.

تذكرتُ ما أصابني من قلق وخيبة جراء مسرحيات هانْرييتْ. كانت ممثلة رديئة. لم تكن قادرة حتى على أن تجعل تمثيلياتها مُقْنعة.

ـ لنبدأ من البداية ـ تابعتُ، وأنا أتجاهل أنينها كيف تمكّنْتِ من الدخول إلى غرفة فاني؟ كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا.

ـ لا تجبرني، من فضلك، أرجوك ـ اقتربتْ وجثتْ على ركبتيها عند قدميَّ، باكيةً.

ابتعدتُ عنها. وقفتُ. شعرتُ بدغدغة في يديّ، وخلف جمجمتي. لم أكن أريد أن أغضب. قد أقوّض كل شيء. عدتُ إلى جانبها. وعانقتُها.

ـ هيا، هيا، يا هانْرييتْ، إنك لست طفلة صغيرة. أفهم جيدا ما معنى أن أطلب منك أن تتذكري كابوسا، لكن عليك أن تقومي بذلك. لو أنك أحببتني يوما، يجب أن تقومي بذلك. لن أتعلم كيف أكون شخصا آخر إن لم أوضح لنفسي ما حدث تلك الليلة.

آه! هانْرييتْ، غير المتوقعة تماما. من لحظة إلى أخرى، تغيرت. كفكفتْ دموعها، ونهضتْ. جلستْ على الكرسي المقابل لي. وضعتْ يديها فوق حجرها. نظرتْ إلي.

ـ لم أكن أظن أن الأمور ستحدث بالطريقة التي حدثت بها. تعرف أنني أصبتُ باليأس بعد أن قامت فاني والماريشال سيباستياني بطردي. فقدت الأمل في المستقبل. جننتُ بعض الشيء. كنتُ أظن أنك ستستاندني. أعترف بذلك. كرهتُها. فاني أزاحتني من مكاني قرب الطفلتين ورينارڈ. كانت تستغل غاستون وهوراس. أقسم لك. لقد وجدتْها لويز نائمة في سرير غاستون، تجبره على أن يدخل يده تحت صدريتها. كانت مجنونة، يا شارْل، وأنت كنت تعرف ذلك كما كنت أعرفه أنا! وإلا، لماذا كنت تمنعها من أن تختلي بالأطفال؟

ـ كنتُ أعرف ذلك ـ اعترفتُ ـ لكن، تابعي.

ظهيرة يوم ١٧ من آب، عندما رجعتُم من فو-بْرالانْ، كان من المعلوم أنكم ستذهبون إلى الشاطئ في اليوم التالي، وأن الخدم سينسحبون باكرا تلك الليلة. بواسطة المفتاح الذي احتفظتُ به، دخلت إلى البيت لأرى الطفلتيْن، وأودعهما دون أن يراني أحد. انتظرتُ أن تُطفأ المصابيح. اختبأتُ في مستودع الملابس البيضاء. كانت مشاعري مرهقة. لم أنم منذ عدة ليالي. أن أكون مرة أخرى في البيت، وأشم رائحة الملاءات المعتادة، وأفكر أنني سأري طفلتيّ ـ لم يكن يهم أن أراهما نائمتين فقط ـ كل ذلك جعلني أنام. بقيت نائمة. حوالي الثالثة والنصف، استيقظتُ مذعورة، وسمعتُ جاكْ يخرج. دخلتُ إلى غرفة الصغيرتين. رأيتُهما. لستُ أدري ما حدث لي. لستُ أدري ما حدث لي ـ وبكتْ مرة أخرى ـ . بدتْ لي وضعيتي ظالمة جدا، عبثية جدا، وضعيةُ الطفلتيْن ووضعيتُك أيضا. لماذا لم يكن بوسعنا أن نكون سعداء؟ كان بإمكاني أن أكون الأم التي لم تنعم بها الطفلتان، والمرأة التي تحبك كما تستحق. وعكس ذلك، كنا جميعا نتخبط في شراك قاني، وضحايا تآمرها مع والدها الذي كان يهدد بتدميرك، وتدميرنا. على علبة لوازم الخياطة التي تملكها لويز، سطعَ ضوءُ القمر فأضاء المقص الطّليطلي الذي جلبه لها عمها إدغار من إسبانيا. أخذتُه. كنتُ أعرف أنه مقص حاد. أنا شخصيا استعملتُه مرة. لستُ أدري ما الذي استحوذ عليّ. كان الحارس قد خرج ليكنس. لن يراني أحد أمر في البيت، ولن يعلم أحد أنني أدخل غرفة فاني.

ظلت هانْرييتْ صامتة. مطأطئة الرأس ويديْها فوق حجرها، كانت تبدو دمية من قماش، انتُزعتْ عظامُها، فظيعة. ومن النافذة كانت الشمس تغيب وهي تضيء الظهيرة.

ـ لماذا تريدني أن أتابع كلامي؟ ـ سألتْني فجأة كأنها تخرج من غيبوبة ـ هل يستعصي عليك أن تتخيل الباقي؟

ـ هل ظننت أنها لن تنتبه، وأنه يمكنك أن تقطعي عنقها من دون أن تستيقظ؟

ـ هذا ما ظننتُ. ظننتُ أنها لن تستطيع الصياح لو قطعت حبالها الصوتية. بعد ذلك، أدفع عرش السرير ليسقط فوقها.

ـ يا إلهي، هانْرييتْ! ماذا تقولين؟

ثم بكت ثانية، منتحبة هذه المرة، وهي تشدّ رأسها بيديها.

ـ لماذا تجبرني على هذا الأمر؟ لماذا؟ كنتُ أكرهُها، كنتُ أكرهُها. إنك لا تعرف كم كنتُ أكرهُها. أحيانا، عندما كانت تخرج، كنتُ أتسلل إلى غرفتها. انتبهتُ إلى أن مسماراً من المسامير التي تشد نعش السرير كان محلولا. أخرجته من مكانه.

وكلما دخلتُ إلى غرفتها كنتُ أحل مسماراً آخر. كنتُ أتمنى أن يسقط النعش ليلا ويخنقها بثقله. كمْ كانت خرقاء، فاني. لم تستطع قط أن تتخلص من كل ذلك الثوب، ومن كل ذلك الخشب. لا تنظر إلي هكذا! ـ رفعتْ نبرة صوتها المتهدّج ـ أنت، طبعا، نبيل، من الشرفاء، وجدت كل شيء متوفرا، أما أنا فلستُ كذلك، جدّي رفض أن يعترف بي؛ أنا لقيطة ولم أكن أملك شيئا، لكني كنت أملك حُبّك، والأطفال، والبيت. أنا من كنتُ أتكلف بكل شيء تقريبا، يا شارْل. أنا من كنتُ أدير البيت. كنتُ أستحق تلك الحياة التي كانت فاني تبددها وهي تغار عليك، تأكل دون توقف، غير مبالية بأبنائها، تكتب لك سيْلا من الرسائل كل يوم كي تعود لتنام معها. ويتساءل المرء، لماذا يُسمح لشخص تعيس بأن يجعل كل مِنْ هم حوله تعساء؟ هل هذا من العدل؟ ما قيمة حياة لا توجد سوى لتنغص حياة الآخرين؟

كنتُ أودّ أن أقول لها إنني كنتُ أفهمها. كم مرة كنتُ أحلمُ بموت فاني. مسكينة فاني. كانت لا تُطاق. الآن لا أشعر سوى بالشفقة تجاهها. لكن الندم لم يعد ينفع. وأنا أصغي إلى هانْرييتْ، إلى كراهية هانْرييتْ، وغدرها، جعلني ذلك أدرك أن زوجتي، في قمة يأسها، اختارت فقط أن تكتب لي مئات الرسائل.

ـ تابعي، هانْرييتْ. انظري إلى هذا الأمر كما لو أنه ضرب من طرد الأرواح الشريرة. إنني لست قادرا الآن على أن أتفلسف لأقول من يستحق الحياة ومن لا يستحقها.

ـ إنك تعرف ما حدث، يا شارْل. لماذا أتابع؟

ـ ليس بهذا المعنى. لا أعرف كيف بدأ كل شيء. ماذا حدث عندما تسلّلتِ إلى غرفة فاني؟

ـ خلال وباء الكوليرا، عندما كنتُ شابة صغيرة ... تعرفُ أن أمي توفيت خلال وباء الكوليرا. أليس كذلك؟

ـ نعم. أعرف ذلك.

ـ حسنا. وقتئذ، عرفتُ طبيبا لقّنني بعض المعارف لتقديم المساعدات في المستشفى الذي توفيت فيه والدتي. ذات يوم، حدثني عن المقصلة، وشرح لي كيف أنه حين يُقطع حبل الوريد في العنق، فإن الشخص يموت على الفور. لا يعاني كثيرا، لأن الدماغ يفقد الاتصال بالجسد وهو لا يتوصل بالدم المتدفق.

ثم غطت وجهها مرة أخرى.

ـ لا أصدق ذلك. لا أصدق أنني كنتُ قادرة على القيام بما قمتُ به. كنتُ امرأة أخرى. هذا ما أقوله مع نفسي. هكذا نجحتُ في تجاوز الاستنطاق في سجن لاكونسييرجوري. لم أكن أنا، كانت أخرى؛ امرأة أخرى استحوذت على ذاتي. هي من مشتْ على أطراف أصابعها واقتربتْ من فاني التي كانت تغط في نوم عميق. فتحتُ المقص كي أستعمل إحدى شفرتيه، لكني كنتُ متوترة، وكانت يداي ترتعشان.

ـ كفى! كفى! ـ صحتُ، وأنا أقف بينما دوار يعصر معدتي ـ نفّذْتِ ذلك بشكل سيء ـ قلتُ رافعا صوتي ـ هي استيقظتْ، صاحتْ، هدّدتِك، وارتمتْ عليك.

ـ وأنا بدوري ارتميتُ عليها ـ قالت هانْرييتْ، التي بدت الآن، عكسي أنا، متحكمة في ذاتها تماما، باردة، صوتها كالخنجر، دقيقة، وقحة ـ كان عراكا غير متكافئ، لأنني كنتُ أملك المقص ولحظتها كل ما كنتُ أريد هو أن أقتلها ضربة واحدة حتى يتوقف دمها عن النزيف. هاجمتُها عدة مرات. لا أدري كم مرة غرستُ المقص في جسدها. دم كثير. دم كثير. ـ ثم وقفتْ، منجرفة مع روايتها، كأنها ممثلة تقف على الخشبة، لتؤدي دورا مختلفا عن صاحبة الأفعال. واستدارتْ نحوي ـ وحينئذ وصلت أنتَ. ونظرتَ إلينا. ثم هاجمتْكَ فجأة، حين ظنّتْ أن الأمر من تدبيرك.

ـ كانت تموت ـ قلتُ ـ ما قمتُ به كان بدافع الشفقة والرأفة، حتى تتوقف معاناتها مرة واحدة ...

ـ المسدس. هرعْتَ لتأتي بالمسدس.

ـ الذي لم يطلق أي رصاصة.

ـ كانت تنزف. لذلك أنت تشم الدم ـ قالت هانْرييتْ بتعبير يكاد يلامس الجنون.

ـ كفى! ـ قلتُ ـ نعرف الباقي. وقْعُ الشمعدان على جمجمتها ما زال موشوما في ذاكرتي.

ـ لم يكن هناك من حل آخر، يا شارْل، غير الإجهاز عليها بضربة الرحمة.

ـ ضربة الرحمة التي قضت على حياتها وعلى حياتي أنا أيضا، لأنه لا تَحْسبي أن الحياة في مثل هذه الظروف تُعتبر حياة.

ـ وتلقي علي أنا باللائمة!

ـ تماما! ـ صحتُ هائجا ـ وأريدك أن تكوني علي بيّنة بأنها جريمتُك. سيذكر التاريخ أنني أنا المجرم، وسيخجل مني أبنائي وحفدتي. أما أنت، المُذنبة الحقيقية، فستُبرّأ ساحتك. ستتزوجين ذلك الكاتب وتنقذين روحك. باسكييه، بعجرفته المتعالية، لم يستطع أن يستنتج وجود شخص آخر داخل الغرفة.

ثم اتكأتُ على مسند الأريكة. أغمضتُ عينيّ وتذكرت كل الأدلة التي راكموها ضدي. المبذل الملطخ بالدم، الخنجر العربي الذي كنتُ أحتفظ به مع أغراضي، الخدشات على ذراعي. كل شيء كان يشير لي. علمتُ أنني لن أستطيع أبدا إثبات أنني كنتُ فقط أداة من أدوات الجريمة. عندما استيقظ الخدم على صيحات فاني، وأجهزتُ عليها بالضربة الأخيرة، خرجتْ هانْرييتْ عبر البوابة الصغيرة المؤدية إلى الحديقة، تلك التي بالكاد كانت تُستعمل، بجوار غُرفِنا.

ـ أين ذهبتِ عندما غادرتِ البيت؟

ـ غيرتُ ملابسي في الحديقة، خلف سياج من النباتات. كان المكان مظلما تماما ولم يرني أحد. بعد ذلك، مشيتُ. مشيت حتى بلغتُ النّزل قبل أن ينتبه أحد ما إلى أنني لم أمض الليلة هناك.

ـ دمٌ بارد مدهش.

ـ يمكن أن نتعلم من الأدب. يحدث هذا في الروايات ـ قالت ساخرةً.

الفصل الخامس والعشرون

تلك هي، للتاريخ وللأجيال القادمة، حقيقة ما وقع. وهذا لا يعفيني من الذنب. من دون شك، أنا من تسببتُ في موت فاني. أتحمل مسؤوليتي. أقول هذا وأنا غير صادق تماما. الحقيقة أن كلتا المرأتين كانتا تمخران عباب الحياة فالتقيتا بالصدفة في نفس الطريق. وقد خرجت أكثرهما تجربة في الحياة سالمة من المواجهة. فاني وأنا كُنا الضحية والقاتل. أما هانْرييتْ، فستستعيد عاداتها، وستتعافى من الأمر. ذاك هو الفرق بين من أُجبروا على الصراع طوال حياتهم وبين ترعرعوا مثلنا في مهد النعمة. نحنُ تُربكُنا وتُفحمنا العقباتُ، الأشجار المتساقطة في الطريق، وتُلحقُ الظلمةُ المنتشرةُ في المخابئ الضررَ بيقينياتنا. لكني سأنْذُر حياتي للندم. وصولي إلى نيويورك هزّ أسس حياتي. كم من الناس هنا لا يحملون عبء ماض أليم؟ لكن المرء يصادفهم في الشوارع الكبيرة ولا يمكنه أن يعرف ذلك. في هذه الجهة من العالم، يبدأ المرء صفحة بيضاء.

مازلت أظن أن حظي فظيع. من كان يتكهن بأنني سأفقد حياتي بسبب اندفاع امرأتين؟ لم أظن قط أنني مرغوب لهذه الدرجة. بل لم أكن رجلا مغازلا حتى. كان شكلي اللطيف أبعد ما يكون من هيئة شاب رائع الجمال. لم أكن أفهم كيف زاغت فاني وهانْرييتْ طريقيهما وسعيتا لركوب طريقي. من أين كان ينبع جنون حبهما؟ ليس من باب التواضع أن أقول إنني لم أكن أستحق تلك الأحاسيس. لم أكن حالة منفردة. كثيرة هي التناقضات المشابهة. نساء يعشقن أشخاصا من غليظي الطباع، يتنهدن من أجل شبان صغار لا يملكون من حسن سوى أنهم يتمتعون بمميزات غلمان يافعين، أو أولئك الذي يخفون احتقارهم لهن وهو يطرون عليهن بالمديح، ويغدقون على أجسادهن باللمس. كيف يمكن للمرء أن يفهم هذا الهذيان النسوي، وهذا الهيجان من الحب القادر على أن يجعل شعرهن يشيب، وجسدهن يهزل، وعقلهن يفسد؟ والإلحاح! يا إلهي! أي قوة تلك التي كانت تجعل فاني تجلس وتنساق وراء الحبر لتملأ مئات الأوراق بصوت حورية تشدو بغناء متنافر ومعسول؟ أرفض أن أصدق أنني كنتُ مصدر إلهامها الوحيد. يستحيل أن يكون النوم إلى جانبي يحملُ كل تلك المعاني بالنسبة لها. لعدة سنوات كانت ترقد إلى جانبي، مديرة ظهرها لي، فارغة الفم، تغط في نوم عيق معظم الليالي، بعد تناول مادة الناردين. كيف كانت تشتاق إليّ ونحن، عندما غادرتُ غرفة نومنا المشتركة، كنا زوجين غارقين في الملل ليس لدينا كثير أو لا شيء مما نقوله لبعضنا؟ لكن، من الواضح أن هرمونات أو مزاج النساء، أكثر من هرمونات ومزاج الرجال، ترتبط ارتباطا وثيقا بخيال عجيب له قدرة الملك ميداسْ في تحويل كل ما يلمسه ذهبا وصنع موضوع حب ورغبة ساميين من عدم الكمال الأخرق الذي يميز جنس الذكور الخشن. فالنساء، أنا متأكد من ذلك، هن من جعلن من الحب تلك الأسطورة التي تشاطر السعادة والكمال جوهرهما. يمكن لرجل لا يحظى بالحب، لكنه يستمتع بالجنس، أن يشعر بإحساس الكمال. صحيح أن الحب إحساس قوي، لكنه لا يدوم طويلا، وسرعان ما يصبح عادة، كما يصير روتينا وواجبا، لكن علاقة الرجل بالمرأة لا تعدو أن تكون شبيهة بتلك التي تربطه بما يملك. ويمكنني أن أؤكد هذا الأمر. ما إن نتملّك جسد المرأة، فإن الحب الذي نشعر به يصبح هادئا. هذا ما أظن. ربما أكون مُعْرضا عن الحب. صحيح أن الغيرة يمكن أن تُصيّرنا وحوشا ضارية، كما يحدث للنساء المعذبات بنار الغيرة. وهذا أمر مختلف تماما، أكثر بدائية ولا أعرف أبعاده. لم أجرب الغيرة. لكن فاني وهانْرييتْ، أكررُ ذلك، لماذا كانتا تغاران علي بتلك الطريقة؟

كان إبراهيم ينتظرني في بهو الفندق. حين رآني، نظر إلي من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي بعينين مُتفحّصتيْن. هل كان يتخيل أنني سأعود أقْطع أو أعْرج من ذلك اللقاء؟ هل وجدني متخفّفاً من تفكيري المستمر؟ مرّ طفل يجري يحمل كرة في الصالة، تتبعه معلمة ترتدي ملابس رمادية، وكانت شابة وجميلة. كان ظهورهما المفاجئ مثل مرور شهاب في الصالة؛ ارتفعت الوجوه من الجرائد، وتوقفت الأحاديث لحظة. هناك من ابتسم وهناك من وجه نظرات لوم وعتاب. كنتُ أعرف ردة الفعل تلك. فكرت في صغيري رينارْد. يا لتناقضات الذهن: يمزج الجريمة التي تذكرها مع هانْرييتْ، الراحة التي شعرتُ بها وأنا أعود إلى الفندق وهذا الألم النابع من حزن والد على ابنه المفقود. أومأتُ إلى إبراهيم أن يتبعني. خرجتُ من

الفندق مرة أخرى بحثا عن حانة أشرب فيها كأس ويسكي معه دون إثارة الانتباه. لم نضطر لقطع مسافة طويلة. كان ثمة مكان بالقرب من هناك، عند طاولة شرب في حانة إيرلندية، تزينها نباتات نفل ذات أربعة أوراق بالإضافة إلى كلمات وأقوال بلهاء منقوشة على لوحات خشبية تحاكي سقفا قديما قد يحن إليه أحدهم. لم يكن من عادتي أن أسكر. لم يسبق لي أن سكرت رفقة إبراهيم، لكن يومئذ حاصرني العطش وفي النهاية تمكن الويسكي، غير الرفيع لكن اللذيذ، من تحطيم تلك المسافة القصيرة التي كانت تفصل بين سيد وخادمه. كنتُ مدينا بحياتي وسلامة عقلي لإبراهيم وأظن أنني ليلتها، استطعتُ أن أشكره على ذلك لأول مرة، وأنا أثق فيه.

بعد أن حكيت له لقائي بهانْرييتْ، نظر إلي نظرة متفهمة ورزينة.

ـ يوما ما، سوف ترى كل هذا كما لو أنه حدث لشخص آخر غيرك ـ قال لي ـ أعرف ذلك بالتجربة. لا شيء يطهر حياة المرء مثل عدم تكرار ما عاشه والاستمرار في العيش. أمامك عدة سنوات لدفن هذه المأساة. من يدري أين ستسافر، أي ناس ستعرف، وهل ستعشق مرة أخرى.

ابتسمتُ، ثم أبعدتُه بحركة من يدي.

ـ نظرا لكل ما توحي لي له هذه الأهواء من خوف، من المحتمل جدا أن أصبح راهبا. وأنت، يا إبراهيم، هل أُغرمت بكاسيدي؟

وجاء الدور على إبراهيم ليبتسم. وافق بحركة من رأسه.

ـ تصور! عربي من أهل الصحراء بين إيرلنديين، ومع ذلك نتشابه؛ نفس العشق، ونفس التبجيل للماضي.

ـ ساحرات، عفاريت باطن الأرض، القديس باتْريك.

ـ طقوس ... وكاثوليكيون.

ـ وما العمل؟

ـ ما الذي تنوي القيام به، موسْيو؟

ـ علي أن أفكر في الأمر خلال هذه الأيام. لم أكن أرى من مستقبل غير الوصول إلى هذا المكان والاستماع إلى هانْرييتْ. أشعر كأنني قد أصبحت فارغا. لا أعرف أي شيء آخر سأقوم به. ليست لدي أي خطة.

نظرتُ من حولي. كانت جماعات من الإيرلنديين يفدون على الحانة. كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف زوالا. كانوا يطلبون جعة، و *fish and ships, sheperds pie*، سمكا بالبطاطس وفطائر الراعي. كانوا رجالا بأياد ضخمة. منذ الصغر، كانت تحيرني الأيادي الضخمة. فهل تكبر الأيادي حسب المهنة والاستعمال؟ لماذا لا يملك عازف بيانو يديْ نجّار، أو يديْ بستاني ممن يشتغلون في قصر فو-بْرالانْ؟ كانت عيناي تقفزان من ملاحظة إلى أخرى. كنتُ أعرف هذا النوع من الاشتغال في ذهني. كنتُ أسهو. كان من الصعب علي أن أتحمل بعض الأفكار، مثل تلك الفكرة التي بُحتُ بها لإبراهيم، مفهوم الفراغ، وعدم معرفة ما أقوم به، دون أن يكون لي هدف محدد. كان ذلك أمرا معتادا لدى الناس الذين يصلون إلى نيويورك، المهاجرون. كانوا يصلون بهدف واضح، وما إن تطأ أقدامهم اليابسة حتى يبدأون بالتحرك وفق ما رسموه لأنفسهم من أهداف يجلبونها معهم مثل خريطة كنز مدسوسة في قمصانهم التي تشبه قمصان قراصنة عصريين.

لا أدري كم كانت الساعة عندما مشينا عائديْن إلى الفندق. خلال الطريق بكاملها، ورغم أنني كنت سكرانا، فقد بدا لي أنني سمعتُ خطوات تتبعنا عن كثب.

ـ إنهم يتعقبوننا ـ همستُ لإبراهيم.

التفتَ دون أن ينزعج، ثم سحبني خفية كي أتظاهر بأنني أقترب من واجهة أحد المحلات لبيع الملابس.

بقينا واقفيْن أمام دمى عرض الملابس الهادئة، بينما كانت الخطوات تتقدم، وتتجاوزنا.

نظرتُ إلى ظهر الرجل الذي ظل يمشي وراءنا منذ أن خرجنا من الحانة. كان فارع الطول ونحيفا، يرتدي معطفا ربيعيا واسعا جدا، يتحرك مثل تنورة حين يمشي الرجل بسرعة، مقوس الظهر.

ربت إبراهيم بضربات خفيفة على ظهري. «هيا بنا، سيدي الدوق ـ قال لي، وهو ينسى سريتنا المعتادة ـ ، لا تشغل بالك. نحن في نيويورك!»

ضحكنا معا. لم أسمع خطوات أخرى، ولم أشعر بأي حضور خلفنا خلال المسافة القصيرة التي تفصلنا عن الفندق. جعلني السكر أنام مثل رزمة، لكن حوالي الخامسة صباحا استيقظتُ مذعورا. جلستُ فوق السرير. مشيتُ حتى بلغت النافذة ثم فتحت الستار الثقيل. كانت أشعة الشمس تنزل على البنايات في الجهة الأخرى من الشارع، لتصبغها بلون وردي. كنّاسون مستعجلون يدفعون عربات ويجمعون الأزبال من الأرصفة ومن مجاري حافة الطريق. في زاوية الشارع، كان صاحب الكشك، الذي يبيع الصحف والمجلات، وعود الثقاب، وحلويات بنكهة النعناع، يرتبُ سلعه استعدادا ليوم من العمل.

كم كنتُ غبيا! كم كنتُ غبيّا!، قلتُ مع نفسي وأنا ألوم ذاتي.

كانت هانْرييتْ تعرف سري. يمكنها أن تسبب دماري. وقد لا يتردد نابوليون الثالث في استعمالي لإذلال لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ. لن تنفعني الحقيقة في شيء. لن تقبل العدالة الفرنسية أبدا روايتي لما وقع من أحداث. كانت هانْرييتْ تعرف ذلك الأمر جيدا كما أعرفه أنا.

الفصل السادس والعشرون

طلبتُ الفطور في الغرفة. بالكاد قضمتُ لقمة من الكرواسان. حتّى الشابُ الذي دخل يحمل صينية الفطور بدا لي حذرا ومتيقظا أكثر من اللازم. لم يرقني كيف كان يجول بنظراته في الغرفة بينما كنتُ أوقع فاتورة الوجبة. تأخر إبراهيم في الظهور. لم يعد هناك وقت طويل قبل أن يتركني، فكرتُ. سيبقى في نيويورك مع كاسيدي. لم يكن بحاجة ليقول لي ذلك حتى أتكهن به. بطريقة تدريجية، وبفضل ذلك الذكاء الرائع الذي يتمتع به، كان يعودني على غيابه. شعرتُ برغبة في البكاء. تمالكتُ نفسي. بدأت نداء موجها لأضعف جزء في ذاتي: هيا يا شْوازولْ-بْرالانْ، كيف يمكن أن تكون ضعيفا وجبانا إلى هذا الحد؟ لم تمض ولو أربع وعشرون ساعة منذ أن قابلْتَ تلك المرأة وها قد أخذ العالم يبدو لك أنه يتآمر على ملاحقتك. بالله عليك! أي أهمية هذه التي تعطيها لنفسك؟ إن كنت رجلا مسكينا، إن كانت هانْرييتْ، في نهاية الأمر، تخافُ منك أن تقول الحقيقة. لن تجرؤ على الوشاية بك.

أحيانا، كنتُ أستطيع تصديق ما أوجهه لنفسي من توبيخ، لكن الراحة لا تدوم طويلا. عنَّ لي أن أتخيل السجن. لن يرسلني لويسْ نابليون إلى السجن الخاص بنبلاء قصر اللكسمبورغ. لو نجيتُ من المقصلة، سيحبسونني في واحد من تلك السجونْ الحصينة مثل سجن قلعة إيفْ. كنتُ أعرف حكايات لا تُعدّ ولا تحصى عن نظام السجون الفرنسية. قد يحكمون علي بالسجن المؤبد ويعتبرون ذلك حكما رؤوفا. سيحل الخزي بعائلتي، وأبنائي المساكين! وأي طريقة ستكون تلك لرد جميل لويسْ فيليبْ دو أورْليانْ!

صببتُ على رأسي ما كان من ماء في الجفنة، فهدّأ ذلك أعصابي المتوترة. جاء إبراهيم، وحضّر لي شايا بالبابونج. غزت خياشيم أنفي رائحةُ مستشفى وغرفة يرقد فيها أطفال مصابون بالزكام.

ـ أنا بخير، يا إبراهيم، أنا بخير.

ـ يجب أن تعتني بنفسك، موسْيو. لقد تحملت أعصابك من المحن ما يتراكم خلال حياة بكاملها من عمر إنسان عادي. أظن أن ما يحدث هو أنك تحرر ما تراكم بداخلك من توتر وأنت تفكر في مقابلة الآنسة دولوزي. في كثير من الأحيان، بعد مرور أزمة ما، وبدل أن يسترخي، يتشبث الجسد بأخطار أخرى، ولا يسمح بأن يرفع حالة الحذر؛ فتُفتح سدّادة قنينة المخاوف. وتخرج كلها دفعة واحدة. أنصح بأن نقوم بشيء مُسلّي.

نظرتُ إليه، دون أن أعرف ما أفكر فيه.

ـ يمكن أن نستقل سفينة ونبحر عبر قناة إيري نحو شمال الولاية. أخبروني أن شلالات نياغارا رائعة.

انسقتُ وراء الفكرة. قام خادمي بكل الإجراءات وغادرنا ميناء نيويورك في اليوم التالي.

لن أنسى تلك الأيام العشرة التي أبحرنا فيها عبر قناة إيري. تنعمُ الولايات المتحدة الأمريكية بطبيعة فردوسية. كانت القناة منشأة هندسية رائعة، بالإضافة إلى أنها طريق تجارية ساهمت في أن تجعل من نيويورك أهم ميناء في العالم. لا أذكر كم من الأهْوسة اجتزنا في طريقنا، لكني أعرف أننا قطعنا جبال آديرونْداكْ، ووصلنا إلى مدينة بوفالو الصغيرة. هناك اكتريْنا عربة تجرها أحصنة حراثة جميلة أخذتنا إلى ذلك العقد من الزبد الذي تُشكّلهُ شلالات نياغارا. كان صوت الماء، وهو يسقط في أعماق النهر، يتردد صداه في سيل دمائي الجارف. أنهار، تيارات، عروق، شرايين، كان انسجام الطبيعة رائعا ومرعبا في الوقت ذاته. كان يملؤنا بالفخر وهو يمدنا بالوعي ويبصق في وجهنا وهو يرينا تفاهتنا. يا إلهي! كم كنا، عشرة، ألف، مائة ألف إنسان أمام عظمة تلك الشلالات؟

خلال تلك الرحلة، ورغم الاستمتاع بالمناظر على امتداد قناة إيري، شعرتُ بشيء من التعب من الحياة. كنتُ حيا لأنه لم يكن لدي من حل آخر، لأنه كان يستحيل علي عمليا أن آمر جسدي أن يموت. لكن، عندما وصلتُ إلى الشلالات، مشيت حتى بلغت أقصى طرف، ثم انسللتُ خارج السياج الواقي نحو شريط ضيق من اليابسة تغطيه نباتات العليق وبعض الأدغال. لم تكن لدي خطة محددة سلفا. لكن الفرصة سنحت وسحرتني. هي قفزة واحدة فقط، قلتُ مع نفسي. حياتي تنتهي حرفيا بقفزة واحدة. كم من الوقت سأستغرق لأموت؟ كانت الهوة سحيقة. سأموت هناك في الأعماق وسط عالم من الزبد. نظرتُ من حولي. لم أر إبراهيم. لن يشهد أحد على ذلك. نظرت مرة أخرى إلى الهاوية. جعلني الدوار أتراجع إلى الوراء. عدتُ أدراجي.

تلك الرحلة غير المتوقعة وربعُ الساعة التي قضيتُها على أكبر تقدير وأنا أفكر في نهايتي أنقذاني من الجمود أو اللجوء إلى الإدمان على الكحول. لم أعد قادرا على الاستمرار في مخادعة نفسي: كنتُ أريد أن أعيش. كان علي أن أواجه تلك الحقيقة، وأنقذ نفسي من التفاهة. لم يعد هناك من بديل سوى البحث عن شيء يُفيدُ وجودي.

عندما عدتُ إلى نيويورك، اتفقت مع إدارة الفندق على كراء نوع آخر من الغرف المخصصة للنزلاء الذين يسكنون في الإقامة لعدة شهور أو سنوات.

ـ لو سمحت، موسْيو، ألا يبدو لك من الأحسن أن ننتقل إلى مكان آخر في المدينة؟

ـ كلا، يا إبراهيم. سنبقى هنا. وسنكون حذرين.

كان بداخلي إنسان متمرد يرفض أن يعاني ويتحمل تبعات كل ما وقع. أعرفُ ذلك. لن تكون تلك هي المرة الأولى ولا الأخيرة التي أتحدى فيها ما أخشاه، وأرفض أن أمحو حتى القضاء عليها نهائيا وجوه حكايتي، ومقامي وأصلي.

خلال عدة أشهر، عشتُ منعزلا وحرصت على ألا أثير الانتباه. قرأتُ «آثار وادي المسيسيبي القديمة» وكل ما وجدته من كتابات إفرايم جورْج سْكيرْ. قرأتُ عن المكسيك والبيرو، وكل يوم كنت أبحث في الجرائد عن فرص تثير انتباهي؛ تذوقتُ أنواعا لا تعد من الجعة في الحانات الإيرلندية، وعرفت ما يتراكم من توترات في مدينة نيويورك. حسب عميد البحر فانْدربيلتْ، الذي كنت أتحدث معه من حين لآخر في حانة الفندق، تضاعف خمس مرات عددُ الإيرلنديين والألمان الذين وصلوا في الآونة الأخيرة. كانت المدينة قد بلغت حدود طاقتها. أخذت تنتشر الأماكن الوخيمة، والعصابات. كنتُ أعرف ذلك من إبراهيم أيضا. منذ أن التقى بكاسيدي وزار البناية المهترئة التي تسكنها رفقة أسرتها في «فايْفْ بوينْتْس» كان يريد أن يُخرجهم من هناك. كان حيا وخيما في الجهة الشرقية من نيويورك، حيث تنشط عصابة من الإيرلنديين الأكثر قوة وضررا.

وكان من تسلياتي خلال إقامتي في نيويورك زيارةُ «متحف بارْنوم الأمريكي». كان صاحبه هو بي. تي. بارْنوم، رجل طويل مثل بُرج، كبير الأنف، أصلع وله عينان زرقاوان جاحظتان. جمع فيه مزيجا من الكائنات المشوهة والغريبة، بالإضافة إلى أنواع فانتاستيكية كانت نتيجة عمليات تنم عن براعة وذكاء. هناك كان يُعرضُ هيكل جنّية بحر، امرأة ثعبان، توأمان سياميّان هما تْشانغ وإنْغ الملتحمان على مستوى الصدر. وأغربُ ما رأيتُ هناك وسحرني كثيرا هو شارْل ستراتون، رجل دقيق جدا لا تتجاوز قامته ٢٥ بوصة؛ قزم متناسق الشكل، أطلق عليه بارْنونم اسم الجنرال «تومْ ثومْب» وكان يقدم عرضا طريفا وهو يرتدي بدلة عسكرية. وكبقية الزوار، كان النظر إلى هذه الشخصيات يجذبني ويصيبني بالنفور في الوقت ذاته، لأنه رغم ما بها من تشوهات خلقية كانت عيونها تكشف عن إنسانية لا تختلف في شيء عن إنسانية من كُنّا نتفحصُها بنظراتنا.

ذات ظهيرة التقيتُ هانْرييتْ. حين انتبهتُ لذلك، كانت قريبة جدا مني. فزعنا معا وابتعد كل واحد منا عن الآخر دون أن ننطق ببنت شفة.

خفّ هذياني مع توالي الأسابيع. قلتُ مع نفسي إنه إن لم يتعقبني محققو الشرطة الفرنسية مباشرة بعد لقائي الأول مع هانْرييتْ، فإنه من المستبعد جدا أن يقوموا بذلك الآن. وبالنسبة لها أيضا، لم يكن في صالحها أن تشي بي. يومين بعد ذلك الحدث العرضي، عاودني الإحساس بأنهم يراقبونني. أصبحت ترتيباتي مع إبراهيم أكثر فأكثر تساهلا. في الظهيرة، كان عادة يذهب ليلاقي كاسيدي وأبقى أنا في الغرفة، أقرأ أو أكتب حتى ساعة تناول الشراب، عندما يعود ليساعدني كي أرتدي ملابسي وأنزل إلى الحانة قبل العشاء. لكن، في تلك الظهيرة، لم تشد القراءة اهتمامي بما يكفي. بل إن نظراتي كانت تنزل نحو مشهد الشارع تحت نافذة غرفتي: كانت هناك حركة دؤوب لأمواج كبيرة من الناس يتنقلون عبر الأرصفة، ومدٌّ متواصل من الأشخاص يلجونْ ويغادرون مكاتب البريد عند زاوية الشارع. يصلون محملين بعلب، ورسائل يخرجونها من معاطفهم وجيوبهم. كنتُ أتسلى بالنظر إليهم وتقدير ما يستغرقونه من وقت في سعيهم. قررتُ أن آخذ بنفسي تلك الرسالة التي كتبتها إلى عميد البحر كورنيليوس فانْدربيلتْ أطلب منه تاريخ وتوقيت رحلة تدشين شكة النقل إلى كاليفورنيا عبر برزخ أمريكا الوسطى. غيرتُ ملابسي المنزلية بملابس للخروج إلى الشارع، شددت حذائي، وضعتُ القبعة بعد أن نفضتها جيدا ثم نزلتُ السلاليم بخطى سريعة ومزاج جيد، أقول مع نفسي إنه أمر مدهش كيف أن مهمة، مهما كانت تافهة، تستطيع أن ترجّ السُّبات وترفع المعنويات. خلال المسافة القصيرة التي تفصلني عن مكتب البريد، فكرتُ كم كان سيسعدني أن أبعث إلى أصدقائي في جزيرة وايْت بطائق بريدية ذات ألوان سماوية اقتنيتُها في بوفالو، على سبيل ذكريات عن رحلتي إلى شلالات نياغارا. كنتُ أتخيل تعابير وجوه جوليا مارغريت، السيدة تنيسون، لورد ألفريد، والدكتور هاميلتوت وهم يتلقونها. وللحظةٍ استمعتُ بتصور إرسالها إليهم.

وصلتُ إلى مكتب البريد، بناية ضخمة، يبدو أنها مخصصة للمراسيم الدينية أكثر مما هي موجهة لمهمة توزيع البريد. وأمام الشبابيك المتعددة كان يصطف عدد كبير من الناس.

في طابور مكتب البريد وجدتُ روحا أخرى، روح الرُّفقة. كان الانتظار دون حل يجعلني أتساوى مع الجميع في العذاب. ووسط الشكاوى، كان الناس يتبادلون الحكايات، والمزاح والتعاليق. كان الانزعاج والسخط يخلقان حسا تضامنيا. كنت أستمتع بتلك اللحظات ـ القليلة بحكم نسبي وثروتي ـ التي كانت تقربني من الرجال والنساء الذي يديرون عجلة الحياة اليومية. كانت وقاحتهم، سخريتُهم اللاذعة وحسهم الفكاهي المبدع وهم يتهكمون من بطء المستخدمين، ومن العناوين الخاطئة وعدم دقة المواصلات، شيئا يُقوّيني وينعشني.

كنتُ أنتظر بصبر ومزاج جيد في طابور طويل من طوابير البريد، ولأنني كنتُ منتبها لمن هم من حولي، لاحظتُ حضور رجل صموت ومتجهم، يجسد نموذجا حيا للبيروقراطي الفرنسي: ملابس داكنة وتافهة، وجه طويل وعبوس، عينان نفورتان، شعر أسود متموج، أنف معقوف، شفتان دقيقتان لهما مقرننان غائران في تعبير عن التعب، كتفان ضيقان، قامة فارعة مع ساعدين وساقين طويلة. حدستُ أنه كان ينظر إلي مخفيا اهتمامهُ. حين جاء دوره، لاحظتُ أنه لم يكن يحمل أي رسالة يبعثها. تبادل جملتين أو ثلاث جمل مع المرأة خلف الشباك ثم توجه نحو باب الخروج. لكنه، بدل أن يغادر، بقي قرب الباب، ينظر يمينا وشمالا، وأحيانا تجاهي.

أربكتني رؤيتُه جامدا لا يبرح مكانه. مع الخطر سرى تيار بارد وصعد في جسدي من أسفل إلى أعلى. ظننتُ أنني أعرف ملامحه. كانت له هيئة محقق من محققي الشرطة الفرنسية، رجل متغطرس كثيرُ التخمين. كان يفصلني زبون واحد عن الوصول إلى الشباك وبعث رسالتي. كبحتُ الهلع الذي يمكن أن يجعل يديّ ترتعشان. عليّ أن أتصرف بتلقائية، ولا أعتبر نفسي معنيا بما يجري، قلتُ مع نفسي. إنها هانْرييتْ، فكرتُ، هذا يفسر كل شيء. قد يصيبها الهلع وهي تعرف أنني مازلت في نيويورك وتضع شكايتها المؤجلة لدى قنصلية فرنسا. وهذا الرجل ربما جاء ليتأكد من وجودي. أجبرتُ نفسي على التنفس بعمق. بلغتُ الشباك. كان المستخدم ذا وجه به كثير من التجاعيد مثل كلب عجوز وينجز كل شيء ببطء يثير السخط.

دفعتُ ثمن الطابع البريدي الحزين الذي بلله بإسفنجة قديمة وبالية قبل أن يلصقه على الظرف، ويضع الرسالة في سلة كتب عليها «بريد صادر». ترددتُ لحظة دون أن أعرف بالضبط ما أقوم به كي أغادر دون أن أمر قرب «المحقق» الذي، كما تأكدت من ذلك، كان ما يزال واقفا عند الباب الرئيسي، لكن المستخدم حدجني بنظرة عدوانية، وقطب حاجبيْه الكثّيْن الأشهبيْن يطلب مني أن أبتعد عن الشباك لفسح المجال للزبون الموالي في الصف.

وبدل أن أخرج، رحت أتمشى داخل البناية، فقطعت أروقة بها أبواب خشبية غليظة، ورأيتُ خلف أسوار قصيرة طاولات يوزع فوقها المستخدمون البريد. وجدتُ مخرجا جانبيا واختلطت بالمارة. كنتُ أظن، كما في مناسبات أخرى، أنني آخذ حذرا لا داعي له، عندما لمحتُ الرجل بطرف عيني وأنا واقف أمام واجهة محل صغير لبيع القبعات العالية. شعرتُ بصدمة خوف في صدري. هل كنتُ أتخيل أشياء؟ لم يكن أمرا مستحيلا أن يلتقي المرء نفس الشخص في مدينة مثل تلك المدينة. لقد التقى إبراهيم بكاسيدي عن طريق الصدفة. هل كان يسكن في الجوار؟ مشيتُ عدة شوارع، التفتُّ يمينا وولجت محلا صغيرا يبيع كؤوسا بلورية. مكثتُ بداخله لبعض الوقت. ثم غادرتُ. لم أره حتى بدأتُ أقترب من شارع برودواي. اختبأتُ. ظلَّ في زاوية الشارع مدة نصف ساعة. نظر إلى ساعته. كانت الرابعة وعشر دقائق زوالا. استأنف سيره مرة أخرى. مشيتُ باتجاه مُلاحِقي. لم أعد أفكر بشكل عقلاني. كان ذهني يتأرجح بين الهلع المطلق لكوابيس المطاردة أو الجنون البارد والمتحدي في أن أتحول من طريدة إلى قناص. كان هذا الاختيار الأخير هو الأكثر مجازفة، ولكني سأعرف بشكل نهائي إن كان لمخاوفي أي أساس. وجدتُه بعد شارعين نحو الأسفل. كان يشتري فستقا من بائع متجول. اختبأتُ حتى لا يراني. ربما كان من المنطقي أن أقنع نفسي هناك بالضبط أن ذلك الشخص لم يكن يلاحقني، لكنني فكرت أنه ربما وقف ليستريح قبل أن يتخذ لنفسه مكانا في الشوارع المجاورة للفندق بعد ذلك. بيد أن المحقق الذي صنعتُه من تخميناتي لم يعد أدراجه، بل أخذ يمشي في شارع برودواي نحو الأسفل جهة الشرق، ليتوغل، بعد ذلك، في أزقة ضيقة جانبية بها مساكن وطيئة مربعة الشكل. على أرصفة، هنا وهنالك، كان الجيران يتحدثون، والأطفال يلعبون وهو يدفعون أطواقا، يتقارعون بمجموعات البلْي أو يقفزون فوق الحبال. ومع توغل الرجل، الذي كان يجهل تماما حضوري، في المنطقة بدأتُ أتعرف المكان. كان هو فايْفْ بوينْتْس، الحي الذي يسكنه مكدّسين وفق ما استطاعوا المهاجرون الإيرلنديون الذي وصلوا بأعداد كبيرة، مثل كاسيدي وأسرتها، هاربين من مجاعة البطاطس. وقد أدرك هؤلاء، بمجرد نزولهم في نيويورك، الخدعة التي دبرها لهم صاحب العمل أو الأرض الذي وعدهم ببيت ومسكن لدى وصولهم. فسكنوا كما استطاعوا. زرتهم ذات مرة في مسكنهم القذر. حكايات مثل هذه كانت تُروى مرات عديدة في الحانات بفضل ما يرافق شرب الجعة من حميمية وثرثرة.

توغّلتُ بتوجس في شوارع فايْفْ بوينْتْس. كانت رائحة البصل والثوم المنبعة من المأكولات الإيرلندية الكريهة، تلتصق بملابس الرجال والنساء على حد سواء. في الأرصفة كانت هناك مجموعات تمضي الوقت دون أي عمل أو عجلة ظاهريْن. كيف يمكن أن يكون هناك أشخاص غير منظمين وجاهلين بأدنى قواعد التربية، يتحدثون بصياح، يبصقون، ويوسخون الأماكن التي يسكنون فيها؟ كان الوصول إلى هناك سعيا إلى تعقُّب من كان يلاحقني أمرا غير موفق. وكانت أحياء مثل هذا الحي هي الوجه الآخر لقبلة نيويورك. دون اكتراث بمكان تواجدهم، كان رعاع الناس يحملون معهم يأسهم. ويمكن قول الشيء نفسه عن ضواحي باريس. يمكن للمرء أن يتسامح بل وحتى أن يشهر الشفقة تجاه أسرة فقيرة أو بائسة، لكن رؤيتهم يتحركون في جماعات كانت تجربة أخرى مختلفة تماما. كيف كانوا يفكرون في المضي قدما؟ كانت الفرص التي تمنحهم أمريكا تتحول في أغلب الأحيان إلى مسارات إجرامية يستبدل خلالها المزارعون من أصحاب الطباع الخشنة المحراث والنزاهة بالسكين ويلتحقون بعصابات دامية تنهب الوافدين الجدد على المدينة وتبتزهم. رفعتُ ياقة معطفي وأنزلت القبعة فوق جبيني. لم أكن أحمل مالا كثيرا، لكني وضعت بإحكام محفظة النقود في الجيب الأمامي من سروالي. كنتُ أمشي في الشارع الرئيسي من الحي تاركا مسافة كتلة من البنايات بين من أشك فيه وبيني. في إحدى الزوايا استدار الرجل جهة اليمين. انتظرتُ وقتا احتراسيا قبل أن أخرج إلى نفس الشارع الجانبي. ما رأيتُه أجبرني على أن أختبئ وراء لوحة عند رصيف

حانة كان ينبعث منها هدير أحاديث متزامنة. كان لا بد لي من أن تمالك نفسي كي أتفادى صيحة تعجب سدّت حنجرتي: كان الشخصُ يتحدث مع إبراهيم وكاسيدي؛ ويدخل رفقتهما إلى بيت الأسرة الإيرلندية لصديقة خادمي، ذلك الإنسان الوحيد الذي كان يعرف حكايتي، الرجل الذي كنتُ أعتبره أوفى خادم، صديقي الوحيد في هذه الحياة من الوحدة والهروب.

الفصل السابع والعشرون

بقيتُ جامدا حيث كنتُ أختبئ. من يمرون بالقرب مني كانوا ينظرون إلي باستغراب وانزعاج، كما لو كنت صخرا وسط النهر. انزويتُ جانبا واتكأت على مفصّلة باب أفكر في خياراتي. تعوزني الكلمات لوصف ما اعتراني من فزع كبير واضطراب عميق. هل يكون لويسْ نابليون قد عرض مكافأة لمن يستطيع أن يسلمني؟ أسرة كاسيدي، بحكم فقرها وحاجتها، ألا تراهن على هذه الغنيمة الممكنة؟ ألا يمكن لإبراهيم أن يتآمر معهم؟ لا أحد مثلي يعرف ما يمكن لرجل أن يقوم به عندما تنمو امرأة في جسده مثل لبلاب متسلق. تذكرتُ هيئته المرتابة والقصية ونحن على متن المركب الذي حملنا من لوهافر إلى جزيرة وايْت. وقتئذ، كان ينظر إلي كما لو كنتُ ثعبانا على وشك أن يغرس فيه سُمّه. لكني كنتُ أريد أن أومن بأن العلاقة بيننا قد تجاوزت النفور نحو الجريمة التي يتهمونني بها. ومع ذلك، كانت التواطؤ بين الخدم رابطا من الروابط التي لا يمكن دحضها، مهما كانت العواطف التي يكنونها لمُشغِّليهم. لم أكن قادراً على أن أضع ثقة عمياء في إخلاص إبراهيم، رغم أن تعلقي به قد يعاتبني في أعماق ذاتي على مثل هذه الشكوك. أما أسرة كاسيدي، فكان لدي عنهم انطباعات إيجابية. كنتُ أرى فيهم أشخاصا نزهاء طيبين. كانت الأم زوجة أفرغتها المجاعة من عضلاتها وتركتها رخوة ومترهلة، كأنها بالون أُفرغ من الهواء، لكنها كانت تتميز بهوس الترتيب والتنظيف فكانت بذلك الجدران الأربعة التي تضم الأسرة منظمة بعناية فائقة، والأسِرَّةُ الكبيرة مطوية نهارا وقطع الأثاث مغطاة بأثواب من القطن المنسوج. عندما زرتهم، أدهشتني عزّة النفس التي كانت هي، وزوجها وابنتها يتحركون بها في ذلك الفضاء دون أن يلعنوا قدرهم، شاكرين الحياة لأنهم وصلوا إلى هناك وواثقين في أنهم سيتجهون نحو مستقبل أفضل. كانت كاسيدي تملك مهارات خاصة في الرياضيات، فتمكنت من شغل منصب أمينة صندوق في متجر حيث أسندوا لها، بعد شهور قليلة، مهمة المحاسبة ورفعوا أجرها. إبراهيم، ذلك البدوي الرحّال الذي قضى نصف حياته يقفز من مكان إلى آخر، ومن خيمة البدو إلي بلاطات الملوك، يتكيف مع الظروف من أجل البقاء، وجد في تلك الأسرة مكانا يكون فيه هو ذاته بكل راحة. ربما كانت كاسيدي تصغرُه بعشر سنوات أو أكثر، وكانت امرأة تتمتع بتلك الموهبة النادرة في القبول، والهدوء وحسن المزاج. كانت تكره المآسي، ولديها القدرة على أن تكون سعيدة مهما كانت الظروف. وفوق هذا، كانت جميلة المظهر. شيئا فشيئا، أعطيت لإبراهيم الحرية والوقت كي يغازل كاسيدي ويتعرف عليها. لم أفعل ذلك سخاءً مني، بل حتى لا أفقده تماما. كيف ستكون تعابير وجهه لو رآني أصل خلف الجاسوس؟ كان هناك الاحتمال اللطيف والممكن المتمثل في انكشاف اللغز؛ أي أن يكون إبراهيم هو من بعثه ليسهر على سلامتي، وبعد احتجاجي على ما تسبب لي فيه حرصُه من قلق، قد نضحك جميعا. شعرتُ بالارتياح وأنا أفكر في هذا الخيار، لكن، ماذا لو كنتُ مخطئا؟ لم تكن المجازفة خيارا من خياراتي، لأن عواقبها قد تكون وبيلة.

فكرتُ لحظة أخرى، وتخيلت المشهد إن أنا مثلتُ في بيت الإيرلنديين، لكن الشك والخوف من القبض سيطرا علي.

رجعتُ إلى الفندق بتثاقل كبير، حزينا. من حين لآخر كانت الدموع تتحول موشورا متعدد الألوان يعكس شوارع نيويورك. كنتُ أعرف نفسي؛ وأعرف أنني لن أسترجع أبدا تلك الثقة المطلقة التي كنتُ قد وضعتُها في إبراهيم.

الفصل الثامن والعشرون

توقفتُ قبالة كنيسة القديس بولس. كان المساء قد بدأ يندحر. سربٌ من الغربان يحومُ حول سواكف برج المعبد. الريح تهب معلنة عن عودة الربيع. تجاوزتُ الأبواب الخشبية الثقيلة، خلعتُ قبعتي وأغلقت العباءة حول صدري. داخل صحن الكنيسة كان فصل الشتاء ما يزال ينبعثُ من الجدران. وكان عدد كبير من الناس يحضرون القداس، جاثمين على ركبهم فوق المقاعد أمام المذبح. ضجيج خدم الكنيسة يحركون المباخر والكاهن وهو يستعمل أدوات الطقس الكنسي، كان يتردد صداها عاليا في المكان. انسللتُ إلى أحد المقاعد الفارغة في الجهة الخلفية. جثوتُ على ركبتيّ ووضعت وجهي بين يديّ متظاهرا بالصلاة في حين أن ما كنتُ أسعى إليه هو أن أهدئ من قلق إحساسي بوحدة لا محيد عنها.

الأكيد أنني فكرتُ في أن أستغني مؤقتا عن إبراهيم، أتركه في نيويورك على الأقل حتى أستقر في مكان بعيد، ربما في كاليفورنيا، أو أمريكا الجنوبية. بل إنني فكرت في أن تكون كاسيدي رفيقته وأن يكبرا معا وهما يتحملان مسؤولية العناية ببيتي وأموري. لكن المشهد الذي عاينته للتو تركني منذهلا. كنتُ أظن أنني قد شرَّفْتُ مبدأ المساواة الذي تنادي به القبعة الفريجية لماريان، رمز ثورة فرنسا سنة ١٧٨٩. لكن، هل كان إبراهيم صديقي حقا؟ هل كنتُ قادرا على الجزم بذلك؟ سلّمتُ بأن الظن بما هو أسوأ بتلك السرعة كان ينم عن المسافة التي تفصل بيننا. لو تفحصت مليا أحاسيسي في الساعة الأخيرة، لوجدت من البديهي أن إبراهيم كان بالنسبة لي هو طوق النجاة الذي تشبثت به أثناء غرقي، ولا تربطني به علاقة المساواة التي كنتُ أفتخر بها. في نهاية الأمر، كنتُ أثمن وجوده وفق ما يعنيه بالنسبة لوجودي. بل حتى سخائي المفترض معه، وأنا أسمح له بفسح حيز في حياته لكاسيدي، كان في الواقع أمرا يطمح إلى جعله أكثر سعادة حتى ألزمه بالإخلاص لي وأحول زوجته أيضا إلى رفيقة من رفاق مصيري. كان ردّ فعلي يشبه تلك القطيعة القاسية التي جعلتني أصد هانْرييتْ ما إن فقدتْ رباطة جأشها وتطلعت لكي أنقذها، أترك فاني وأجعل منها هي زوجتي. كان حدسي مع هانْرييتْ شبه حيواني، وتنبأً بالمستقبل كان مبررا إلى حد كبير. فهل تجد مخاوفي من إبراهيم مبرراتها؟ هل ينبغي لي أن أواجهه، وهل ينبغي لي أن أنتظره؟ هل كان ذلك صدفة؟

بنغماتها الوقورة أعلنت آلة الأرغن عن نهاية القداس. نهضتُ من المقعد، غادرت الكنيسة مع بقية المصلين دون أعرف بعد ما سأقوم به بعد ذلك.

دخلتُ إلى البهو. كنتُ أمضي مسرعا قرب مكتب الاستقبال.

ـ سيد ديوملانْ! ـ صاح البواب مناديا علي.

ـ أخبرني ـ أجبته وأنا أقترب مضطربا.

ـ هناك شاب جاء مبعوثا إليك من لدن العميد البحري فانْديربيلْتْ. سأنادي عليه.

نظرتُ من حولي. قام البواب بحركة فدنا الشابُ يرتدي لباسا بحريا ثم حياني بانحناءة.

ـ سيد ديمولانْ ـ قال ـ إن العميد البحري فانْديربيلْتْ أمرني أن آخذك إلى مكتبه. إنه يدعوك للحديث معه.

ـ الآن بالضبط؟

ـ متى شئت. يمكنني أن أنتظرك إن كان لديك وقت.

هل من الممكن أن تكون الرسالة قد وصلته بهذه السرعة؟ تساءلتُ مع نفسي، أم أن هذه واحدة من المصادفات التي لا

تفسير لها؟ ما كان لدعوته أن تأتي في وقت أحسن من هذه اللحظة.

ـ أقبل دعوته ـ قلتُ ـ يمكننا أن نذهب دون تأخير.

ـ المكتب قريب جدا من هنا ـ قال الشاب في رقم ٩ من شارع بوڤلينغ غْرينْ. أنتظرك إن كان لا بد أن تصعد إلى غرفتك.

ـ ليس أمرا ضروريا. لا أظن أن العميد البحري سينزعج من لباسي الذي أرتديه لأتجول في الشارع.

ابتسم الشاب بحركة تدل أيضا على أن لباسي لم تكن له أي أهمية.

كان الليل قد بدأ يحل عندما خرجنا إلى الشارع. مفاجآت كثيرة في يوم واحد، فكرتُ، لكني شعرت بارتياح لأنه لم يكن ينبغي لي أن أواجه إبراهيم بمجرد عودتي إلى الفندق. لقد قررت ألا أقول له شيئا، لكني كنتُ مضطربا ومتوترا دون أن أعلم كم من الوقت لدي كي أهرب إن صحّت أسوأ ظنوني.

كان مكتب فانْديربيلْتْ، بالفعل، على بعد مجموعة من العمارات من الفندق، في بناية بسيطة بها أفاريز منقوشة بزخارف تمنحها هيئة مهمة. صعدنا عبر سلاليم مرمرية إلى الطابق الثاني حيث كان ستة أو ثمانية أشخاص يشغلون عدة مكاتب في قاعة الانتظار ذات الأبواب الخشبية العالية. قادني الشاب إلى المكتب، حيث جاء العميد البحري فانْديربيلْتْ ليصافحني ويدعوني لأجلس فوق كرسي جلدي مريح. كان المكتب رائعا. كانت الجدران المجاورة له تعج بكتب وضعت فوق رفوف من الخشب الرفيع. كما رتبت عدة كرات تمثل كوكب الأرض تحت النافذة التي كانت ساعتئذ تلمع بآخر أضواء الغروب. وفوق مرساة قديمة كانت قطعة مرْمر دائرية تقوم مقام طاولة المكتب. كانت مصابيح الغاز تضيء المكان لتُبرز هنا وهنالك أكواما من المناظير، والبوصلات والسُّدْسيّات. خرائط وصور تزين الجدران. لم يكن ينقص غير رائحة الملح كي نشتم البحر.

على طاولة القاعة الصغيرة التي جلسنا إليها لمحتُ مندهشا الظرف الذي وضعتُه في البريد عند منتصف هذا النهار. تابع فانْديربيلْتْ نظرتي وابتسم.

ـ هل تدهشك نجاعة نظامنا البريدي؟ لدي اتفاق سري مع موظفي مكتب البريد، ومرتين في اليوم يذهب المستخدمون الذين يشتغلون معي لسحب ما يصل من بريد موجه إلينا. نيويورك مدينة صغيرة ـ قال بمرح.

ـ مدهشٌ هذا «العالم الجديد» ـ قلتُ مبتسما بدوري.

ـ لقد وصلت رسالتك في الوقت المناسب. في الوقت المناسب حقا، لأن سفينتي «بروميثيوس» البخارية سوف تقلع بعد ثلاثة أيام، تحت قيادتي. لو عزمت على الأمر، لن يكون لديك وقت حتى لتفكر في ذلك أكثر من اللازم. إنها أحسن طريقة للقيام بهذا النوع من الرحلات، ألا نتردد، مثل السباحة في النهر في عزّ الشتاء. مرعبةٌ، لكنها تقوي الجسد وتنعشه. لن تندم، أؤكد لك ذلك. ستكون جزءا من نجاح خالد: تدشين «خط العبور»، وهي طريقة سريعة وآمنة للسفر بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي. لقد شرحتُ لك الأمر، أتذْكرُ ذلك؟ إنها رحلة إلى عالم لا يمكنك حتى أن تتصوره، يا سيدي. إنها المناطق المدارية، موسْيو ديمولانْ. هذا هو العالم الجديد الحقيقي. ونهر سانْ خْوانْ في نيكاراغوا منظر رائع. ماذا تقول؟ هل تسافر لوحدك أم رفقة خادمك الشخصي؟

نظرتُ إليه مرهقا أكثر من أي شيء آخر. كان ذهني يدور ويركض فاحصا مساوئ الأمر ومحاسنه. ليس لدي ما أفعله في نيويورك، قلت مع نفسي. من الأحسن أن أرحل قبل أن أتأكد من أن أحدهم يريد أن يغتني على حساب حريتي. لكن،

كيف أرحل على هذا الوجه من السرعة. وما الذي يمنعني من ذلك؟ لا شيء يشدني. أذهب لوحدي، دون إبراهيم؟ هل أودعه؟ لكن من الأحسن ألا أخبر أحدا بمكان تواجدي؟ هذا السرُّ سوف يستُرُني، ولن يستطيعوا ملاحقتي. لن يتمكنوا من العثور علي. سأختفي حقا. سأتمكّنُ من نسيان هذا الخوف الذي يلاحقني ويجعلني أرى رُؤى كثيرة. سأهرب حتى من الهلوسات التي تلاحقني. سأرى جغرافيات مختلفة. سوف أتعاطى لعلم النبات، ودراسة الأعشاب وأنواع الحيوانات. لكن لا شيء آمن ومضمون. يمكن أن أهلك أثناء المحاولة. وكيف سآخذ معي ما لدي من مال؟ سأكون مضطرا للعمل. أي عمل أستطيع القيام به؟ كيف أتدبر موارد عيشي في كاليفورينا؟ كم من الأخطار ستتعرض لها حياتي؟ لا أظن أنها ستكون أكثر مما تواجهه الآن. على الأقل، لن يكون هناك سجن في هذه الطريق. طريق «العبور». وهذا الاسم يبدو لي أكثر من مناسب للتعبير عن ظروفي.

ـ أقبل ـ قلتُ ـ لكني أحتاج لأن أطلب منك بعض الأمور.

ـ تفضّل.

ـ لا أريد أن يظهر اسمي في لائحة الركاب. انظر، جئت من فرنسا هاربا من عائلة المرحومة زوجتي (التي توفيت خلال وباء الكوليرا في باريس) وهم يطالبونني بجزء من ثروتي. أريد أن أختفي، هل فهمتني؟ لا أريدهم أن يعثروا علي.

ـ ليس هناك أي مشكل ـ قال، متفهما ـ أعرف هذا النوع من المحن. أهذا كل ما في الأمر؟

ترددتُ. كنتُ على وشك أن أفرغ على فانْديربيلْتْ ما ينكّد حياتي من قلق وغيظ، لكني تمالكت نفسي.

ـ هذا كل ما في الأمر ـ قلتُ.

كانت عيناه تتطايران شررا من تحمسه للرحلة. يصعبُ عليه أن يظل هادئا. في مكتبه، تمكنت من رؤيته بشكل أفضل. كان طوله أكثر من ستة أقدام، وتشعُّ منه ثقة، وسلطة وهيئة رجل شاب رغم شعره الأشهب ورغم العذرين المتدليين كأنهما عذريْ وجه أحد شيوخ الكتاب المقدس. نهض ليأخذ سيجارة من فوق مكتبه. أشعلها وسحب منها نفخات كبيرة. لن يكون هو الرجل الذي يمكن أن يشي بي، لكني فضلتُ الصمت.

ـ أرى أنك بقيت صامتا. ربما أطلب شيئا منك كثيرا ـ قال ـ لا وجود لمغامرة من دون مخاطر، لكن سبق لي أن كنتُ في نيكارغوا وأؤكد لك أننا سنوفر وقتا كثيرا بعبور ذلك النهر.

ـ لا أخشى شيئا، أيها العميد البحري، صدّقني. فقط كنتُ أفكر في الاستعدادات. في أي ساعة علي أن أكون في الميناء وأين بالضبط؟

ـ إن سفينة «بروميثيوس» ستقلع من ميناي يوم ١٤ من تموز. تقدم إلى هناك وقل لأحد البحارة أن ينادي عليّ. إن لم أذهب شخصيا لاستقبالك، سأبعث أحد التابعين لي ليدلك على حجرتك في السفينة. احمل معك ملابس خفيفة وقبعة عريضة جيدة. الجو حار والشمس قريبة عند خط الاستواء. وقفَ ومدّ لي يدهُ. صافحني بحرارة وربت على كتفي. هيا، يا صديقي، لا شيء أحسن لراحة بالك من وضع بحر بكامله بينك وبين همومك ومشاكلك.

غادرتُ المكتب رفقة الشاب الذي رافقني، والذي عرض علي أن يحملني في طريق العودة إلى الفندق، وهو ما رفضتُه بأدب ولياقة. يمكنني أن أعود لوحدي، قلتُ له، وأنا أشكره على تفضله. لكني لم أكن قد قررت خطة عملي. قد يتحتّم علي أن أرى إبراهيم ثانية. ينبغي أن أفكر في حيلة تجعله يخرج، فأجمعُ أغراضي وأغادر الفندق. وفي تلك الليلة بالضبط يمكنني أن أحلّ بنُزل صغير قرب مرفأ فانْديربيلْتْ، في الجزء السفلي من مانهاتن. كنتُ بحاجة إلى حضور البديهة حتى لا يلاحظ

إبراهيم أي شيء غريب في تصرفاتي. كان يملك ما يكفيه من المال ليعيش بضعة أسابيع من دوني؛ بعد ذلك سيجد مصيره وسط الإيرلنديين. لحْظتها شعرتُ بحقد كبير تجاه كل الجنس الأنثوي ونحو كل ما تمارسه علينا النساء من سلطة مخاتلة. وبصفتي أبا لعدة نساء فقد حاولتُ أن أكون سخيا وشهما مع النساء. لا أتفق مع من لا يرون في النساء غير موضوع للذة أو الخدمة، أو يعتبرونهن كائنات عادية وتافهة، لا يستطعن التفكير سوى في مظاهرهن أو في البحث عن زواج مناسب. كان يحيرني كيف يجمعن بين الفكر العملي والرومنسية التي كن يتصورن بها أكثر أوهامهن سخافةً. لكني كنتُ أندهش لضراوتهن، وقدرتهن على حبْك الانتقام بعناية فائقة كتلك التي يستعملنها في التطريز. ليس أكيدا تماما أنهن يمثلن الجنس الضعيف. ولحسن الحظ أن أغلبهن لسن واعيات بما يتمتعن به من قوة.

الفصل التاسع والعشرون

في طريقي إلى فندق أستور هاوس، وأنا أحث الخطى في شارع برودواي الذي تحف جنباته عدة محلات لبيع الكتب، والمجوهرات، والآلات المنزلية، والمطرزات، والقبعات، والأنْزال، والحانات والمطاعم الصغيرة، كنتُ أمشي متحاشيا الأزبال. لم تكن نيويورك قد نجحت بشكل ملائم في تدبير ما تنتجه من نفايات وأزبال، فتتراكم الأوراق والقمامة عند نهاية اليوم. كانت المحلات التجارية قد أغلقت أبوابها والساعة تشير إلى الثامنة وخمس وعشرين دقيقة. الأشخاصُ المتحمسون، الذين كانوا يتحركون بحيوية قبل ساعات ويذرعون الشارع صعودا ونزولا، بدوا متعبين، مقوسي الظهر، وقد أرخوا ربطات أعناقهم أو نزعوها، وصارت ملابسهم ذابلة أو وسخة. ولم يكن يغيب عن المكان، مع ذلك، شبان وشابات يغادرون الحانات في جماعات صاخبة، وحوذيون يعبرون الشارع الرئيسي رفقة زبائن متأنقين يتوجهون لتناول العشاء. بالكاد كان الليل يظهر في سماء الربيع الصافية.

كما تصورتُ، كان إبراهيم ينتظرني في بهو الفندق، خدوما وودّيا كعادته. خلع عني العباءة الخفيفة والقبعة.

ـ كيف قضيت ظهيرتك، موسْيو؟ ـ سألني، وهو يتقدم بالقرب مني نحو السلاليم.

ـ نمت قيلولة طويلة، يا إبراهيم. لم أستيقظ سوى نصف ساعة قبل الآن، ثم خرجتُ أتجول كي أمطّط رجْليّ. والغريب أنني مازلت أشعر بالعياء.

ـ عادة ما يحدث ذلك ـ ابتسم بودّ ـ ومازال يحيرني لماذا كلما نام المرء كثيرا، كلما ازدادت رغبته في النوم.

رؤيتُه إلى جانبي، رؤيةُ وجهه بلون بشرته النحاسي الجميل، وعينيه الداكنتين تحت حاجبيه العريضيْن، وطريقة ابتسامته، الصادقة والبشوشة، كانت شيئا آلم قلبي. كيف تجرأتُ على أن أظن سوءا بهذا الرجل؟ من قصر اللكسمبورغ الذي غادرتُه مُحتضرا، مرورا بجزيرة وايْت، وكليمونت هاوس، ولندن وليفربول، وعبور المحيط الأطلسي، لم يخامرني قط أدنى شك في أنه كان يحميني. لكن، على أي أساس غير تصوري الخاص بنيتُ يقيني؟ كان إبراهيم قد خدم بإخلاص مادامْ أديلاييدْ. وبأمر منها قبل أن يعتني بي ويُعيد لي صحتي وعافيتي، لكن عندما توفيتْ، ظل هو إلى جانبي حتى دون أن يتردد في الأمر، كما لو أنه بدل القيام بمهمة كلفته بها نبيلة كانت تحميه، كان ينفذ إرادة أُمّ تحتضرُ. كاسيدي! كاسيدي! لا بد أنها هي المسؤولة عن كل هذا. لا تبدو كذلك. كانت الفتاة ذات مظهر طيب، ولكن ما أدراني أنا. هانْرييتْ بدورها كانت تبدو كائنا طاهرا. ولم أكلفها سدى أن تعتني بأبنائي لمدة ست سنوات.

صعدنا في صمت.

ـ أتعرف ماذا، يا إبراهيم؟ أشعر بشيء من الجوع. أشتهي أن آكل بعض النقانق كتلك التي تناولناها في الحانة الإيرلندية مع الجعة. لا أريد أن أطلب شيئا إلى الغرفة. لا أرغب في تناول طعام العشاء في الفندق. سأكون ممتنا لك لو ذهبت وجلبتها لي وتأخذ لك بالمناسبة جعة على حسابي ـ ثم مددتُ له النقود.

ـ طبعا، موسْيو ـ ابتسم بمرح ـ سأعود بعد حين.

ـ إلى اللقاء ـ قلتُ وأنا أكبح رغبة معانقته. بدأت أصيرا عاطفيا. الآن، وأنا بحاجة للقوة، لا يمكن أن أسمح لنفسي بمثل هذه الأحاسيس المفرطة. أغلقتُ الباب. أكيد أنني سأشتاق إليه. لم يسبق لي قط أن وجدتُ نفسي من دون أي أحد في خدمتي، مستعدا لينشر ملابسي، يرتب أغراضي ويلبي حاجاتي اليومية. لكني كنتُ على وشك أن أبدأ حياة جديدة، وقد أجد أمورا أخرى تعوضني عن ذلك. لم يكن مجديا أن أندم على عدم ترك أي أثر. ثم إنه كان علي أن أتصرف بسرعة. أعددتُ

الحقيبة. تركت الملابس الشتوية باستثناء شال الكشمير. بعد لحظة تردد، طويتُ بعناية ملابسي الرسمية الأنيقة وأخذتها معي. وداخل الأمتعة، احتفظتُ بالذهب الذي ربما ألجأ إليه لأبدأ أي حياة جديدة قد تأتي لتُلاقيني.

فوق السرير، قرب النقود الضرورية لتسديد حساب الفندق، تركتُ ورقة كتبت عليها هذه الفقرة المقتضبة:

لستُ أدري إن كنا سنلتقي مرة أخرى. كانت رفقتُك شيئا لا يقدر بثمن. أشكرك على كل شيء جميل فعلته من أجلي. تجد هنا المال لتسديد ما عليّ من ديون. ولتكن الحياة رحيمة بك.

ج.

الفصل الثلاثون

أخذني أحد الحوذيين إلى نُزل قريب من المرفأ الثاني من مرافئ فانْديربيلْتْ، في شارع كنال ستريت. لم أنتبه كثيرا إلى المكان. كانت الغرفة ضيقة، والورق الذي يغطي الجدران متقشرا، لكن السرير كان مريحا والملاءات تفوح منها رائحة النظافة. خلعت ملابسي، أخرجتُ من الحقيبة مبذلي ولففتُ نفسي بداخله. كان الليل رطبا وباردا وتهب ريح تحملُ معها أصواتا بعيدة من المرافئ، وأصوات زمارات السفن في نهر هودسون وتغاريد الطيور ليلا في حديقة «واشنطن بارك» قريبا من هناك.

استلقيتُ على ظهري فوق السرير ثم أغمضت عينيّ دون أن أتمكن من النوم. كنتُ على وشك أن أبحر مع رجل بالكاد أعرفه نحو مستقبل مجهول في مناطق مدارية، وأنهار تصب في بحيرات ثم في المحيط الهادي. كان الإبحارُ من نيويورك إلى كاليفورنيا هو المغامرة الأكثر شيوعا وقتئذ. وكان هناك حديث عن مكان بعيد يسمى سان فرانسيسكو، مدينة من دون نظام ولا قانون، لكنها تنمو تحت تأثير وعد الذهب. مئات المهاجرين كان يفدون من بلدان قصيّة أو من شرق الولايات المتحدة، يقومون برحلات طويلة، يعبرون مضيق ماجلاّن، يركبون محيطات تهز السفن وترفع أمواجا عاتية لا يستطيع مخورها دون غرق سوى قُوّاد البحر المحنكون. لو لا فرصة السفر مع شخص مثل العميد البحري فانْديربيلْتْ، الذي كانت مواهبه البحرية أسطورية في نيويورك، أظن أنني ما كنت لأركب غمار مغامرة عبر تلك الطريق التي تعبر نيكاراغوا. كان فانْديربيلْتْ من رواد الملاحة البخارية، ومن أول من قادوا سفنا لها عجلات ذات قواديس عبر نهر «إيست ريفير»، هودسون، وقناة إيري. كانت حكايته ذات أبعاد أسطورية. منذ سن الحادية عشر كان يستعمل قاربا صغيرا يقطع على متنه النهر ليبيع خضر أسرته في مانهاتن. وكانت ثروتُه الكبيرة نتاج مجهوده الخاص، مهارته في مزاولة التجارة وقدرته على الابتكار.

ماذا سأفعل أنا في سان فرانسيسكو؟ لم تكن لدي أدنى فكرة. مرة أخرى شعرتُ بموجة الوهم التي غالبا ما تجتاحني حين أتذكر ماضي حياتي المختلف تماما عن حاضرها. المبذل الحريري، الرائحة والإحساس بملمس الثوب على جلدي كان هو الطقس الذي يساعدني على الانغماس في النوم. فكرتُ في نفسي مرة أخرى وأنا في غرفتي بشارع فوبورغ سانت هونوري. سأستيقظ حين يدخل أوغوست شاربنتييي حاملا صينية الفطور، ويرفع الستائر. كانت فاني وابني الصغير ريناردْ يتحركان في هذه النسيج المخاتل للاوعي؛ هي تنظر إلي بعينيها القرفيتيْن، المُتفحصتيْن، وشرارة العتاب فيهما مشتعلة كأنها شمعة لا تنطفئ أبدا. ريناردْ بلباسه البحري يحررني من نظرات أمه، ينادي عليّ كي آخذه ليلعب في نافورة ساحة لاكونكورد أو في حديقة تولوري. في هذا النوم المضطرب، كان جلدُ فاني الأبيض، وثنيات وسط نهديها المكتنزين يتغيران فجأة ليصبحا صورة تلك المرأة المضرجة بالدماء التي رأيتُها عندما أيقظتني الجلبة ودخلتُ غافيا إلى الغرفة حيث كانت هي وهانْرييتْ تخوضان مواجهة غير متكافئة؛ فكانت المرأة المحتضرة والمرأة المعتدية مجردتين من أي أثر إنساني؛ كانتا لبؤتين تمزقان بعضهما البعض بضراوة، وتريد كل واحدة منهما، عندما وصلتُ، أن أكون أنا من يُجهز على الأخرى، وأنحاز لواحدة منهما. يا للهول! يا إلهي! يا للخوف الذي انتابني! أصبحت وحشا بدوري. صحيح أنه، طوال حياتي الزوجية، دفعني الغضب لأكسر حليّ فاني، ومظلاتها أو أن أحد من اتصالها بأبنائنا معا، لكن ما كنتُه تلك الليلة والشمعدان في يدي كان قمة ضجري وذروة استيائي. كنتُ وحشا مقتنعا، بشكل مفارق، بأنني أتصرف بدافع الشفقة لأحرر تلك الضحية المسكينة من مزيد من الطعنات ومن الحقد الجامح لعشيقتي المجنونة.

ليْلتها، لمدة لحظة واحدة، كنتُ متبصرا بأنني وقعت في فخ. وترددت فكرةُ وقوع مسؤولية تلك الجريمة عليَّ مثل طنين حشرة ضخمة في ذهني فشلّتْني. حاولتُ أن أحرق في موقد النار منديلا مضرجا بالدماء وقطعة حبل انتزعتُها من يد فاني،

لكن البيت كان قد امتلأ بالضجيج، والخدم بدأوا يصلون مهرولين.

متظاهرا بأنني قد استيقظت للتو، خرجتُ لأحضر إلى المشهد. كانت خادمات سيدة البيت يصحن ويبكين.

هل أستطيعُ أن أسامح نفسي في يوم من الأيام؟ هل سيتمكن دماغي من محو تلك الصور؟ هل ستختفي الروائح، والأصوات التي كانت تحاصرني بسهولة كبيرة وعلى نحو متكرر؟ هل سأتمكن يوما من نسيان ما عشتُه؟ بحثا عن هذا النسيان سأبحر قريبا.

نهضتُ فجرا. بالكاد تمكنتُ من أذوق طعم النوم. كنتُ أرى واحدا تلو الآخر أخطار تلك الرحلة التي كنتُ على وشك ركوب غمارها. لا يمكنني أن تفاداها جميعا، لكن معرفتي الطبية أوحتْ لي بأن أتزود ببعض الأدوية الأساسية. كان أكثر ما أخشاه هو المَلارْيا. قرأت ما يكفي عن تلك المناطق التي سنعبرها لأعرف أنها كانت آفة مدارية. كنتُ أعرف مادة الكينين. كان والدي صديقا مقربا من بْيير جوزيف بيلوتييه وجوزيف بيانينمي كافينتو، ذانك المقاولَيْن والصيدلانيين الباريسيين المرموقين اللذيْن أنشآ سنة ١٨٢٠ معملا لصنع دواء الكينين على شكل غبار. أتذكر أنه حدثني عن تلك الشجرة التي كانوا يستخلصون من قشرتها مادة الكينا، وإن لم تخني ذاكرتي فإن هذه النوع من الشجر ينمو في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية بالضبط. لكن معرفتي بالشجرة قد لا تعالجني إن ألمّ بي المرض. الشيء الأكثر ضمانا هو أن أحصل على مادة الكينين من إحدى الصيدليات قبل أن أرحل. كانت الصيدليات كثيرة في شارع برودواي. وقد أثارت انتباهي صيدلية واحدة على وجه الخصوص، هي صيدلية هلمود، في رقم ٥٩٤ من نفس الشارع، حتى أنني كنتُ أقضي فترات زوال بكاملها وأنا أمر عبر رفوفها أشاهد ما يعرضه هذا المحل التجاري الكبير من بذخ حيث، بالإضافة إلى الأدوية، كانت هناك قوارير العطر، رفوف عليها مواد الحمام، كراسي مغطاة بالحرير، مرايا عالية، مشروبات غازية ومجلات للزبائن. لحسن الحظ، كانت الصيدلية مزودة بالأدوية بشكل جيد. ومن بين القوارير الجميلة كانت تبرز قارورة دواء الكينا. وعلاوة على هذا، كانوا يعرضون أحدث دواء مضاد للحمى، الأسبرين، الذي كان يناسبني جدا أن آخذه معي. لم أضيع وقتا. ما إن دقت الساعة الثامنة صباحا حتى خرجت، بحثت عن حوذي وتوجهت من جديد نحو برودواي. طلبت من الحوذي أن ينتظرني. لم أكن أريد أن أمشي في الشارع وأخاطر بلقاء إبراهيم صدفة. في الصيدلية، لم أستطع مقاومة غواية التزود بأدوية مختلفة لعلاج الإسهال، وآلام الكبد، وأوجاع الرأس، والدوار. ولم أكن أفكر تماما في أن عملية شراء تلك الأدوية، التي قمت بها بدافع من غريزة البقاء، سوف تكون هي أساس مساري في ممارسة الطب.

عند منتصف نهار يوم ١٤ من تموز من سنة ١٨٥١، حضرتُ في الوقت المحدد إلى المرفأ. لم يكن من الصعب العثور على سفينة «بروميثيوس». كانت سفينة ضخمة، لها مدخنتان عاليتان، عجلتان من الخشب المصقول، مولدات بخار نحاسية بأفرانها المشتعلة وأكوام من خشب الصنوبر التي تزودها بالمحروقات متراصة على الجوانب. كانت ألوانها السوداء والصفراء تلمع تحت الشمس وفوق الصاري يرفرفُ علم أمريكي من الحجم الكبير. كان يتجمّع حشد كبير من الناس ليستمتعوا بالنظر إلى الباخرة ويودعوا العميد البحري في الرحلة الأولى التي ستدشن «طريق العبور» التي ما فتئت جرائد المدينة تتحدث عنها لعدة شهور. كان صحفيون يتأبطون كراساتهم وهم يتكاثرون قرب السفينة، يجرون مقابلات مع من يقتربون منها. كيف أستطيع أن أمُرّ وأبلغ قنطرة الولوج الصغيرة دون أن ينتبه لي أحد؟ كنتُ أفكر في هذا الأمر عندما دفعوني ورأيتُ امرأة جذابة تشقُّ طريقها بصعوبة. كانت ترتدي فستانا أبيض به بعض التفاصيل السوداء عند المعصمين والعنق وتحمل شمسية تتناسق مع لباسها وقبعتها.

ـ اسمحي لي بأن أساعدك ـ قلتُ وأنا آخذ من يديها الحقيبة الصغيرة التي كانت تحملها. نظرت إلي مندهشة، لكنها لم تتجنّبني. كانت لها عينان غائرتان داكنتان، وشفتان بلون أحمر لامع.

ـ هذا شأنك إن كنت تريد مساعدتي ـ قالت لي ـ أنا قادرة على القيام بذلك لوحدي على أحسن وجه.

رغم هيئة المكتفية بذاتها، ابتسمت المرأة وقامت بحركة عدم اكتراث بكتفيها. فكرتُ أنها ليست غريبة عن أدب الرجال وتساءلت إن لم تكن ثقتها تعود إلى أنها في انتظار من يرافقها لتصعد إلى السفينة. لكن قدري كان قد كُتب. عدّلتُ استقامة ظهري واستعدَدْتُ لأظهر كأنني زوج أو خطيب الآنسة.

لحسن الحظ، منعتني العجلة من التصرف بشهامة كي أجعلها تمر قبلي. محملا بحقيبتي وحقيبتها، كنتُ على عجلة من أمري لأصل إلى سطح السفينة. بلغتُ السلم الصغير قبل السيدة وتقدمتُ دون أن أنتظرها. وفي تلك اللحظة بالضبط، جرى نحوها ذلك السرب من الصحفيين وأوقفوها.

ـ ميسْ كاشمان، ميسْ كاشمان، هلاّ أدْليت لنا ببعض الكلمات ـ صاح رجل طويل القامة وهو يشهرُ كراسة ملاحظاته.

تمكنت من أن أدير جسدي بأناقة. ولم أتوقف عن الصعود.

كما أمرني فانْديربيلْتْ، تقدمتُ أمام الضابط الأول على متن السفينة، رجل ذو وجه طويل، أنف بارزة، وعينين غائرتين، كان يستقبل الركاب فوق السطح. اسمه بْرايان باول. حيّاني بمصافحة حارة ودون أن ينتظر مني أن أقول شيئا، سألني إن كنتُ سأرافق ميسْ كاشمان.

ـ هذه حقيبتها ـ أشرتُ إلى المتاع مبتسما ـ هي تسافر لوحدها، إلا إذا كان أحدهم ينتظرها هناك. سامحني، ولكني أريد أن أسألك، من تكون هذه المرأة؟

ـ شارْلوت كاشمان؟ ألا تعرف من تكون؟ إنها أشهر ممثلة في نيويورك، واحدة من سيدات المسرح. وهي رجل أيضا قال مبتسما ـ تلعب أدورا رجالية وأخرى نسائية، كما تعرف ـ ثم رماني بغمزة لم أفهم معناها إلا بعد عدة أيام.

ـ هل يمكن أن أترك لك حقيبة الآنسة؟ أنا جورْج ديمولانْ ـ أضفتُ وأنا أمد له يدي.

ـ سيد ديمولانْ، كنا في انتظارك. طبعا، اتركها بين يديَّ. الآنسة ضيفة شرف العميد البحري كما أنت أيضا. سوف تتاح لك الفرصة لتتعرف عليها بشكل أفضل. العميد البحري في انتظاركم على الساعة الخامسة في القاعة الرئيسية من أجل حفل كوكتيل.

وافقتُ بانحناءة وقد استعجلتني الإثارة التي لمستها سواء في طاقم السفينة كما في الأشخاص الذي كانوا يصعدون على متنها شيئا فشيئا.

نادى الضابط الأول على بحار وأمره بمرافقتي إلى المقصورة.

كانت سفينة «بروميثيوس» تختلف تماما عن سفينة «س.س. أتْلانتيكْ» التي سافرت على متنها من ليفربول إلى نيويورك. كان فانْديربيلْتْ قد تكلف مستفيضا بالسهر على تصميمها. البحّارُ الذي رافقني، هوبْسْ، استعرض بفخر تفاصيل السفينة: كان لها هيكل صلب من خشب البلوط وصُمّمت كي تستحمل تلاطم الأمواج في أعالي البحار. نزلْنا عبر روْزنة ضيقة تؤدي إلى سُلّم رائع يُفضي بدوره إلى المقصورات والقاعات. كانت المقصورات تصطف على ميْمنة السفينة وميْسرتها. وفي الوسط، بعيدا عن ممرات الغرف، كان ينفتح فضاء به قاعتان يستمتع فيهما الركاب، بالإضافة إلى قاعة أكل. حسب ما قاله لي، سنكون مائتي شخص في هذه الرحلة، بين الطاقم والضيوف. كان السقف مزينا برسم ذي أشكال هندسية يشبه زجاج ملونا به زخارف وأزهار. في الوسط، كانت هناك قبة زجاجية تزود المكان بالضوء. كان ذلك هو طابق ركاب الدرجة الأولى. وفي الطابق السفلي، حسب ما أخبرني، كانت هناك المقصورات الخاصة بركاب الدرجة الثانية والثالثة، الذين كانوا يسافرون

في ظروف مريحة، ولا يتكدسون كما في حكيتُ له عمّا عاينتُه عندما سافرتُ من أوروبا. وفي مقدمة السفينة ومؤخرتها، كان المطبخ، ومساكن الطاقم والأقبية التي تُخزن فيها الأمتعة ومؤونة الرحلة. كانت مقصورتي صغيرة وبها زوْزنة يدخل عبرها ضوء النهار، سرير لشخص واحد، طاولة سرير، ومستودع خاص لوضع أغراضي الشخصية. كما كانت تتوفر على مغسلة، ومرآة وكرسي ذي مسند مبطن بقماش أحمر وضع في الزاوية. وفوق الأرضية سجاد به رسومات تشبه تلك التي تزين سقف القاعة الكبرى، وهو ما كان يكمل هذا التزيين. بعد ليلة من الأرق، قررت أن أتمدد لحظة وأنتظر موعد الكوكتيل. لم يخطر على بالي أن أُخْرج الملابس من الحقيبة، بحيث، بعد بضع ساعات من الاستراحة، تأكدتُ أنه ينبغي لي أن أرتدي ملابسي، فلم أستطع تغيير شيء آخر غير القميص لأن بقية الملابس كانت منكمشة. علي أن أتعود على أنه لا أحد غيري يخرج ملابسي من الحقائب!

عندما خرجتُ إلى القاعة الكبرى في السفينة، كان عدة ركاب يتحلّقون حول العميد البحري فانْديربيلْتْ. كان يبدو كلاسيكيا في لباس القيادة الأزرق. ونظرا لطول قامته، كان يرتفع فوق الحضور ليهمين مسيطرا بشخصيته الجذّابة. تفحّصته لوقت قصير قبل أن أنضم إلى مجموعة من الرجال والنساء الذين، بالإضافة إلى فانْديربيلْتْ، كانت تبرز بينهم ميسْ كاشمان بأسلوبها وثقتها في النفس. كانت هي الوحيدة التي تنظر إلى العميد البحري ومن يتحلّقون حوله بطريقة ساخرة. كانت هي أول من انتبه لحضوري فاقتربتْ مني.

ـ اعتقدتُ أنك قد غادرْتَ وأخذْتَ حقيبتي ـ قالت مبتسمة ـ يسرني أنك لم تكن لصا، يا سيدي.

ـ كما تريْن ـ قلتُ ضاحكا ـ أنا حرامي يحظى ببعض الامتيازات. جورْج ديمولانْ في خدمتك ـ أضفتُ مع انحناءة من جسدي.

ـ شارْلوت كاشمان ـ قالت وهي تمدُّ لي يدا قبّلتُها مغازلا ـ فرنسي أنت، أليس كذلك؟ لكْنتُك وشهامتُك يشيان بذلك.

ـ أنا من باريس، أجمل مدينة في العالم.

ـ روائحها كريهة بعض الشيء ـ قالت مبتسمة.

ـ ليست نيويورك أقل من ذلك ـ أجبتُها.

ـ ولكن هذه المدينة من حقها أن تكون كذلك، لأنها حديثة العهد.

ـ أصبْتِ، يا سيدتي. لقد علمتُ أنك ممثلة كبيرة.

ـ من حين لآخر، أستطيع أن أخلق هذا الوهم.

اقترب منّا فانْديربيلْتْ وقد ترك حاشية المعجبين به.

ـ سيد ديمولانْ. أرى أنك قد اتخذت قرارا حكيما. مرحبا بك على متن سفينة «بروميثيوس». في وقت وجيز، استطعتَ أن تفوز بصُحبة جيدة.

ـ لقد حمل حقيبتي، يا كورنيلْيوس! وقد كنت أقول له بالضبط كم كنتُ مسرورة لأنه لم يكن لصا.

ـ ها ها ها! ـ ضحك العميد البحري ـ ما رأيكما في سفينة «بروميثيوس»؟ روعة، أليس كذلك؟ ١٥٠٠ طن، ٢٣٠ قدما من العرض. بالإضافة إلى مولدات بخارية وعجلات ذات قواديس، تتوفر السفينة على أشرعة إضافية. كان صديقي جوزيف ألينْ يقول لي إن سفينة «بروميثيوس» تمشي فوق الأمواج كما يسبح البط فوق الماء. حتى عندما هاج البحر لم يتبلل سطح

السفينة، لأن علو المقدمة يعادل ثلاثة أسطح متراكبة! لقد سبق لنا أن مخرْنا عباب هذه الطريق البحرية يوم سافرنا إلى نيكاراغوا للحصول على رخصة تأسيس شركة «طريق العبور». غريب ذلك البلد. يبدو أن مواطنيه عاجزون على أن يتفقوا. نشبتْ بينهم من الحروب أكثر مما أستطيع ذكره. لكن طبيعة البلاد خلابة وخضراء، سترون البحيرة الشاسعة ونهر سانْ خْوانْ بضفافه التي تعج بالنباتات المدارية. وتلك الغابات، يا صديقيّ، تضم من الحشرات أنواعا لم يسبق لكما أن رأيتماها، لكن إذا ما قورنت بطريق باناما، فإن طريق نيكاراغوا تبدو متعة. والبعوض هناك أكثر احتراما وأدبا! أما عبور باناما فأقل ما يصيبُ المرء أثناء القيام به هو المَلارْيا!

هكذا بدأتُ تلك الرحلة، التي استمتعتُ خلالها بأحاديث مطولة مع العميد البحري. كما كان الشأن مع ميسْ كاشمان وعدة مسافرين مهووسين بحمى الذهب، المتوجهين إلى سان فرانسيسكو. ساعدتُ الطبيب على متن السفينة في علاج رجال، ونساء وأطفال مصابين بدوار البحر والتقيؤ أثناء الرحلة البحرية. ورغم أنني كنتُ أفكر في أنه لا أحد قد يخطر على باله أن يبحث عني هناك وأطمئن لذلك، إلا أنني لم أخفف من الاحتراس. حرصتُ على ألا أكشف عن نفسي سوى ما هو ضروري. بقي العميد البحري مندهشا لمعارفي الواسعة حول علم النبات والأعشاب الطبية. تحدثنا عن سْكييرْ. وحدثني عن صداقته بعالم الطبيعة توماس بيلْت.

ـ كان كل تركيزي منصبا على الأعمال، لكنني في المستقبل أود أن أجرب مواهب أخرى، رغم أن ميولاتي هي البحر والملاحة، والمولدات البخارية، والعجلات ذات القواديس، والسفن. وعزائي في ذلك أنه، من دون ناس مثلي، أنتم لا تستطيعون السفر إلى حيث ترغبون.

رست سفينة «بروميثيوس» في ميناء هافانا للتزود بالمؤونة والحطب، لكن فانْديربيلْتْ لم يسمح للركاب بالنزول إلى اليابسة. كان هدفُه أن يثبت أنه يمكن العبور من محيط إلى آخر في زمن قياسي، ورغم استياء المسافرين، الذين كان بودهم أن ينزلوا، فقد كان حاسما في رفضه، مدعيا أن شيئا كهذا قد يعني تأخيرا كبيرا. وكان على حق. احتفظتُ بصورة «كاستييو ديل مورّو» في هافانا، وهو حصن رمادي شيدهُ الإسبان سنة ١٥٨٩ فوق جبل يمتد داخل البحر. كان اسمه الأول هو «حصن الملوك المجوسيين الثلاثة لجبل مورّو». كان بناية ضخمة ذات أسوار شاهقة لا بد أنها كانت تجعل منه حصنا منيعا. ومع ذلك، كما أخبرني بريان باول، الضابط الأول على متن السفينة، كان الإنجليز قد استولوا عليه سنة ١٧٦٢، ولم يعيدوه للإسبان إلى سنة بعد ذلك، بعد التوقيع على معاهدة بين الطرفين.

وكلما كنا نبحر ونقترب من خط الاستواء، كانت ألوان الغروب تصير أكثر فأكثر قوة. وكان غروب الشمس في هافانا قد دفع قسطا كبيرا من الركاب إلى الصعود إلى سطح السفينة. رؤيةُ حصن «المورّو» بمنارته وبرجه الشاهق تحت الضوء العاكس لسماء مشتعلة بطبقات من السحب تبدو كأنها تسجل عصورا جيولوجية تمتد من اللون الكستنائي الأمغر إلى الأحمر القرمزي أو النحاسي، أثارتْ همّة ميسْ كاشمان، والسيد إشْلاكْتا وركاب آخرين، جلسوا على كراسيهم ليستمتعوا بالمنظر ويتذوقوا مشروبات الكوكتيل.

ـ أوبرا مع هذا المنظر الخلفي قد تكون رائعة ـ قالت شارْلوت ـ لو لم أفشل في أن أصبح سوبْرانو لأتحفتكم الآن بأغنية لصوت واحد ـ صاحتْ.

عند الخروج من هافانا واجهتْنا عاصفةٌ بحرية. حلّ الظلام في عزّ النهار، اشتعلت السماء بالبرق، دوى الرعد وهبت ريح قوية، فكان جوابُ البحر أن وضع حدا لهدوئه كأنما شعر بالإهانة من الصخب ووميض السماء الملبدة بالسحب. وفي وقت وجيز، وجدنا أنفسنا نبحر فوق أمواج عاتية تهز سفينة «بروميثيوس» وتتقاذفها من جهة إلى أخرى، كأنها عزلاء، ضحية يد عملاقة توجه لها صفعات قوية. كان معظم المسافرين يعانون من دوار وتقيء داخل المقصورات. تشجعتُ بفضل تجربة

سفري عبر المحيط الأطلسي، فصعدتُ وفْق ما استطعتُ إلى سطح السفينة، متمسكا بكل ما أجده أمامي، وأنا أقول مع نفسي إنني أُفضّلُ الرجّات على ما أشعرُ به من غثيان داخل المقصورة المغلقة. وما إن تمكنتُ من الاحتماء بين الكراسي غير المرتبة الموضوعة على ميمنة السفينة، حتى نظرتُ إلى أحد الصوار التي تحمل الأشرعة الإضافية، فعاينتُ لحظتها بحّارا مسكينا يفقد توازنه ويسقط في البحر. تطاير الرجل في الهواء. تمكنتُ من أن أسمع، وسط الريح المزمهرة، صيحته وهو يسقط ويرتطم بالماء. رأيتُ فانْديربيلْتْ وعدة بحارة آخرين يهرولون متمسكين بالدرابزين يحاولون إنقاذه. كان ذلك دون جدوى. لابد أن الرجل المسكين قد مات على إثر الارتطام بالماء. لا أدري كم ساعات قضيتُ، متحدّيا أيّ احتراز، مفزوعا وسط ما يشبه فناء من الكراسي نجحت في الاحتماء وراءها. هدأت العاصفة عندما بدأ النهار يطلع. خرجتُ من مخبئي، مبللا أرتجف ثم اقتربت لأرى عملية الإنقاذ الجريئة التي قادها العميد البحري. قامت سفينة «بروميثيوس» بعدة دروات حتى عثرت على جثة البحار المسكين. انتشله رفاقه من المياه فقط ليقيموا مراسيم جنازة مهيبة ثم يلقوا به في تلك الظهيرة إلى أعماق البحر وفق طقوس الدفن في أعالي البحار. علمتُ أن سفينة «بروميثيوس» لم تصب بأي ضرر، وأنها كانت في مستوى الظروف التي واجهتْها.

خلال تلك الرحلة اطّلعتُ على تفاصيل مهمة من حياة فانْديربيلْتْ. حدثني بطلاقة ومتعة واضحة عن قراره بقيادة سفينة السيد غيبونس، هودْسون، وهو قرار، كما قال، غيّر حياته، لأن شراكته مع غيبونس كانت هي بداية ثروته الخاصة. كما حكى لي أيضا عن زواجه، ضدا على إرادة والديْه، من ابنة عمه صوفْيا وكيف عهد إليها بمهمة تربية الأبناء العشرة الذين أنجباهما معا. حسب ما قال لي، كانت هي من يتحمل نفقات الأبناء بما تربحه من مداخيل النزل المسمى «بييونا»، الذي أنشآه معا. «لم أكن أقبل أن أكون الوحيد الذي تقع كل المسؤولية على كاهله» ـ أذكر أنه قال لي، بوجه مُتحدّ وساخر في الوقت ذاته. وبذلتُ جهدا كبيرا كي أمتنع عن الحديث عن أبنائي التسعة. كان فانْديربيلْتْ، بكل وضوح، أباً فاتر العواطف. كان منشغلا بأبنائه الذين لم يكن يرى فيهم أي ميزة تسمح بالتكهن بأنهم سيعتنون بالإمبراطورية التي أنشأها بمجهود كبير. أثناء حديثه، تجاهل بناته، وبالكاد حدثني عن زوجته. استنتجتُ من ذلك أنه كان نرجسيا، مهووسا فقط بمقاولاته وتنمية ثروته، ومع ذلك كان شخصية لا تنسى، رجلا قويا ومُصمّما. كانت طريقته في الكلام تجعل من الصعب علي فهمه. حين انتبه إلى المجهود الذي أبذلُه لفهم ما يقول، ضحك قائلا إن ذلك كان نتيجة ما ورثه عن أصوله الهولندية. وبالإضافة إلى البحر، والأنهار، والسفن، كان فانْديربيلْتْ متحمسا كثيرا للحديث عن شغفه بالخيول. كان قد سقط من صهوة حصانه الأشقر فألزمه ذلك الحادث الفراش لمدة ثمانية أشهر، ومع ذلك لم يفقد إعجابه بتلك الحيوانات. أظن أنه بدوره يشبه حصانا: كان رجلا لا يكلّ، سريعا، وقادرا على رؤية ما أمامه دون الاكتراث بما يجري بجانبه.

وإذا كان ما أجريته من أحاديث مع فانْديربيلْتْ قد فتح عينيّ على ما تعنيه العبقرية القادرة على تحويل كل ما تلمسه ذهبا، فإن ما جرى من أحاديث بيني وبين شارلوتْ كاشمان كان ذا حميمية مدهشة. في البداية، ظننتُها امرأة تسعى لإثارتي بل إنني تجرأتُ على غوايتها، بيد أنها لم تقصني بسرعة فحسب من لائحة عشاقها، بل أفصحتْ لي أنها لا تعشق الرجال بل تهوى النساء.

ـ منذ أن كنتُ طفلة صغيرة علمت أنني مختلفة ـ قالت لي ـ لم تكن نعومة «الأنوثة» تروقني. كنتُ معجبة بالأطفال الذكور وما يتمتعون به من حريات فأردت أن أكون مثلهم. عندما تفتّقتْ حياتي الجنسية، كنتُ أُغرم بزميلاتي في اللعب. كنتُ أحلم بلمسهن، بالنظر إليهن عاريات، بتقبيلهن. في المسرح، رفقة أختي سوزان، لعبتُ دور روميو، في مسرحية «روميو وجولييت». كنتُ روميو، يا ديمولانْ! لم أكن قط جولييت!

لم تكن شارْلوت تشعر بأي كابح لتعترف بأن جسد الأنثى كان هو مصدر كل اللذات بالنسبة إليها.

ـ أعرف تماما كيف أتعامل مع هذا الأمر ـ قالت لي ـ آه! أي جلد، وأي آهات، وأي نُعوظ يمكن مقارنتها بجلد امرأة

وآهاتها ونُعوظها! ـ قالت متنهدة ـ إن امتياز معرفتي الذاتية بأكثر مناطق المرأة شبقا، تجعل مني أحسن عشيقة يمكن لهن أن يحلمن بها. أنا صاحبةُ خريطة تلك المناطق وسيدتُها.

ـ امتياز لا يمكن إنكاره ـ قلتُ موافقا.

شرحتْ لي جهل الرجال عندما يتعلق الأمر بلذة النساء. وحدثتني عن فظاظة الرجال في عدم تعرفهم على المناطق السرية لزوجاتهم، والثقة في أعضائهم الذكورية دون أن ينتبهوا إلى أن لذة المرأة تستوجب حساسية قصوى.

ـ هل تعرف إن كانت شريكاتك في السرير ينتعظن؟ ـ سألتني ـ وهل تهتم لذلك فعلا؟

كان علي أن أعترف لها أن معرفة ذلك الأمر لم يكن يهمني كثيرا؛ قليل من النساء من يتحدثن عن نشوتهن الجنسية لأنهن يعتقدن أن الرجل يدركها بالتخاطُر تقريبا. عموما، يعتقد المرء أن مجرد أن تضاجع المرأة رجلا، وتشعر بحبه لها أو أنها تملك حرارته، يشعرها بما يكفي من اللذة. والنساء بدورهن لهن هذا الإحساس.

كان الحديث مع شارْلوت يصيبني بالقلق ويذكي في جسدي أحاسيس جنسية كان علي أن ألبيها داخل عزلة مقصورتي. كانت درسا جيدا لفحص تصرفاتي بصفتي عشيقا، وهو انبعاث سوف أجني ثماره لاحقا.

أما عن ركاب آخرين، باستثناء جونْ إشْلاكْتا، فبالكاد أحتفظ عنهم برسومات إجمالية غامضة قابلة للنسيان بكل سهولة. كان إشْلاكْتا ذا بنية قوية، قامة متوسطة، بشرة بيضاء وعينين زرقاوين. أما شعره الكستنائي فكان يعلن عن صلع وشيك ويكشف عن جبهة عريضة. كان مولعا بالأكل والجعة، التي كان يستهلكها بوصفه ذوّاقا، يصنفها ويتكهن حتى بمصدر نبات الجُنجُل المستعمل في صنعها. كانت له معرفة بالآلات والأشياء الغريبة وكان الحديث معه ممتعا. منذ البداية، شعرنا بانجذاب نحو بعضنا البعض. لم يكن إشْلاكْتا يطمح إلى الوصول إلى كاليفورنيا، ولا ينوي العثور على الذهب. حكى لي أنه يعيش مع أمه وجدّته في قرية صغيرة من نيكاراغوا تدعى ماتاغالْبا، حيت استقر حديثا لممارسة الزراعة. كان الاستماعُ إلى وصفه يجعل المرء يتخيل جنة فوق الأرض. حدثني عن مئات المهاجرين من ألمان، وفرنسيين، وإنجليز، استقروا في تلك المنطقة؛ كما حدثني عن غاباتها التي يكثر فيها الضباب، وعن جبالها، والطريقة التي يمارسون بها زارعة الكاكاو ويخططون لإدخال زراعة البُنّ، عن نسائها الرقيقات الجميلات، عن عجائب عالم بدائي حيث كان كل شيء ينتظرُ الإنجاز. كان يكره الحضارة الجديدة، والثورة الصناعية ومظالمها، كما كان يُسمي المعامل والتجارة غير الإنسانية التي، كما يقول، ستقضي في النهاية على المتع والملذات الأساسية. كان يسخر ممن يأملون أن يجدوا في الذهب معنى لحياتهم. وقال لي إن قدمهُ لن تطأ يوما مكانا مثل سان فرانسيسكو، التي تعج بالمغامرين واللاهثين وراء الثروات. فالذهب مغامرة يركبها المناجذ، قال ضاحكا، ثم إن تحمل البرد ليس من شماته. وهذا بعيد كل البعد عن إزْهار البُنّ، ورطوبة الفجر في المناطق المدارية التي لا تغيب عنها الخضرة أبدا، ولا تعرف ما هو الثلج. كانت نيكاراغوا هي أرضه، وكان يحبها.

الفصل الحادي والثلاثون

بعد تسعة أيام من الإبحار، وصلنا إلى غْرييْتاون، عند مصب نهر سانْ خْوانْ، يوم ٢٦ تموز من سنة ١٨٥١. ومن مقدمة سفينة «بروميثيوس» لمحنا ذلك العالم المجهول والمختلف عن كل ما كنا نعرفه، حيث خضرة النباتات وكثرتها كانت تبرز دون تحكم والأرض تنبعثُ منها حرارة ورطوبة. غمرني إحساس قوي وأنا أفكر أنه بعبوري نحو المحيط الهادي سأترك خلفي بعيدا أوروبا، والمحيط الأطلسي، والبحر الأبيض المتوسط. كنتُ أريد القيام بقفزة أخرى في حياتي، وأقتنع بأنني على وشك خوض تجارب غريبة، لكن الحنين والخوف، مثل رياح معاكسة، أبعداني عن مقدمة السفينة وقاداني نحو مؤخرتها، لأنظر إلى أفق ذلك المحيط الذي لن أبحر فيه مرة أخرى أبدا.

كان علينا أن نترك سفينة «بروميثيوس» كي نصعد إلى سفينة «برووير» البخارية التي ستنقلنا عبر نهر سانْ خْوانْ. كان الحجم الصغير لهذه السفينة وهيكلها المعدني سيسهلان الملاحة عبر منحدرات النهر. فوق الماء، انطلاقا من ضفة النهر، سرعان ما ظهر حوالي اثنا عشر زورقا عريضا وطويلا. كان كل زورق يدفعُه رجلان هنديان من ذوي البنية القوية، عاريَيْن تماما، يستعملان بخفة قائمتين خشبيتيْن.

وبنبرة ساخرة، اعتذر فانْديربيلْتْ أمام السيدات عن منظر الرجليْن العارييْن، وقال إن هؤلاء يشتهرون بقوتهم ومهارتهم في الملاحة. يمكنهم أن يبحروا حتى اثنا عشر ساعة وهم واقفون ويعرفون مختلف الأماكن العميقة في النهر. استغرق النزول من السفينة إلى الزوارق وقتا طويلا. وكان كل زورق يحمل بين ثمانية عشر وعشرين شخصا. كان الرجال والنساء يقومون بكل ما في وسعهم حتى لا يلمسوا، بل وألا ينظروا إلى الأهالي الذين كانوا يحملقون فينا كما لو كنا نحن الغرباء. كانت سفينة «برووير» تشبه كثيرا القوارب العادية غير العميقة التي تعبر مياه نهر هودْسون أو أي نهر آخر من أنهار أمريكا الشمالية؛ وهي قوارب لا تتوفر على كثير من وسائل الراحة، حيث يجلس الركاب على سطح تقيه من الشمس ظُلّةٌ ذات لون أخضر. حملوا متاعنا وأودعوه في الجزء العلوي حيث كانت ترتفع بنية خشبية من طابقين؛ طابق علوي حيث قنطرة القيادة وطابق سفلي حيث توضع المؤونة ويوجد المطبخ. بقينا مترقبين ننتظر إشارة الإبحار. كان المكان يتميز بجمال متوحش، وبه أشجار ضخمة يغطيها العليق والنباتات الطفيلية، وجذوع متساقطة على ضفاف النهر حيث تحط طيور البلشون البيضاء. كانت هناك وفرة من نباتات الخنشار، وأشجار النخل والكاكاو السامقة. طيور ذات ألوان حية كانت تبرز من بينها بعض طيور الطوقان بمناقيرها الطويلة والمقوسة، وتتراقص فوق الأغصان التي تتعلق بها نباتات متسلقة تنغمس في ضفاف النهر. لم يكف إشْلاكْتا عن الحديث عن الحيوانات الكثيرة وعن عجائب المناطق المدارية. وبعيدا لاحظتُ المنازل المسقوفة بالنخل في غْرييْتاون وهي تمتزج بمنازل أخرى خشبية صُبغت بالأبيض حيث يسكن الإنجليز والسلطات. كما تعرّفتُ أشجارا، مثل شجرة «ثمرة الخبز» والشجرة ذات الأوراق اللامعة التي تنتج المطّاط، وهي تنمو بعيدا عن ضفاف النهر. كان القيظ الشديد يجعلنا نتصبب عرقا. وكانت النساء تشتكي من ذلك، أما شارْلوت، دون أدنى حشمة، فقد فكت أزرار لباسها الأبيض من ثوب الموسلين، لتكشف عن كتفيها وتتنعش. أثناء انتظارنا، لمحنا تمساحا يتحرك بطيئا وملتويا عبر النهر. ووسط حيرتي وشكوكي، كنتُ شاكرا لأنني كنتُ هناك.

تحدثنا أنا وشارْلوت مع فانْديربيلْتْ عن انطباعاتنا ونحن نرى قاربا يدنو عبر النهر وفوق سطحه جندي إنجليزي يرافقه خلاسي ذو بنية قوية، أنف أفطس، عينين شديدتي السواد، ويعلو محياه تعبير غير ودّي. صعدا إلى متن سفينة «برووير» ثم تسمّر الرجل ذو الوجه العابس أمام العميد البحري.

ـ يؤسفني أن أخبرك أنكم لن تستطيعوا الإقلاع إلا إذا حصلتم منا على رخصة للإبحار عبر النهر.

ـ رخصة من لدن من؟ ـ ردّ فانْديربيلْتْ وهو يستشيط سخرية. من لدنك أنت؟ أتعرف مع من تتحدث؟ لقد سلمتني

حكومة نيكاراغوا رخصة لبناء قناة عبر هذا النهر. لديّ الحق في أن أبحر عبره دون أن يسلمني أيّ كان رخصة عبثية.

ـ أنا موفد من لدن صاحبة الجلالة، روبيرت شارْل فريديريك، ملك موسْكيتْيا. إذا أردت أن تعبر النهر فعليك أن تدفع ١٢٣ دولارا.

نظر إليه فانْديربيلْتْ من أعلى إلى أسفل. أبدى كثيرا من العجرفة والاحتقار تجاه ذلك الرجل من الأهالي، ثم أطلق قهقهة عالية.

ـ هذا الميناء تحت حماية بريطانيا العظمى ـ تدخل الجندي الإنجليزي، دفاعا عن الرجل الهندي.

ـ من الممكن أن تكون القرية تحت حماية بريطانيا العظمى ـ قال فانْديربيلْتْ ـ لكن النهر، وفق شروط معاهدة كلايتون-بولوير، منطقة محايدة ويمكن لنا، كما بإمكانكم، أن نعبره دون عراقيل، ودون دفع ولا سنتيم واحد.

ـ يمكنك، يا سيدي، أن تقول ما تشاء ـ قال الخلاسي بنبرة شجار ـ لكنك إن لم تدفع لن تستطيع المرور.

ـ انزلا حالا من سفينتي ـ صاح في وجهه فانْديربيلْتْ، وقد فقد صبره ـ عليكم أن تقصفوننا إن أردتم منعنا من الخروج!

أمسك الجنديُّ الإنجليزي مبعوثَ ملك موسْكيتْيا، الذي لوح بحركة غاضبة وهدد بأن يرتمي على فانْديربيلْتْ.

ـ سوف تندم على هذا، يا سيدي، أؤكد لك ذلك.

ـ *Sure, I will*، أكيد، سأندمُ ـ أجابه فانْديربيلْتْ، وهو يضحك متهكما.

ذهبا، لكن لم يمر وقت طويل حتى جاءت سفينة من البحرية الإنجليزية ووقفت مهددةً في طريقنا. كُنا في متناول مدافعها.

دون أن نملك القدرة على فعل أي شيء آخر غير مشاهدة ما يجري، ذهبنا نحن الركاب جماعة لنطلب من فانْديربيلْتْ ألاّ يعرض أرواحنا للخطر بسبب أقواله المتجاسرة. في الأخير، أبحر فانْديربيلْتْ في قارب نحو السفينة الإنجليزية وتفاوض معهم ليسمحوا لنا بمتابعة إبحارنا نحو «البحيرة الكبرى».

أدى لهم فانْديربيلْتْ في النهاية ما طلبوا وتمكنا من الإقلاع. لن تكون هذه، مع ذلك، هي المرة الأخيرة التي يحاول فيها الإنجليز منعه من الإبحار. عندما خرج العميد البحري متوجها إلى نيويورك بعد عدة أسابيع، طالبوه مرة أخرى بدفع ١٢٣ دولارا. رفض أن يؤدي فوجه الإنجليز حينئذ ثلاث طلقات مدفعية نحو سفينة «بروميثيوس» لم تصب هدفها لحسن الحظ. وقد أثار هذا الحادث غضب قسم الشؤون البحرية في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي تصرف وفق الروح الإمبريالية لأهل أمريكا الشمالية، فأرسل فرقاطة دمّرت القرية. وفي نشرة يوم ٢٥ تموز من سنة ١٨٥٤، نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» الخبر المدهش لقصف، وإحراق، وتدمير غْرييْتاون تدميرا شاملا من طرف السفينة البحرية «سيان»:

FURTHER FROM CALIFORNIA;

ARRIVAL OF THE PROMETHEUS.

Startling News from Nicaragua. Bombardment and Burnining of San Juan or Greytown by U.S Sloop-of-War Cyane. The Town Totally Destroyed. NO LIVES LOST. Gold Freight, $ 806, 853.

ورغم شجاعتها الطبيعية، فقد تعرضت شارْلوت لنوبة هلع خلال الحادث الأول مع مبعوث ملك موسْكيتْيا. وفي عزّ الحر تملكها بردٌ متوتر جعلها ترتعش.

ـ إننا وسط متوحشين، يا جورْج! يمكنهم أن يهاجموننا، وفانْديربيلْتْ لا يتصرف بمسؤولية وهو يتحداهم!

ضحكتُ.

ـ إنه لا وجود لآكلي لحم البشر هنا، يا شارْلوت، وكل الخطر هو أن يأكلك تمساح من التماسيح.

ـ أنت تظن أنك تعرف كل شيء، يا جورْج. أكيد أنك فرنسي! لم أكن مسرورة قط في حياتي كما كنتُ عندما رأيت أعضاء رجال مملكة موسْكيتْيا. فقط التفكيرُ في أنهم قد يخترقونني بتلك السهام أصابني بالقشعريرة.

هكذا كانت شارْلوت. امرأة ساحرة!

وبسرعة كبيرة، انزلقت السفينةُ فوق الماء وهي تسير بمحاذاة الضفة اليمني للنهر. وبعد أن نزلتْ عبر الدّلْتا، ظهر أمام عيوننا نهر سانْ خْوانْ واسعا وعظيما. فكرت فيما كان يمكن أن يرسمه فنانون مثل كورو، تورْنر أو غايْنْزْبورّو لو أنهم رأوا ذلك المنظر. كنتُ أعشق اللوحات التي تصور المناظر الطبيعة، لكن في هذه الجهة من العالم لم أكن أعرف سوى بضع لوحات لرسام شاب من الولايات المتحدة الأمريكية، فرديريك تْشيرشْ، رحالةٌ جال هذه المناطق مثلما فعل سْكيير. كان غنى الطبيعة واخْضرارُها يتناقضان مع الأكواخ التِّبْنية التي كنا نراها منتشرة على ضفاف النهر، تحيط بها مزارع أشجار الموز. صادفنا عدة قوارب محملة بعناقيد من الموز كانت تنزل لتبيع سلعتها في القرى التي لم نكن قد رأيناها بعد.

أبحرنا بعد بضع ساعات عند مدخل نهر كولورادو. كان فانْديربيلْتْ يعتبره نهرا طُفيْليا، لأنه يحمل كل مياه نهر سانْ خْوانْ ويحول مدخله في غْرييْتاون إلى شطّ رملي.

ـ لماذا تتشبث هذه البلدان الصغيرة كثيرا بأراضيها ولا تستغلها جيدا بالاتحاد فيما بينها من أجل تقاسم الثروة؟ إنه لغز يحيرني. بل إن هذه البلدان لا تتميز حتى بالعمل والجد! سترون كيف يعيشون. يكتفون بسرير معلق وزراعة الذرة والموز. إنه المناخ. لو كانت هنا فصول شتاء باردة، سيكونون أكثر ميلا للعمل. يمكن لنيكاراغوا وكوستا ريكا أن تستعملا هذا النهر لمصلحتهما المتبادلة. لكنهما، بدل ذلك، لا تكفان عن هدر الوقت في صراعات تافهة.

عند المساء، اكفهرّت السماء وهزت ريح عاصفة الملابس بهبات مطر سرعان ما سقطت فوقنا غاضبة. ورغم أن ظُلّة سفينة «برووير» قاومت فوق رؤوسنا، كان من المستحيل أن نحتمي من مطر ينزل مائلا، وتهاجمنا قطراته كأنها رشاش متطاير، ولم يبق أمامنا سوى أن نجلس مديرين ظهورنا إلى الشآبيب حتى نحمي رؤوسنا على الأقل.

رسيْنا وسط النهر، فقضينا ليلة مليئة بالكوابيس. نزل المطر في فترات متفرقة وأحاط بنا البعوض كما لو أننا جيش من جيوش الأعداء. أرسلنا النساء لينمن في المكان المخصص للأمتعة لأنه كان أكثر حماية. ولأول مرة، رأيتُ شارْلوت تفقد رباطة جأشها وتجهش بالبكاء، لتلعن كاليفورنيا وفكرة قبول دعوة فانْديربيلْتْ. أظن أنه كان الوحيد من بيننا الذي نعم بالنوم. لفّ نفسه داخل ملاءة كأنه مومياء، استند إلى مقدمة السفينة، افترش الأرض، وما هي إلا لحظة حتى انضاف شخيرُه إلى صوت المطر وصخب سفينة «برووير».

وقد لعنتُ بدوري أنه انتهى بي الأمر هناك وأنا أقدمُ دمي طعاما لتلك الحشرات اللعينة التي كان طنينُها يثقب دماغي. ها أنذا أُكفّر عن ذنبي، فكّرتُ. كنت أجهلُ إن كان هناك شخص آخر على متن السفينة يحمل أيضا عبء جريمة يجثم على ضميره. ومع ذلك، كان هناك جزء من ذاتي بدأ يحب الأحداث غير المتوقعة. لن أكون مثل ألكسندر هامبولدت الذي كانت إنجازاته محط إعجاب هاميلتون وألفريد تنيسون، لكني كنتُ أندهش أمام ما تجرأتُ على ركوب غماره منذ هروبي من باريس. صحيح أن الخوف والحاجة لعبا دورا كبيرا في ذلك، لكنه كان من الواضح أن كائنا ولد من المحن قد استيقظ بداخلي وأخذ يفرض نفسه على أناي الأخرى. أن أكون جورْج صار أمرا طبيعيا ومريحا أكثر فأكثر. وإمكانيةُ ألا أكون تييوبالْدْ مرة

أخرى لم تعد تثير قلقي. أصبح جورْج إنسانا أكثر فأكثر واقعية من تيبوبالْدْ. لم أكن أعرف بعد ما أتعاطى إليه، لكن الحياة غالبا ما تضع المرء في المكان المناسب. خلال رحلة سفينة «بروميثيوس»، ساعدتني الأعشاب الطبية والأدوية التي اقتنيتُها في نيويورك من تخفيف الآلام المحدودة التي ألمت ببعض المسافرين. لم يضيع إشْلاكْتا وقتا لإقناعي أنا وإقناع الآخرين بمهاراتي في ممارسة الطب بالتجربة. أخذتُ المسألة بمزاج جيد، واعيا بأن عناية الطبيب، أحيانا، لها خصائص علاجية وأنه على متن تلك السفينة كنتُ أنا الأكثر اطلاعا على كل ما يتعلق بالدوخة، والدوار، والزكام.

عند الفجر، رفعنا المرساة وسط أصوات مئات الطيور وضوء خافت شتّتَ شيئا فشيئا الضباب الذي كان ينتشر فوق النهر كأنه ملاءة بيضاء من البخار. كنتُ أرقبُ بمنظارٍ خروفَ بحْر يسبحُ عند الشاطئ عندما انتشر فجأة صوت، كأنه صوت ورق زجاجي يكشط الخشب، ثم انتشر عبر قاعدة السفينة وأوقف تقدمها.

ـ شطّ رملي! ـ صاح القائد وايْت ـ اللعنة!

أمر بتزويد المولدات البخارية بالخشب. رفع السرعة. أحدثت الآلات والقواديس صوتا شديدا، لكن السفينة لم تتحرك قيد أنملة. نزل فانْديربيلْتْ من مركز القيادة مغتاظا، ليرى الوضع من مقدّمة السفينة. تأكد من العمق القليل للنهر ومن انغماس السفينة داخل الرمال. بحماس، وبعينين تشتعلان عزيمة، التفت نحوي ونحو بقية الرجال من المسافرين.

ـ أحتاج لمتطوعين ـ قال بقوة ـ سيكون الأمر بمثابة دفع عربة حتى تخرج من هذا الوحل اللعين! ـ وتابع صياحه على خلفية ضجيج المحركات ثم أمر صبيا ملاّحا أن يوقف الآلات. ران صمتٌ سرعان ما امتلأ بعد بضع دقائق بطقطقات أجساد البحارة وهم يغطسون في الماء. لم يضيع إشْلاكْتا وقتا.

ـ هيا، هيا ـ قال لي ـ قد يكون من المناسب جدا لنا أن نغطس في الماء بدورنا!

لم يتوانى إشْلاكْتا ولم يتكاسل في خلع ملابسه، محتفظا فقط بسرواله التحتاني ثم ارتمى في الماء. قلدتُه تحت النظرات المستاءة لشارْلوت.

ـ هناك أسماك قرش في هذا النهر، يا جورْج. لا تكن غبيا.

ـ عِديني أنك ستخطرينني إنْ رأيْت زعانفها ـ قلتُ مبتسما، ثم ارتميتُ في الماء دون أن أكشف عن مخاوفي. لم أكن سباحا ماهرا، لكن عمق الماء كان قليلا جدا حتى أنه إذا ما صعدتُ فوق كومة الرمال التي تحبس السفينة، كنتُ أستطيع أن أمشي والماء لا يتجاوز صدري. وبشيء من التردد، ارتمى بقية المسافرين في مجرى النهر. اصطففْنا على جانبي قاعدة السفينة، وتحت قيادة فانْديربيلْتْ حرّكنا السفينة لمسافة أكبر نحو وسط النهر، ونحن نرفعها في الوقت ذاته. وسط المياه، كنا أقوياء، نشعر أننا عمالقة وأبطال. لم أشعر قط بمثابرة أكبر ولا بوحدة أهداف أقوى بين كائنات بشرية جد متباينة. فكرتُ فيما يولّده الخطرُ من أثر سحري وفي الأوامر الموزونة لزعيم يحظى بالاحترام. هكذا ينبغي أن يتحرك الجنود المصطفون أمام العدو. تخيّلتُ فيالق من الإسْبرطيّين تحت قيادة ليونيداس. ترنّحت السفينة عدة مرات إلى أن تمكنّا، بعد ثلاث ساعات من الجهد، من أن ندفعها، رفقة صيحة بدائية، نحو مياه أكثر عمقا.

بصدر عريض وبشرة لفحتْها الشمسُ، وعمر يعادلُ سبعا وخمسين سنة وقوة مدهشة، قدّم فانْديربيلْتْ الدليل على أنّ ذراعيه تستطيعان التحكم في الأمواج والتيارات المائية. شعرتُ برغبة في الضحك وأنا أرى شارْلوت تنظر إليه بكثير من الرغبة.

ـ ربما لم تحظيْ قط بالرجل المناسب ـ قلتُ مازحا، وأنا أجفف جسدي ـ ربما مع رجل مثله قد تجدين متعا أخرى.

ـ إنه يعجبني مثل تمثال إغريقي. بعذوبة المرمر. ـ قالت ضاحكة ـ إنه كاره نساء في هيئة جميلة، لكنه رجل في نهاية المطاف!

بعد وقت قصير، وبينما كنا نحن المتطوعون نستمتع بما أنجزناه بعد عودتنا إلى سطح السفينة، وقد أنعشنا النسيم الذي يهب على ملابسنا المبللة، ظهر العميد البحري رفقة مساعده الذي جاء يحمل صينية بها كؤوس قدم لنا فيها كثيرا من الويسكي الحريري ذي الجودة العالية. كان منتصف النهار تقريبا.

ـ أيها الأصدقاء، لن تكون هذه آخر مغامرة، أعدكم بذلك! خلال هذه الرحلة سوف تراكمون حكايات سترْوونَها لحفدتكم ـ ثم رفع عوليسُنا نخبا وهو يرسم ابتسامة على شفتيه.

لم يكن مخطئا. كانت الرحلة عبر نهر سانْ خْوانْ في نيكاراغوا توفر ٧٠٠ ميل من السفر الوخيم عبر باناما، لكننا كنا نعرف أنه للوصول إلى «البحيرة الكبرى» كان لابد لنا من المرور بعدة منحدرات نهرية. وبالفعل، عند منتصف الظهيرة، سمعنا هدير الماء وهو يقفز فوق الصخور. كانت تلك هي منحدرات نهر «ماتْشوكا». اقتحمتْها سفينة «برووير» دون خوف. فاختلط صريرُ هيكلها الحديدي وهو يكشط الحجارة بصياح البحّارة المنهمكين في استعمال القوائم الخشبية. ارتفع مقدّم السفينة فألقى بنا من قوق الكراسي. ثار غضب فانْديربيلْتْ فأمر بالرجوع إلى الخلف. ثم دخل من زاوية أخرى، وأنقذ بقية يومه. أخذ دفّة السفينة وأمر بتشغيل الآلات بكل قوتها حتى تبلغ العجلات ذات القواديس سرعتها القصوى. كانت سفينة «برووير» ترتعش مثل غلاية شاي. أظن أنني قد حبست أنفاسي لأكثر من مرة وأنا أفكر أي الضفتين يمكن أن أدركها سباحةً. مثل قوة من الطبيعة، لم يتراجع فانْديربيلْتْ عن قصده فشعرنا نحن الركاب بالسفينة تتقدم كما لو أنها سلحفاة عملاقة تزحف بطيئة وثقيلة فوق السيل الجارف.

قريبا من هناك، مغطى بالأعشاب والطحالب البحرية، وقد بدأ يتحول جزيرةً، رأينا الهيكل الخشبي لسفينة «أوروس»، التي غرقت في أول محاولة لعبور «طريق العبور» وهي تجتاز تلك الحواجز المعاكسة.

ـ هذا يفوق ما كنت أظن أن علي أن أتحمله ـ قالت شارْلوت محركةً مروحتها اليدوية، وقد احمرّ وجهها من الشمس، والحرارة والتوتر. كنتُ بدوري مستعدا لأرتاح من التعب، لكن فانْديربيلْتْ عاد إلى سطح السفينة تحت الظّلة، تمددّ على قدر طوله فوق أحد المقاعد ثم ضحك من قلقنا الذي كنا نُخفيه في شكل أسئلة.

ـ هل هناك من مقاطع أخرى مثل هذا المقطع النهري؟ ـ صاح ـ هذا أكيد! هناك منحدران نهريان آخران: منحدر «الحصن» ومنحدر «الثور». ثم أتمنى، بعد ذلك، أن تكون البحيرة هادئة. إنها كتلة مائية هائلة، لكن حين تهب الريح تصبح أكثر ضراوة من المحيط الأطلسي الشرس. الأمواج قصيرة، مما يقوي الإحساس لدى المرء بأنه على وشك أن يغرق. آه! لكن لا تخافوا. سوف نركب «إلْدِيريكْتورْ»، سفينتي المفضلة التي تحب المياه وتطفو فوقها بثبات مثل فارس متمرّس على صهوة جواده. يا إلهي! إنكم ذاهبون إلى كاليفورنيا. وليس هذا سوى تمرين على كل ما قد تلاقونه هناك.

تناولنا وجبة الغداء في شاطئ متسع حيث استطعنا أن نجفف أجسادنا قليلا، أن نبقى لبعض الوقت فوق اليابسة وننظر عن كثب إلى الأزهار ونباتات السرخس التي تنمو على ضفاف النهر.

عند المساء، لمحنا فوق إحدى التلال «إلْكستييو»، حصنٌ إسباني قديم، وعند قدمه القرية الصغيرة والماء الصافي للمنحدرات النهرية. أمر فانْديربيلْتْ بأن نقضي الليلة هناك. كانت القرية فقيرة رغم ما يحيط بها من مناظر طبيعية رائعة. خرج القائد المشرف على شؤون القرية لاستقبالنا. اسمُه فرناندو سيلْبا. وكان رجلا طويل القامة، أسمر ذا لحية سوداء وشاربين كبيرين، لا يتوقف عن الكلام. كان يفيض كلمات وعبارات يمزج فيها إنجليزيته المحدودة باللغة الإسبانية. روى لنا حكايات عن أشباح جزيرة بارْتولا، وعن النساء اللواتي يتحولن إلى خرفان بحر وعن الهنود الحمر، الذين لم يرهم كثير من

الناس ويعيشون في «ريّو فريّو». كانوا يسمونهم حيوانات الأغوتي نظرا لبشرته المائلة إلى الحمرة مثل لون هذه الحيوانات القاضمة.

على الساعة الخامسة صباحا، ألقوا حبالا فوق الأشجار المحيطة بضفاف النهر لتثبيت السفينة فوق السيول الجارفة. ولم يتمكن حتى فانْديربيلْتْ هذه المرة من أن يجعل سفينة «برووير» تمخـــر سيل «إلْكستييو» الجـــارف. كـــان علينـــا أن نـــرسل بحّاريْن إلى القريـــة بحثـــا عـــن قـــوارب لنزيل بعض الأثقال من السفينة ونتابع رحلتنا. لم يكن فانْديربيلْتْ يريد أي تأخير. *Time is of the essence*، الوقت شيء أساسي، كان يردد، بينما كان يشرف على جلوسنا في القوارب التي يحركها أشخاص آخرون من السكان الأصليين، يتمتعون ببنيات جسدية ضخمة. هكذا نزلنا حتى بلغنا سان كارْلوسْ، قرية صغيرة، ومرفأ على البحيرة، حيث كانت تنتظرنا «إلْدِيريكْتورْ»، سفينةٌ بخارية أكبر حجما، وتمثل صيغة أكثر تطورا من سفينة «برووير»، كما أنها نحيفة وصلبة، بها سطحان تغطيهما ظُلّةٌ زرقاء، ويرتفع فوق أحد صوارها علم أمريكي جديد، يرفرف عند المؤخرة.

نزلنا من الزوارق. كان علينا أن ننتظر لحظة قبل ركوب السفينة. فجأة، أثّر فيَ التوتُّرُ وتعبُ السفر. وددتُ أن أبقى لوحدي لحظة بعد ازدحام الأيام الأخيرة. اتكأتُ على سور قصير في المرفأ أنظر إلى البحيرة الشاسعة، أسمع الأمواج الصغيرة وهي تُلامسُ الضفاف. كان الماء بلون القهوة يبدو رماديا في الأفق. وفي السماء، كانت السحب ضخمة، مُدوّرة وذات بياض طاهر. لابد أن ذلك كان بسبب البخار والأرض الساخنة، لكنها كانت أبراجا بارزة وضخمة، تمتد ظلالها بينما الشمس تغرق في الأفق، فتتحول غيوما بلون أحمر قرمزي، مُذهّب، ووردي، منظرٌ ما رأتْ عيناي له نظيرا في القوة من قبل. كانت مثل كل شيء هناك: فيها مبالغة وحسّية، وجمال من دون حشمة يوقظ الأحاسيس. وعكس أفكاري الهادئة، كان جسدي فجأة ضحية دوار قوي مصحوب بغثيان. ظننتُ أن الأمر يتعلق بأثر مواصلة الإحساس فوق اليابسة بما كنتُ أشعر به من ترنح فوق السفينة، لكن، بعد مرور الدوار، جرى فوق جسدي عرقٌ بارد وبدأت أرتعش. كان علينا أن ننتظر نقل الأمتعة من الزوارق إلى السفينة. ربما يكون ذلك بسبب وعكتي، لكن بدا لي أن الأمر ربما يستغرق وقتا أطول مما قد يتطلّبهُ تأليفُ الكتاب المقدس. كان فانْديربيلْتْ يذرع المكان جيئة وذهابا. بعض الركاب كانوا يحتمون من الشمس في مزرعة فيها بضع دجاجات تجول حرة طليقة في الفضاء. كان كل شيء بدائيا جدا. التناقضُ بين الفقر وروعة الطبيعة جعلني أشرد مفكرا في التفوق المزعوم للبشر. كانت الكلاب والأطفال الحفاة، الذين يرتدون أسمالا، يتسكعون مهتاجين. كان البرد يضنيني. لم أكن أريد أن أتحرك. لا أدري كم مرّ من الوقت حتى بدأت حدتُه تخف. استطعتُ أن أنهض وأدنو من فانْديربيلْتْ. استأذنته لأصعد إلى سفينة «إلْدِيريكْتورْ» وأتمدد فوق سطحها.

ـ هل أنت بخير؟

ـ أظن أنني بحاجة لأتمدد قليلا ـ قلتُ له.

قبلَ طلبي ونادى على بحّار كي يساعدني لأصعد. فكرتُ أن أطلب منه أن يبحث عن شارْلوت كي ترافقني. لم يكن يعرف أين كانت. لا بد أنها كانت تبحث عن مكان تختبئ فيه. فقد عانت كثيرا من متاعب عدم توفر مكان يضمن لها الخصوصية في قضاء حاجاتها الأساسية. افترضتُ أن شيئا من هذا القبيل كان يقض مضجعها.

تمدّدتُ وغفوتُ. استيقظتُ على صخب الركاب وهو يصعدون. كنتُ أشعر أنني لست بخير حقا. كنتُ أعاني من الحمى.

الفصل الثاني والثلاثون

كان الإبحار عبْر البحيرة الشاسعة على متن سفينة «إلْدِيريكْتورْ» عاصفا. كانت الأمواج ترفعنا وتتركنا نسقط فوق المياه. بالكاد كنا نكتم صيحات الخوف عندما نشعر أننا قد رُفعْنا مثل مركب ورقي. عند الغروب، وبعد مطر قوي بلل ثيابنا، تغير مزاجُ تلك المياه وصارت جامدة وهادئة عند عبورنا.

أمرَ فانْديربيلْتْ بتسريع وتيرة الإبحار. زوّدوا الآلات بأكبر قدر من الخشب حتى تبلغ العجلات ذات القوديس ما قدره ٣٠ حصانا من القوة. مهووساً بالوقت، كان العميد البحري يقف عند دفة السفينة حريصا على إثبات نجاعة «طريق العبور» مقارنة مع الطريق الموبوءة التي تمر عبر نهر «تْشارغريس» في باناما.

أظن أن الخوف من أن يهلك أحد الركاب بسبب هذه الأوبئة جعله يهتم بي من جديد. كان يريد أن يتأكد أنني لا أعاني من المَلَارْيا. ورغم أنني امتنعتُ عن تناول دواء الكينين الذي كنتُ أحمله في متاعي، فقد كنت مرتابا من أن هذا هو المرض الذي أعاني منه بالضبط. لكن، بما أنه لم يكن أي أحد آخر يعاني من نفس المرض، فقد داهمتني الشكوك. أن يكون البعوض قد عضني أنا لوحدي كان أمرا يبدو لي من قبيل المزاح الناتج عن ذهني المهووس بعقدة الذنب.

بعد تناول مضاد قوي للحمى، تمكنتُ من أن ألتحق بالآخرين وأن أتبادل معهم الانطباعات بخصوص الرحلة عبر البحيرة الشاسعة التي أطلق عليها الغزاة الإسبان اسم «البحر الحلو». عند الغروب، بدت الغيوم في الأفق سكرانة بألوان خفّاقة وحيوية، تتراوح بين البرتقالي الناري والوردي الأرجواني. اضطجعت فوق السرير ثانية، لأنني كنتُ أشعر أنني منهك وواهن. تساءلتُ إن لم أكن سأموت في تلك الأماكن الغريبة. دون أن ألاحظه، جلس إشْلاكْتا إلى جانبي واقترح علي أن أرافقه إلى مدينة غرناطة في نيكاراغوا. وبعد وقت قصير نزلنا في «لابيرْخين». كانت المسافة من هناك إلى غرناطة قصيرة مقارنة مع الطريق على متن البغال ثم عبر السفينة البخارية التي ستنتظرني إن قررت متابعة الرحلة إلى سان فرانسيسكو. يمكنني أن أنتظر في المدينة، قال لي. كان يعرف أشخاصا سيعتنون بي حتى الرحلة القادمة، في غضون شهر ونصف تقريبا. كنتُ أستمع إليه في صمت، دون أن أبدي مقاومة. عندما اقتربنا من «لابيرْخين» سمعتُ صيحات الركاب وهو يشيرون إلى البركانيْن العظيميْن، كونشبْيون وماديراس، اللذان يبرزان فوق جزيرة تسمى أوميطيبّي.

ـ حسب الحكايات القديمة ـ قال لي ـ جاءت شعوب نيكاراغوا القديمة من إمبراطورية الأزتيك هاربة من الجبايات الثقيلة التي كانت مجبرة على دفعها إليهم. وقد أمرهم كهنتهم ألا يكفوا عن المشي حتى يجدوا جزيرة بها توأمان من البراكين: إنها تلك الجزيرة التي نراها بالضبط. وبالفعل، تشير كلمة نيكاراغوا إلى ما معناه «إلى حد هنا وصلت لغة الناهواتل»، أي لغة الأزتيك.

وكما يحدث عادة، استمع إليه الآخرون باحترام، لأن الحكاية كانت مشوقة وتجعل الرحلة أكثر غرابة. وبسبب الحمى، كانت حكاياته تتداخل في ذهني مع ما رواه لي فانْديربيلْتْ من حكايات عن هجومات مورْغان وقراصنته على مدينة غرناطة البُحيْريّة. وفي نومي المضطرب، كانت أشرعة مراكب القراصنة تتطاير فوق البُركانيْن كأنها بالونات.

أبحرنا طوال الليل فوق البحيرة الهادئة. كانت سفينة «إلْدِيريكْتورْ» تفتقر لتجهيزات ضرورية لراحة المسافرين. جلست النساء كما استطعن فوق الأمتعة في الغرفة الكائنة في الطابق الثاني من سطح السفينة تحت مركز الرّبان. أما الآخرون، فقد شغلنا مقاعد مستعرضة تمددنا فوقها ولففنا أجسادنا في ملاءات وزعها علينا القائد وايْت. بعواطفها النبيلة، بقيت شارْلوت إلى جانبي تهتم بالحمى التي أصابتني والتي لم تتراجع حدتها إلاّ بعد أن بلغت أوجها بعد فترات فظيعة من البرد القارس الذي جعلني أرتعش وأرتجف.

ـ أظن أنك تعاني من المَلارْيا، يا صديقي ـ همس إشْلاكْتا ـ على الأقل، تظهر عليك كل أعراض المرض.

وصلنا إلى «لابيرْخين» قُبَيْل الفجر بقليل. لديّ قناعة بأن نيكاراغوا لها ميثاق مع الإبداع والخلق لأنها يمكن أن تتباهى بأروع وأجمل ما رأيت في حياتي من سماوات. كنتُ مندهشا أمام ذلك الالتقاء بين الماء، والبراكين والخضرة، والطيور. نزلنا من السفينة. بذلتُ جهدا لأبدو على أحسن حال، لكن لا بد أن فانْديربيلْتْ قد انتبه إلى حالتي الفظيعة. لم يُبْد اعتراضا على فكرة سفري إلى غرناطة رفقة إشْلاكْتا، ووعدني أنني لن أؤدي دولارا واحدا إذا ما قررت أن أنضم من جديد إلى رحلة سان فرانسيسكو، وسأكون ضيفَهُ حتى بلوغ وجهة الرحلة الأولى. كما أن مكتبه سيتكلف بأن يرسل إلي مبعوثا يخبرني بتاريخ مرور السفينة الموالية. حينئذ، سيكون حالي قد تحسن، من دون شك، وأستطيع أن أسافر إلى «لابيرْخين» ومن هناك أنضم إلا المسافرين الذين سيستقلون المركب في خليج «سانْ خْوانْ ديلْ سورْ». شكرتُه عن لطفه وأعربت له أيضا عن إعجابي بإصراره على مواصلة تحقيق ملحمة «شركة العبور». ودّعني بحركة من يده دون أن يجرؤ على الاقتراب مني كثيرا. وعلى العكس من ذلك، ارتمت علي شارْلوت وعانقتني كأنها بُواء.

ـ *Au revoir, my duke* ، وداعا أيها الدوق ـ قالت، متغنجة وساخرة ـ لا تَمُتْ، من فضلك.

نظرتُ إليها ولا بد أنني شحبتُ، لكني سرعان ما تفاعلتُ معها، فأطلقت قهقهة عالية.

ـ يستحيل أن تتغيري، يا شارْلوت.

ـ وأنت يمكن أن تكون هو الكونت دي مونت كريستو ـ قالت بذكاء ثاقب.

ـ اذهبي ـ قلتُ ـ قواي لا تسعفني لأضحك الآن.

رأيتُها تركب العربات التي انطلقت باتجاه مرفأ «سانْ خْوانْ ديلْ سورْ».

ألهذا الحد تظهر عليّ عتاقةُ الأرستقراطية الفرنسية؟ تأملتُ الأمر بين فترات قدوم وتراجع الحمى التي بدأتُ أعالجها بدواء الكينين، ما إن ودعنا فانْديربيلْتْ، طاقم السفينة وبقية المسافرين. تذكرتُ بعض تعاليق شارلوتْ خلال الرحلة على متن سفينة «بروميثيوس»، أشياء من قبيل أنني أتناول السلاطة عند نهاية الأكل وليس في بدايته، وأنني أنهيه بتناول الجبن (وهو ما أثار ضحكها)؛ وكيف كنتُ ألتمس من النادل أن يغير نوع الكؤوس حسب ما إذا كان النبيذ أحمر أم أبيض. حماقات كهذه. لستُ أدري ما لاحظتْهُ من أصول اللياقة أو ما استنتجتْهُ من أحاديثي عن العروض المسرحية في باريس، وولعي بموليير، والأوبرا، والفنانين الإنجليز المتخصصين في رسم المناظر الطبيعية. كانت أحيانا تنظر إلي مُرتابة وتتساءل ربما إن كنت نبيلا يبحث عن التنكر، بدل أن أكون تاجرا، طبيبا بالممارسة وعالم نباتات. ربما قالت شيئا ما للعميد البحري، لأنني رأيتهما مرارا يتبادلان نظرات تفاهم بينما كُنا نتبادل أطراف الحديث بعد وجبة العشاء. خلال أحاديثي مع شارْلوتْ بذلتُ جهدا كبيرا حتى لا أتحدث عن فاني، وعن هانْرييتْ وحتى لا أحكي لها عن همومي وأحزاني. صنعتُ لنفسي شخصية أنثوية، وزوجة أحبها، كان موتُها هو ما دفعني لخوض مغامرة كاليفورنيا، وحمّلتُها أدنى عيوب وخصال هذه وتلك. لكن، غالبا ما كانت السخريةُ تُشوّه الصورة التي كنتُ أريد أن أضفي عليها شيئا من الإنسانية. ومثل مصّاص دماء، سرعان ما كنتُ أخفي الأنياب لأتحاشى الكشف عن الضغينة والضراوة القابعتين خلف ذلك الحب المفترض الذي كنتُ أدعي أنني أكنّهُ لتلك المحبوبة الوهمية. كنتُ أفرض على نفسي الرّزانة والاعتدال، لكني أبحث عن طريقة أنبه بها شارْلوت لمدى تقلب الحب والنساء، لأنه كان يؤلمني التفكير في أن أحدا ما قد يجعلها تعاني. كنتُ قد بدأت أميل إليها. بفضلها كانت الرحلة من نيويورك وحتى لحظة فراقنا في «لابيرْخين» مقطعا سعيدا من حياتي الجديدة مهاجراً وهارباً. ومعها هي أظن أنني قد نسجتُ أحسن رواية لماض يمكن تصديقُه. معها تعلمتُ كيف أستعمل العواطف التي تظهر في أحداث حقيقية لأضفي

المصداقية على مشاهد وقعت في محيط وأزمنة مختلفة. هكذا، بدأت شخصيات أسرتي المتخيلة تتخذ شكلا ووزنا؛ فتمكنتُ من تحديد هواجس هذه الشخصيات وما وشم حياتها من أحداث. واستبدلت الحقيقة بحكاية تعرض مآسيهم، وأحزانهم وانتصاراتهم.

لكن ما قالتهُ شارْلوت وهي تودعني جعلني أشك في مواهبي السردية. فإما أن شارْلوت تتمتع بذكاء ثاقب، أو أنها كانت تعرف القضية، أو أن متعة سرد الخيال قد وشت بحقيقتي. ربما كنتُ أكثر شفافية مما كنتُ أظن. ثم «إن المسوح لا تصنع الراهب»، كما كانت تقول أمي وهي تتحدث عن الأغنياء الجدد. وقلّما يتصور المرء نبيلا يحاول أن يبدو شخصا من عامة الناس. لماذا لمّحتْ، إذن، إلى الكونت دي مونت كريستو؟ هل كانت تظن أنني شخص من عامة الناس يريد أن يصبح نبيلا؟ هذا شيء جيد لو كان الأمر كذلك. ويعني أنني كنتُ أؤدي دوري على أحسن ما يرام.

لا فائدة من أن أعذب نفسي. على أي، مع شارْلوت أدركتُ أنني لم أكن مجبرا على أن أكون دائما فظّ الطبع وقصيّا، وأن التخييل كان يمنحُني، بالفعل، حياةً لا ينبغي أن تكون نتيجتُها بالضرورة هي شخصية تييوبالْدْ شْوازولْ دو بْرالانْ، بل شخصية أخرى، تلك التي كنتُ أبتكرها لنفسي.

الفصل الثالث والثلاثون

لم أر غرناطة إلا ثمانية أيام بعد وصولنا على متن سفينة «إلْدِيريكْتورْ». شعرتُ أنني أصل إلى الحضارة عندما جاءت عربة يجرها حصانان وأخذتنا إلى بيت إسباني كبير ذي هندسة جميلة به فناءات داخلية وغرف تنفتح أبوابها على دهاليز واسعة تحيطُ بحديقة رئيسية تنتصب وسطها نافورة بسيطة، لكنها تؤدي كما ينبغي مهمتها في إنعاش الهواء بصوتها السائل المُوقّع.

تكلف إشْلاكْتا بكل شيء. بالكاد وجدتُ في نفسي ما يكفي من العزم كي أدخل إلى الغرفة التي خصصوها لي، وأتأكد من أن السرير كان مريحا، وأن الغرفة تتوفر على أثاث بلوح مدمج وجفنة أغتسل فيها، بالإضافة إلى كرسي هزاز وطاولة أضع فوقها حقيبتي.

غيرتُ الملابس المبللة. لبست قميص نوم. كانت الحمي ترجّني رجّا وإشْلاكْتا، الذي تحول منذ تلك الليلة إلى أوفى أصدقائي وأكثرهم سخاء، قرر أن يجلس إلى جانبي ويرافقني. وفي هذياني رأيتُ قبري. كان رمسا تملأه الأدغال ونباتات العُليق، وبه صليب خشن وعبثي رُسم بلون أخضر، كتَبَ عليه أحدهم «جورْج ديمولانْ». أتذكر ما اعتراني من إحساس بالحزن والأسى. سأموت بعيدا عن أبنائي، عن بلدي، عن ذاتي، في هذا البيت الغريب الذي بالكاد لمحتُه. وفي ذهني المحموم، كان تشبثي بالحياة حاجة ملحة ـ حاجة تشبه التقيؤ ـ إلى التحرر من سرّي، إلى استعادة اسمي. شعرتُ أنه كان علي أن أقول من أنا. لم أكن أرغب في قبر جورْج ديمولانْ، بل في قبري أنا.

ـ جونْ، جونْ ـ قلتُ وأنا أئن ـ تعال ادْنُ مني. أريد أن أقول لك شيئا.

اقترب مني بسرعة وعناية. رأيتُ وجهه المنشغل قريبا من وجهي، وجهٌ ناصع البياض، ورأيت عينيه الضيقتيْن، صلعه المبتدئ، وشفتيه العريضتين. شعرتُ بتنفسه السريع.

ـ جونْ، لدي اعتراف لا بد أن أقوم به. اسمي ليس هو جورْج ديمولانْ. لو متّ، من فضلكم، لا تدفنوني بهذا الاسم. إنه ليس اسمي، إنه ليس اسمي. عدْني أنكم لن تدفنوني بهذا الاسم ـ توسلتُ إليه وأنا أضغط على ذراعه بيدي.

ـ نعم، نعم، جورْج، لا تشغل بالك؛ لن تموت، دواء الكينين سوف يعطي أكله، وأنت لم تأخذ منه سوى جرعتيْن.

حرّكتُ رأسي. توسلتُ إليه.

ـ سوف أقول لك اسمي الحقيقي. وهو الاسم الذي أريدك أن تستعمله في هذا البلد، سواء عشتُ أو متُّ. هل تعدُني بذلك؟ هل تعدُني بأنك سوف تناديني باسمي؟

ـ هل ثمة شيء آخر؟ ـ صاح جونْ. أعدك بذلك، يا صديقي، لا تقلق أكثر من هذا.

ـ أنا جورْج، جورْج شْوازولْ دو بْرالانْ ـ قلتُ له ـ دوقٌ من نبلاء فرنسا. سوف أشرح لك، في يوم من الأيام، لماذا اتخذتُ اسما آخر، لكن ما أقول لك الآن هو الحقيقة؛ أنا جورْج شْوازولْ دو بْرالانْ، أتفهمُني؟

ـ أفهمُ، أفهم، أفهم ـ كرّر جونْ، وهو يربت على ذراعي بضربات خفيفة.

لم يتبق بذاكرتي أي أثر آخر من تلك الأيام. بعد ذلك الاعتراف استسلمتُ تماما لما يمليه جسدي. الكشفُ عن الحقيقة والسماح لها بالخروج من ذاتي جعلني أشعرُ بإحساس من التخفف شبيه بما ينتج عن إخراج طعام مضر من المعدة. ولأول مرة منذ وقت طويل، نمتُ نوما عميقا.

جاءت امرأة سمراء بعض الشيء، شعرُها أسود قاتم، عيناها متيقظتان، ولها ابتسامة أمّ من الأمهات، ثم قدمت لي حساء وما أشرتُ إليها أن تعطيني من أدوية. كانت تعرف ما يكفي من الفرنسية حتى نتفاهم. كانت حازمة وتعاملني مثل طفل كبير. أحيانا، كانت تعلو وجهها ابتسامة، وأحيانا أخرى، كانت ترقبني من دون تأثر، كما لو أنني شيء معطل يتوجب إصلاحُه. كانت تعرف دواء الكينين. كانت طبيبة بالممارسة، وعارفة بالأعشاب الطبية. تبعث الثقة بتصرفاتها التي لا يخامرها الشك. اسمها لورينا إيسْبا وكانت هي صاحبة ذلك البيت الكبير، أرملة ثرية، تهوى جمع قطع الأثاث العتيقة ومضيفة رائعة لمن يحل ضيفا عليها. كان إشْلاكْتا، الذي طلب منها أن تتكلف بي، يأتي خلال فترات المساء. أذكر نبرة صوته. ظننتُ أنه، بالإضافة إلى أنه صديق لورينا القديم، كان هو عشيقها من حين لآخر. وفى بوعده، وبدأ يناديني جورْج شْوازولْ دو بْرالانْ.

شيئا فشيئا، بدأ العرق البارد المتصبب من جسدي وما ألمّ به من حمى يخفّان. وعوض ذلك، بدأتُ أشعر بالهواء الساخن عند فترات منتصف النهار والظهيرة حين تنبع من الأرض الساخنة سحبٌ من البخار والرطوبة. أعطى دواء الكينين مفعوله. كنتُ قد قرأتُ أن أهالي أمريكا الجنوبية يسمونه «كينا كينا»، وأنه كان يُصنع من قشرة شجرة ما. في سنة ١٦٣٨، تمّ علاجُ كونتيسة تْشينتْشونْ، زوجة نائب ملك إسبانيا في البيرو، من الحمى باستعمال تلك القشرة. عندما عاد الكونت تْشينتْشونْ وعائلته إلى إسبانيا، أخذوا معهم الدواء واستعملوه بنجاح بعد وصولهم إلى ألكالا دي هيناريس. ومن هنا أصبحت الشجرة تحمل اسم «ثينْتْشونا». «رَتَقُوا الاسم»، كانت تقول لورينا مازحة، عندما حكيتُ لها ذلك، «حوّروه حتى لا يُنطق مثل « تْشيتْشاشْ»، وهي الكلمة العامية التي يشير بها أهل نيكاراغوا إلى صدر المرأة.

في اليوم الثالث أو الرابع من فترة نقاهتي، دخلت لورينا باكرا. بيديها ذات الأظافر الطويلة التي تلمس بها الأشياء بخفة كما لو أنها تستعمل أناملها، لمستْ جبيني ولأول مرة رفعتْ ستائر الغرفة.

ـ لقد انتهى كل شيء ـ قالت لي برباطة جأش ـ لن يكون هناك من حمى بعد الآن. عليك أن تتعافى الآن.

كانت رائحة خفيفة من إكليل الجبل تفوح من لورينا. تخيلتُ كم قد يريحني لو أنها اندست في سريري وعانقتني، وشعرتُ بنهديها المكتنزين على ظهري. فكّرتُ أن الصداقة مع شارْلوت ربما تكون قد صالحتني مع الأنثى، وتحديدا لأنها لم تهددني. منذ ما حدث لي مع فاني، كانت النساء يُثرن شيئا من الخوف في نفسي. كنتُ أعترف بقوتهن الرهيبة، قوة يخفينها تحت غطاء الضعف. في الحقيقة، يسمحن لنا بأن نعتقد أننا نتفوق عليهن. ينسبن لنا ممارسة سلطة يدعين بعد ذلك أننا لا نحسن استعمالها ولا نتقن تدبيرها. أظن أننا نميل إلى العنف لأننا لسنا أقوياء كما علّمننا أن نكون. ولتجاوز هذا التناقض نثني على قوتنا لممارسة الحرب، القوة الفظة، والقدرة على الهيمنة بل والقتل أيضا. وقد منحتنا قرون من الزمن مرتبة لا أساس لها سوى عضو ذكوري نحمله بين ساقينا.

لم تكن لورينا امرأة مثيرة، بيد أنها كانت مستهترة ولا تعير اهتماما لقول ما تفكر فيه. في عالمي المعتاد، شخص كهذا ـ كما كنتُ أظنُّ شارْلوت ـ كان سلوى وعزاء. نوع من النساء يمكن أن يكن، دون أن يتخلين عن شهوانيتهن، حنونات مثل الأمهات، وليس هناك من رجل، في رأيي، لا يحن إلى رعاية أمه وحنانها.

ـ والآن، عليك أن تذهب عند الحلاق، موسْيو جورْج. لديك لحية شيخ وقور ويبدو كأنك قد بقيت لوقت طويل في الخلاء ـ قالت ضاحكة. أنت الآن في غرناطة، مهد حضارة نيكاراغوا، مدينة يسكنها ناس مهذّبون، مهنتهم الأساسية هي النميمة وأخبار الآخرين. وهم لا يفعلون ذلك من باب الحقد. لا، يا سيدي، بل من الضجر. تماما كما تحدث الحرب بين المحافظين والليبراليين. الحرب تلهيهم، تمنحهم عملا، وتعطيهم أهمية. مأساة هذه الأرض أنها تضيق بهذيان العظمة المسيطر على عقول أفراد طبقتها الأرستقراطية. والحربُ تمنحهم أمجادا لا يجدونها في هذا الوطن الصغير جدا.

هذا الرأي المتهكم من مواطنيها بدا لي في مستوى السخرية الفرنسية الراقية. نساء مثل لورينا، ينظرن إلى ما يفعله الرجال بشيء من المسافة والحكمة لا تخلو من السخرية، كنّ كثيرات في نيكاراغوا كما اكتشفتُ شيئا فشيئا. كنّ فخورات بحسّهن المشترك في الأمور المنزلية، لكنهن كنّ مستاءات من نقيصة لعب دور الملاحظات. وكان الاستياء يُترجمُ بطريقة مبطّنة واحتقارية يُشرْن بها إلى عيوب الرجال، سواء كان هؤلاء أزواجا أو من الأشخاص المرموقين في المجتمع.

في اليوم التالي، وفي طريقها إلى السوق لشراء الأعشاب، أخذتني لورينا إلى صالون الحلاقة. كانت إسبانيّتي متكلّسة بعض الشيء، لكن الحلاق، الأنيق بلباسه الأبيض وهيئته المناسبة للمقام، أكّد لي أنه يمكنني أن أحدثه بلغتي لأنه سبق أن اشتغل في شبابه مع عائلة درويفوس المرموقة، ذات الأصل الباريسي، لكن المقيمة في غرناطة. عاملني الحلاق باحترام كبير، وهو يناديني موسْيو بْرالانْ، وهو الاسم الذي كان يعرفني به أهل نيكاراغوا. في البداية، وعلاوة على الارتياح بمعافاتي، كان سماع اسمي يصيبني بالذعر أيضا. وماذا لو تبعوني حتى هذا المكان؟ ماذا لو أن فرنسيا آخر اهتم بي، أثيرُ فضوله فيشى بي؟ كان الحفاظ على اسم «جورْج» يحميني، فكرتُ. وكان من الممكن دائما أن آخذ مسافتي مدعيا أن الدوق كان قريبا بعيدا من أقربائي.

ولن أتأخر كثيرا في إدراك أن «أرستقراطية» أهل غرناطة قد أصابتْ بعدوى غرورها وتأنقها كل أهل القرية. ومع ذلك، كان أولئك الذي يطلقون على أنفسهم لقب «نبلاء»، عموما، ظرفاء وأصحاب شخصيات محددة بأذواقهم، وأهوائهم، وأطوارهم الغريبة. وجدتُ أن الكثير منهم كانوا مثقفين، بينما آخرون كانوا يعرفون ما يكفي لإعطاء الانطباع بذلك وهم يذكرون اسما هنا واسما هنالك. كان إشْلاكْتا يعرف عدة عائلات مرموقة وقضى وقتا ممتعا وهو يأخذني من صالون لآخر مثل حيوان في معرض؛ فرنسي حقيقي، منفتح على العالم وشغوف باستكشاف المناطق المدارية. بل إنه نسب لي لقب طبيب، كما فعل على متن سفينة «بروميثيوس»، فلم أدحض ما قاله. وظنّهُم بأنني طبيب كان أمرا يمنحني سلطة واحتراما فوريْن. أن أكون طبيبا كان هو جواز مروري نحو الحظوة باحترام الآخرين وثقتهم. في بلد مثل نيكاراغوا، كان تكويني أكثر من كاف كي يكون لقب «طبيب» شيئا أكثر من كذبة فحسب. كنتُ أشك في أن يكون هناك في تلك المناطق آخرون لهم معارف كتلك التي كنتُ أملكها. كانت لي معرفة بعلم النبات، والكيمياء، وطرق العمل الأساسية في هذا المجال. سأدرس أكثر. ربما، في نهاية الأمر، بتدبير هذه المواهب، أستطيع أن أخلص نفسي من قتل زوجتي الفظيع، تلك البثرة المفتوحة في وعيي.

من فوق كرسي الحلاق كانت تُرى الساحة حيث مقر البلدية، والكاتدرائية، وبيوت العائلات الكبيرة، بالإضافة إلى مرافق أخرى تابعة للكنيسة والحكومة. دون أن أسافر كثيرا، ودن معرفة بإسبانيا، كنتُ قد رأيت رسومات تمثل طرق أهل إيبيريا في إنشاء ممتلكاتهم وتشييد هذه الساحات بكنائسها ومكاتبها التي يُسيّرون انطلاقا منها مناطق نفوذهم. كانت البنايات من الطوب، ولها أسوار عريضة بها عدة أقواس، ودهاليز وسقوف من القرميد. وكانت الحيطان العريضة تلعب دور العازل من الحرارة.

أسْندَ الحلاقُ رأسي إلى الخلف. أغمضتُ عينيّ وتركته يرطب لحيتي، يضع فوطة ساخنة، يحلق ويقص شعري، دون أن أحرك ساكنا، أستمتع بالأحاسيس، وروائح ذلك الطقس الرجولي الممتع والمريح. للحظةٍ تذكرتُ إبراهيم بشيء من الحنين. فتحتُ عينيّ حين سمعت طقطقة لما جرّدني الحلاق، بحركة مصارع ثيران، من العباءة التي كانت تقي ملابسي.

ـ *Voilà !*، هو ذاك! ـ صاح الحلاق قائلا، كمن يميط اللثام عن لوحة فنية.

رأيتُ في المرآة ذلك الرجل الذي صرتُه؛ رجلٌ نحيف، بلحية وشارب دقيقين وشعر كثّ أشمط. اندهشتُ وأنا أنتبه إلى مرحلة نضج جديدة وعبوس يغلف وجهي وتزيد من حدّته تلك السرعة التي كان ينمو بها الشيب الآن ويتكاثر في رأسي.

فكرتُ في استحالة أن يعثر علي أحد في تلك البلاد القصيّة. كانت هويتي في ملاذ آمن هناك. لم يكن لديّ أدنى شك في ذلك.

ارتياحي بعد أن تجاوزتُ إصابتي بالملارْيا، رائحة الخزامى، رؤية نفسي نظيفا ومهندما، كل ذلك ساهم في مزاجي الجيد. ودّعتُ الحلاق ومشيتُ عبر الساحة لأشاهد النهار وهو ينقضي هادئا في المدينة، التي بدت لي ساحرة بطابعها الريفي الذي يبعث على الارتياح. لم تكن ثمة من عجلة. كان الناس، وهم من ذوي السحنة السمراء في معظمهم، يملكون ملامح لطيفة ويتميزون بكثرة الكلام والضجيج، مع فرح صريح يكاد يكون طفوليا. يركبون الخيل ويتبادلون التحايا. ضجيجُ العصافير، أصواتُ حوافر الخيل، الضحكات والأحاديث حملتني بعيدا إلى زمن مفقود، زمن القرى الصغيرة المتراصّة. أكيد أنني، بصفتي من أهل المدينة، كنتُ أشاطر آخرين الحكم القبلي بأن حياة الريف كانت محدودة وتافهة، لكنني، يومئذ في غرناطة، وجدتُ أن بساطة ذلك المحيط كانت مريحة وخفيفة بشكل ممتع.

الفصل الرابع والثلاثون

بعد شهر ونصف الشهر من الإقامة في غرناطة، جاء مبعوث فانْديربيلْتْ يخبرني بخروج سفينة س.س. سيبرا نيفادا نحو كاليفورنيا، المرتقب يوم ٢٦ من أيلول، تحت قيادة القائد بْليثيْنْ، الذي تلقى تعليمات خاصة كي يعتني بي بصفتي مسافرا مهما للغاية، وضيفا متميزا عنده. ستخرج العربات من ميناء بحيرة «لابيرْخين» يوم ٢٤ أيلول، وهناك سيكون السيد فالْكينيرْ في انتظاري ليتكلف بنقلي نحو الميناء.

أذكر أن الشاب دخل يحمل الرسالة، حذاؤه وملابسه مبللة بالمياه لأن المطر كان يهطل في غرناطة في ذلك الصباح، بينما كنتُ جالسا أعيد قراءة رواية «أحدب نوتردام دو باري»، لفكتور هوغو، في الدهليز الكبير للبيت، أنتقل من وصف الأزقة المظلمة في مدينتي إلى منظر تلك الحديقة الغناء، بنخلتيْها الباسقتيْن، ونباتات السرخس الوافرة، ونبات الدلبوث، والياسمين المتسلق، والجهنّمية ذات الأزهار البرتقالية والبنفسجية؛ غابةٌ مدارية كاملة تتوسطها نافورة تؤدي أغنية مصحوبة بصوت المطر المتساقط من أجنحة السقف.

ـ ظننتُ أنه من الصعب أن أجدك ـ قال الشاب مبتسما ـ ولكن أظن أنك أنت، يا سيدي، هو الفرنسي الذي جاء على متن سفينة فانْديربيلْتْ. ديمولانْ؟ شْوازولْ؟

ـ نعم، هو نفسه ـ قلتُ له.

أعطيتُ بقشيشا للشاب. وذهب. بعد قراءة الرسالة، بقيت وقتا طويلا والكتاب في حجري أنظر منبهرا إلى النباتات وهي تتحرك تحت الشمس. كان لمقامي في غرناطة آثار علاجية على جسدي ومشاعري. كانت نيكاراغوا بلدا محيرا، لكن نباتاتها وأحياءها (من بشر وحيوان) تمكنت من غوايتي. وقد تحدثتُ عن فترات الغروب التي يتكرر سحرها كل يوم إلا إذا كانت السماء ملبدة بالغيوم تلك الساعة. وحتى في هذه الحالة، غالبا ما كانت الشمسُ تجدُ شقوقا تطل منها لتودع الشفق الملطخ بسحب ذات ألوان لا تصدق. أما النباتات، التي تعرفُ لورينا أسماءها بفضل مزرعة أسرتها حيث قضت طفولتها، فكانت تتميز بتنوع ووفرة قل نظيرهما في أوروبا. وكان عدد الحشرات وأنواع الحيوانات يفوق مئات المرات عددها في المناطق ذات المناخ البارد. بيد أن أكثر ما كان يبهرني هم الناس. كثيرةً كانت الشخصيات ذات البعد الروائي؛ فحكايات الرجال والنساء التي كان المرء يرتبط بها اجتماعيا تفوق حبكتُها أكثر القصص تعقيدا، كما أن لهم قدرة لا مثيل لها على الحديث، وسرد الطرائف، ووصف المواقف واستعمال الحس الفكاهي بلغة بسيطة خالية من أي خداع. وكان من الواضح أنهم يفضلون الخيال والابتكار على التحليل البارد. أما الكذب، إن كان في خدمة الخيال، فيصبح جزءا من التسلية. طبعا، من موقعي كأجنبي، لم أكن مضطرا للتعامل مع تعقيدات طبع كهذا عندما تحاول هذه الشخصيات فصل نزاعاتها وتقرير مصير بلدها بطريقة عقلانية. كانت الحكايات الشخصية والأهواء تلعب دورا مفرطا في السياسة الوطنية. لم أكن أفهم، مثلا، ذلك العداء الحربي الذي كانوا يكنونه لمدينة ليون، الحاضرة الغريمة التي تتمثل خطيئتها الرئيسية، وفق تقديري، في تطلع أهل ليون ليتشبهوا بأهل غرناطة. فهؤلاء كانوا يرون أن أهل ليون «خشان الطبع»، غير مهذبين، طموحون، وتجار يعشقون إيديولوجيا ليبريرالية تقترح، مثل ثورتنا الفرنسية، مبادئ المساواة والحرية والأخوة، رغم أنهم يستعملون كلمات أخرى للتعبير عن ذلك. غرناطة، في نظري، كانت مثل مَلَكيّتنا مقابل البورجوازية، مع فارق أن المنافسة لم تكن تدور حول قضايا السلطة، والضرائب، والتوسع الترابي، بل حول الهيمنة على مراتب السُّلَّم على الاجتماعي.

ربما يعوزُ تحليلي شيء من التمييز والتدقيق. كانت الحجج تربكني لأنها لم تكن قوية بالضبط. الأكيد أن الشجارات كانت تبقيهم في حالة حرب داخلية بينهم، حرب منهكة تمنعهم من مزاولة مهام نافعة، من تحسين ظروف عيشهم وإخراج البلاد من الورطة. كانت لورينا ومن يملكون المال يعيشون جنبا إلى جنب، دون أي وخز ضمير، مع الفقر البدائي الذي يعاني

منه الملودون والسكان الأصليون، وهو فقرٌ مدقع يفوق عشرات المرات فقرَ فُقرائنا.

ورغم هذا، كان ذلك مجتمعا شبه رعوي. كان الخدم في البيوت خشان الطبع، لكنهم في غاية اللطف. كانت الألفة التي تجمعهم، مع الاحتفاظ بالمسافة في العادات والتربية، تذكرني بعلاقات أفراد أسرتي مع الخدم في قصر فو-بْرالانْ، أو مع الخادمات في باريس.

كان إشْلاكْتا يلحُّ عليّ ويقترح أن أسافر معه إلى شمال البلاد، إلى المناطق ذات المناخ المعتدل. حسب ما قال لي، كانت الحكومة تقدم مساحات واسعة من الأراضي لمن يتطوع لزراعتها. وكان هو شخصيا يملك مزرعة ينوي أن ينتج فيها البُنّ قد تصديره إلى أوروبا والولايات المتحدة. وإذا لم أكن أرغب في ممارسة الزراعة، يمكن أن أشتغل طبيبا. لم تكن هناك من حروب في تلك المنطقة، ولا سياسيون ينزعون إلى الحرب. كانت فردوسا يمكن أن أكون فيه سعيدا، كان يؤكدُ لي.

جاءت لورينا وقطعت خيط أفكاري.

ـ هل تريد شوكولاته بكعك صغير؟

ابتسمتُ موافقا. في وقت وجيز أصبحتُ أعشق الشوكولاته التي تحضرها خادمة لورينا بالكاكاو المحمّص الذي ينتجونه في مزرعة السيدة فوق منحدرات بركان جميل خامد يسمى «مومْباتْشو». قدمتْ لنا الخادمة الشراب في فناجين عبارة عن أواني مصنوعة من الفواكه النيئة التي تبدو كأنها زوائد فوق الجزء المخشوشب من الأشجار البغْنونيّة. يصنعُ منها الأهالي أواني للأكل وينحتونها من الخارج كأنها تخاريم بها زخارف دقيقة ومتشابكة. كانت لورينا تقول إن ذلك يمثل «خزف الأهالي»، وبالفعل يمكن أن نقول إنها كانت شقيقة ريفية للقطع الخزفية التي كانت تصنع في ويدْغوود أو ليموجْ. جلسنا إلى المائدة المستديرة حيث اعتدنا أن نلتقي عند الظهيرة لنتحدث.

ـ توصلت بأخبار من العميد البحري فانْديربيلْتْ ـ قلت ـ سوف تقلع السفينة إلى كاليفورنيا يوم ٢٦ أيلول.

ـ كاليفورنيا! ـ تنهدت ـ وماذا ستذهب للقيام به في كاليفورنيا؟ لا أرى أن لك موهبة منجمي ـ قالت مبتسمة.

ـ هذا ما كنتُ أفكر فيه. ولا أذكر حتى من أين جاءتني هذه الفكرة. كل ما أعرف أنني كنتُ متحمسا لمغامرة في أرض جديدة.

ـ نيكارغوا أرض جديدة أيضا. وقد لاحظتُ إعجابك بأرضنا المدارية. يمكنك، يا سيدي، أن تقوم هنا بدراسات كثيرة حول النباتات، والأعشاب، والحشرات. من المؤسف أنك لن تستطيع أن تتعرف على السيد سْكييرْ. تعرفتُ عليه قبل سنتين عندما عيّنوه مكلفا بشؤون الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى.

ـ هل تتحدثين، يا سيدتي، عن إفرايم جورْج سْكييرْ؟ ـ قفزتُ متعجبا.

ـ هل تعرفه؟ ـ قالت ثم نظرت إلي باندهاش وعينين واسعتين سوداوين.

ـ لا أعرفه شخصيا، ولكني قرأتُ أبحاثه عن البيرو وعن بعض الأمور الغريبة المتعلقة بثقْب القِحْف الذي كان يمارسه الإنكيّون.

ـ لقد قام بدراسات حول بلدنا، وأظن أنه سيعود في السنة القادمة. كان وراء عدة اتفاقيات بين نيكاراغوا، والهوندوراس والولايات المتحدة الأمريكية، ولكن أكثر ما يهمه هو السفر عبر البلاد وجمع أنواعها المختلفة ودراسة ثقافات الأهالي.

ـ إن سْكييرْ عالم حقيقي ـ قلتُ مبتسما ـ أما أنا فتلميذ يدرس علم النبات وطبيب بالممارسة.

ـ لا بد من بداية ـ ابتسمتْ لورينا، وهي تحتسي جرعة شوكولاته من فنجانها الأبيض.

ـ لقد حاول صديقنا إشْلاكْتا أن يقنعني بأن أسافر إلى الشمال وأستفسر عن الأراضي الزراعية التي تقدمها الحكومة للأجانب مثلي.

ـ نعم، جونْ يتميز بروح المغامرة. وهذا شيء يسري في عروقه ودم أجداده البولنديين الجوّالين، والغجريّين إلى حد ما. أنا معجبة به. لا يهدأ له بال وهذه المنطقة من البلاد، في رأيي، مثل الأرض الموعودة ـ ضحكت ضحكةً خفيفة ـ لماذا لا تذهب رفقته لترى ذلك بأمّ عينيْك؟ هذا البلد لم يُنجز بعد. وهناك منافسة أقل بكثير مما هو عليه الحال في كاليفورنيا ـ قالت بنظرة ماكرة.

كان المطر قد توقف، وفي الظلام الخفيف الذي بدأ ينتشر في جنبات البيت، كانت اليراعات تشعل أضواءها في الحديقة.

ـ أنا متضايق بعض الشيء من رفض دعوة العميد البحري فانْديربيلْتْ ـ قلتُ وأنا أمدّ إليها الرسالة ـ كان رجلا مهذبا معي إلى حد كبير، رغم أنه بالكاد كان يعرفني.

عندما انتهت من القراءة حدثتها عن ظروف التقائنا في نيويورك.

ـ لن أشغل بالي بك أكثر من اللازم، يا سيدي. لو أن هناك من شخص قادر على فهم رغبتك في تجريب حظك في جهات أخرى، فهذا الشخص هو كورْنيلْيوسْ فانْديربيلْتْ. سأكون حزينة إن رحلتَ، ولكن قليل جدا ما يمكنُ القيام به هنا في غرناطة، أتعرف ذلك؟ فقريبا جد سوف تمل من سماع نفس الحكايات. ثم، لا نعرف كيف ستنتهي هذه المواجهات المستمرة مع الليبراليين في ليون.

نمتُ قليلا تلك الليلة. كان البقاء في نيكاراغوا شيئا يغريني. أرض محايدة، بلد صغير ولكنه يملك سواحل على الأطلسي والهادي وبه أراضي كثيرة في المناطق الداخلية لم تُستغل بعد. من ذا الذي قد يخطر على باله أنني يمكن أن أستقر في هذه الجغرافيا القصيّة، الفقيرة والمتخلفة؟ كاليفورنيا، عكس هذا، كانت تحظى باهتمام العالم في تلك الفترة. ومخاطر أن أصادف أشخاصا يعرفون قضية تلك الجريمة الذائعة الصيت، بما فيهم فرنسيون قد يتعرّفونني، كانت كبيرة جدا. لكن، هل يمكن أن أستمر على قيد الحياة مزارعا؟ ثمة فرقٌ كبير بين العناية بحدائق قصر فو-بْرالانْ وغاباته وبين زراعة البُنّ في أراضي مجهولة. ومع ذلك، كان حضور أجانب آخرين، رواد بدورهم، أمرا يثيرُني. هؤلاء، بصفتهم مهاجرين، قد يشتركون معي في أمور أكثر مما أتقاسمه أنا مع المجتمع الغرناطي، الذي رغم أنه يسليني، قد ينظر دائما إلي مثل دخيل عليه. كم من الأجانب الذين سأعرفهم في ماتاغالْبا لن يكونوا بصدد إعادة ابتكار أنفسهم مثلي، يخبئون أسرارا لن يكشفوا عنها أبدا؟ لأنهم كذلك سيختارون نيكاراغوا وجهة دون أن تكون لهم أسباب وجيهة للرحيل عن أصولهم.

كان النهار يطلع عندما اتخذتُ قراري بالبقاء في نيكاراغوا والذهاب مع إشْلاكْتا لاستكشاف المناطق الشمالية من البلاد. وما إن تناولتُ وجبة الفطور حتى أخذت حماما، ارتديتُ ملابسي وكتبتُ رسالة. حررتها باللغة الإنجليزية:

العميد البحري كورْنيليوسْ فانْديربيلْتْ

٩، باوْلين غْرين

نيويورك

إنني ممتن لك عن اهتمامك براحتي. وأخبرك أنني قررت ألا أتابع رحلتي نحو كاليفورنيا. سوف أبقى في أمريكا الوسطى من أجل دراسة نباتاتها وأنواعها الحيوانية. ولتقبل مني أسمى عبارات الشكر الخالدة. لقد كانت معرفتُك امتيازا وشرفا لي.

وأتمنى أن أراك مرة أخرى في يوم من الأيام. صديقك،

جورْج.

ربما سيستغرب لأنني لم أضع اسمي العائلي، ولكني لم أكن أرغب في المجازفة.

بحثتْ لي لورينا عن ظرف، وأخذت الخادمةُ الرسالة ثم حملتْها إلى ممثل فانْديربيلْتْ في غرناطة.

الفصل الخامس والثلاثون

كان علينا أن نسافر إلى ماتاغالْبا على ظهر الدواب، مستعملين بغليْن لنقل المتاع ودليليْن، من الحاذقين كما يسمونهم هنا. كانت انطلاقتنا نحو مدينة غرناطة حدثا مهما. كان جونْ متهللا بعد أن أقنعني بمرافقته وفي الليلة السابقة نظمت لورينا حفلا ساهرا حضرته نساء غرناطة المرموقات يرتدين فساتين من ثوب الساتان وفْق أحسن أسلوب أوروبي، وعباءات من ثوب التُّول ويحملن مظلات حريرية. كما حضره أزواجهن ورجال آخرون من حكومة المدير السامي، لاوريانو بينيدا (وهو من سينقل عاصمة البلاد إلى ماناغوا، في نهاية الأمر) وهم يرتدون أيضا ملابس السهرة. كانت لورينا مُضيفة رائعة، فجرى الخمر والشامبانيا بوفرة حتى أنه، في صباح اليوم التالي، عانيتُ أنا وجونْ من عواقب الكحول، وهو ما جعل ذلك اليوم من السفر طويلا وشاقا. ولاحقا سوف أعلم بما نُسج من حكايات بخصوصي في غرناطة. على ما يبدو خلّف حضوري انطباعا قويا حتى أن بيت لورينا سمي «فرنسا الكبرى» فقط لأنني مكثتُ فيه لما يناهز شهرا واحدا. خلال ذلك المقطع الأول من الطريق، كانت ثرثرة دون المعتاد مكتومة بسبب نوبات الغثيان التي أجبرتنا على التوقف مرّتين حتى يتمكن من التخفف مما يجثو على معدته. وسمحتْ لي خطواتُ الخيل الهادئة من معاينة المناظر الطبيعية المنبسطة التي قطعناها، والتي لا تكسر رتابتها إلا بعض المنحدرات. ثم أخذنا نمشي بمحاذاة «البحيرة الكبرى» وما يشبه سهوبا بها بعض المستنقعات. بعد ذلك، انحرفنا قليلا لنرى بحيرة تدعى «تيسْما»، حيث أخبرني جونْ أنهم يقنصون فيها البطّ، كما رأينا آبار مياه حارّة في مكان يدعى «تيبيتاتا»، حيث أكلنا في قرية صغيرة سمكا لذيذا من بحيرة «ماناغوا»، التي لم أتمكن من رؤيتها إلا من بعيد. لم يكن هناك مطر لحسن الحظ، لكن الأشجار الضخمة التي تُسقى بغزارة في فصل الأمطار كانت تورق وتزدهي بقممها الكثيفة والجميلة لتمنح المنظر جمالا متوحشا. كان يبدو لي أنني في عالم غير ممسوس، تركتهُ الحضارةُ ويد الإنسان العابثة على هواه. خلال إقامتي في غرناطة، أتيحت لي الفرصة لأبحر مع لورينا وجونْ، في قارب بدائي، عبر جزيرات البحيرة الكبرى، التي تكونت على إثر ثورة بركان مومْباتْشو قبل مئات السنين. كانت هناك ثلاثمائة وخمسة وستون جُزيْرة، قريبة من بعضها البعض، تكثر فيها طيور البلشون الأبيض، والتماسيح وأسماك قرش المياه الحلوة، وهي خاصية فريدة تتميز بها تلك البحيرة الشاسعة. كانت نباتات تلك الجُزيْرات، من نخيل ونباتات مرجانية، وأشجار ضخمة أخرى، تُشكّلُ في بعض الأماكن سقفا أخضر بين جُزيْرة وجُزيْرة، وكانت وفرة الأشجار والأزهار شيئا مؤثرا يُنزل الدموع من العيون. كانت لورينا وجونْ مختلفين تماما، لكنهما يتقاسمان حب النباتات بشكل واضح للعيان، وكان ذلك هو ما يجمعهما. لم أصل مع لورينا إلى تلك الحميمية التي أدركتها مع شارْلوت. كان ذلك أمرا صعبا نظرا لقلة معرفتها باللغة الفرنسية ولأن الإسبانية التي تعلمتُها في إسبانيا وأنا صغير، كانت متكلسة بعض الشيء. لكنها، بهدوئها وعينيها، منحتني عطفا جميلا أنعشني وجعلني أشعر بالارتياح. ثم إنها زودتني بكتب لدُوما وفيكتور هوغو، كنت أعرفها باللغة الفرنسية، فاستفدتُ من قراءتها لمراجعة اللغة الإسبانية.

في الطريق إلى ماتاغالْبا، استغلّ جونْ الوقت ليريني طيورا زاهية الألوان، من ببغاوات وغيرها، أو طائرا أسود، يشبه العقعق، يسمونه «زاناتي». كما رأينا طيورا وفراشات زرقاء، وحيوانات مدرّعة غريبة، بل ورأينا قطيعا من الذئاب الأمريكية. في طريق رحلتنا، التي استمرت خمسة أيام، توقفنا في بيوت القرويين أو في المزارع. وكانت العادة في نيكاراغوا ألا يرد الناس مبيتا للمسافر. وهي عادة جميلة أثارت إعجابي، لأنه في عدة بيوت متواضعة حيث كانوا يسمحون لنا بتعليق السريريْن اللذين كنا نحملهما، كان مستضيفونا يتقاسمون معنا رقائق ذرة حضّروها للتو مع جبن خفيف يسمونه الرّوْبة. كان عبارة عن جبن أبيض لا طعم له، لكنه يملأ البطن على الأقل. ولم يكن النوم فوق السرير المعلق سيئا كما ظننتُ. حين كنا نتوقف كان جسمي يؤلمني كثيرا وأشعر بتعب كبير حتى أنني أظن أنني كنتُ أستطيع النوم فوق سرير من حجر.

وكان أصعب مقطع في الطريق هو عقبة أتيكايّانْ. استغرقنا ساعات طوالا في صعودها. ومن المكان المدعو «سيباكو» إلى ماتاغالْبا تقدمنا عبر وديان عالية وجبال. قطعنا تل سانتا مارايا عبر إسكيبّولاس، قرية ميتابّا وأماكن أخرى تتميز بريح باردة

ونباتات كثيفة، ثم توغلنا في مرتفعات جبال دارْيين ونحن نقترب من ماتاغالْبا. ثم تغيّر المنظر فجأة باقترابنا من المدينة. انتعشت روحي وأنا أشم رائحة أشجار الصنوبر وأرى أشجار البلوط، والصنوبر والسّرو، التي ذكرتني بمناظر الطبيعة في طفولتي.

خلال أيام الرحلة الطويلة، حملتُ جونْ على أن يحكي لي بكل التفاصيل قصة عائلته وأضع بذلك حدا لمحاولاته المتكررة معي بأن أقدم له شروحات مستفيضة حول ألقاب نبالتي. كان جونْ صاحب صوت أجش وابتسامة مُعْدية. يحرك يديه مثل رجل إيطالي، وكان مسليا رؤيةُ كم كان يستعصي عليه ألاّ يطلق زمام الحصان وهو يثرثر. كان عائلته من أصل بولندي. هاجر جدّه إلى هايتي في القرن الثامن عشر، يوم كانت هذه الجزيرة مستعمرة فرنسية غنية تنتج نبات النّيل وكميات من البُنّ والسكر تفوق كل ما تنتجه باقي مستعمرات فرنسا. لكن مزرعة السكر التي يملكها تعرضت للتخريب أثناء تمرد العبيد سنة ١٧٩١ فقرر أن يرحل إلى نيو أورليان، التي كانت وقتها تحت نفوذ فرنسا. وهناك تعرف بالصدفة على أليسْ لوكْلير، شابة ازدادت في نيكاراغوا من أبوين فرنسيين كانا يؤديان هنا مهمة دبلوماسية.

ـ جاء يبحث عنها. هذه هي القصة بكاملها. رحل والدا أليسْيا (وتوفيا معا) كما أنها هي وجدي عاشا لبعض الوقت في غرناطة، وبعد ميلاد والدي بَحَثا عن مناخ أحسن فانتهى بهما الأمر في ماتاغالْبا. لقد قلتُ لك إنني سأقدم لك جدتي. مات جدي بعد أن سقط من فوق صهوة جواده. وتوفي والدي على إثر سكتة قلبية. أمي وجدتي تعيشان معا. أنت الذي تدين لي برواية حكاية ـ قال لي ـ لماذا كنت تتستر على اسمك الحقيقي وعن وضعك؟ وأنا أستحق منك جوابا على الأقل ـ قال مبتسما.

كان جونْ على حق. كان متحدثا بليغا يتميز بسخائه ولطفه. لا أدري ماذا كنتُ سأفعل من دونه، وهكذا بدأت أروي على مهل حكاية جديدة. افترضتُ أنه، بما أنني بقيت في نيكاراغوا، يمكن أن أستبعد احتمال أن بعض الشخصيات ممن عرفتهم في جزيرة وايْت، أو خلال الرحلة، يمكن أن يظهروا في هذه الأرض. لو حصل ذلك بصدفة ما من الصدف، فإن الحكاية التي رويتُها لجونْ يمكن أن تبرر بنفس الطريقة وجود شخصية جورْج ديمولانْ.

ـ كانت عائلتي مرموقة في فرنسا، بيد أنني كنتُ شقيا منذ الصغر، لأن والديّ كانا متسلطين إلى حد كبير فرفضتُ أن أعيش بالطريقة التي كانا يريدان لي أن أعيش وفقها. إنها ليست حكاية أصيلة جدا. كنتُ النعجة السوداء في العائلة. ورثتُ عن أبي لقب النبالة بعد موته، لكن قبل أن أتحمل الحياة التي كانت من حظي قررتُ أن أرحل وأبحث لنفسي عن طريقة أخرى في الوجود. لا بد أن شقيقي الآن قد أصبح هو الدوق. خلال حياتي البوهيمية، وقعت في غرام بائعة ورد. كانت لويزْ هي حبي الكبير. لم تتقبل عائلتي الأمر، وكان ذلك هو سبب القطيعة النهائية. سلّموني قسطا بسيطا من الثروة وطردوني من حضن العائلة. تزوجتُ لويزْ بيد أننا لم نرزق بأبناء، وخلال وباء الكوليرا الذي ضرب باريس سنة ١٨٣٢ فقدتُ زوجتي. تسكعتُ لبعض الوقت عبر أوروبا، ودرستُ علم النبات والطب مع طبيب مرموق من إنجلترا، لكن الاكتئاب ظل يلاحقني. فقررت أن أجرب حظي في أمريكا. وبالصدفة تعرفتُ على فانْديربيلْتْ في نيويورك. دعاني إلى الرحلة الأولى لتدشين «طريق العبور». وأنت تعلمُ أنه لولا المَلارْيا ولولاك أنت، لكنتُ تابعتُ رحلتي نحو كاليفورنيا ـ قلتُ مبتسما. ـ عندما توجهتُ إلى أمريكا، وفي خطوة أخرى نحو إعادة ابتكار ذاتي، قررتُ أن أتخذ «ديمولانْ» اسما عائليا لنفسي. كان كاميلْ ديمولانْ أحد منظري الثورة الفرنسية رفقة دانْتون وروبيسْبيير. لكنه، في النهاية، مات أيضا في المقصلة رفقة دانْتون، في نفس اليوم، أي في الخامس من نيسان من سنة ١٧٩٣، دقائق بعد موت الآخر. كان ديمولانْ صديقا لجدي. هل تعرف ما قاله دانْتون؟ قال: «دعوا الناس يروا رأسي، لأنها جديرة بالرؤية». حكى لي جدي أن كاميلْ مات يائسا، لأنه أدرك أنهم قد قبضوا على زوجته لوسيلْ. وقد أعدموها أيضا في المقصلة يوم ١٣ نيسان. إن السياسة تثير اشمئزازي، يا صديقي. كانت هناك أحلام كثيرة مع الثورة الفرنسية وانظر ما حدث: تَوّج نابليون نفسهُ إمبراطورا وعادت ملكية «شعبية» إلى السلطة. لهذا يقولون إن الثورات

تلتهم أبناءها. كنتُ أريد أن أبتعد عن كل هذا. غريب أنه، حين شعرت أنني أموت، بُحْتُ لك بذلك الاعتراف. أُدركُ أن الماضي والأواصر العائلية أقوى مما يعتقد المرء، لكني أطلب منك أن تنسى مسألة لقب النبالة. كما قلتُ، لا بد أن شقيقي الوحيد هو من يحمله الآن.

سكت جونْ، لكن فقط للحظة. كنتُ قد حكيت له بعضا من هذه التفاصيل، كموت زوجتي، مثلا.

ـ عزيزي جورْج ـ قال لي ـ ينبغي أن تكون عمليا. في بلدان صغيرة مثل هذا البلد حيث النبالة الوحيدة التي يعرفها الناس هي ما يقرؤونه في حكايات الساحرات وفي الروايات، يليق بك، هل أشرح لك؟ يليق بك ـ قال مُشددا ـ أن يعرف الناس أنك دوقٌ أو كونْت، أو أي لقب من هذين اللقبين. لا أستطيع أن أجبرك على هذا الأمر، ولكني، مع ذلك، لا أجد بدا من أن أقدم لك هذه النصيحة.

ضحكتُ. كان قد أوقف سير الفرس حتى ينظر إلي بعينين محدقتين ويقوم بحركات على هواه.

ـ لقد اتخذتُ هذا القرار ـ قلتُ بهدوء، وأنا أبتسم ـ لن تجعلني أغير رأيي. أتمنى أن تقاوم أنت غواية إشاعته بين الناس.

ـ لا أرى أن في الأمر ما يمكن انتقاده. بل يمكن أن يكون هو الحل: أنت لا تذيعه، فكيف أقوله أنا!

ـ على الأقل، انتظر بعض الوقت، أليس كذلك؟ ـ ضحكتُ ـ دعني أقدم نفسي في هذه المدينة الجديدة بصفتي مواطنا فرنسيا بسيطا. هل يمكن أن أطلب منك هذا؟

ـ يمكنك ذلك ـ قال لي ـ وعلى ذكر هذا، إن ماتاغالْبا هناك. انظر. إنها جوهرة وسط الجبال.

الفصل السادس والثلاثون

آه، الذكرياتُ تنتشر بداخلي كأنها رايات مزركشة الألوان! كانت المدينة الصغيرة منمنمة بيضاء في واد ضيق وسط خضرة مخملية في جبال وتلال أبَّانْتي وكالْبارْيو. كان «نهرها العظيم» يتلوى كالحية من الشمال إلى الجنوب باتجاه المحيط الأطلسي. على ارتفاع ثلاثمائة متر، كان جوها المنعش يعد بهدوء لا يشوبه حرّ في منطقة مدارية من الهضاب العليا. فكّرتُ في القرى الصغيرة في جبال الألب، إلا أن الأحجام هنا كانت أقل درجة؛ لم تكن تظهر قمم مكللة بالثلوج، بل جبال مغطاة بأشجار الصنوبر.

في تلك البلدة البعيدة عن العالم، وعن عتمات ماضي شخصيتي، كُتب لي أن أعيش كما لو أنني ولدتُ من جديد. كنتُ مواطنا في جغرافية لم تُنحت بعد، ولم تعبث بها يد الإنسان. تمكنتُ من العودة إلى الزمن الذي يكون فيه المرء ما يزال قابلا للتشكيل. ومن جلد وخشونة إنسان راشد ابتكرتُ ذاتي من جديد. تعلمتُ ونسيت ما تعلمتُه في الوقت ذاته. وجدتُ معنى جديدا في الأرض وفي الناس؛ في فرح النظر إلى ما يزرعه المرء، ولأول مرة كنتُ قادرا حقا على أن أشعر بما يشعر به الآخرون.

في ذلك اليوم الأول، نزلنا إلى ماتاغالْبا قبل الغروب. وعن كثب لم تكن البلدة هي تلك البطاقة البريدية التي تظهر من بعيد. لم أستطع أن أتعرف من خلال وصف لورينا وجونْ على تلك القرية الصغيرة بأزقتها ذات التراب المكدس وغير المُبلّطة. أخذني جونْ إلى ضفاف النهر، وجعلني أقطع مسارا بالكاد استغرق شيئا من الوقت. كانت مدينة صغيرة، قرية كبيرة، ذات حجم صغير يقطنها حوالي ثلاثة آلاف شخص على أكبر تقدير. كان الناس يطلون من النوافذ لرؤية من يمر. كانت النساء من الأهالي يضعن جرارا فوق رؤوسهن. المنازل البيضاء لها منحدرات سقوف من التراب وبقع من الوحل. صادفنا أشخاصا آخرين يمتطون الخيل، كان جونْ يحييهم وهو يرفع قبعته. رأيتُ كنيسة صغيرة في منطقة تدعى «لابوريو» وتوجهنا بعد ذلك إلى حي منازل الأعيان حيث كان بيتُ صديقي. كانت هناك حديقة أمام البيت ويحيط به سياج من الحديد المُطرّق. وكان هناك سياج من نبات الخبيزة ذي أزهار حمراء وبرتقالية يحفظ حميمية صاحبات البيت. عبرنا الباب الكبير؛ وعلى جانبيْه كانت تنمو شجرة تين ذات حجم كبير، تشي فروعها ذات العُقَد الكثيرة بكبر سنها. كان مربع العشب محاطا بنبات السّرْخس واللبلاب الذي يغطي الحائط الأيمن من البيت المكون من طابقين، وشرفة على امتداد الطابق العلوي بكامله.

إلى جانب البيت، رأيتُ المحل الذي حدثني عنه جونْ: دكان حدائد. وفوقه لافتة كتب عليها «المِبْرد». كان فيما مضى هو متجر العائلة. بدأ والده ببيْع المناشير والمطارق فازدهرت التجارة. ووالدته هي من تشغل وقتها بذلك اليوم. كان جونْ مكلفا بالسفر وتزويد المحل بالسلع. وسيستمر في القيام بذلك، ولو أن الحقول كانت هي موهبته الحقيقة. إن إعادة ابتكار الذات كانت سمة من سمات تلك الأزمنة.

خرجتْ أُمّ جونْ لتستقبلنا. عانقت ابنها بعينين مغمضتين. لا بد أن كل رحلة كانت تتركها على أحرّ من الجمر، فكّرتُ. بعد ذلك، حيتني بقبلة على خدّي. أما أنا فانحنيتُ مبالغا في المجاملة، لكنها لم تكترث بشكلياتي.

ـ هذا هو جورْج شْوازولْ دو بْرالانْ ـ قال جونْ وهو يقدّمني إليها.

ـ صديق ابني صديقي أيضا ـ قالت الأم أليسْيا ـ تفضّل، سيد جورْج، مرحبا بك في هذا البيت الذي يمكنك أن تعبره بيتك منذ الآن.

كانت امرأة في الستين من عمرها، هيفاء، لها بشرة سمراء صافية، شعر كستنائي لامع وعينان بنفس اللون. كانت ما تزال منتصبة القامة، وهنا يكمن وجه الشبه مع ابنها. تفيض طاقة وحيوية. وبينما كنا نمشي والشاب يرتب أمتعتنا، كانت تلمس ابنها من ذراعه، تداعب ظهره، وتنظر إليه بحنان كبير. غبطتُ صديقي وأنا أتذكر مسافة وبرودة عواطف أمي التي كانت

دائما تتصرف مكرهة بالبروتوكول.

أما جدّة جونْ، أوْرورا، فكانت عجوزا بالكاد تعي أنها على قيد الحياة. نظرت إلي بعينيها اللتين يغطيهما حجاب من السّادة. مدّت إلي يدها من كرسي المُقعدين حيث تجلس ثم عادت لمهمتها في النظر من النافذة.

أكلنا في العشاء رجْل أيّل محضرة بالتوابل اللذيذة، والرّز وطعام مقلي من الموز الطازج. أحسستُ بطعم البذخ وأنا أجلس إلى المائدة بعد أول حمام منذ خمسة أيام، وأنا أتناول العشاء في آنية لا تستعمل إلا في المناسبات الكبرى ـ آنية بسيطة ذات حاشية رقيقة ومذهبة ـ سكاكين وشوكات من النوع الجيد، مناديل من ثوب الكتان، كؤوس بلورية ونبيذ حلو بعض الشيء دون أن يكون ذلك مزعجا. استمتعتُ بتعابير وجه أليسْيا بينما كنا نتناوبُ أنا وجونْ على سرد أحداث وصولنا إلى غْرييْتاون، كيف غطسنا لإنقاذ سفينة «برووير»، وتوقفنا في حصن «إلْكستييو» حيث تعرفنا على القائد سيلبا وحكاياته حول الهنود الحمر، وكيف أُصبتُ بالمَلارْيا ووصلتُ إلى غرناطة. وبينما كانت الجدة تحرك رأسها موافقة وتنظر إلينا شاردة، لم تكن والدة جونْ تضيع كلمة واحدة مما نقول.

ـ أعرف لورينا إيسْبا ـ قالت وهي تحدق في ابنها بنظرة ماكرة ـ كان زوجها ابن عم آل أراوْز، رجل شاب طيب وذكي. كان موته غير متوقع تماما. تصور، كان عمره تقريبا أربعين سنة، ويتمتع بصحة جيدة، توفي فقط عندما ذهب ليستحم في الصباح. تمدُّدٌ وعائي، قالوا. موت فُجائي. وجدت لورينا صعوبة كبيرة في تجاوز ذلك الحزن. أتمنى أن تتزوج مرة أخرى.

ـ قد تجعل أي زوج رجلا سعيدا ـ قلتُ. فارتسمت نصف ابتسامة على وجه جونْ.

ـ لا أردي لماذا نظن أن الزواج هو ترياقُ كل من يعيش وحيدا. بعضنا يحب الاستقلال بذاته. لذلك تربطني بها علاقة جيدة وهي صديقتي.

ـ لطالما قلتُ لجونْ إنها قد تكون له زوجة رائعة، لكنه لا يلين.

ـ حسنا، يا أمي، حسنا، لا تُسخِّري جورْج ليقنعني، من فضلك.

انتهينا من فترة ما بعد الأكل. كانت الخادمة من السكان الأصليين، لها شعر أسود سبجي وسحنة بلون الشوكولاته. ومن طريقة تحركها ونظراتها خمنتُ أنها تعتبر تلك الأسرة ملكها الخاص؛ كما أنها كانت مسلية لأنها حسب ما يدور في الحديث كانت تتوقف لتستمع أو تقوم بحركة ما لتعبر عن رضاها أو رفضها. كان وجهها مليئا بالتجاعيد وخطواتُها بالكاد تحدث صوتا. هي من رفعت المائدة. أما أنا وجونْ فكُنا منهكيْن وانسحبنا لننام. نمتُ نوما هادئا تلك الليلة في غرفة مرتبة بعناية، بها سرير له ظهر برونزي ونافذة عالية سمعت عبرها في صباح اليوم الموالي حديثا بين امرأتين بلغة لم أكن أعرفها.

ـ إنها لغة ماتاغالْبا ـ قالت لي السيدة أليسْيا أثناء الفطور. هناك نسبة مهمة من السكان الأصليين في هذه المنطقة ممن ما زالوا يستعملون تلك اللغة. لا أعرف إن كانوا يعلمونها لأبنائهم. حسب علمي، هم لا يستعملون الكتابة.

ـ قد يكون أمرا مفيدا معرفة هذه اللغة بشكل أحسن.

ـ تحدث مع السيد خوسي أنطونيو. إنه يملك مزرعة كبيرة قرب خينوتيغا. بدأ يزرع البُنّ رفقة زوجيْن ألمانييْن، وهو مهتم بالسكان الأصليين، يعرف عنهم أكثر من أي أحد آخر. إنه شخص مهم وحيوي للغاية. يتردد كثيرا على ماتاغالْبا.

ـ سوف أقدمه لك ـ قال جونْ.

هكذا بدأتْ حياتي في ماتاغالْبا. في الأيام الأولى، فكرتُ أنه ينبغي أن أعود إلى غرناطة. كنتُ أشعر أنني خارج مكاني الطبيعي وأنا في قرية صغيرة جدا. من نافذة غرفتي في بيت جونْ، يمكن رؤية خط من أشجار السّرو المستقيمة العالية، التي

صارت منذئذ تطفو فوق الصورة التي تخطر ببالي كلما فكرتُ أو تذكرت تلك الفترة؛ إنها أشجار السّرو في المقبرة. وكنتُ أشعر بالكآبة في البداية، عندما كنتُ أذهب رفقة جونْ إلى المكاتب العمومية لأطلب معلومات حول الإجراءات الضرورية لأستفيد من الامتيازات والأراضي التي كانوا يمنحونها للأجانب. كانت المكاتب غير مرتبة، بدائية في بساطتها، والموظفون، على ما يبدو، لا يناسبون مهامهم، جهلة وشبه أميين، لكنهم متكبرون. ما الذي كنتُ أقوم به هناك وأنا أتصارع مع هؤلاء الناس؟ وفي قرارة نفسي لم أكن أكف عن التلويح بكل ما هو سلبي بل وحتى بالوضعية المهينة وأنا في عقدي الخامس، أحاول أن أتحول إلى مزارع في مكان تافه، بل ولا يليق بي أيضا. كيف يعقل أن ينتهي الأمر بندّ من أنْداد فرنسا وهو يتسكع بين شوارع من التراب المكدس، كان السكان يبللونه بسطول من الماء خلال النهار حتى لا يرتفع النقْع ويوسخ بيوتهم؟ كيف لي أن أتصور حياة وسط أولئك الناس اللطفاء، لكن البدائيين، من دون أُفُق غير الجبال التي تحيط بهم؟ لم يكن هناك من أحد أستطيع أن أتقاسم معه هذه الشكاوى. كان جونْ يشتكي من قلة النجاعة، لكن ذلك كان بالنسبة له مثل مشاكل عائلية يتحملها المرء لأنه ليس له عن ذلك من سبيل. وكنتُ أخرج لأتمشى ما إن يبزغ ضوء النهار. أعبر الشوارع، أنظر إلى النهر، الناس يوزعون الخبز، عربات تجرها ثيران محملة بأواني معدنية ـ يسمونها «بينتشينغاش» ـ بها حليب جُلب للتو من ضروع البقرات، والعالم يستعد من جديد في صباحات القرية بينما أنا أتجول من مكان إلى آخر مندهشا لأنني هناك ولأنني جزء من ذلك العالم الصغير جدا. ومع مرور الأيام، بدأ الناس يبتسمون لي، ويحيونني عندما يرونني أمرُّ. يقدمون لي الخبز والقهوة. وأنا أشعر بالحرج لأنني أنظر إليهم بشيء من الاحتقار، وبسبب ما شعرتُ به نحوهم من ازدراء، قبل لحظات فقط.

كان حسُّ جونْ الفكاهي الذي لا يكل وتحمسهُ للحياة هو ما ينقذني مما أعانيه من حزن وأسى. وكان صديقي يملك فضيلة عدم التفكير بإفراط في تقلبات الحياة. كان صاحب فكر مستقل ولا بد أن الفضل في شعوره بثقة في النفس تبعث على الحسد يعود إلى حُبّ أمه. في طفولته لم يرسلوه إلى المدرسة. وحسب ما حكى لي، فإن تلك الجدة التي كانت تائهة في هذيان الشيخوخة ودروبها، كانت معلمة استثنائية بالنسبة له. بفضلها تعلم القراءة في سن الخامسة، كما تعلم الرياضيات، وقرأ كتبا مثل الإلياذة، ودون كيخوتي، والكتاب المقدس، وبعض مسرحيات شكسبير. ورغم أنه لم يكن شغوفا بالأدب قط، فقد اعترف بأن الخيال الذي يجعل الحكايات توجد في مخيلة الكُتّاب كانت قدرة إنسانية لحل المشاكل والحاجيات. لذلك كان يلجأ إلى تلك الملكة في التخييل، عندما لا تُأتي الحلول البديهية أكلها. حكى لي أن الجدة كانت لها طريقة خاصة في التدريس. كانت تأخذه في جولة عبر القرية لتبين له مبدأ العلاقة بين الأسباب والنتائج. لماذا تسقط الفواكه الناضجة؟ الجاذبية. لماذا يصعب علينا أن نقفز؟ الجاذبية. لماذا تطفو المراكب الورقية فوق النهر؟ لماذا يجري النهر نحو المحيط؟ لماذا حملت تلك الفتاة؟ لماذا ليست الحمير مثل الخيل؟ لماذا تبدو منحدرات التلال كأنها عجينة مورّقة؟ وبنفس العفوية التي تعلم بها كيف يفكر تعلم أيضا كيف يثق في آرائه الخاصة.

ـ أرأيت الآن مسألة لورينا؟ لدي طريقتي الخاصة في التفكير. فلا لورينا سترتاح في ماتاغالْبا، ولا أنا في غرناطة. هكذا، وكما نحن، نقضي أوقاتا جميلة معا. لذا أرجوك، إن أثارت أمي هذا الموضوع، فلا تنحز إليها. إنها منشغلة بما قد يقوله الناس عن لورينا في غرناطة وعني لأنني لستُ «رجلا جدّيا». وإذا كنتُ أنا ولورينا لا نكترث لأحكام الآخرين، فإن الطامة الكبرى أن أمي هي من تعاني من ذلك. لا، يا أخي، أنا بخير هكذا. أنا مناهض للكنيسة ولا أومن بالزواج. إن الارتباط بامرأة مدى الحياة يبدو لي حماقة. سامحْني إن قلتُ لك ذلك، ولكنك لو لم تترمّلْ لسلّمْتَ برأيي.

الفصل السابع والثلاثون

كان من شروط محافظة ماتاغالْبا للنظر في منح أراضي للأجانب هو أن يستقر هؤلاء في المدينة الصغيرة، وهو اللقب الذي حصلت عليه القرية مؤخرا. بفضل ما كنتُ أحتفظ به من ذهب اشتريتُ بثمن قليل بيتا يقع في زاوية «شارع التجارة»، وهو الشارع الرئيسي. أعجبني لأنه كان يتوفر على أربع غرف فسيحة، قاعتين في الجهة الأمامية، حيث يمكن تهيئ صالة ومكتب كنتُ أفكر في تكييفه مع حاجياتي، يليها ممر واسع يحاذي الفناء الداخلي الذي ينتهي بجدار تتوسطه نافورة. كان بيتا على طريقة البيوت الاستعمارية التي رأيتها في غرناطة، لكنه مغلق بشكل أكبر نظرا للمناخ المعتدل. كان البيت في ملكية عائلة ميسورة انتقلت مؤخرا إلى العاصمة ماناغوا.

استقررتُ في البيت بأثاث قليل اقتنيته من أصحابه، واتخذتُ خادما شابا مولدا ومتيقظا يدعى سيغونْدو وخادمة من السكان الأصليين نصحتني بها أليسْيا، وتسمى ساغْرارْيو.

لا أدري كم مرة منذ خروجي من فرنسا، فكرتُ أن حياتي قد انتهت وأن الجبن لوحده وذكرى الزّرنيخ في أمعائي هو ما يمنعني من الانتحار. أن أهرب، وأختبئ، وأصنع لنفسي وجها جديدا، وهوية جديدة كانت هي الرياح التي تهب على أشرعة حياتي. كنتُ أجرجر ذاتي عبر الأيام مثل سلحفاة تحمل تُرْسا ثقيلا. أتعب بسهولة، أنام باكرا وأخرج للمشي مع الفجر. كان الفجر جميلا. كان الضباب ينزلق فوق السطوح، وبين المنازل، ليخلق شكلا شبحيا يشبه منظرا طبيعيا من الفن الرومنسي، أو لوحة بألوان متلاشية على طريقة ليوناردو دافنتشي. كان كل شارع يتلاشى باتجاه الجبال، وكانت الجولة على ضفة النهر مع خرير المياه المنزلقة في أمان نحو البحر شيئا يسليني عن فقدان متع أخرى من متع الحضارة، مثل الطبخ اللذيذ، مثلا. أعود لأتناول فطورا من الخبز السيء وتلك الخلائط الغريبة التي كانت ساغْرارْيو تلح علي أن أتذوقها: روْبةٌ لا مذاق لها، فاصوليا كثيرة الدهون، وبيض أُعيدَ طبخُه. وحدها الشوكولاته كانت تنقذ ذوقي.

لكن الإحساس بأنني صاحب ذلك البيت، رغم الشكوك التي كان علي أن أتجاوزها كي أقرر شراءه (لم تكف أليسيا وجونْ على الإلحاح بأن الأمر يتعلق بعملية جيدة، سواء بقيتُ في غرناطة أو غادرتها) خفّفَ شيئا ما من سُبات وإحباط تلك الأوقات الأولى التي قضيتُها في تلك القرية. وكان تحويل المنزل إلى فضاء قابل للسكن عملا مُرْضيا استمتعت بإنجازه طوال حياتي.

في الليلة الأولى التي قضيتها هناك، في غرفة نومي، وحيدا مع أمتعتي فوق السرير الباروكي على الطريقة الإسبانية الذي اقتنيتُه من أصحاب البيت السابقين، بقيتُ أحملق في السقف الطيني المزركش بوردة نُحتت في الوسط، أضحكُ بسخرية وشفقة من نفسي وأنا أفكر في السقوف المزخرفة، والشمعدان البلوري والرسوم الجدارية في غرفتي بقصر فو-بْرالانْ، تلك الإقامة الفخمة العزيزة على قلبي التي رمّمتُها بحرص شديد بعد وفاة والدي. كم ستستمتع فاني بسوء حظي لو استطاعت أن تراني! تأسفتُ. بيد أن مهمة تأثيث وتزيين إقامتي هو ما سمح لي بالبدء في التعرف على ماتاغالْبا وسكانها واكتشاف الأفكار المجنونة للأجانب وطموحاتهم. كانت حكاية الزوجين إلستير من هانوفير تشبه حكايتي. فقد تخليا عن الذهاب إلى كاليفورنيا، وجهتهما الأصلية، بعد أحاديث أجرياها مع مسافرين عائدين من سان فرانسيسكو إلى نيويورك، بعد أن أثبطت عزيمتهما الحانات، والمشاجرات، والمومسات والخلاعة في سان فرانسيسكو. تلك الحكايات جعلتهما يغيران وجهتهما ويقرران البحث عن الذهب في منجم يدعى سان رامون، قريبا جدا من ماتاغالْبا. عندما تعرفتُ عليهما وأنا أبحث عمّن يصنع لي مفاتيح ـ اشتغل لودفيغ قفّالا في نيويورك وكان يصنع الأقفال تحت الطلب ـ استقبلني هو وزوجته كاترينا، ألمانية حيوية لها وجه نضر كوجه بدوية من جبال الألب، بل إنهما دعياني إلى شرب الشاي ما إن علما أنني أتكلم اللغة الألمانية. ما كنتُ لأتصور أن معرفة تلك اللغة قد تنفعني يوما ما في نيكاراغوا. ومن خلالهما تعرفتُ على أعضاء آخرين من الجالية الألمانية،

وفي الأسبوع الموالي أصبحت عضوا من أعضاء «نادي الأجانب». هناك تفاهمت جيدا مع إنجليزي يدعى ألفريد بوتير وألماني يحمل لقب فوغل. كان بوتير يصرّ على أن يكون «*civilized*»، إنسانا متحضرا. يتناول الشاي كل ظهيرة في النادي، مرتديا ملابس أنيقة وقد درّب الشاب والطباخة على تحضير البسكويت وتقديمه مرتديْن مريلتيْن بيضاوين أنيقتيْن. أما فوغل، فكان نوعا ما مشتت الذهن، لكنه محاور كبير وعاشق للرسم. يمكن للمرء أن يصادفه في الساحة الكبرى أو على ضفة النهر، يرتدي لباسا من الكتان وسلسة ذهبية صغيرة مع لوحاته الزيتية، يحيط بها أطفال سُمر، فضوليون، كان يتحملهم ما داموا يحترمون صمتا مطلقا. كان جونْ يزورني يوميا فأخرج رفقته أجوب النواحي المحيطة بالقرية وأتعرف على المناطق التي تتوفر على أحسن الظروف لتنفيذ فكرته الخاصة بزراعة البُنّ. زراعة البُنّ، حسب ما كان يقول لي، كانت قد بدأت في جبال ماناغوا في مكان يدعى ديرْيامْبا، بفضل بذور جُلبت من غواتيمالا سنة ١٨٤٩. كان آل إلستر والسيد خوسي أنطونيو تْشافيثْ، الذي لم أكن أعرفه بعد لكني علمت، من خلال أحاديثي في نادي الأجانب، أنه رجل محترم يحظى بحب أهل خينوتيغا، هم من حصلوا على البذور أثناء رحلة إلى ماناغوا.

نصحني الزوجان الألمانيان رفقة جونْ ومعارفي الجدد بأن أكون طبب القرية. بدأ يفد «المرضى» على المكتب الذي أصبح، بفضل ما قام به رامون، وهو نجار ماهر نصحني به بوتيرْ، يتوفر على طاولة عمل عريضة، قطع أثاث بها رفوف وضعتُ عليها ما احتفظت به من أدوية جلبتها من نيويورك، وكراسي مريحة عبارة عن صيغة محلية لكراسي النمسا الأنيقة المصنوعة من الخشب الأسود. اختفى ترددي في مزاولة الطب بالممارسة نهائيا تقريبا عندما تأكدتُ من أن الحالات التي كان علي أن أشخصها وأعالجها كانت في الغالب آلاما جسدية، زكاما، سعالا مستمرا، وأوجاعا مختلفة من أوجاع المعدة. أمراض من دون أي تعقيدات كبيرة، تشبه تلك التي كان يعاني منها السكان في موتيستون وجزيرة وايْت. وكما كان يقول جونْ، مزاولة المهنة قد تعود علي بالقبول من لدن الساكنة. ثم إن ربح بعض المال كان شيئا مناسبا.

أخذتْ ملاحظة الأمراض، وتشريحُ الجسم البشري منذ نعومة الصغر حتى مرحلة الشيخوخة، وفك ألغاز الحساسية والأورام واختلالات الأعصاب، تتحولُ إلى شغف يشغل فكري. وعبر بوتيرْ، الذي كان يتوصل بالسلع الخاصة بمحل تجارته، تمكنتُ من الطلب والحصول على كتب في الطب والتشريح. وعلاوة على هذا الشغف، سمح لي الطب أيضا أن أطلع وأشارك الناس حميمية غالبا ما تكون محرمة على الآخرين. كان الاستماع إلى مسارّات الناس تحديا لطبعي المتحفظ، لكني سرعان ما اكتشفتُ أن الاستماع إلى الناس بل وحتى التظاهر، إن كان ضروريا، بالتعاطف مع أحاسيسهم، له وقع كبير على نتائج العلاج الإيجابية. وأمام غياب الأدوية المعقدة وعلاجات أخرى، لجأت إلى شفقة وذاكرة ذلك الرجل الذي اهتم بأبنائه بكل نجاعة وحب. وقد ساعدني شخصيا هذا الاهتمام بالمرضى والعناية بهم، فاسترخيتُ وتصالحت مع البؤس والعوز في ماتاغالْبا دون أن يضنيني الحنين إلى أوروبا.

كانت الأخبار الواردة من غرناطة تبدو كأنها قادمة من بلد آخر. في تلك السنة، ١٨٥٢، كانت أحاديث الناس وتعليقاتهم ساعة تناول الكوكتيل في «نادي الأجانب» بماتاغالْبا، تدور حول دستور سياسي جديد يعلن رسميا ماناغْوا عاصمة لدولة نيكاراغوا، وهو أمر لم يكن أهل ليون وغرناطة يعتبرونه محسوما، سواء نصّت على ذلك الوثيقة الدستورية أم لم تنص عليه.

إلْستر، بوتيرْ، وأنا كنا نظن أن الأمر يتعلق بقرار لا يرضي الأطراف المتصارعة إلا جزئيا، والغاية منه هي تجاوز خلاف كان قد نجم عنه ما يكفي من الشقاق. كان إليسييو ماسي، وهي منجمي من تينيسي، يقول إن قرار وضع العاصمة في مكان من دون تاريخ كان حلا سهلا لا غير. كيف لا يختارون غرناطة؟ مدينة، كانت تتمتع، منذ إنشائها، بوضع مثالي ويسكنها أرقى الناس وأرفعهم ذوقا.

هكذا مرت الشهور وأنا أهتم بالمرضى، الذين كانوا ينظرون إلي كما لو كنتُ إلها، أستكشف الغابات الغائمة في النواحي، وأسافر على متن الفرس نحو وسط المنطقة وشمالها بحثا عن تلك الأراضي الشهيرة التي ستجعلنا أغنياء أنا وجونْ. ثم رحل

المطر وجاء الصيف برياحه ونقْعه. فاستحالت الحقول صفراء قاحلة، وحتى في ماتاغالْبا كانت هناك أيام حارة بشكل غير مألوف. وفي شهر مايو شهدتُ فصلا من فصول الربيع في المنطقة المدارية، يأتي وافرا غزيرا مع أولى الأمطار، ويختلف عن فصول الربيع الأخرى التي عرفتها في حياتي. أولا، تتغير السماء، فتلتقي كل السحب في اجتماع سري ويكفهرّ المساء، لكنها ترحل. ثم يأتي النهار فتفوح الأرض برائحة قوية، كأنها رائحة امرأة هائجة. إنها الإشارة النهائية. تصل مئات الأعداد من النمل المُجنّح وفجأة يبرز البرق، والرعد، ويبدأ المطر في الوقت بالضبط ليخفف الهواء المتوتر ويفسح المجال للفصل القانط. أن تسمع المطر يهطل في المناطق المدارية هو أن تسمع ماء الطوفان. تنزل الزخات في أي لحظة، فتطمس أي صوت آخر. وتعود الجلبة ليس فقط إلى كميات الماء الهاطلة، بل إلى سطوح البيوت: سطوح من القرميد أو النحاس الأصفر، تشتغل مثل قبب يتردد فوقها صدى الضجيج فتمزج بين النبع المنهمر من السماء والعاصفة التي عادة ما تصاحبه.

مزيج رائع. ثم أسمع بعد ذلك كيف كان يخفت ليترك وراءه صوت السطوح وهي تقطر، وأسمع نشيد الضفادع والرطوبة، فأشعر بفرح داخلي، صادق وطفولي. أتصور الخوض في المواحل ومراكب ورقية تطفو في مجاري المياه. إن كان الوقت ليلا، يحلو أن أغمض عيني وأنتقل ذهنيا إلى الورقة، إلى قمة الشجرة، فأكون ورقة وشجرة وأتخيل الانتعاش بعد شهور طويلة من العطش، والوفرة بعد الشح، والفرح بعد حزن قنوع.

كانت على وشك أن تكتمل سنة على وصولي إلى ماتاغالْبا. كان يمضي شهر أكتوبر وموسم الأمطار في أوجه. ارتفعت مياه النهر وفي بعض الجهات من المدينة خرج عن مجراه وكوّن بركا عديدة. كانت كثرة الأوحال والرطوبة، والطريقة غير المناسبة في جمع الأزبال (باريس لم تكن أحسن حالا في طفولتي) تجلب الذباب وحشرات أخرى طائرة. ودفعني الخوف من أن تصيبني المَلارْيا مرة أخرى إلى اقتناء نسيج شفاف من محل بوتيرْ، فصنعت منه ما يشبه خيمة تغطي سريري. لأنه عندما يحل المساء يصبح الليل هو وقت اللسعات التي تقوم بها ذوات السيقان الطويلة (هكذا يسمون البعوض) ولا أردي أي حشرات أخرى، تدفعني قرصاتها إلى حكّ جلدي في حالة من الغضب.

كان أول شخص ظهرت عليه أعراض الملارْيا هو بينْخامين، المكلف بإشعال المصابيح الغازية على الساعة السادسة مساء بالضبط. انتبه للأمر خادمي سيغونْدو، الكثير الملاحظة، بعد مرور يومين.

ـ الشارع غارق في الظلام. أستغرب كيف أن بينْخامين لم يقم بعمله. لم يتخلف يوما عن مهمته حسب ما أذكر. ألا تريدني أن أذهب إلى بيته لأرى ما يجري؟

ـ هذه مهمة البلدية ـ قلتُ ـ ولكن إن ظننت أنهم لن يذهبوا، فاذهب وقم بذلك.

عندما عاد سيغونْدو كان الليل قد حلّ. وكانت ساغْرارْيو قد أشعلت المصابيح الغازية، وأنا أقرأ مرتاحا، تحت خيمتي الشّفّافة، أرتدي مبذل نوم، والباب مفتوح كي أشعر بالجو المنعش في الحديقة. طرق سيغونْدو الباب.

ـ دكتور، بينْخامين يحترق من الحمى ويرتعش كما لو أن به برد. يقول إنه ظل يشعر بحمى تأتي وتذهب، لكن منذ يومين لم يعد المرض يبرحه حتى ليتحرك.

شككتُ في أن الأمر يتعلق بالمَلارْيا. وجاءت زيارتي له في الصباح فقط لتؤكد ذلك. نوبات الحمى المتقطعة في البداية ثم انهيار الجسد بعد ذلك: الغثيان، آلام الرأس، والإحساس بالوجود على حافة الموت. بعد عدة سنوات، سيكتشف مواطني، لافارينْ، أن نوبات الحمى ناتجة عن «البلاسموديوم»، ذلك الطفيلي الذي يستقر أولا في الكبد ثم يقتحم، بعد ذلك، الدورة الدموية ليُصيب الكويرات الحمراء. وقتئذ، كنت أتوفر فقط على دواءيْن: شاي أرتيميسا والكينين. كان الرومان يُعزون حمى المستنقعات أو الملارْيا إلى الهواء السيء (ومن هنا جاء اسمهما باللاتينية، «ملارْيا» أي الهواء السيء). كانت تعوزني الأدلة أو اليقين بأن هناك ارتباط بين البعوض والمَلارْيا، لكني لم أكن أنسى أحاديثي مع فانْديربيلْتْ وحدسه بوجود علاقة سببية بين

سُحب البعوض وما كان يعانيه المسافرون لدى مرورهم في باناما عبر نهر تْشاغريسْ. كان يقول:

ـ سيحظى أحد العلماء بأحقية إثبات هذا الأمر، لكن من ملاحظاتي الخاصة يمكنني أن أؤكد ذلك.

بعد الاطلاع على حال بينْخامين أمرتهم أن ينادوا على أمه، امرأة بدينة ومعروفة بما تُحضّره من رقائق الذرة التي تبعيها أثناء فترات الزوال وهي تجوب الشوارع تحمل صينية خشبية مدورة بها رقائق ساخنة ملفوفة في ثوب أبيض واسع. لم تكن بدانتُها تمنعها من أن تُأرجح بشكل مدهش تلك السلعة فوق رأسها. شرحتُ للسيدة مرض ابنها والأدوية التي عليها أن تتكلف بأن تجعله يتناولها كي يتماثل للشفاء. ولم تكن امرأة غبية بأي شكل من الأشكال. بما أنها لا تعرف الكتابة، فقد كررت عدة مرات تعليماتي حتى صيّرتها أرقاما: ٢ على الساعة الثانية عشر زوالا، ١ على الساعة السادسة؛ وكانت تعرف عمليات الجمع والطرح تمام المعرفة، قالت لي، لأن الأرقام كانت هي «تجربتها».

انقضى يومان، ربما ثلاثة أيام. كان بينْخامين يتجاوب جيدا مع العلاج وأنا مطمئن لأنني كنتُ أظن أنه قد يكون حالة معزولة. نمتُ تلك الليلة مبكرا كعادتي. ربما كانت الساعة تشير إلى الواحدة أو الثانية صباحا عندما سمعتُ صوت حوافر خيل وبعدها طرقا قويا وقلقا على باب بيتي وصوت امرأة تصيح «دكتور»، «دكتور». قفزتُ من السرير، أخذتُ المصباح النفطي الذي أتركه دائما مشعلا في الممر وذهبتُ بسرعة لأفتح الباب وأنا أتدثّر بالمبذل.

على ضوء المصباح الخافت لاحت لي امرأة تبدو كأنها نزلت على الأرض من لوحة روبينْس «اختطاف السّابينيّات»: شعرٌ أسود كثٌ، مشعّث، وجهٌ جميل وشاحب، حزين، جسدٌ ملفوف في قميص نوم توحي تقويرته بنهدين مكتنزين، وغطاء رمادي مقطع على كتفيها.

ـ ابنتي، دكتور بْرالانْ، ابنتي تموت، تعال من فضلك.

ـ طبعا سآتي ـ قلتُ دون أن أبرح دهشتي ـ أمهليني دقيقة لأرتدي ملابسي وأجلب بعض الأدوية.

ـ لا، لا. خذ الأدوية، لكن تعال كما أنت. انظر كيف جئتُ أنا مرتدية قميص النوم. اصعد، سآخذك على متن فرسي. المكان ليس بعيدا من هنا.

كان صوتُ تلك المرأة التي ظهرت فجأة لا يقبل أي شيء آخر. أخرجت من مكتبي الحقيبة التي أحتفظ فيها بالأدوية وامتطيتُ الفرس خلفها.

ـ تثبّتُّ بحزامي. لا يهم ـ أمرتْني ـ سوف يُحْضرُ الفرس.

حاولت أن أكون أنيقا ما استطعت وأنا أمسك بها، لكنه كان من الصعب علي أن أستمر كذلك عندما بدأ الفرس يُحْضرُ. اضطررت لأمسك خصرها بقوة وألصق وجهي بظهرها حتى لا يسوط شعرُها وجهي. كُنا هي وأنا نرتدي ملابس النوم، تحت الضوء الواضح للقمر الذي كان ليلتها يلمع في سماء صافية لحسن الحظ، فشعرتُ بين ذراعيّ بصعود نهديْها ونزولهما، وشممتُ مثل كلب سعيد ليل ملابسها، وعطر شعرها الطاهر الحريري وحميمية عرق عنقها، فخفّف السفرُ على هذا الشكل من شعوري بالفزع من سرعة الفرس. وأنا أظن أنني ضحية محظوظة لهذه الأمازونية وأطالبُ ذاكرتي بأن تحتفظ بحماس بالحميمية المفاجئة لهذه المرأة التي ظهرت من لا شيء، كنتُ أخشى أن أفقد توازني، وأموت، مهما كان ذلك الموت حلوا وجميلا.

استغرقتْ رحلةُ الطريق إلى بيتها خمسة عشر أو عشرين دقيقة. دخلتْ إلى منحدرات تلّة «أبّانْتي» عبر طريق ضيق، فلاح لي في العتمة منزل كبير به درابزين بيضاء. نزلنا معا من فوق الفرس ولحقتُ بها جريا، يصمُّ أذنيّ خفقانُ قلبي الغارق

في الخوف والانخطاف. صعدتْ عبر سلاليم، فتبعتُها ودخلنا غرفة يضيئها مصباحٌ نفطي. كانت طفلةٌ ترقد فوق السرير. بالقرب منها امرأة قصيرة القامة ملفوفة في ملاءة نهضت فورا وهي ترفع طستا كانت تستعمله لتبلل جبين الطفلة بخرقة من الثوب. كانت الطفلة ترتعش، تئنّ وتبدو واهنة وشاحبة. عيناها شبه المغمضتين تكشفان عن الخط الأبيض لمُقلتيها.

ـ أما زالت تلتهبُ من الحمى؟ ـ سألت الأمُّ.

ـ نعم، سيدة مارْغاريتا، الحمى لم تنزل.

ـ ما اسمها؟ وكم تبلغ من العمر؟ ـ سألتُ.

ـ ديلْيا. اسمها ديلْيا. أربع سنوات.

ـ ديلْيا، أنا الدكتور ـ قلتُ، وأنا أدنو منها ـ إن كنت تسمعينني فاضغطي على يدي.

لم تكن هناك أي ردّة فعل. ثم كررتُ المحاولة عدة مرات.

ـ كم من الوقت وهي على هذه الحالة؟

ـ ظننتُ أن الأمر يتعلق بزكام ـ أجابتني الأمازونية التي علمتُ للتو أن اسمها مارْغاريتا ـ كانت تأتيها الحمى ثم تذهب. فتعود إلى اللعب كأن شيئا لم يكن. تقيأتْ ظهيرة هذا اليوم. أظن أنه كان تشنجا. ارتفعت درجة الحمى وقبل لحظات نظرتْ إلي ثم دخلت في غيبوبة. عندئذ خرجتُ أبحث عنك. عيناها منقلبتان، يا دكتور ـ تأوّهتْ ـ لم يسبق لي أن رأيتها هكذا!

ـ قبل يومين، عالجتُ حالة مشابهة ـ قلتُ. ـ أظن أنه نفس الداء، إلا أنه يضرب الأطفال بقوة أكبر. حسنا فعلتِ حين طلبْتني على وجه السرعة ـ قلتُ لها لأُطمْئنها، وأنا أضع يدي على يدها.

كانت قد لفّتْ كتفيها بالغطاء الرمادي وشبكتْ ذراعيها فوق صدرها. العينان اللتان كانتا تنظران إليّ كانتا كستنائيتيْن صافيتيْن، مذهبتين، تحت حاجبين كثّيْن. كانت هناك شامة قرب عينها اليسرى. أنفُها مستقيم وحين تستنشق الهواء يتمدد منخاريْها قليلا مما يزيد من شهوانية ثغرها الطويل المرسوم بشكل دقيق. كانت ملامحُها متناسقة، بيد أن جمالها يفوق حسن وجهها. كان جمالا ينبعث من كل ذاتها؛ شبيها ببراءة وقوة حيوان من السّنوْريات. لا يعجبني هذا التشبيه، ولكني لا أجد تشبيها آخر يلائمها أكثر منه. كانت قصيرة القامة، ويوحي جسدها بالشهوانية بسبب ما شعرتُ به أكثر مما كان بإمكاني أن أقدر.

طلبتُ من المرأتين أن تسخنا ماءً. كانت الطفلة في حالة صدمة، في غيبوبة. وعند هذا المستوى كانت المَلارْيا تعني خطر الموت. كل ما كان بوسعي أن أعرفه كنتُ قد درسته في موسوعة طبية في بيت لورينا. كان لا بد أن أجازف وأعطيها كمية أولية عالية من مادة الكينين. وبما أنها لا تقدر على ابتلاع الدواء، كان علي أن أستعمل محقنة وأحقنها. كان الدكتور هاميلتون يؤمن إيمانا قويا بهذه الطريقة. ولحسن حظي كان قد علمني كيف أستعملها. قمتُ شخصيا بغلي الإبرة والأنبوب الزجاجي مع المكبس، ثم خلطت مادة الكينين مع السائل المعقم وحقنتُ الطفلة في ردفها، تحت النظرات الهلعة للمرأتين. لم أحقنها بأعلى كمية ممكنة. اخترتُ حلا وسطا. أسندناها على ظهرها فوق وسادة حتى يظلّ رأسها مرفوعا شيئا ما ونُجنّبها خطر الاختناق. بعد القيام بهذا استعددتُ لأنتظر بين ٢٤ و٤٨ ساعة.

اندهشتُ لرباطة جأشي. أظن أنني أدين بذلك لمارْغاريتا. لم أكن أريد أن أفشل فيصيب أي مكروه ابنتها. عندما حقنتُها، قمت بذلك بكل دقة. لم ترتعش يدي.

قضيتُ بقية الفجر مستلقيا فوق كرسي في الصالة. نمتُ نوما عميقا، وقد هدّني التعبُ والتوتّر.

عند الفجر لم تكن الطفلة قد استفاقت بعد، لكن تنفسها ونبض قلبها كانا مستقريْن. كانت تبدو أكثر هدوءاً وارتياحا. قضت أمها الليلة قرب السرير. سألتني بنظراتها. أظن أنني قد فتنتُ بحاجبيْها العريضيْن.

ـ نحن في الطريق الصحيح ـ قلتُ.

نادتْ على الخادمة كي تبقى إلى جانب الطفلة.

ـ ماذا تحتاج؟ ـ سألتْني ـ هل تريد أن أبعث أحدا إلى بيتك من أجل الملابس والأدوية؟

ـ أفضل أن أقوم بذلك بنفسي.

ـ لا تذهب، من فضلك، أطلبُ منك ذلك. يمكن أن يحدث أي شيء. لا تذهب حتى تستيقظ ديلْيا. أرجوك ـ ثم أخذت يديّ بين يديْها. كانت تبدو حزينة حتى أنني اضطررتُ لأضبط نفسي كي لا أعانقها. استسلمتُ. أرسلتُ ورقة إلى سيغونْدو آمره فيها بأن يُحضر لي ما أطلبه.

الفصل الثامن والثلاثون

قضيتُ يومين في بيت مارْغاريتا. ثمانية وأربعون ساعة، فأغرمتُ بها.

في الصباح، صعدت مارْغاريتا إلى غرفتها لتغير ملابسها وتنزل لتتناول الفطور رفقتي. جاء سيغوندو بالملابس التي سأغيرها فخلعت المنامة لأرتدي بنطالا قشدي اللون من ثوب الكتان وقميصا أبيض من دون ياقة عنق. تأكدتُ أنه أحضر كل ما طلبتُ منه وأمرته بالعودة إلى البيت. بعد فترة قصيرة، نزلت مارْغاريتا ترتدي ملابس بيضاء، فستانا مغلقا به تخاريم في المعصمين، له ياقة عنق وحاشية تنورة طويلين. كانت قد شدّت شعرها إلى جانبي رأسها، لكنه كان ينزل منسدلا على ظهرها.

ابتسمتْ وهي تلجُ قاعة الأكل. ورغم الهالات حول عينيها، فقد كانت تبدو جميلة وهادئة.

ـ لا أستطيعُ أن أصدق أنني خرجت البارحة بلباس النوم وجعلتك تأتي إلى هنا مرتديا منامة ـ قالت دون أن تنظر إلي، وهي تضع الفطور.

ـ ما كنتُ سأختار طريقة أحسن من هذه لأتعرف عليك ـ قلتُ بلطافة.

وفي ذلك البيت، لأول مرة منذ عدة شهور، تناولتُ وجبة فطور لذيذة تتشكل من خبز منزلي هش، زبدة ومربى، بيض مقلي على أحسن وجه، عصير برتقال وقهوة يتعالى بخارها وتفوح رائحتها.

ما تبقى من اليوم قضيناهُ تارة نتحدث تحت السقيفة وفي القاعة وتارة نتهامس في غرفة الطفلة. كانت مارْغاريتا تبلغ اثنين وعشرين سنة. كانت قد تزوجت في سن السابعة عشر. ازدادت ديلْيا عندما كان عمرها ثمانية عشر عاما. زوجُها، بيثينْتي غيرّيررو، كان يفوقها بثلاثين سنة عندما تزوجا. مات، ليس بسبب الشيخوخة ـ قالت لي مبتسمة ـ بل لأنه تعرض لكسر في العنق بعد أن سقط من صهوة جواده. فقررتْ أن تتكلف بالمزرعة، وتربية الحيوانات التي تنتج الحليب والزبدة التي تناولتُها يومئذ في ذلك البيت. مثل شمعة اقتربت كثيرا من النار، كذلك كنتُ أشعر بدواخلي تلينُ. أرقُّ لرؤية عناء تلك المرأة من أجل ابنتها، ولما يُقرأُ في عينيها من حب لطفلتها. اضطررتُ مرات عديدة لأكتم دموعي وأنا أفكر في صغيري ريناردْ. تذكرتُ الحُمّى القرمُزيّة، آخر مرض أصابه وأنا إلى جانبه. شدّني الحنين إلى غاستون، ابني الأكبر، وإلى لْويزْ بكل نضجها ورصانتها. كان من الممكن أن يكون الكلام عنهم فرجا كبيرا بالنسبة لي. أخفيتُ دموعي وعزوتها إلى موت زوجتي، التي توفيت ضحية لمرض الكوليرا. حكيتُ لها نفس الحكاية التي استبطنتُها حتى أن الشخصيات اتخذت ملامح واضحة وأصبح مشهدُ موت زوجتي المتخيل واقعيا كما لو أنني عشتُه.

كانت مارْغاريتا عطوفا وعفوية. داعبت دون تكلف ذراعي، وظهري بل إنها مررت يدها على رأسي، بينما كنتُ أحكي لها عن محني وهمومي.

وعلى الساعة الخامسة وبضع دقائق مساء، تململت الطفلةُ الجامدة على فراشها، أنّتْ، فتحتْ عينيها، تعرّفتْ أمها، وقالت «ماما». كان مشهدا روائيا من الفرح شاركتُ فيه بكل سرور، بارتياح مرهف سرى في كلّ جسدي.

بقيتُ يوما آخر في البيت حتى اختفت الحمي تماما وأعطيتُ ديلْيا ما تبقى من جرعات دواء الكينين.

جاء سيغوندو على متن صهوة جوادي. جمعتُ أغراضي يغمرُني إحساس بأن انصرافي لم يكن مناسبا. عانقتْني مارْغاريتا. عانقتُها بحرارة، لمستُ شعرها، وطبعتُ قبلة خفيفة على فمها.

توقفتْ عند سقيفة البيت، تنظر إليّ وأنا أغادرُ، فبدتْ مرتبكة بدورها.

الفصل التاسع والثلاثون

أصابت المَلارْيا عددا كبيرا من الناس ووضعت تحت المحكّ برودة أعصابي ومعارفي. ولولا مادة الكينين التي جلبتُها من نيويورك، لكان نصف المرضى في عداد الموتى. تحول بيتي إلى مستشفى للمرضى في وضعية خطيرة. أرسلتُ عددا من المتطوعين ليبحثوا عن نبات أرْتيميسا في النواحي وأنا أظن أنه قد ينمو برّيا في مناخ مثل مناخ ماتاغالْبا. وعلى إثر ذلك تعرفتُ أخيرا على السيد خوسي أنْطونْيو. تبيّن أنه لم يكن فقط يعرف أشياء كثيرة عن النبات بل كان يملك منه بعض السيقان في خينوتيغا بفضل طبّاخ صيني تعاقد معه للعمل في سان كارْلوس، وهو مسافر آخر من مسافري «طريق العبور» فضل بدوره أن يبقى في نيكاراغوا.

كان خوسي أنْطونْيو رجلا مفتول العضلات، قويا، ذا بنية متوسطة. إن لم يكن مزارعا، لربما كان مستكشفا أو مغامرا. كان من السهل تخيُّله وهو يفتح طريقه وسط غابة الأمازون، أو يتسلق الجبال الشاهقة. كان يتكلم بسرعة كبيرة، يطلق ضحكة جشّاء ومترددة، ضاحكا من نفسه ومن الآخرين أيضا. كانت تدهشني سرعة أحكامه، لأنه كان دائما موفقا في آرائه بخصوص الناس. كان يريد أن يعرف كل ما كنتُ أعرفُه عن المَلارْيا وعن نبات أرْتيميسا، لأنه يخشى أن ينتقل الوباء إلى عُماله أيضا. نصحتُه أن يقدم لهم جميعا الشاي الذي كان يحضره الطباخُ الصيني بطريقة متقنة وقديمة.

ـ لقد اكتشف الصينيون خصائص هذا النبات العلاجية ـ قلتُ له ـ إنه أقدم علاج ضد الملارْيا، وهو أقدم من دواء الكينين.

ـ حسنا، عليك أن تعرف أنني قد وضعتُ رهنَ إشارتكَ الطباخَ كيمْ وما تشاءُ من نبات الأرْتيميسا. جلبتُ لك منه كيسيْن، وهناك المزيد. يسعدني أن أعرف أن طباخي الخاص كان على حق. بما أن هناك متسع من الأرض، فقد تركته ليزرع هذا النبات، بيد أنني، في حقيقة الأمر، لم أكن مقتنعا بأنه سيفيد في شيء. يقول كيمْ إنه مفيد للقلب، والرئتين، بل وحتى للحفاظ على الشباب ـ قال ضاحكا ـ وكان هذا هو أكثر ما أثارني، بالطبع! عندما علم بأن المَلارْيا بدأت تنتشر في ماتاغالْبا هو من قطع السيقان لأحملها لك.

ثم ذهب بسرعة تماما كما جاء. كان شهر تشرين الثاني على الأبواب وعمل كثير ينتظره: كانت شجيرات البُنّ مثقلة بالثمار وعليه أن ينظم عملية القطف. كانت زراعة البنّ ما تزال في مرحلها التجريبية، قال لي، لكنه كان واثقا أن ذلك سيستمر لعدة عصور من الازدهار في تلك المناطق.

بفضل ساغْرارْيو، وبيتْرورنا، أُمّ بينْخامين، وثُويْلا، خادمة بيت جونْ، نظمتُ عملية إعداد كميات من الشاي لتوزيعها على سكان القرية. قمتُ بزيارة لمنزل ليبيراطو أبارْكا، حاكم ماتاغالْبا، لأطلب منه أن يتكفل بعملية تنظيف المدينة بواسطة الجنود الملازمين هناك. كان الرجل منتصب القامة ببذلته العسكرية في الثكنة، فتلقى طلبي بشيء من الارتياب إلى أن ظهرت الملارْيا في بيته. خرج الجنود رفقة السجناء ليحرقوا الأزبال باشمئزاز. كان يغيظني أحيانا تهاونُ الناس وخنوعهم. وكان هذ الأمر آفة أسوأ من المرض. باستثناء بعض الرجال والنساء الذين تدين ماتاغالْبا بآمالها لحيويتهم، كان يدهشني انعدام الطموح عند الناس. كانوا يكتفون بالأكل والمبيت. ربما كانت تلك نظرتي بوصفي إنسانا أوروبيا، لكني لم أكن أستسيغ لماذا، رغم خصوبة الأراضي وامتداد المساحات الصالحة للحراثة، رغم ارتفاع عدد الأسر، كانوا يكتفون بحرث قطعة أرض صغيرة يزرعون فيها شيئا من الذرة، والفاصولية والموز، كما لو أنهم لا يملكون قوة أو إرادة لزراعة المزيد.

وفي ليلة من الليالي، نمتُ منهكا بعد عمل مضن في علاج المرضى وتوزيع الشاي الذي أقدمه لهم علاجا وقائيا ضد الوباء، لاحظتُ أن الكوابيس التي كانت تأتيني بانتظام لم تعد تحضر لتؤرقني منذ عدة أيام. الآن، صار الاهتمام بتخصيص اليوم

الموالي يحلّ مكان ما كنتُ أعيشه من قبل؛ ويعوضُ ذلك الشعور بالذنب الذي كان يحاصرني في الأحلام، وتلك الكآبة التي كانت تداهمني ويغرقني ثقلُها وسط الملاءات فأغطي ذاتي بالكامل كما لو أنني أخشى، إن فتحتُ عينيّ، أن أرى شبح فاني ينظر إلي من زاوية بوجه مشوه وهي تطالبني أن أجهز عليها مرة أخرى. لم يسبق لي في حياتي، بصفتي رجل سياسة من النبلاء محاط بالبذخ ووسائل الراحة، أن شعرت بكل تلك الثقة في أنني أقوم بشيء جيد، وأنني إنسان نافع. إن المرء يتعلّمُ من تكوينه الديني مفهوم حب الآخرين، ومساعدة المحتاجين، لكن هذه المفاهيم المجردة تبقى خطابات يرددها الآباء على الأبناء، حفاظا على التقاليد أكثر من اعتبار أهميتها في الحياة الواقعية. في الحياة اليومية، ومنذ بداية الشباب، يتدرب المرء على أن يواجه المنافسة الشرسة، يحمي نفسه من الدسائس ويستفيد من الصداقات، والنسب والوضعية حتى يتموقع بشكل أحسن على رقعة الشطرنج حيث يمكن لفيل متمرّس، برج، أو فرس، أن يتقدم ويقوم بالشاه مات، كي يفوز على الآخرين. الغريب في الأمر أنه أثناء الحروب فقط تكثر حكايات البطولة حيث يقدم الناس حياتهم من أجل إنقاذ رفاقهم في المعركة، يدافعون عن شعب من الشعوب بل ينسون أنفسهم أحيانا وهم يسعون جاهدين إلى تحقيق طموح مشترك. ربما كان هذا هو سحر وجاذبية الحملات العسكرية والثورات. فالهدف المشترك، الوطن، كان يتكلف بإضفاء معنى ما على الحياة، لا يكون فقط نتاج قرارات دقيقة وملتبسة يتخذها أفراد معينون بل نتاج قيم سامية يعتنقها مئات وآلاف الأشخاص المقتنعين بعدالة قضايا كانت تبدو مشحونة بحب الغير، لكنها كانت فضفاضة جدا كما كان شأن الحرية والمساواة والأخوة في فرنسا.

وكان السبب الآخر في شعوري بالسكينة هو مارْغاريتا. كنتُ أراها من دون حاجة لي برؤيتها. ذكرى الرحلة القصيرة على صهوة الجواد، والثمانية وأربعين ساعة من الحميمية قرب ابنتها المريضة، كانت ذكرى لا تمّحي كأنها نسيم مستمر يهب ليخفف من مشاغل تلك الأيام وأمورها المستعجلة. كنتُ واثقا من أنني سأعود لأكون إلى جانبها، وأن القدر قد مدّ بيننا جسرا علينا أن تعبره. كنتُ أتجاوز سنّها بأكثر من عشرين عاما، بيد أن الزمن لن يثنيني عن محاولة الاقتراب منها. لم تكن طفلة رغم شبابها، بل كانت امرأة كاملة. خلال الأسبوع بعثتُ سيغونْدو كل يوم ليطلع على صحة الصغيرة، التي تعافت تماما، حسب ما كان يأتيني به من أخبار لدى عودته.

أن أستطيع أن أغرم من جديد بطريقة قوية ومفاجئة كان أمرا يصيبُني بمزيج من الذهول، والحبور والخوف. نظرا لسني وحكايتي، كنتُ أظن أنه لم يعد أمامي سوى القليل أو لا شيء لأجربه، لكني كنتُ مخطئا بكل تأكيد. كل يوم، في علاقتي كطبيب مع المرضى، كان طبعي يتغير؛ فأخذتُ أشعر بنفسي متحررا من درع أجبروني على ارتدائه منذ طفولتي. البساطةُ المفرطة لحياتي، التي ألعنها في كثير من الأحيان، كانت تتركني حرا بدورها. تعلمتُ أن أثق بالآخرين، أن أرى من خلال الأحكام المسبقة، أن أكون عفويا، أن أنهض باكرا، وأطبخ لنفسي ما لن تستطيع ساغْرارْيو أن تحضره من خلال ما أقدمُه لها من تعليمات فقط. الانبعاثُ المفاجئ للانجذاب والحنان اللذيْن شعرتُ بهما تجاه مارْغاريتا حملاني إلى بكارة الطفولة يوم كان من الصعب تمييز الرغبة من الحب. لكن العتاب لم يعوزني: ألم يكن تجرؤا من طرفي، أنا الذي أصبحتُ قصيّا عن ذاتي، وأتظاهر بكوني من أكون، أن أُغرم بمارْغاريتا؟ هل ينبغي أن أخبرها بالحقيقة؟ وهل كانت تلك ما تزال هي حقيقة حياتي؟ لماذا، إن كنتُ قد قررت أن أجدد نفسي في مظاهر شتى، لا أستطيع أن أجدد الحميمية، والحب، وأن أكون شخصا آخر بكل المعاني؟ إن مارْغاريتا لم تبرز من الليل كي أنقذ ابنتها، بل جاءت لتنقذني أنا. حملتها الحياةُ إلى باب بيتي. إن هذا الشعور اللعين بالذنب لا يمكنهُ أن يسيطر على حياتي بكاملها.

ومرت الأيام. انحسر الوباء. لم يمت أحد. ووصلتْ إلى بيتي هدايا، سلال من الخضر، والجبن، واللبن الخاتر، والرقائق، والحلويات. كان امتنان الناس يؤثر في نفسي. لم أكن قادرا أثناء فترة الطوارئ أن أتقاضى أجرا على ما كنت أقدمه من خدمات وأدوية.

كانت إمداداتي من مادة الكينين قد استُزفتْ تقريبا، لكن السيد خوسي أنْطونْيو كان يرسل لي كل أسبوع نباتات الأرتيميسا وبعث طباخه كيمْ ليعلمني كيف أُنشئ مشْتلاً لإنتاج هذا النبات. سافر جونْ إلى غرناطة فكلفته بجلب ما يمكن أن يجده من كتب عن الأعشاب والأدوية المنزلية. كما طلبتُ منه أن يسأل عن توفر مادة الكينين في الصيدليات ويقتني بعض الأدوات من أنابيب اختبار ومهاريس، حتى أتمكن من صنع أنْقعة، ولزقات بل وأقراص بفضل الأعشاب الطبية التي بدأت أزرعها في الحديقة.

نادرا ما لم أكن أتلقى زيارة كل مساء. في نهاية الأمر، كنتُ قد زرتُ بيوت عدة عائلات والأزواج الذين يخرجون في المساء كانوا يتوقفون ليحيوني ويسألونني عن أحوالي. لم تكن تلك من عاداتي المحلية المفضلة. كنتُ أملُّ من الأحاديث التي تفيضُ تفاصيل عن الأقارب والأشخاص الذين بالكاد كنتُ أعرفهم. كنتُ أفضل الحكايات والقيل والقال، التي كانت شكلا من أشكال التسلية في مكان محدود حيث حياة وأسرار الآخرين سرعان ما تصبح في علم الجميع. كانت القدرة على الابتكار وتحريف الأمور شيئا خارقا. فظيعا.

كان يحيرني ألا تظهر مارْغاريتا وتزورني. كنت أفكر فيها بدون انقطاع. كلما سمعتُ طرقا في الباب، تصورتُ أن تكون هي. أصبحت الشكوك تؤرقني: هل تكون ندمت عن تصرفها، وعن الثقة في تعاملها معي، أنا الغريب؟ هل تكون قد خشيت قوة الإحساس الذي شعرنا به معا، وتلك الجاذبية الأكيدة التي تجمعنا؟ هل يمكن أن تثبط عزيمتها أقاويل الناس إن هي، الأرملة، زارتني في بيتي؟ وحلَّ القلقُ مكان الاطمئنان الهادئ الذي كنتُ أضمره آملاً أننا سنبحث معا عن الصحبة المتبادلة. لُمتُ نفسي لأنني تجرأت على التفكير في ذلك. قناعتي بأن الحياة كانت تمنحني مستقبلا أقل وطأة من التكفير عن ذنوبي صارت تتلاشى مثل فترات الظهيرة الغارقة في المطر.

لكن، جاء اليوم الذي حل فيه وكيلُ مزرعتها، راكبا نفس الجواد الرمادي الذي امتطيناه هي وأنا، ووقف عند باب بيتي. قادهُ سيغوندو إلى مكتبي.

كان الرجل ضامرا، قرويا قليل الكلام. مدّ لي علبة.

ـ بعثتْ إليك بهذا السيدة مارْغاريتا أرااووثْ. أنسحبُ بعد إذنك.

ـ انتظرـ قلت له ـ انتظر في القاعة. من الممكن أن أبعث معك شيئا.

كانت العلبة الملفوفة في ورق صيني مرْزومة بعناية. وجدت صعوبة في فك الحبل الرقيق الذي كان يشدها.

وجدتُ بداخلها خاتما جميلا وثقيلا من الذهب به حجر من الجزْع تحيط به أحجار صغيرة من الماس.

دكتور بْرالانْ: ليس لديّ ما أدفع لك جزاء ما قمت به من أجل ابنتي ديلْيا. لذا أرجو أن تتقبل هذه الهدية عربونا لصداقتي وامتناني.

مارْغاريتا أرااووثْ، أرملة السيد غيرّيررو

كان خطها واضحا، أنيقا.

لم يكن من الممكن أن أقبل ذلك، بطبيعة الحال. أمسكت لحظة الخاتم بين يديّ. رفعتُه إلى أنفي لأشتم رائحتها. تخيّلتُه بين يديْها. يدان لم أكن أستطيع أن أتصورهما، كما انتبهتُ لذلك.

فما الذي ألمّ بي؟ هل الخوفُ من أن تفلت من بين يديّ مثل فراشة زرقاء، من ذلك النوع الذي يكثر في الغابات المجاورة؟ هل كانت نشوة اغتنام الفرصة لأبعث لها رسالة واضحة تعبرُ عن نواياي؟ لم أفكر في الأمر سوى لبضع دقائق.

أعدت الخاتم إلى علبته، أخذت أوراقا صقيلة بيضاء من تلك التي أستعملها لتحرير وصفاتي الطبية وكتبتُ:

لن آخذ هذا الخاتم إلا إذا تركتني أضعه في أصبعك يوم تقبلين بي زوجاً.

جورْج شْوازولْ دو بْرالانْ

رزمتُ العلبة من جديد على أحسن وجه ممكن نظرا لما كنتُ عليه من اضطراب كان يفقدني صوابي.

سمعتُ صوت حوافر الجواد عندما انطلق الرجل صوب البيت ذي الدرابزين البيضاء.

الفصل الأربعون

لم تكن مارْغاريتا من ذلك النوع من النساء اللواتي يمكن أن ينتظر المرءُ منهن جوابا فوريا. عند المساء، أخفيتُ قلقي، وذهبتُ لزيارتها. استقبلتني بابتسامة ماكرة وساخرة.

ـ فقط لأنك رأيْتَني بقميص النوم ورأيتُك ترتدي المنامة أمر كاف لكي لا تتزوجني.

أذكر قميصها الأبيض، الرقيق، وبشرة وجهها التي ذكّرتني بفاني في شبابها. هي بدورها كانت لها بشرة جلد ناصعة، ومخملية. ضحكتُ مع نفسي.

ـ ما كان عليك أن تبعثي لي بذلك الخاتم النفيس جدا. سقطتُ في غوايته.

ـ ولا كل الحلي كان بإمكانها أن توفيك أجر ما فعلت من أجل ابنتي، يا دكتور. كما لا بد أنك قد لاحظت ذلك، نحن نستعمل المقايضة هنا أكثر من المال. علمتُ أنهم جاؤوا إليك بهدايا عديدة. لم أجرؤ على إزعاجك أثناء الوباء، لكني أبيتُ أن أبقى في المؤخرة. أشكرك باسمي الخاص ونيابة عن أهل ماتاغالْبا. لقد أسديت لنا خدمة كبيرة في هذه الأيام.

أخجلني سخاؤها. ماذا سيكون رأيها في شخصي لو علمتْ؟ أبعدتُ تلك الفكرة كمن يطرد ذبابة كبيرة. يمكن أن أبرئ نفسي، وهذا ما كنتُ أقوم به. كانت أمامي من الحياة ما يكفي لمحو ذلك العار، وتطهير نفسي. هذا ما فكرت فيه.

كانت الشمس قد بدأت تنزل وراء الجبال وأخذ يهب نسيم بارد، ولطيف.

ـ هيا نقوم بجولة ـ قالت لي ـ أريدك أن ترى هذا المكان.

مشينا بمحاذاة طريق وسط الحقول ثم توغلنا في أجمة أدهشتْنا فيها وفرةُ أشجار الميْعة السائلة بأوراق من خمسة فصوص، وجذوع خشنة كأنها جلد تمساح. كما رأينا شجرة الجوز بخشبها النفيس، ونبات السّرْخَس الضخم والأحجار الكبيرة.

ـ شجرة قسطل ـ قلتُ لها ـ هل تأكلون ثمارها؟

ـ تأكلها السناجب ـ قالت مبتسمة.

تجولنا لبعض الوقت. كانت تمسك بيدي حتى تتكأ علي في الأماكن حيث ترتفع الأرض وتنخفض، وتُحدّثُني عن القردة العوّاءة التي كانت تسمعها تعوي ليلا من بيتها.

قالت لي إنه ينبغي لي أن أكتشف يوما ما تلك الجهة، لأن تعجُّ بالأعشاب الطبية، بالإضافة إلى نبات الفشّاع والكنْسودة المخزنية.

لم يكن فكري، لحظتها، مركزا على الأعشاب الطبية. كان النظرُ إلى مارْغاريتا يستأثر بكل انتباهي.

رأينا الغروب وسط الأشجار. صمتنا. دنتْ مني ولم تمانع في أن أضع ذراعي على كتفيها. استندتْ إلي.

ـ توفي زوجي منذ ثلاث سنوات ـ قالت ـ كان عمر ديلْيا سنة واحدة فقط. أنا لا أعارض فكرة الزواج ـ أضافت دون أن تدير وجهها، وهي تنظر إلى حمرة الغروب ـ ولكننا بالكاد نعرف بعضنا.

ـ أفهمك ـ قلتُ ـ لحسن الحظ أننا نسكن في نفس المكان وهذا ليس صعبا بالنسبة لنا.

ليْلَتها، بالكاد نمتُ. مزيجٌ من الحاجة العميقة للصُّحبة والحب، ظلت إلى غاية ظهور مارْغاريتا مكبوتة ودفينة تحت

ذريعة أنه لا يمكن لأي سعادة أن تكون ممكنة إلا سعادة الوجود على قيد الحياة، كانت في مواجهة الاختيار الأخلاقي في أن تسمح لنفسها بحب الآخرين وأحظى بحبهم. إن المُضي قدما وراء حدسي، كنتُ أقول مع نفسي، هو أن أكون منسجما مع هدف ابتكار حياتي من جديد. فلا فائدة من مجهود الكثير من الناس الذين ساعدوني على الهروب، إن كنتُ أحكمُ على وجودي بتأدية ثمن جريمة دفعتْني الظروف إليها. كانت غريزة الحياة تنسج خيوطها وتهب ريحٌ لتدفع مركبي وتجعله يسبح ليترك وراءه، أو على الأقل ليؤجل أي فكرة جحيم أو مطْهر. كان صدري ينفرج وأنا أتخيل مارْغاريتا في حياتي اليومية.

حوّلت إمكانيةُ تكوين أسرة جديدة فُتوري في البحث عن أراضي رفقة جونْ إلى شيء مُلحّ ومُستعجل. نظر إلي صديقي مندهشا عندما حدثتُه عن مشاريعي.

ـ مارْغاريتا أراووثْ، لا أقل من مارْغاريتا أراووثْ، «الوردة البيضاء»؟ ـ قال لي، وهو يخبرني بأنهم هكذا كانوا يسمونها في القرية لأنها تفضل ارتداء ملابس بيضاء ولأن جمالها كان على لسان الناس على مدار عدة أميال. ـ لا أظن أنها ستتزوجك. لم يستطع أي أحد أن يجتاز خندق ذلك الحصن منذ أن ترمّلتْ. لكن، حسنا، ليس هناك من وهْم وخيم ـ ثم ضحك.

ـ أفهم أنك تظن أنه مجرد وهْم ـ قلتُ مبتسما ـ أنا أيضا بالكاد أصدق الأمر. ويمكن ألا يكون أكثر من ذلك، لكنه يتوقف كذلك على مدى تحضيري للأرضية وما سأمنحها من الثقة لتؤمن بأن اقتراحي جدي.

وبينما في ماتاغالْبا لم تكن تكسر رتابة الحياة سوى تقلباتُ الجو، كانت تأتي من غرناطة بانتظام أخبار تتعلق بأحداث سياسية مقلقة أكثر فأكثر. على ما يبدو، بينما كان العميد البحري يستمتع بخمسة أشهر من العطلة في أوروبا رفقة أسرته، كان ولْيام واكرْ، زعيم القراصنة الذين تم استدعاؤهم إلى نيكاراغوا كمحاربين من أجل الحزب الديمقراطي في ليون، قد تمكن رفقة مورغان وغاريسون، وهما موظفان سابقان في «شركة العبور»، من تجريده من المقاولة. وحتّى يتأتى لهم ذلك، أقنعوا الرئيس باتريسْيو ريباس، المعروف بأنه دمية في يد الأمريكي واكرْ، بأن فانْديربيلْتْ كان يدين لنيكاراغوا بمال كثير مقابل استعماله لطريق العبور. كانت حيلة، لكن سفنه حُجزت واستُعملت لنقل المرتزقة من الولايات المتحدة إلى نيكاراغوا كي يواصلوا الحرب التي بدأها واكرْ. نقْلُ الجنود ممتزجين مع المسافرين، كما دأب على ذلك بايرون كول وولْيام واكرْ، أدى ثمنهُ بحياتهم عدةُ مسافرين غير محترزين وهم في طريق عودتهم إلى نيويورك. أطلق الجيش المُطالب بالشرعية النار على السفينة فهلكت امرأة وطفل. وكان واكرْ قد سيطر على مدينة غرناطة، وراح يهدد الجنرال بونسيانو كورّال باتخاذ سكان المدينة رهائن. وأمام ذلك الوضع حصلتْ هدنةٌ بين الطرفين. كان تروج إشاعات بأن واكرْ كان أكثر فأكثر قوة وأن طموحه كان هو ضمُّ نيكارغوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

كنتُ ألح على جونْ أن يجلب لورينا إلى ماتاغالْبا. كانت الحرب تنتشر في كل أنحاء البلاد. كانت غرناطة في يد القراصنة. أعْدموا كورّال. وبحثاً عن ملجأ، احتمت مجموعةٌ مهمة من زعماء الجيش المُطالب بالشرعية في ماتاغالْبا وهناك نظموا جيشا أطلقوا عليه اسم «جيش الشَّمال»، كما درّبوا في تشكيلات عسكرية مجموعة مهمة من رماة السهام الهنود أخذوهم إلى معركة سان خاثينطو، يوم ١٤ أيلول من سنة ١٨٥٦.

ظلت لورينا في غرناطة إلى غاية شهر تشرين الثاني من تلك السنة. ولحسن الحظ، بعد أن عيّنَ واكرْ نفسهُ رئيسا على البلاد في انتخابات غير نزيهة، بدأ النيكاراغويون يعودون إلى جادة الصواب ويقفون في وجه طموحات هذا الرجل الذي، بما أنه كان من جنوب الولايات المتحدة، فقد حاول إعلان العبودية وفرض اللغة الإنجليزية لغة رسيمة في البلاد. عندما انتبه واكرْ إلى أنه كان سيفقد غرناطة، أمر أحد أتباعه، هينيغسين، بإحراقها. كانت الأيام الأولى من شهر كانون الأول حيت أقنعتُ أخيرا جونْ بأن نذهب ونُخلّص لورينا.

كانت علاقتي مع مارْغاريتا تمضي دون عجلة. لم أكن أريد أن أمارس عليها ضغطا. كانت امرأة عطوفا، شهوانية، لا تعرف

كبتا ولا تمارس رياء. كنا نتبادل قبلات طويلة، نعانق بعضنا ونتبادل اللمسات. لم يكن لدي شك منذ البداية في أنه حتى يتم زواجُنا، فإن ما كنا نتبادله كان هو حد حميميتنا. وكانت الرغبة في كثير من الأحيان تحملني على أن أحاول أُخضع إرادتها لرغبتي، لأنني كنتُ أشعر بها مغرمة مثلي وأرى عينيها شبه المغمضتين، جلدها يحْمرُّ، جسدها يحتدمُ بكامله، وحنجرتها تكتم الآهات، لكن عندما يأمرني صوتُها الأجش أن أتوقف، كانت تردعني قوة أظن أنها نابعة من أنها كانت تعرفني أكثر من عدة أشخاص آخرين.

أما بخصوص فضولها، فكانت تسأل دون مواربة عن مشاريعي، عن وضعيتي الاقتصادية، إن كنتُ أستطيع أن أمنح ابنتها أمنا واستقرارا، وإن كانت تستطيع أن تعول علي في تدبير مزرعتها. كانت تملك الثروة، لكنها لن تقبل بأن يكون زوجها تابعا لها. وردا على كل هذه التساؤلات كنت أجيبها: لا ينبغي أن تشغلي بالك. فبيعُ منزلي وبعض الأراضي التي ورثتُها قرب باريس، بعد تحويل قيمتها إلى ذهب، يسمح لي بأن أتمتع بالقدرة على الوفاء بديوني. ولذلك، فإن محامي الخاص سيصل قريبا من فرنسا، يحمل لي معه جزءا آخر من احتياطاتي المالية. صدّقتْني. كانت تصدق كل ما أقوله لها. لقد ساهم الحب في أن يجعل مني أستاذا في الابتكار والكذب.

بعد أن ألححْتُ على مرافقة جونْ إلى غرناطة، ذهبتُ إلى المزرعة في تلّ «أبّانْتي» لأودع مارْغاريتا. ورغم أن الحرب لم تصب ماتاغالْبا بشكل مباشر، لم يسلم أي واحد منا من عواقبها. وكان يصل إلى القرية كل يوم عدد متزايد من الأقارب يطلبون ملجأ؛ وفي مستوصفي عالجتُ عدة رماة سهام من الهنود. كانت بعض المواد نادرة، فذهب عدد كبير من الشباب بالمؤونة والخيل وانضموا إلى صفوف الجيش. كانت الأخبار هي خبزنا اليومي وكان حاكم الحصن يتكلف بنشر البلاغات العسكرية.

كانت مارْغاريتا جالسة عند المائدة التي تتخذ منها مكتبا. تقوم بعمليات جمع وطرح تخص حسابات المزرعة. تكتب، بخطها الحسن ذي الزوايا، في دفتر المداخيل والمصاريف، أرقاما تأخذها من أوراق متفرقة.

نظرتْ إلي وابتسمتْ. أطلقتْ القلم من يدها، تنهدت ثم دفعت شعرها إلى الخلف.

ـ أستحق هنيهة تسلية! كم أكره إنجاز الحسابات!

ـ لم أكن أريد أن أرحل دون أودعك ـ قلتُ لها ـ لا أريدك أن تنشغلي، ولكن جونْ وأنا سنخرج بعد قليل نحو غرناطة كي نخلّص لورينا.

ـ لورينا؟ وهل طلبت منكما أن تخلصاها؟

ـ لا. لكننا نعرف أن واكرْ مُحاصَرٌ وهو بصدد خسران المعركة، وقد قال مرارا إنه يفضل أن يحرق المدينة على أن يسلمها. وحريقٌ في غرناطة قد ينتشر في كل أرجاء المدينة في وقت وجيز. لورينا امرأة تعيش لوحدها. ومن المناسب أن يرافقها أحد ما.

ـ يجب أن تأخذ معك سيغونْدو ـ قالتْ لي.

ـ جونْ يرافقُه بيرناردينو، رئيس العمال في مزرعته. لا تنشغلي.

ألحت على أن يرافقني سيغونْدو، لكنها لم تحاول أن تقنعني بذلك وودعتني بعناق حار، لكن من دون تأثر مبالغ.

وصلتُ أنا وجونْ إلى غرناطة يوم ١٣ كانون الأول ليلا. كنا نحمل معنا مذكرة لخوسي ماريا إسترادا، من «جيش الشمال»، وبفضلها استطعنا أن نخترق منطقة الحصار المضروب على القوات المناصرة للشرعية. ما إنْ رأيتُ لورينا حتى

شكرتُ الرّب لأنني ألححتُ على جونْ لنأتي كي نخلصها. كانت نحيفة جدا، عيناها الجاحظتان كانتا تبدوان أكثر جحوظا فوق عظام خديها، ورغم كل محاولاتها لإخفاء ذلك، فقد كان واضحا أنها قد مرت بأوقات عصيبة. عانقتنا بارتياح كبير عندما تمكنا من الوصول إلى بيتها بعد كثير من اللف والدوران حتى نتحاشى القوات الاحتياطية التابعة للقراصنة.

ـ ليس لدينا ما نضيع من الوقت، يا لورينا. يجب أن نغادر المدينة هذه الليلة ـ قال جونْ.

كان شيئا منتظرا. رفضتْ لورينا رفضا باتا. لن تذهب، قالت، لأن القراصنة خسروا المعركة. وأصبح الأمر مسألة صبر.

ـ نعرف أن لديهم تعليمات بإحراق غرناطة، يا لورينا. لا يمكن أن تبقيْ هنا. إنه أمر خطير. إن شبت النيران في غرناطة، فستحترق عن آخرها لا محالة.

ـ إن شبت النار سنغادر وسط اللهيب، لكن لن نغادر قبل ذلك ـ قالت لورينا.

ـ رائع! ـ صاح جونْ ساخرا ـ كم أحب البطولة!

ـ إنها ليس مسألة بطولة. إن غادرنا سنترك البيت لوحده، وقد يسرقون كل شيء. دعني أحزم أهم الأشياء. سيكون من السهل أن نغادر على وجه السرعة إن تطلب الأمر ذلك.

كان تحليل لورينا منطقيا بالنسبة لمن يشك في أن غرناطة سوف تزول على إثر حريق. ما كان يقال عن أوامر واكرْ كان مجرد إشاعات.

قضينا الليلة نحزمُ أغراض لورينا، وما كانت تكنزه من أشياء وكتُب. كنتُ أحمل في يديّ قصاعا جميلة للسكان الأصليين وضعوا عليها رسومات باللون البرتقالي أو بالأحمر والأسود، أصناما غريبة بوجوه نصف بشرية، نصف حيوانية، أو تماسيح تطل من الماء برؤوسها. كانت قطعا خزفية تعود إلى فتر ما قبل كريستوفر كولومبس ولابد أنها كانت ذات قيمة كبيرة جدا. كما حزمنا كتُبا، موسوعة طبية، روايات بأغلفة جلدية وتجليد دقيق. احتفيتُ في قرارة نفسي بأن لورينا لم تعر اهتماما لطلبنا بترك كل شيء وإنقاذ حياتها. لأن الأمرين معا سيكونان ممكنين في اليوم الموالي.

ذهبت إلى النوم عند الفجر. ربما كانت الساعة تشير إلى السابعة أو شيء كهذا عندما أيقظتني رائحة خفيفة، لكن لا لبس فيها، لخشب يحترقُ. ارتديتُ ملابسي مهرولا. ظهرنا أنا ولورينا وجونْ في الوقت ذاته في الممر. نظرنا إلى بعضنا البعض فلم يعد هناك من شك فيما كان يجب علينا القيام به.

الفصل الحادي والأربعون

كان خروجنا من غرناطة بطيئا وملتويا. أخذني إلى مشاهد من قراءاتي عن زلزال لشبونة وما أصابها من حريق، إلى حريق روما وبومبيي. عربات محملة مثل عربتنا، يحاولُ ركابها أن يخرجوا من المدينة دفعة واحدة، يتملكهم الهلع، يحتشدون على الطرق القروية، يولون من حين إلى آخر نظراتهم نحو المدينة الغارقة في اللهيب. كانت لورينا قد خرست، لكن بريق عينيها كان يعبر عن بلاغتها المرعوبة. كانت حرارة الحريق ترحل هبات مع الريح التي تنشرهُ من جهة إلى أخرى من المدينة. لحسن الحظ، لم يكن الدخان يخنقنا بعد، لكنه كان يهددنا. كان جونْ وسيغونْدو ماهريْن ويملكان حس القيادة. صوتُ صديقي، الحازم والمتحكم، ساعدنا على أن نتقدم ببطء لكن بكل أمان. في الأخير، خرجنا من الورطة وتوجهنا نحو ضباب ماتاغالْبا. كان اندهاشي وغضبي من تصرف القراصنة وعجرفة واكرْ أقوى من خوفي من الخروج من غرناطة وسط ذلك الحشد من الناس، والعربات والخيل. المفارقة هي أن «طريق العبور» وفكرةُ قناة فانْديربيلْتْ أصبحت هي الطريق التي استعملها هؤلاء المرتزقة في محاولتهم للسيطرة على البلاد واستغلال ما بين سياسييها من شجارات. أن يعلن واكرْ نفسه رئيسا كان تهكما حقيرا تجاه أهل نيكاراغوا. وعلاوة على ذلك، أقدمت الولايات المتحدة، ووزيرها ويلير، على الاعتراف بحكومته الشرعية، بينما كان واضحا للعيان أن الأمر ليس سوى احتلال سافر للبلاد. لكن، من ذا الذي كانت تهمه نيكاراغوا؟ كانت الإمبراطوريات هي التي تحدد قواعد اللعبة. لم أفهم بكل وضوح طريقة اشتغال المستعمرات كما فهمتُ ذلك يومئذ. كنا قد تحدثنا جونْ وأنا حول هايْتي، هو ينتقد دور فرنسا وأنا أدافع عن الازدهار الذي عرفته البلاد عندما كانت مستعمرة فرنسية. لكن تجربة نيكاراغوا التي عشتُها عن كثب كان يساعدني على فهم أسباب تمرد الساكنة ضد من يحاولون السيطرة عليها بثقافة أخرى، وبلغة أخرى وبسوط يريدون أن يقدموه للسكان مغلفا بغلاف التقدم بينما هو همينة وإهانة يسلطونها عليهم. ما لم يعقني قط، صار الآن يدهشني. حرقُ غرناطة! ياله من غيّ كبير!

استغرقت رحلة ذهابنا إلى غرناطة وعودتنا منها عشرة أيام. فكرنا جونْ وأنا أنه من الأحسن أن تأوي مارْغاريتا لورينا في بيتها مؤقتا، تفاديا للأقاويل والانتقادات التي لن تغيب لو أنه آوت إلى بيت جونْ أو بيتي. عندما وصلنا توجهنا دون تأخير إلى مزرعة أبّانتي.

كانت الشمس تنزل دون مراعاة على مناظر شهر كانون الأول الطبيعية التي كانت ما تزال خضراء. كانت تهب ريح قوية وباردة تجعل الأزهار البرية الصفراء تنحني على جنبات الطريق. حَثَثْتُ الخطى، متلهفا لرؤية مارْغاريتا. كانت تفوح مني رائحة سفر كريهة وملابسي متسخة بالغبار، لكنها، لحسن الحظ، كانت امرأة بدوية ولم تكن سيدة من سيدات البلاط. كنتُ أتقدم على صهوة جوادي في آخر مقطع وأنا ألمح درابزين البيت البيضاء حين رأيتُها في الحديقة تقطع الأعشاب الخاصة بالمطبخ. ترتدي ملابس بيضا كعادتها، بسيطة، بذراعيها العاريتيْن وقميصها الفضفاض، رفعتْ يدها إلى فمها من الدهشة، رمتْ المقص والسلة، أخذت التنورة بيدها وجرتْ بسرعة لملاقاتي. ترجّلْتُ بسرعة من صهوة جوادي، وتلقيتها بعناق أطالتْهُ وهي تشدّ عليّ بقوة. حمدا للرّب، حمدا للرّب!، قالت عدة مرات.

بعد ذلك، تحدثنا عن إقامة لورينا فأخذتها مضيفتُها إلى الغرفة التي يمكن أن تمكث فيها « ما شاءت من الوقت».

بقينا أنا ومارْغاريتا لوحدنا بعض الوقت. حكت لي بعد ذلك أنها خلال عدة ليال راودتها كوابيس كنتُ أعود فيها باستمرار. في الحلم، كان مبعوث يحمل لها قميصا ممزقا من قمصاني قائلا إنني قد متُّ، لكنهم لا يجدون جثتي. كان وجهها، وهي تتحدث، يعبر عن الأسى والحزن. أن أكون أمامها حيا وسالما لم يكن، على ما يبدو، أمرا كافيا ليخفف من تلك اللحظات العصيبة التي جعلها لا وعيها تمر بها. عانقتْني وقبّلتني بعذوبة بالغة. أغمضتُ عينيّ واستسلمتُ للحب. كم هو العالم مختلف عندما يكون المرء متميزا في عيون كائن بشري آخر!

ـ سأتزوجك، يا جورْج. ما إن تضع هذه الحرب أوزارها، سأتزوجك.

في النهاية، وبعد ثلاث سنوات من المغازلة والمعرفة المتبادلة، كانت قد اتخذت قرارها. بعد عودتي إلى البيت كان علي أن أشكر وليام واكرْ على حرق غرناطة. وكما يقول المثل «رُبّ ضارّة نافعة».

بعد وقت وجيز انتشر خبر يفيد أن القائد البحري فانْديربيلْتْ والإنجليز كانوا يدعمون حكومة كوستا ريكا بالأسلحة والذخائر وقطعوا طرق التموين على واكرْ والقراصنة عبر «طريق العبور».

أخذ واكرْ يفقد مناصريه، وينعزل شيئا فشيئا إل أن استسلم في أخيرا في شهر أيّار شارْل ديفز، قائد سفينة سانت ماري التي انطلق على متنها من سانْ خْوانْ جنوب باناما ومن هناك إلى نيو أورليانز.

كان الخبر مصدر فرحة عارمة. أقمتُ حفل عشاء في بيتي احتفالا بالحدث. أمضتْ مارْغاريتا اليوم بكامله وهي تحضر الأكل. تسليتُ معها كثيرا وأنا أخوص معها في نقاش حول الاختلافات بين مرق الأطباق الفرنسية وتلك المأكولات الثقيلة ذات المرق المعقود التي يقدمها أهل نيكاراغوا في احتفالاتهم. اقتنيتُ بعض الأرانب البرّية والحقيقة أنها كانت لذيذة تسيل اللعاب. خلال ذلك العشاء البسيط كنتُ سعيدا. كان المدعوون يتشكلون من جونْ، لورينا، أليسيا، والدة جونْ، بوتيير وزوجته، آل إلستر وخوسي أنطونيو رفقة زوجته سونْيا، التي وصلت لتوها من رحلة عبر أوروبا. مع مارْغاريتا إلى يميني، والأصدقاء وأولئك الذين تقاسمتُ معهم شكوكي وانزعاجاتي في التأقلم مع بلد ساحر وصعب مثل نيكاراغوا، شعرتُ أنني قد تمكنت أخيرا من إغلاق حلقة من الشكوك وأنني تجذرتُ في حياة رعوية لكنها جديرة بالاحترام. في ماتاغالْبا، حتى وأنا مجرّدٌ من كل ألقاب النبالة، لم يكن لديّ أدنى شك في أنني جزء من «نبلاء» المدينة. كان أهل نيكاراغوا مسرفين في التعبير عن عواطفهم وحفاوتهم. فتلك القرية الصغيرة التي احتقرتُها لحظة وصولي كانت قد تمكنت من ثقب أنفاق عديدة في ذاتي وتقويض كل أشكال مقاومتي. كنت قد تعودت على الشوارع ذات التراب المكدّس، وعلى التعايش، وتحيات المارة، وصداقة أصحاب الدكاكين، وعلى بينْخامين الذي كان يشعل المصابيح على السادسة مساءا بالضبط.

وأثناء ذلك الحفل بالتحديد، أعلنا أنا ومارْغاريتا عن تاريخ زفافنا المؤجل وطلبنا من جونْ ولورينا أن يكونا هما عرّابيْنا. كانت البلاد قد دخلت في فترة من السِّلم. لم أعلم شيئا آخر عن القائد البحري فانْديربيلْتْ.

الفصل الثاني والأربعون

تزوجنا أنا ومارْغاريتا يوم ٤ أيلول من سنة ١٨٥٩، الموافق ليوم القديس فرنسيس الأسيزي. ليلة ما قبل الزفاف لُمتُ نفسي عما كنتُ أقوم به، لكن سعادة عارمة غمرتني أيضا. أكيد أن جزءا مما تعرفه عني مارْغاريتا كان خيالا، لكن صحيح أيضا أنني بنيتُ حياة أخرى، وهذه الحياة لها واقعُ الحاضر. فلماذا لا تكون قيمة الرجل الذي أصبحتُه أسمى من قيمة ذلك الشخص المدفون في مدْفن فو-بْرالانْ؟ عندما كنتُ أرى في عينيْ مارْغاريتا تلك النظرة التي لا توصف وتكشفُ عن الممر العميق والوحيد الي يربط بين من يحبان بعضهما، كانت تخنقني الحاجة لأكشف لها عن ماضي شخصيّتي حتى لا يكون هناك أي سر بيننا، بيد أن الخوف من العواقب كان يشلني. لم أكن أقبل فكرة فقدانها، أو أن تصدني.

أُقيمَ حفلُ الزفاف في الكنيسة الصغيرة والقديمة في دولوريس في لابورْيو. عائلة أراووث، وهي من أعرق العائلات وأبرزهن في ماتاغالْبا، وقد تفحّصوني في عدة ولائم فاخرة، وجولات وحفلات في الشهور السابقة، جاؤوا عن بكرة أبيهم، مثلهم مثل أصدقائي المقربين: والدةُ جونْ، بوتير وأسرته، لودفيغ وكاتارينا إيلستير، ألبرتو فوغل، أوتو كوهل، إنريكي غوتيل، الذي كان يدير خدمة العربات التي استعملها فانْديربيلْتْ، خوسي أنطونيو وزوجته سونْيا، الذي سوف نقضي في مزرعته شهر العسل، وشخصيات أخرى في خدمتنا ومن سكان القرية، مثل سيغونْدو، بينْخامين، وساغْرارْيو. كان الزفاف حدثا كبيرا وأقيم الحفل في ساحة القرية أمام الكنيسة.

ـ أرأيتِ، يا لورينا، ما الذي يحصل عليه المرء حين يصبح طبيبا ويقرأ كل ما كُتب عن الملارْيا ـ قال جونْ مازحا ونحن نغادر الكنيسة.

كان يوما سعيدا. ممسكةً بيد أمها، كانت ديلْيا بدورها ترتدي ملابس بيضاء، وتنورة واسعة من الشّف وتزين شعرها بالأزهار. أخذتْ الخاتمَيْن إلى المذبح بعناية وأناقة. تأثرتُ وأنا أراها تشعر أنها مهمة للغاية.

أما مارْغاريتا، فيما يخصني، فكان بإمكانها أن ترتدي قميص النوم وكنت سأراها جميلة أيضا. بما أنها كانت أرملة، فإنها لم ترتد ثياب العروس، لكنها ارتدت ملابس بيضاء كما تقتضي العادة. كانت الكنيسة مزينة بالأقحوان والزّنْبق وتفوح بداخلها رائحة البخور. رؤيةُ من ستكون قريبا زوجتي وهي تدخل عبر الصحن الأوسط، تمشي وحدها بتثاقل نحو المذبح، من دون خمار ولا ادعاء بكارة، مرفوعة الهامة، شعرها مضفور حول رأسها، تزينه بورود بيضاء، حرّكَ هبّة متجمّدة في دمي. كان عليّ أن أتكأ على ذراع جونْ حتى أتحكم في ارتعاش رجليّ وأمنع جسدي من الهروب، وأخرج مهرولا قبل أن أرتكب ما بدا لي لحظتها خزْيا جسيما. خداعُ وضعيتي، في تناقض مع براءة وحسن نية من يستقبلونني، يصنعون سعادتي ويهنئون بعضهم لحسن حظي، تكادُ تدفنني تحت وابل من تأنيب الضمير. اغرورقت عيناي بالدموع، وفقد قلبي وتنفسي إيقاعهما. كان جونْ يبتسم وهو يربت خفيفا على ذراعي. من كانوا يروونني كانوا يظنون أنه كان يغمرَني تأثُّرُ العاشق. وبشكل مفارق، كان وحده الحب الذي أشعر به، بنفس الحدة تجاه مارْغاريتا هو ما سمح لي بمتابعة ما أقوم به حتى النهاية. وهي إلى جانبي، أثناء القداس، تحكمتُ في ذاتي وتملكتُ من جديد المبررات التي ولجتُ بها قلبَ المرأة التي، بكل إيمان وثقة في قدرتي على أن أجعلها سعيدة، عبّرتْ عن موافقتها وإرادتها في أن تكون معي إلى يفرق بيننا الموتُ.

عند منتصف الظهيرة، أخبرنا خوسي أنطونيو أن الخيل والدليل كانوا جاهزين لأخذنا إلى «لا غلورْيا»، مزرعته في خينوتيغا. كان علينا أن نغادرا مبكرا حتى لا يدركنا الليل ويلحق بنا الظلام. انطلقنا وسط المرح التقليدي في ماتاغالْبا، وكان يضم جوقة ظريفة من القرية بها مجموعة من عازفي الكمان والقيثارة من المولدين الذين كانوا، لغرابة الأمر، يؤدون قطعا موسيقية من نوع مازورْكا وبولْكا.

كانت روحي قد انتعشت خلال الحفل بفضل ويسكي اسكتلندي كان هدية من بوتير. واستطاع مرحُ الاحتفال أن يعيدني إلى الحاضر وإلى مارْغاريت، التي كانت تبدو سعيدة حتى أنني انغمستُ في هالة الفرح التي تنبعُ من كل كيانها.

وفي طريقنا نحن شهر العسل، عدونا على صهوتي جوادين وسط أشجار الصنوبر والتلال. وسرعان ما فسح الصباحُ الذي نعمنا به أثناء الحفل المجال لسماءٍ ملبدة بسحب سوداء كانت تلتهم الزرقة جرعات منذرة بوابل مطر أثناء المساء. كان علينا أن نسرع. كنتُ فارسا أكثر حنكة من مارْغاريتا، لكنها لم تكن أقل شجاعة مني. كنتُ أخفف السرعة فتهمزُ الفرس وتتحدّاني. قليلة هي الأشياء التي يمكن أن تضاهي منظر عشيقيْن يمتطيان فرسيْن يمشيان حُضْرا.

وصلنا إلى «لاغْلويا» نضحكُ وقد اهتاجت أحاسيسنا من الريح، والسرعة والخطر. خولْيو، وكيلُ المزرعة، الذي كان شابا يتمتع بفعالية وأناقة رئيس خدم من باريس، تكلف بأمتعتنا وقدم لنا شراب ليمون بارد. بعد ذلك، أخذنا عبر طريق قروية إلى كوخ بني قرب النهر الذي يعبر المزرعة. رأينا مسحوريْن تلك البناية الصغيرة الرائعة التي تتكون من شرفة تطل على الماء ومنها يُرى شلال لم يكن بعيدا من هناك. كان مسقطَ ماءٍ متوسط الحجم، صوتُه أقرب إلى الهمس منه إلى هدير سيل جارف. داخل الغرفة البسيطة، حيث كان السرير معدا بعناية مع ملاءات بيضاء وعدة وسادات، أشعل خوليو لأجلنا شموعا عطرية وأرانا المائدة المحضرة بساندويشات وقنينة نبيذ أحمر فرنسي من غلة جيدة، كان هدية من مضيفنا. خرجنا لنرى النهر والغروب. سألَنا خولْيو إن لم نكن نرغب في شيء آخر ثم انسحب بعد أن قدما له تشكراتنا التي يستحقها. بُعيْد ذلك، بدأ المطر ينزل. كان مطرا قويا ومنعشا. جالسةً فوق صخرة قبالة النهر، لم تتحرك مارْغاريتا. رفعتْ رأسها وتركت الماء يغسل غبار الطريق العالق بجلدها وشعرها. حدوتُ حذْوها. بقينا لمدة طويلة تحت المطر. كنتُ أتساءل ما الذي ستفعلُه هي، هل ستدخلُ إلى الغرفة بملابسها المبلّلة؛ إن كان عليّ أن آخذ المبادرة وأتعرى هناك في الشرفة بالضبط. رأيتُها ببرودة، تنظرُ إلي وبسرعة خلعتُ البنطال والقميص وبقيت بملابسي الداخلية. كان مشهدا مضحكا لأننا لم نكن نتكلم. الصوت الوحيد كان هو وابل المطر، لكننا كنا ننظر إلي بعضنا بمزيج من المكر والرغبة. حدتْ حذْوي. بقيتْ ترتدي سروالا تحتيا وقميص نوم، ثم دخلت مهرولة إلى الغرفة. نشّفنا بعضنا البعض بالفوطات التي كانت مطوية فوق السرير.

امتزج سائل بذلك الحب الهائل الذي كانت توحي لي به محترقا برغبتي الدفينة، وسيطر تماما على أفكاري. عرّيتُها وأنا أرتعش، في صمت، أقبلها، أنظر وأتحسس، أخيرا، نهديها البارزيْن، المكتنزيْن المُدوّريْن، وجلدها الدافئ، الحريري، المبلل بعض الشيء. فكرتُ في التماثيل، وفي اللوحات العديدة لنساء ألهمن كبار الرسامين عبر القرون. الخصْرُ، والساقان، وكل ملمح وانحناء كان فتنة من وميض وردي تحت الضوء الذهبي المنبعث من الشموع. انغمستُ فيها، بين ذراعيها اللذين يعانقاني، ويديها الدقيقتين اللتين تحلقان فوق ظهري كأنهما جناحي طائر يداعب موجة، وينْقُب دون عجلة من أمره. سنواتُ عزوبتي القسرية كانت تستعجلني، لكن هي كانت تهمس لي بأن أتصرف بتؤدة؛ فجعلتني أقبلها كاملة، من رأسها إلى أخمص قدميها. عندما دسستُ رأسي في فرجها، أنّتْ، وبيديها الناعمتيْن وجهت حركاتي وأجبرتني على البطء والتلذُّذ، كما لو أن الوقت لا يهم وكما لو كانت هي قرص عسل ينبغي أن أحرّك فيه كل نُخْروب حتى أفرغه من حلاوته. جعلتها النشوة تنحني مقوسة بكاملها، ترتعش، ترجّ جسدها، فامتزجت آهاتُها بالضحك والبكاء، وتمسكت يداها بعنقي. ولجتُ مهْبلها المبلل وتهاديْنا أيضا على مهل. كان داخلُها ساخنا، ضيقا وعميقا. لم أستغرق وقتا طويلا. مستحيل. انفجرتُ فسرى في كامل جسدي دوارُ نشوةٍ في غاية القوة.

الفصل الثالث والأربعون

بقينا في «لاغْلويا» مدة يومين جميلين. سبحنا في النهر، مارسنا الحب تحت الشلال، تجولنا على صهوة الخيل عبر المزرعة، أكلنا رجْل أيّل ورقائق، وشرحتُ لماريا، الطباخة، كيف تحضر البيض المخفوق ليكون هشا. كانت امرأة شابة مبتسمة. قد تظنني غريب الأطوار وأنا أحشر نفسي في أمور عملها، لكنها تقبلت تعليماتي بحكمة.

بعد عودتنا إلى أبّانْتي، استقررنا على راحتنا في سعادة البقاء جنبا إلى جنب. وجدتُ سهولة في تصريف الأفعال بضمير الجمع، والمشاركة في اتخاذ قرارات تخصّ تربية ديلْيا. منذ زواجنا، كنا نعيش في البيت ذي الدرابزين البيضاء. وكي تُؤشّرَ على حياتها الجديدة، قامت مارْغاريتا بتغيير كل قطع الأثاث، باستثناء بعض منها كانت قديما في ملك أسرتها وتركتني أصنع مع رامون كراسي، وموائد، وأسرّة ورفوفا من الأكاجو، والأرز، والصنوبر وأنواع أخرى من الأخشاب المختارة. كما حرصتْ على تغيير الأرضيات الخشبية، والستائر وإعادة تهيئ أجزاء الطابق العلوي لخلق مزيد من الغرف لأنها كانت تنوي تكوين أسرة متعددة الأفراد. وتحول منزل «شارع التجارة» إلى مصحة أمارس فيها الطب وإلى مكتب لتسيير شؤون المَزارع.

بعد سنة وبضعة شهور ازداد ابننا الأول، جورْج. لم يكن لا بالنسبة لمارْغاريتا، ولا بالنسبة لي، هو أول ابن من لحمنا ودمنا، لكن ابنا نُرزق به يجسد الحب بين رجل وامرأة، يجعله أمرا محسوسا ويخلق شاهدا على هذا الأمر. ومع كل ابن يولد من زواجي بمارْغاريتا ـ وكانوا ستة في المجموع ـ كانت فجوة أبنائي التسعة الآخرين تصبح أكثر عمقا. منذ موتي الأول، كان حاضري ينطوي دائما على خلفية الماضي. في فرنسا، ربما يكون ابني غاسْتون اليوم دوقا، وربما مسؤولا عن قصر فو-بْرالانْ، ربما يكون أبا بدوره. وماذا يكون مصير بيرْت، ولْويزْ، وإبزابيل، وريناردْ، وليبونْتين ألينْ، وماري، وهوراس؟

بذلتُ قصارى جهدي في رعاية أبنائي النيكاراغويين، أحاول أن أغدق عليهم بالحب الذي لم أتمكن من منحه لأبنائي الآخرين، لكن ذلك كان استبدالا مستحيلا. فكل طفل ينبغي أن يحظى بالحب كما هو، وليس بوصفه تجسدا لتلك الوجوه المفقودة، التي أخشى أنني لن أتعرفها إن عدت لأراها بالصدفة مرة أخرى. لا، لا، لا، كنتُ أكرر مع نفسي، وأنا منزعج أمام فكرة عدم القدرة على تعرُّف أبنائي. نعم قد أتعرّفهم، يكفي أن أنظر إلى عيونهم لأتعرّفهم، كنتُ أُطمْئنُ نفسي دون اقتناع.

فوق المجرى الساحر لزواجنا، كان دمي يجري مليئا بالرواسب. كنتُ قلقا من ازدواجية حياتي وألوذ من نوبات تأنيب الضمير التي تجتاحني إلى صدر زوجتي الرحب المضياف. كانت تظن أنها تواسيني من «الحنين إلى الوطن» ومن خيبات التعامل مع أشخاص جاهلين، كانت نواياهم الحسنة تمنعني من لومهم على سوء العناية بأجسادهم.

تحت حكم المحافظين في غرناطة، كان البلد يزدهر. أُعدم واكرْ في الهندوراس في نفس السنة التي ازداد فيها ابني جورْج. أما المزرعة الصغيرة التي بدأتُ أشتغل فيها عند وصولي إلى ماتاغلْبا، فقد خصّصتُها للنباتات الطبية. قدمتُ طلبا إلى الحكومة فحصلتُ على خمسمائة قطعة أرضية وهناك أنشأت مزرعة بُنّ أطلقْتُ عليها اسم «منجمٌ أخضر». وكان اسما على مسمى. لم أصل إلى مناجم الذهب في كاليفورنيا مع فانْديربيلْتْ، لكني أصبح في النهاية أول مُزارع بُنّ حصل على ترخيص بتصدير هذا المنتوج بعد جمع الغلّة. وبالنسبة للمنطقة، سيكون البُنّ منجما أخضر حقيقيا.

جاء عدة أجانب خلال تلك السنوات. وكنا نحن القدامى نتكلف باستقبالهم ضمن الجالية ونطلعهم على عادات البلد وخصوصياته.

بعد زفافنا بقليل، قرر جونْ في الأخير أن يطلب لورينا للزواج. أخذتْ ما يكفي من الوقت لتقبل طلبه ولم تفعل ذلك إلى بعد أن اتفقا معا على أن تقضي جزءا من الوقت في ماتاغالْبا وجزءا آخر في غرناطة، وألا ينجبا أطفالا. بعد وفاة السيدة أليسْيا والجدة أورورا، قامتْ بتجديد البيت العائلي واستقرت بوصفها سيدة من سيدات ماتاغالْبا. كان كل أهل القرية

يحبونها ويقدرونها، لأنها أنشأت مكتبة صغيرة، وكورالا للأطفال المغنيين كما كانت ترعى الرسامين والشعراء. وكانت الصالونات التي تُقامُ في بيتها تُثْري الحياة الثقافية النادرة في المدينة. كانت لورينا تسافر إلى غرناطة كل ستة أشهر تقريبا. بعد الحريق، لم تنتظر طويلا لتعيد بناء بيتها وتوسيعه، وصيّرتْه فندقا ذا سمعة كبيرة، أطلقت عليه اسم «فرنسا الكبرى»، في تلميح إلى أهل غرناطة الذين كانوا يسمون بذلك الاسم البيت منذ فترة إقامتي في تلك المدينة. كان الفندق هو الإقامة المفضلة لدى الدبلوماسيين والأجانب الأثرياء.

الفصل الرابع والأربعون

تعجبُني الروايات لأنها لا تبدي أي اهتمام بسعادة شخصياتها. وهي عادة ما تنتهي حين تدرك هذه الشخصيات سعادتها. ليس هناك الكثير ما يقال عن الحيوات السعيدة. لمُدّة أكثر من عشرين سنة حاولتُ أن أكون سعيدا لكن الإحساس بالذنب كان ينبعث دوريا في ذاتي. كما يحدث مع الفصول، ومع الخريف. حينما تخترقُني شجرةُ حياتي بنظراتها، فتسقط أوراقها يابسة ومنكمشة على الأرض مهما حاولت أن أتحاشى ذلك. أرغبُ في المشي صامتا عدة مرات في اليوم. الكذب فنٌّ تمكنتُ من التحكم فيه باحترافية لا تقبل الشك، لكنه أيضا سكين ذو شفرة رقيقة يستوجب ذاكرة قوية، وألاّ تفلت من المرء إشارات في خضم التأثر أو حالات الغضب. أن يعيش المرء وهو يعتني بنفسه عمل كنود. أن أكون صادقا، وأفرغ ما في صدري كان غايةً رافقتني لسنين طويلة. وقد كتبتُ رواية أحاسيسي هذه وكل ما حدث في حياتي حتى أثبت رغبتي في تفسير ذاتي. وليس العفو هو ما يحفزني، بل لغزُ ماهية الكائن، ذلك الواقع المعقد والغامض الذي شكّل حياتي مقحما فيها الصدفة، فجعلني مشاركا في جريمة كما جعلني أصابُ بالملارْيا وبعد ذلك جلب مارْغاريتا حتى باب بيتي. فكم أملكُ من حياتي بكاملها؟ في الفلسفة المانوية، هناك مبدآن فقط: الخير والشر، الأبيض والأسود. أنا شخصية رمادية. حياتي الثانية، إلى أي حدّ تُبرّئُني من حياتي الأولى؟ العيش مع مارْغاريتا وحُبّها ينبغي أن يُحكم عليه بوصفه أمرا بعيدا عن هانْرييتْ وفاني. لا أريد أن ينزل الماضي بثقله على أبنائي، وحفدتي، وذريتي النكياراغويّة، لأن الإنسان الذي كانهُ جورْج شْوازولْ دو بْرالانْ وُلدَ من جديد من أحسن ما بذاتي وكان أكبر عذاب عاشهُ هو معرفة ذاكرة الآخر وتحمُّلها. جسدُ فاني الشاب يظهرُ في وعيي. أذكر نسيج جلدها تحت الملاءات، ثقل قدمها فوق ساقي، والأصوات الخفيضة التي تحدثها ليلا وهي تحلم. أذكر حرارة أحشائها وفتورها في ممارسة الحب بعينين مغمضتين، مستسلمة لي كأنه زهرة أو قط. حزنٌ، مثل موجة بحر تكبرُ، يتدحرجُ في روحي: أراها تصارع الألم أثناء عمليات وضع أبنائنا، تضعهم على مضض، منشغلة بنهديْها. تحتجُّ، لكنها تقوم بدورها. أنا لا أفهم كيف تصيبها الكآبة بعد الوضع، فتغمض عينيها ولا تريد أن ترى المولود الجديد. تقول إنها لا تملكه بعد أن يغادر بطنها. أنا لم أحمل قط تسعة أبناء تسعة أشهر بداخلي. ما أدراني أنا بما كانت تشعر به وهي تواجه في النهاية هذه الحميمية العميقة؟ لكني ألعنُها. أنعتُها بالأنانية، لكنها على حق. إننا لا نملك أي ابن من أبنائنا. هي تعرف ذلك وتحمي نفسها بالقسوة والنفور. لكنها تحرص على أن تحمل وتلد، لأن جسدها يطلب منها هذا الاستسلام الذي لا يدركه دمي ولا ذُرّيتي. ونحن شابين، بعد أن أحببنا بعضنا، كنا نظلّ في صالونها الصغير. نقدم الطعام لبعضنا البعض. نقرأ. هي تلهو بعضوي، وأنا أعبث بنهديْها. تلك المرأة لم تحتفظ لنفسها بأي شيء من ذاتها. عشقتني حتى فقدت عقلها أمام لا مبالاتي. كم من الحزن تثير في نفسي الآن كل رسالة كتبتْها هي ولم أقرأها! يؤلمني أنني حصّنتُ إدراكي بأسوار كي لا أسمع نداءاتها وعويلها وهي تطلب مني ألا أغير غرفتي وألا أتركها لوحدها أثناء الليل. كانت فاني امرأة رعديدة. في بداية زواجنا لم تكن تستطيع أن تنام إن لم تمسك بجزء من جسدي: يدي، قدمي بين قدميها، ظهري على ظهرها. مع مرور الوقت، كانت حرارتها تتعبني، فأهربُ إلى حافة السرير. تتبعُني. تلحُّ. مسكينة فاني، لم تعرف كيف تتصرف باعتدال، وتحتفظ بالحب. كانت تُبعثرُه كما لو أنها إن لم تفعل قد تنزلق وتغرق هي نفسها داخل تلك المادة اللزجة التي لا تتركها لتستمتع بالسلام. مسكينة فاني، غير واثقة من نفسها، كأنها كلب مدلل يلتصق بصاحبه، غاضبة، تنبحُ شكاواها، تتسكع ليلا أمام بابي. كنتُ أسمع خطواتها، طرقها الخفيف والمحتشم: تييوبالْدْ، تييوبالْدْ، دعني أدخل، أنا بحاجة إليك. كنتُ أدسُّ رأسي تحت الوسادة دون شفقة على قدميْها الحافيتيْن في برد الشتاء عندما كانت تتجول حزينة، يائسة. أراها شابة، ثم أكبر سنا بعد ذلك عندما ترهّل جسدها فكانت تعاني وهي تدخل جسدها في مشدّات ضيقة حتى لا أزدريها. كانت تأكل بدافع القلق، وحيدة في غرفتها دون رغبة في أن تتوقف عن ذلك لتحب نفسها بعض الشيء. كانت تكره نفسها لأنها لا تستطيع أن تستبْقيني، لأنها لا تدرك سمعي، ولا يدي، بل ولا حتى شفقتي. كانت تكتب لي حبها طيلة اليوم. عشرون رسالة كل يوم. أي جنون حب هذا الذي يدفع المرء ليكتب عشرين رسالة من عدة أوراق في يوم واحد؟ كانت تقسم لي أنها لن تكون كما

كانت، وتعدني بأكثر أشكال الخضوع والاستسلام خساسةً. أقرأ بعض رسائلها فأشعر بالقرف. كانت تجتاحني رغبة في أن أرجّها حتى تعود إلى ذاتها، كي لا تنحط أمامي وخصوصا أمام نفسها، لكني لم أفعل. اخترتُ اللامبالاة. رفضتُ أن أكلمها، رفضتُ أن أنظر إليها، رفضتُ أن يكون لها وجود وخشيتُ أن تصيب الأطفال بضرر. كانت تشتكي إليهم من جفائي فينظر إليّ الأطفال مندهشين. كان عليّ أن أشرح لهم ما يستحيلُ شرحُه. كيف نتحدثُ عن الحب الذي يؤدي الإسراف فيه إلى الاحتقار والصّد؟ فمنعتهم من أن يتحدّثوا معها، وأن يستمعوا إلى شكاواها وعتابها. ظننتُ أنني أتصرف لما فيه خيرهم وأنا أعزلهم عن تلك المجنونة أُمّهم. يا لروحي، ويا لعظامي! ما زلتُ أرى العينين الجاحظتين لفاني المضرجة بالدماء، وهي ما تزال تنظر إليّ بحب من لا تصدق ما تراهُ. هل أنت، هل أنت من يفعل بي هذا؟ مثل القيصر وهو يشير إلى الطعنات التي وجهها له بْروتس. عدم التصديق ذلك لا يكفُّ عن تأريقي، وهي تحبني بينما أنا متواطئ على قتلها. أنا واثق أنها توسلتني كي أوجه لها ضربة الرحمة. لم تقل شيئا، لكنها نظرت إلي ووافقت على ذلك، وسمحت لي بأن أضع حدا لعذابها المريع: المرأة الأخرى، عشيقتي الغادرة، تغرس مرة تلو الأخرى السكين في جسدها. لا أدري إن كانت فاني الآن تستطيع أن تسامحني، أو ربما تكون قد سامحتني في ذلك الموت الذي سأرافقها فيه عاجلا أم آجلا. ما جدوى السماح؟ إنه من باب الإهانة أن طلبُ السماح من شخص جُرّد من الحياة التي تمنحه القدرة على القيام بذلك.

من سيموت عندما تحين النهاية الحاسمة؟ منْ ممّن كنتُهُم سيموتُ، الأبيض، الأسود، الرمادي؟ لو كان السؤال ينطوي على جواب بسيط لكان في الأمر شك. أنا إنسان سيموت مرّتيْن، لكني لستُ شخصيْن؛ أنا نفس الشخص. حتى أنا لا أعرف كيف أشرح ذلك.

خاتمة

لم تعد هناك من صفحات أخرى من المخطوط الذي عُثر عليه ملفوفا ومحفوظا داخل علبة معدنية أنبوبية من البسكويت الدانماركي.

كان المهندسُ المكلف بهدم بيت جدّتي غْراثْييلا في ماتاغالْبا هو من نادى علي عندما عثروا على المخطوط. قال إنه بما أنني كاتبة فسأعرف ما أفعلُ. فكرتُ في بورخيس وصديقه، ماثيدونْيو فرناندیث. عثروا على قصيدة ماثيدونْيو، «إلينا بييامْويرْتي»، مخبأة في علبة بسكويت، سنوات بعد وفاته. وجدوا العلبة التي كانت تحتوي على مخطوط الدوق مخبأة في السقف المستوي للغرفة الرئيسية. (ابتسمتُ وأنا أتذكر أنني بدوري خبأتُ مرة أوراقا في السقف المستوي لحمام البيت). كان المهندس مهتما بعلبة البسكويت. «إنها قديمة فعلا»، قال لي. تمكَّنّا من تمييز التزيينات، لكن الكتابة التي كانت أحيانا في السطح امّحت تماما. في الداخل، كان المخطوط يتكون من ٤٨٠ صفحة من ورق الخوْشق، غير متجانسة، كتبت بالمداد وبخط واضح، مائل، ذي حروف طويلة وبارزة. قاوم المدادُ والورق عوامل الزمن جيدا بشكل لا يصدق. حسب موسوعة توملينسون، *Cylopaedia of Usuel Arts*، التي راجعتُها، كان حجم ٤٠×٢٧ سنتيمتر يمثل ورقا من نوع «فيل مضاعف»، الذي كان يصنع سواء في فرنسا أو في إنجلترا خلال القرن التاسع عشر. وكانت علامة الماء التي يحملها تشير إلى نوع القطْع الذي طُوي وفقها الورقُ. كان المخطوط يمثل بُسْتا كاملا وعلامة الماء عبارة عن «بوق صغير».

كانت أم جدّتي غْراثْييلا هي البنتُ الثالثة للزوجين مارْغاريتا شْوازولْ-بْرالانْ أرواوْث، من مواليد سنة ١٨٦٨. عاشت غْراثْييلا حتى بلغت مائة سنة. وقد حضر والدي عيد ميلادها وهو في سن الثمانين.

في العائلة وفي ماتاغالْبا، انتقلت حكاية الدوق شارْل تييوبالْدْ شْوازولْ-بْرالانْ من جيل إلى جيل. كثيرون، بما فيهم أنا شخصيا، نعْزو هذا الأمر إلى إعجاب عقلية أهل الريف بألقاب النبلاء. دوقٌ هارب في تلك القرية الصغيرة؟ لكن، الإشارات كانت تظهر وتعود للظهور بثبات عنيد. مؤرخون مثل إيدي كوهل أرااووثْ ـ كانت أسرته من جهة أمه مرتبطة بمارْغريتا ـ والمحققة الأمريكية كيمْ سْوانْ غوثْمانْ، المتزوجة بشخص من نيكاراغوا مرتبط بالعائلة، قاموا بأبحاث مستفيضة ووضعوا كتابات حول حكاية الدوق وأسطورته.

قبل قراءة المخطوط، كنتُ أجد صعوبة كبيرة لأفسر من بين أمور أخرى، كيف استطاع نبيل تلاحقه العدالة الفرنسية من أن يظهر في ماتاغالْبا، تلك البلدة الواقعة وسط الجبال، ملجأ المهاجرين إلى نيكاراغوا في القرن التاسع عشر، ويمنح اسمه لعائلة ممتدّة. كنتُ أتساءل لماذا، إن كان مُلاحَقا، اختار أن يحتفظ باسمه العائلي. هل كانوا فعلا يلاحقونه، أم أنه ظن نفسه آمنا فلم يرغب في التخلص من هذه العلامة الوحيدة لهويته؟ كما كان هناك من الناس من يظن أن الدوق ربما كان خادما محتالا استعمل الاسم ليضفي الشرعية على هذيان انتمائه إلى طبقة النبلاء، مستعينا في ذلك ببعض الأغراض الشخصية لسيده حملَها معه أثناء رحلته الطويلة من باريس إلى نيكاراغوا. لكن، لماذا يرغب رئيس الخدم، أوغوست شاربانتييه، أن يتقمص هوية شخص ارتبط اسمه بجريمة مدوية؟ لماذا يكون قد سافر إلى نيكاراغوا، مكان بعيد وضائع، ليكمل حياته؟ أما الاحتمال الثالث، قبل أن أطلع على رواية شْوازولْ نفسه، فكان يغريني: إن لم يكن الدوق، ولا رئيس خدمه، فمن كان يختبئ وراء ذلك الرجل الذي جعل الناس يعرفونه باسم جورْج شْوازولْ-بْرالانْ وقد ولدتُ أنا من ذريّته؟

لا يوجدُ قبرُ شْوازولْ دو بْرالانْ في مقبرة الأجانب في ماتاغالْبا، ولا في قرية ميتابّا، حيث يظنون أنه يمكن أن يكون. يُقال إنه توفي على إثر جلطة دماغية خلال يوم قنص رفقة ابنه جورْج. بعد أن هرع الابن إلى القرية لينشر الخبر، عاد رفقة من سيساعدونه إلى المكان الذي ظن أنه ترك فيه الجثة، لكن لا أحد تمكّن من العثور عليها. فهل عاد إلى فرنسا ليرى أبناءه الآخرين مختبئا وراء شجيرات قصر فو-بْرالانْ؟ هل مات وحيدا ضحية الندم والحنين؟ هل شغل في النهاية تابوته بجوار

فاني؟ رغم أنه يصعب تبرئته من الذنب، أظنُّ أن إعادة ابتكار شخصيته نحتتهُ وجعلت منه إنسانا مختلفا، قادرا على التخلي عن ظله، على فهم الممرات الخفية للشرط البشري وعلى الحب بكل سخاء. إن كان قد تمكن من الشعور بالبراءة من الذنب، فذاك أمر لن نعرفهُ. كما لا أعرف أيضا إن كانت مارْغاريتا قد اطلعت يوما ما على الماضي الحقيقي لزوجها، وأي أثر كان لذلك عليها. الأكيد أنه ضمْنَ ذريته من الإناث كانت هناك كثير من النساء القويات، من الرائدات في تبنّي مبدأ نهاية الخنوع وهنّ من المؤسسات له. إن حكايات الأجداد غالبا ما تكون بعيدة المنال. تنفلتُ كما ينفلت الدخان من مدخنة الزمن العالية. فيبقى إذن الخلاص بواسط الخيال؛ الإصغاء إلى الحكايات، ومتابعتها حتى الوصول إلى الواقع الذي برزت منه. أو نملك، كما هو حالي، حظ العثور على مخطوط مخبأ في علبة من البسكويت.

بيلاجْيو ٢٠١٥- ماناغْوا ٢٠١٨.

بيبليوغرافيا

Alfred J.Church, *The Laureate's Country. A description of places connected with the life of Alfred Lord Tennyson*, primera edición en *Centurry Magazine*, 1881 ; reimpreso por Forgotten Books, 2015.

Eddy Kühl, *Matagalpa Histórica*, edición del autor, 2002.

Eddy Kühl, *Matagalpa y sus gentes*, Fondo de Producción Cultural INVERCASA, 2000.

Eddy Kühl, *Choiseul Praslin en Nicaragua*, PAVSA, 2014.

Stanley Loomis, *A Crime of Passion*, J.B. Lippincot Company, Philadelphia and New York, 1967.

David Pinkney, *Decisive Years in France, 1840-1847*, Princeton Universitu Press, 1986.

T.J. Stiles, *The first Tycoon. The Epic Life of Cornelius Vanderbilt*, Alfred A. Knopf, 2009.

Enrique de Villalobos, *La Duquesa de Praslin*, Imprenta de D. Manuel saurí, 1847, (تمت رقمنتهُ من طرف غوغل) .

بالإضافة إلى عدة وثائق من المكتبة الوطنية الفرنسية، ووثائق كثيرة من مواقع على الإنترنت.

تنبيه من الكاتبة: رغم أن ما رواه أفرادُ العائلة، والمعطيات، والتواريخ بل حتى وصف المدن صحيح ومطابق للحقيقة التاريخية، فقد سمحتُ لنفسي «بحُريّة شعرية» في بعض الحالات وأنا أتخيل شخصيّة روايتي وعلاقاتها وقراءاتها في جزيرة وايْت.

تشكرات

هذا الكتاب يدين بكثير من الشكر إلى روح الإصرار والفضول التي كان يتمتع بها الباحث والمؤرخ إيدي كوهل من ماتاغالْبا. ففي فُندقه الجبلي، «الغابة السوداء» في ماتاغالْبا، فيما يشبه طابقا أوسط ساحراً حيث كانت تُعرض قطع مختلفة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فترة الهجرة الأجنبية إلى تلك المدينة، رأيتُ لأول مرة الصورة القديمة للدوق شْوازولْ دو بْرالانْ. تحدثتُ عدة مرات مع إيدي واستمتعتُ بحسن ضيافته وبحسن استقبال زوجته ماوْسي، في ذلك الفردوس الأخضر وسط الجبال الذي صانوه وحافظوا عليه لسنوات طويلة. كتُبهُ الدقيقة حول ماتاغالْبا، حول أهلها وتاريخها كانت مساعدة لا تقدر بثمن في إعداد هذه الرواية.

أشكر سيدة أخرى من ماتاغالْبا، دورا ماريا تييثْ، التي قدمتْ لي وثائق حول قضية شْوازولْ بْرالانْ ظلت تجمعها ضمن الأبحاث التي أنجزتْها لتحضير كتابها «الموتُ لدوّارة الريح». وبفضل أنْطوان جولي، سفير فرنسا في نيكاراغوا إلى غاية سنة ٢٠١٥، استقبلوني وتمكنتُ من ولوج المكتبة الوطنية الفرنسية حيث استطعتُ أن أطلع على جرائد وكتابات تعود إلى تلك الفترة.

كما أن دعْم، ونصائح وملاحظات سيرْخيو راميريثْ، وتحفيزات آنا كريستنا روسي، وقراءات لوتز كليشْ وملاحظات ماريو أورْتيثْشو قد ساهمتْ في أن تجعل من هذه الرواية عملاً ذا أسلوب أكثر تنقيحاً. وأنا مدينةٌ لهم لما أبدوه من سخاء بوقتهم وعطفهم.

ولكتابة هذه الرواية كنتُ بحاجة إلى صمت وتركيز يصعب الحصول عليهما في الحياة اليومية. لقد كنتُ محظوظة أيّما حظّ وأنا أستفيد من منحة من مؤسسة روكْفيليرْ مكَّنتْني كي أستمتع بإقامة لمدة شهر في فيلا سيرْبولوني في بيرجيو، إيطاليا. وفي نيكاراغوا، قدم لي صديقاي العزيزان خوسي أنطونيو وسونْيا بالْطودانو كل التسهيلات لأقضي بعض الوقت في جزيرتهما الصغيرة «لاغْلورْيا» في بحيرة نيكاراغوا. وقد كان كلا الفضاءيْن حاسم في بداية كتابة هذه الرواية وختْمها. كما أنني مُمتنة أيضاً لبيلار بالاسيا في بيلاجيو، وإلى خوليو وماريا اللذين رافقاني واعتنيا بي في «لاغْلورْيا».

وفي الأخير، أقدم تشكراتي لمُساعِدَتي أنْدْريا مارْغاريتا ديلْ كارمن، وإلى صديقي ووكيلي الأدبي ويلي شافيلْزون لحكمته وإمكانية اللجوء إليه في كل وقت وحين. كما أعرب عن امتناني لبارْبارا غراهام وإلى ناشريَّ الرائعيْن إلينيا راميريث وألْبرْطو دْياث.

كما أتقدم بشكري للمساعدتيْن المنزليتيْن، ياديرا مونْيوثْ وآنا خيرونْ، لما قدمتاه لي من فناجين قهوة وكؤوس نبيذ في فترات المساء. إلى شارْل كاستالْدي وإلى أبنائي وأصدقائي، الذين أشكرهم لأنهم رافقوني وتحملوا فترات انعكافي وشملوني بحبهم ومتعة صحبتهم أثناء هذا المسلسل.

ولا يفوتني أن أنهي هذه التشكرات دون أن أذكر قارئاتي وقرائي الذي جعلوني من خلال رسائلهم وتعليقاتهم أشعر بأن مهنة الكتابة وخلق العوالم أمر يستحق العناء.

ترجمة ماجد الحيدر، مجلة الحوار المتمدن، العدد ٣٠٨٦، ٢٠١٠. (المترجم)

عن المترجم

سعيد بنعبد الواحد

- مترجم وباحث في آداب البرتغال وإسبانيا وأمريكا اللاتينية.

saidbenabdelouahed@gmail.com

* من آخر ترجماته:

١. أنطونيو لوبو أنتونيش، استُ يهوذا (رواية برتغالية حديثة)، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٩.

٢. هيلينا إرْيارتي: نداء الصمت (رواية كولومبية حديثة)، منشورات الربيع، القاهرة، ٢٠١٩.

٣. خوليو باريديس: أنطولوجيا الليل (مجموعة قصصية من كولومبيا)، منشورات الربيع، القاهرة، ٢٠١٩.

٤. بيرناردو غيمارايس، الأَمَة إزاوْرا (رواية برازيلية من القرن ١٩)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٩.

٥. كاميلو كاشْتيلو بْرانْكو، حب الضياع (رواية برتغالية من القرن ١٩)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٨.

٦. أفونْسو كْروش، الكتب التي التهمت والدي (رواية برتغالية حديثة)، منشورات ميسكيلْياني، تونس العاصمة، ٢٠١٨.

٧. فرناندو بيسوا، كواريشما، فكّاك الرموز (روايات بوليسية قصيرة)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠١٨.

M
مدارك